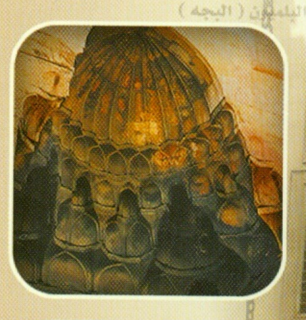
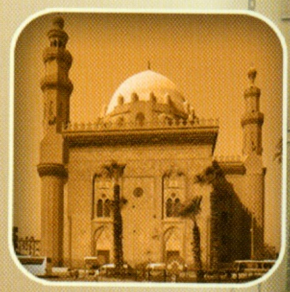
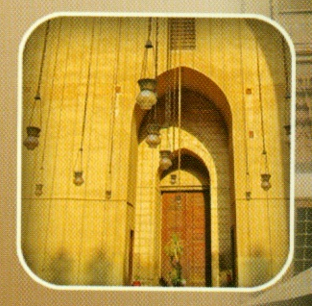
أطلس

تاريخ العصر المملوكي











تأليف وتصميم

سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث

العبيكان
obeikan



أطلس
تاريخ العصر المملوكي
تأليف وتصميم
سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث
العبيكان
obeikan
أستنبول
طرابزون
جورجيا
كرجستان
أنقرة
قرمان
مرعش
طرسوس
الرها
بلاد الأكراد
ديار بكر
تبريز
أذربيجان
همذان
الدولة الصفوية
إيران
فارس
الأهواز
العراق
بغداد
البصرة
دمشق
بلاد الشام
القدس
القاهرة
مصر
الصعيد
السلطنة المملوكية
أسوان
النوبة
أبو سمبل
البلميون (البجه)
دنقله
المدينة النبوية
الحجاز
الأشراف
مكة
السلطنة المملوكية
نجد
اليمامة
البحرين
هجر
جزيرة العرب
اليمن
صنعاء
حضرموت
الدولة الطاهرية
الدولة العثمانية
السلطنة المملوكية
الدولة العثمانية
إمارة دلغادر (ذي القادر ، القدر)
بلاد الكرج (جورجيا)
الدولة الصفوية
الدولة الطاهرية
ممالك نصرانية إفريقية
الدولة الجبرية (٧٨٥-٩٣٠هـ)

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المغلوث، سامي عبدالله

أطلس تاريخ العصر المملوكي./ سامي عبدالله المغلوث ـ ط١.

الرياض، ١٤٣٣هـ

٣٢٨ ص؛ ٢٠ × ٢٨سم

ردمك: ٩-٢-٤٠٢-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- دولة المماليك ٢- الأطالس أ.العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٨ رقم الإيداع: ١٤٣٣/٨٤٣٢

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥ ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على أبل

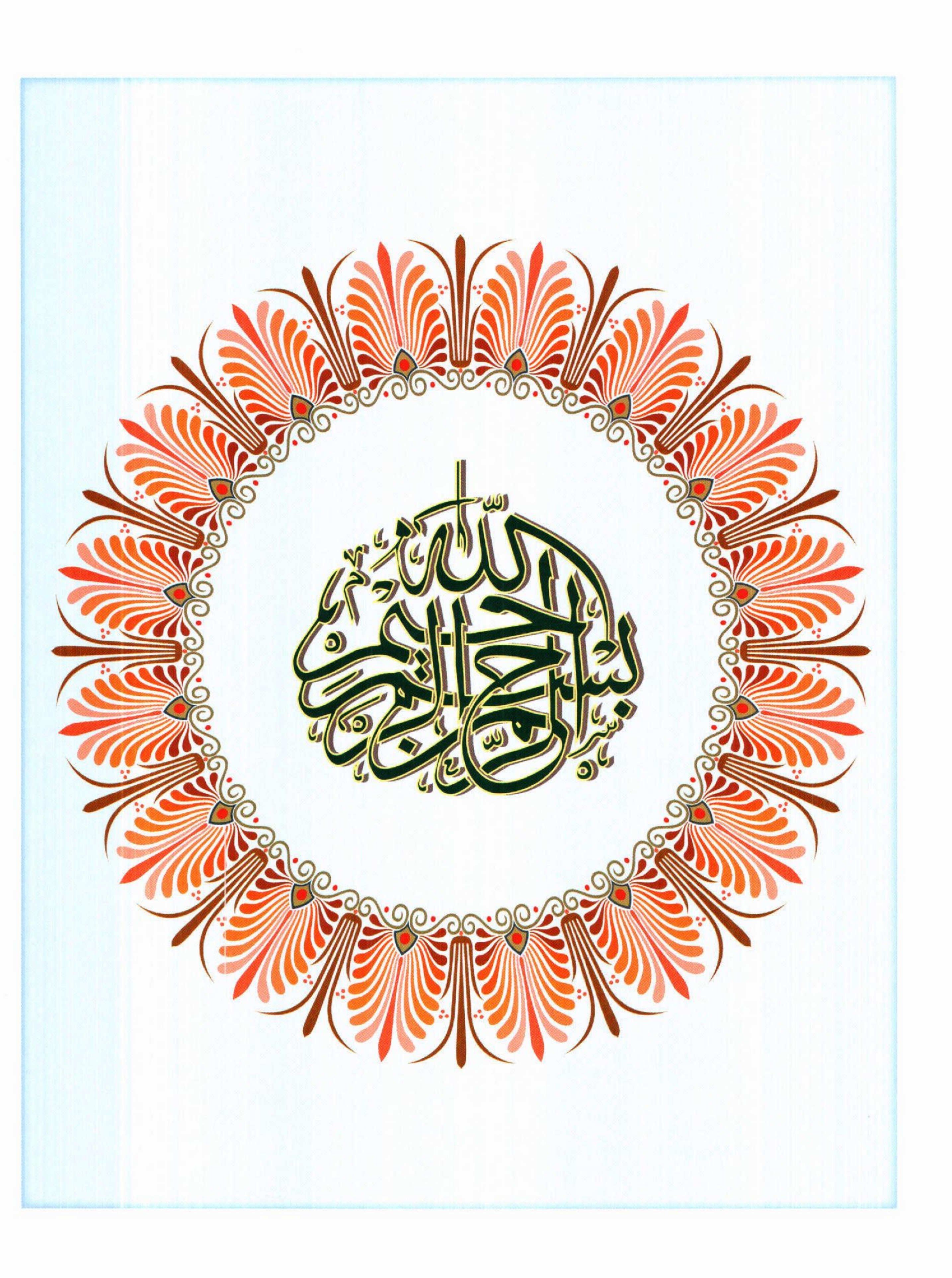
http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

جاء الإسلام بمبدأ المساواة والعدل بين الناس في الحقوق والواجبات بغض النظر عن اختلافهم في الجنس أو اللغة أو اللون أو الحرفة أو الغنى أو الفقر، وأقام ميزان التفاضل على أساس التقوى والعمل الصالح، وقد ورد هذا المبدأ العظيم في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ الحجرات: ١٣.

ومن معنى الآية الكريمة ما خطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، حين قال: " يا أيها الناس، ألاَ إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعَربي على عجمي، ولا لِعجمي على عربي، ولا لأسودَ على أحمرَ، ولا لأحمرَ على أسود إلا بالتقوى".

وظاهرة حكم المماليك في الدولة الإسلامية من الظواهر الغريبة التي ندر حدوثها في التاريخ، وهو تأكيدٌ على إيمان المسلمين بأن ميزان التقوى في الإسلام هو الفيصل في هذا الصدد؛ ولقد كانت الأحداث التي سبقت حكم هذه الفئة من المماليك (الأرقاء البيض) حكام مصر وبلاد الشام ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ، قد مهدت لها طبقاً ووفق سنن الاجتماع البشري وقواعده، مجموعة من العوامل- انظر ص ١١ - ١٢، من هذا الأطلس- . حيث من المتعارف أن نظام الرق كان معروفاً لدى شعوب الأرض آنذاك، ومنهم العرب، وكان مصدره التقليدي الأسر في الحروب، والقرصنة والاختطاف من البلاد النائية والبدائية؛ ولا سيما في فترات المجاعة والكوارث الطبيعية.

وعندما بُعِث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو النعمة المهداة، وجد نظام الرق أحد أهم دعائم الاقتصاد في المجتمع الجاهلي، فوضع الإسلام لتصفيته تشريعات متدرجة، كفيلة بتصفيته: أغلق أولاً باب الرق فيما سوى الحروب التي كانت خاضعة لقانون المعاملة بالمثل، وحرم الاسترقاق بالاختطاف والقرصنة ومختلف أساليب التعدي، ثم كفل للأسرى - الرقيق الحربي - مجالاً واسعاً إنسانيًا، يتمتعون فيه بحريتهم الدينية والفكرية والعلمية والإنتاجية، وحقوقهم البشرية زواجاً وطلاقاً وإنجاباً وكسباً، وهو ما لم توفره أمة من الأمم للأسرى على مدار التاريخ؛ كما فتح لتحريرهم من الرق أبواباً أخرى لم تفتحها لهم أمة أبداً، عتقاً بمختلف الكفارات، وعتقاً إذا اعتدي عليهم بالضرب أو اللطم، وعتقاً بالتطوع والفداء، والمن والمكاتبة. وسار التشريع الإسلامي في هذا المجال إلى أبعد الحدود، فجعل هزل العتق جدًّا؛ حفاظاً على كرامة الأسرى وحماية لهم من الهزل و السخرية. ولو استمرت أحوال المسلمين طبقاً لما شرعه الإسلام في هذا المجال، لصفي الرق في وقت مبكر من تاريخ الإنسانية[١].

ولكن طبيعة الأوضاع في العصر العباسي مهدت إلى جلب هذه الفئة للدولة الإسلامية منذ عهد الخليفتين

---

١ - عبدالكريم محمد مطيع الحمداوي، مقدمة كتاب «تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك» للمؤرخ نجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي الطَرَسوسي.

المأمون وأخيه المعتصم، حتى أصبحت هذه الفئة هي القوة الضاربة في العهد الأيوبي، ولاسيما في عهد الملك الصالح أيوب ومن تبعه من أمراء البيت الأيوبي.

وحينما تعرضت الأمة الإسلامية للغزو المغولي بقيادة (هولاكو)، وآل الأمر إلى السقوط المخزي لعاصمة الخلافة العباسية (بغداد) في أيديهم سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٨٠ م، ضج السهل والجبل من كثرة ما أريق من دماء المسلمين، وأشفق المؤرخون من هول ذكره، وفي كل مرة زحف - ويزحف - فيها المغول وجحافل الصليبيين، وحلفائهم الأرمن والحشاشين الباطنية؛ يعملون على قذف الرعب، واستلال روح المقاومة من النفوس، ولم يوقف زحف المغول الأصفر إلا هتاف: "وا إسلاماه"، الذي تردد مرة في بطاح عين جالوت على أيدي المماليك الأتراك، علماً بأن الصليبيين ما زالت بقاياهم جاثمة على الساحل الشامي على الرغم من الضربات الموجعة التي أنزلها عليهم الأتابكيون الأتراك والأيوبيون الأكراد من قبل، ولكن روح التواطئ مع المغول ظل هدفاً للصليبيين ومن دار في فلكهم؛ لوأد البقية الباقية من أهل السُّنَّة في المنطقة- ويأبى الله إلا أن يتم نوره - فقد انتصر المماليك في عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠م، فدارت الدائرة على القوات المغولية التي سحقت ووقع (كتبغا) في الأسر، ثم قتل بأمر من السلطان المملوكي قطز، وتحطمت الأسطورة التي ذاعت بأن المغول قوة لا تقهر وراية لا تكسر، وجرى بعد ذلك تطهير دمشق وحمص وحماة وحلب وباقي مدن الشام من بقايا المغول والأرمن، وعوقب النصارى الذين دفعوا الثمن غالياً بسبب تعاطفهم السابق مع المغول، وما اقترفوه من آثام ضد الأهالي المسلمين زمن الاحتلال الصليبي، حيث وقِّعت كثير من الهدن مع الصليبيين في عهد السلطان بيبرس وقلاوون؛ لكن الصليبيين كانوا كثيراً ما ينقضون هذه الهدن.

وبعد أن فتح السلطان قلاوون طرابلس عزم على حصار عكّا؛ لكن المنية وافته، فخلفه ابنه الأشرف خليل الذي اجتمعت له جيوش مصر وبلاد الشام سنة ٦٩٠ هـ - ١٢٩١ م، فحاصر عكّا حتى فتحها، وفر الصليبيون منها، ثم واصل الأشرف خليل مهامه في تطهير ما تبقى بأيدي الصليبيين، مثل: صور وحيفا وعتليت وصيدا وأنطرسوس، وبهذا قُضِيَ نهائيًّا على الوجود الصليبي في بلاد الشام، بل إن المماليك لم يقفوا عند هذا الحد فقد واصلوا نفسهم البطولي للذب عن ديار الإسلام والمسلمين، ففي بداية القرن الثامن الهجري (٢ رمضان ٧٠٢ هـ)، حقق الجيش المملوكي نصرًا آخر مؤزرًا على المغول في مرج الصُّفَّر عند قرية (شقحب) قرب دمشق، التي شارك فيها شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية - رحمه الله - فتوقف بذلك المد المغولي عند العراق وفارس. ولم يقف المماليك مع المغول عند هذا الحد بل وقفوا ضد تيمورلنك في حملاته الطائفية سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠م، على بلاد الشام بعد أن هاجمها بذريعة وقوف أجدادهم مع معاوية بن أبي سفيان ضد جيش علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - [1].

١ - انظر ص ١٨٤ من هذا الأطلس.

وهكذا، فبالقضاء على الصليبيين وبزوال الخطر المغولي على بلاد الشام ومصر، أصبح لدولة المماليك شأن عظيم في السياسة الدولية خصوصاً في عهد سلطانها الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة.

لقد أحيا حكام المماليك بعد سقوط بغداد، شخصية الخلافة العباسية اسميًّا، حينما نقلوها من بغداد إلى القاهرة، وأحيوا شعائر الدين في الدولة، وأقاموا المنشآت الدينية، وشجعوا العلم والمعرفة، وأصبحت مصر وبلاد الشام في عهدهم مركزاً للتجارة العالمية، والطريق الرئيس لتجارة الشرق، وبوابة العبور إلى القارة الأوروبية، ولعل الثروة المالية التي تحققت في أيدي السلاطين المماليك خلال هذه المدة خير ما يؤكد ذلك.

وعلى الرغم من الأحداث الجسام التي وقعت في العصر المملوكي المتمثلة في الغزو المغولي، وتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، كانت الدولة المملوكية موعودة بحدثين عظيمين آخرين:

أولاً، البدايات الأولى لحركات الاستعمار الغربي تحت ذريعة ما يسمى بالكشوف الجغرافية، فبعد أن اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م لتطويق بلاد المسلمين والوصول بتجارة أوروبا إلى بلاد الهند ما أضر بالمصالح التجارية الإسلامية، ولاسيما التجارة المملوكية، فقد كان لزاماً على المماليك أن يتصدوا لهذا الغزو الصليبي الجديد، الذي تمثل في البرتغاليين الذين بنوا قلعة (يسوع) لنشر النصرانية في (مُمباسا)، و بنى فاسكو دي غاما منارة عليها الصليب في مدينة (ماليندي)، وهذا يدل على أن الكشوف الجغرافية عندهم تعني محاربة المسلمين ونشر النصرانية. وواصل البرتغاليون زحفهم إلى جنوبي بلاد العرب، وتحالفوا مع الصفويين الشيعة على أبواب الخليج العربي، وقاموا بحروب صليبية جديدة حملت مجازاً اسم الاستعمار بمعنى الإعمار، وهي في واقع الأمر سلب ونهب خيرات شعوب العالم تحت تهديدات السلاح وإرغام الشعوب المقهورة على اعتناق النصرانية.

ثانياً، بروز الدولة العثمانية من قوة إقليمية في بلاد الأناضول إلى قوة عالمية كبرى استطاعت فتح القسطنطينية (ذلك الأمل الذي راود كثيراً من القادة المسلمين عبر التاريخ الإسلامي للفوز بالبشارة النبوية لفتحها)، ومد هيمنتها على أجزاء كبيرة من الشرق الأوروبي لتبدأ طرق أبواب أواسط أوروبا؛ ما أثار الفزع والهلع في نفوس الأوروبيين، علماً بأن الدولة العثمانية وقفت حامية للمنطقة العربية من أطماع المستعمرين الأوروبيين حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

لقد أخذت دولة المماليك منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي تتعرض للتدهور الاقتصادي نتيجة كثرة الأوبئة والمجاعات والأزمات الاقتصادية والسياسية التي ألمت بها، وازدادت الأوضاع سوءًا بعد تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب عبر مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح، ثم كانت النهاية عندما هزم العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول السلطان المملوكي قنصوه الغوري الذي قُتِلَ في معركة مرج دابق

سـنة ٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م، ثم زحف السـلطان العثماني بقواته إلى مصر ودخولها سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧م، وخوض معركة الريدانية، تلك المعركة الحاسـمة ضـد السلطان المملوكي طومان باي وشنقه على باب زويلة، وبعد هذا النصر العثماني الكبير، طويت صفحات التاريخ المملوكي على الأرض، وأصبح أثراً بعد عين، حيث تنازل الخليفة العباسـي محمد المتوكل على الله عن الخلافة للسـلطان العثماني سليم الأول، وسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين، فأصبح السلطان العثماني سليم الأول منذ ذلك اليوم خليفة للمسلمين، وصارت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت سلطنة مملوكية.

لقد جاء هذا الأطلس (أطلس تاريخ العصر المملوكي) في ثلاثة أبواب رئيسة:

تنـاول البـاب الأول المماليـك البحريـة (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)، وتنـاول الباب الثاني المماليـك البرجيـة ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م، وتنـاول البـاب الثالـث النظـم والمنجزات الحضارية ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م، ثم ألحقنا هذه الأبواب بملاحق لإثبات المصادر والمراجع، وفهرس للعناوين والأبواب الخاصة بهذا الأطلس.

وأخيراً، وليس آخراً، أسـأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصـاً لوجهه الكريم، إنه سـميع مجيب: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٨٦.

سامي بن عبدالله بن أحمد المغلوث

الأحساء / المبرز

في ٢٥ / ١١ / ١٤٣٣ هـ

samimag13@gmail.com

جوال ٠٥٠٤٩٣٤٦٩٣

الباب الأول



المماليك البحرية

٦٤٨ - ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢م



أصـــل المماليـــك

المماليك في اللغة : هم العبيد أو الرقيق، وبخاصة هم الذين سُبُوا ولم يُسب آباؤهم ولا أمهاتهم. والمملوك، جمعه مماليك، وهو العبد الذي يُباع ويشترى. (العبد الذي سُبِي أبواه يعرف بالعبد القن وليس المملوك).

ومع أن لفظ المماليك بهذا التعريف يعد عامًّا على معظم الرقيق، إلا أنه اتخذ مدلولاً اصطلاحيًّا خاصًّا في التاريخ الإسلامي، وذلك منذ أيام الخليفة العباسي المأمون، والذي حكم من سنة ١٩٨هـ إلى ٢١٨هـ، وأخيه الخليفة المعتصم الذي حكم من سنة ٢١٨هـ إلى ٢٢٧هـ. ففي مدة حكم هذين الخليفتين استجلبا أعداداً ضخمة من الرقيق الأبيض عن طريق الشراء من أسواق النخاسة، واستخدموهم كفرق عسكرية خاصة، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم[١].

وبذلك ـ ومع مرور الوقت ـ أصبح المماليك هم الأداة العسكرية الرئيسة ـ وأحياناً الوحيدة ـ في كثير من البلاد الإسلامية. وكان أمراء الدولة الأيوبية بوجه خاص يعتمدون على المماليك، الذين يمتلكونهم في تدعيم قوتهم، ويستخدمونهم في حروبهم، لكن كانت أعدادهم محدودة إلى حد ما، إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحدثت فتنة خروج الخوارزمية من جيشه، فاضطر - رحمه الله - إلى الإكثار من المماليك، حتى يقوِّي جيشه ويعتمد عليهم، وبذلك تزايدت أعداد المماليك بشكل ملفت للنظر، وخاصة في مصر.

مستند تاريـخي

(وفي أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل حضر الإفرنج، وملكوا دمياط وزحفوا إلى فارسكور، واستمر الملك الصالح يحاربهم أربعة عشر شهراً وهو مريض، وانحصر جهة الشرق، وأنشأ المدينة المعروفة بالمنصورة ومات بها سنة سبع وأربعين وستمائة، والحرب قائمة، وأخفت زوجته شجر الدر موته، ودبرت الأمور حتى حضر ابنه توران شاه من حصن كيفا، وانهزم الإفرنج وأسر ملكهم ريدا وكانوا طائفة الفرنسيس. والملك الصالح هذا هو أول من اشترى **المماليك**، واتخذ منهم جنداً كثيفاً، وبنى لهم قلعة الروضة، وأسكنهم بها، **وسماهم البحرية**، ومقدمهم الفارس أقطاي).

عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ١، ص ٢٢، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٩٧٧ م.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ١٥.



مصادر المماليك (الرقيق الأبيض في العصر المملوكي)

مصادر المماليك: كان المصدر الرئيس للمماليك؛ إما بالأسر في الحروب، أو الشراء من أسواق النخاسة. ومن أكثر المناطق التي كان يجلب منها المماليك بلاد ما وراء النهر، وكانت الأعراق التي تعيش خلف هذا النهر أعراق تركية في الأغلب، وكانت هذه المناطق مسرحاً دائماً للقتال وعدم الاستقرار، ولذلك كثر الأسرى القادمون من هذه المناطق، وكثرت أسواق الرقيق هناك، ومن أشهر مدن الرقيق في ذلك الوقت كانت "سمرقند" و"فرغانة" و"خوارزم" وغيرها؛ لذلك كان الأصل التركي هو الغالب على المماليك، وإن كان لا يمنع أن يكون هناك مماليك من أصول أرمينية، ومن أصول مغولية، كما كان هناك مماليك من أصول أوروبية، وكان هؤلاء الأوربيون يعرفون بالصقالبة، وكانوا يستقدمون من شرقي أوروبا بوجه خاص . المرجع السابق.

منمنمة لجنود مماليك

إن الأمر الذي استحدثه الملك الصالح أيوب -وتبعه بعد ذلك سلاطين دولة المماليك- أنه كان لا يأتي إلا بالمماليك الصغار في السن، أي في مرحلة الطفولة المبكرة، وكان أكثرهم من بلاد غير مسلمة، وإن كان يحدث أحياناً أن يؤسر بعض الأطفال المسلمين غير الناطقين بالعربية، فلا يُعرفون، ولا يُعرف أصلهم أو دينهم، فيعاملون معاملة الرقيق.

تربية المماليك [1]: كان الملك الصالح أيوب -ومن تبعه من الأمراء- لا يتعاملون مع المماليك كرقيق؛ بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كانوا يقربونهم منهم؛ لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم؛ ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو المادة، حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب "الأستاذ" وليس لقب "السيد".

ويشرح لنا المقريزي - رحمه الله - كيف كان يتربى المملوك الصغير الذي يُشترى، وهو ما زال في طفولته المبكرة، فيقول: "إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلى من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية، ويُهتم جدًّا بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأً يمس الآداب الإسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عوقب". لهذه التربية المتميزة كان أطفال المماليك ينشئون عادة وهم يعظمون أمر الدين الإسلامي جدًّا، وتتكون لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي، وتظل مكانة العلم والعلماء عالية جدًّا عند المماليك طيلة حياتهم، وهذا ما يفسر النهضة العلمية الراقية التي حدثت في زمان المماليك، وكيف كانوا يقدرون العلماء حتى ولو خالفوهم في الرأي.. ولذلك ظهر في زمان دولة المماليك الكثير من علماء المسلمين الأفذاذ من أمثال **العز بن عبد السلام والنووي وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن حجر العسقلاني وابن كثير والمقريزي وابن جماعة وابن قدامة المقدسي** رحمهم الله جميعاً، وظهر أيضاً أعداد هائلة من العلماء يصعب حصرهم.

ثم إذا وصل المملوك بعد ذلك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال فيعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مستويات عالية جدًّا في المهارة القتالية، والقوة البدنية، والقدرة على تحمل المشاق والصعاب. ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، وحل المشكلات العسكرية، والتصرف في الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تماماً في المجال العسكري والإداري، وذلك بالإضافة إلى حمية دينية كبيرة، وغيرة إسلامية واضحة.. وهذا كله - بلا شك - كان يثبت أقدام المماليك تماماً في أرض القتال.

---

١ - د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية.

جدول سلاطين الدولة المملوكية أولاً: المماليك البحرية

م	السلطان	تاريخ الحكم
١	شجر الدر	٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م
٢	المعز عز الدين أيبك	٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠- ١٢٥٧م
٣	المنصور نور الدين علي بن أيبك	٦٥٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢٥٧- ١٢٥٩م
٤	المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩- ١٢٦٠م
٥	ركن الدين الظاهر بيبرس البندقداري	٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠- ١٢٧٧م
٦	السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن بيبرس	٦٧٦ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٧- ١٢٧٩م
٧	العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م
٨	المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩- ١٢٩٠م
٩	الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠- ١٢٩٣م
١٠	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرة الأولى	٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣- ١٢٩٤م
١١	العادل كتبغا	٦٩٤ - ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤- ١٢٩٦م
١٢	المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦- ١٢٩٩م
١٣	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرة الثانية	٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٩- ١٣٠٩م
١٤	المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩- ١٣١٠م
١٥	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرة الثالثة	٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣١٠- ١٣٤٠م
١٦	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١ - ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠- ١٣٤١م
١٧	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م
١٨	الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	٧٤٣ - ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢م
١٩	الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	٧٤٣ - ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢- ١٣٤٥م
٢٠	الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦ - ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥- ١٣٤٦م
٢١	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	٧٤٧ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦- ١٣٤٨م
٢٢	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد المرة الأولى	٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٨- ١٣٥١م
٢٣	الصالح صلاح الدين بن محمد بن الناصر محمد	٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١- ١٣٥٤م
٢٤	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد المرة الثانية	٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤- ١٣٦١م
٢٥	المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	٧٦٢ - ٧٦٤ هـ / ١٣٦١- ١٣٦٣م
٢٦	الأشرف أبو المعالي شعبان بن حسين	٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣- ١٣٧٧م
٢٧	المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	٧٧٨ - ٧٨٣ هـ / ١٣٧٧- ١٣٨١م
٢٨	الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	٧٨٣ - ٧٨٤ هـ / ١٣٨١- ١٣٨٢م

٩٢٣ هـ	معركة الريدانية وسقوط دولة المماليك
٩٢٢ هـ	معركة مرج دابق بين المماليك والعثمانيين
٩١٥ هـ	هزيمة البرتغاليين للمماليك
٨٠٣ هـ	هزيمة المغول بقيادة تيمورلنك للمماليك
٧٨٤ هـ	بداية عصر المماليك البرجية
٦٩٠ هـ	طرد الصليبيين من آخر معاقلهم ببلاد الشام
٦٨٠ هـ	هزيمة المماليك للمغول
٦٧٥ هـ	معركة البلستين (البستان)
٦٥٨ هـ	انتصار المماليك على المغول في عين جالوت
٦٤٨ هـ	قيام دولة المماليك (المماليك البحرية)

الخط الزمني للعصر المملوكي

قيام دولة المماليك[١]

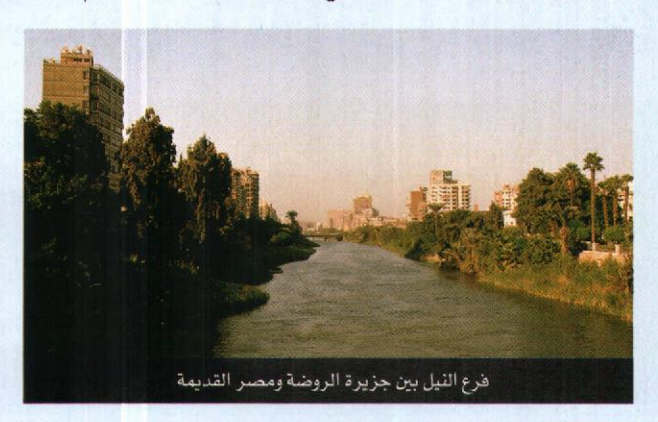
في عهد الدولة الطولونية اتخذ حكامها جنوداً من المماليك (الرقيق الأبيض)، وسار على هذا النهج من بعدهم الأخشيديون والعبيديون.

وفي عهد الدولة الأيوبية استكثروا من شراء هؤلاء المماليك فاشتروا منهم أعداداً كبيرة، وعنوا بتدريبهم وتنشأتهم ليكونوا عدة لهم وسنداً. وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجري (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) ازدياد نفوذ المماليك في شتى الإمارات والدول الإسلامية في الشرق الأدنى، ومن جملتها مصر.

وكان معظم جيش أسد الدين شيركوه الأيوبي، من المماليك والأمراء النورية والأسدية، وبعد وفاة شيركوه سار على خطاه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كوّن جيشاً من المماليك الأسدية وسماه (الصلاحية)، نسبة إليه، و(الناصرية) نسبة إلى لقبه، وهكذا توالى على هذا النهج من جاء بعده من السلاطين الأيوبيين، حتى أضحى بيد هؤلاء المماليك النفوذ القوي في تعيين السلاطين وعزلهم.

وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل - بعد الله تعالى - في تكوين فرقة جديدة من المماليك قدر لها أن تنهض بدور خطير في التاريخ، هي **فرقة المماليك البحرية**. ويبدو أن الصالح نجم الدين أيوب أحس بفضل المماليك عليه في الوصول إلى سدة الحكم من ناحية، كما أحس بحاجته إلى قوة من المماليك ينتمي أفرادها إليه ويرتبطون بالولاء له، بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى، من ناحية أخرى[١].

أما عن سبب تسمية هذه **الفرقة بالبحرية**، فمن المرجَّح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب **جزيرة الروضة** في بحر النيل مركزاً لهم.


فرع النيل بين جزيرة الروضة ومصر القديمة

جزيرة الروضة: هي إحدى ثلاث جزر في نهر النيل بين القاهرة والجيزة، ترتبط في وقتنا المعاصر بالقاهرة بخمسة كباري، وبالجيزة بكوبريين.

وشارع الروضة هو الذي يربط كوبري الجيزة (عباس) غرباً بكوبري الملك الصالح شرقاً، ويقسم جزيرة الروضة إلى قسمين:

الجزء الشمالي ويسمى "المنيل" (أو منيل الروضة).

والجزء الجنوبي ويسمى "المماليك".

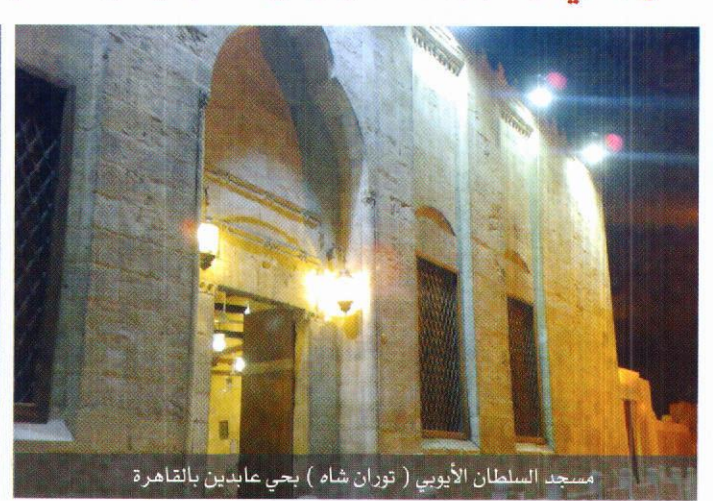
---

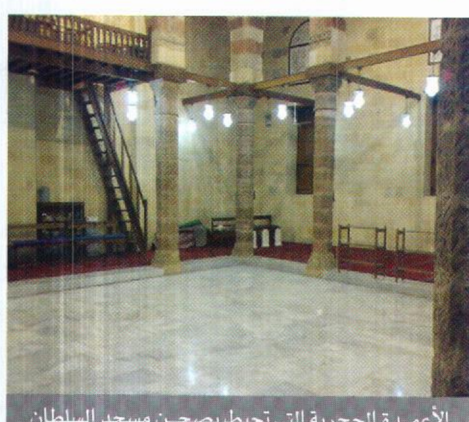
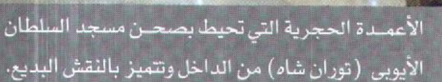
١ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

وفــي آخر حيــاة **الملك الصالح أيوب** هجمت الحملة الصليبية السابعـة على مدينة دمياط، يقودها لويــس التاسع ملك فرنسا سنــة ٦٤٧هـ، فرابط الصالح أيوب بالمنصـورة، وهناك أصيب بمرض شديد تفاقـم عليـه حتى مات -رحمه الله- فــي ١٥ شعبان ٦٤٧هـ، وأخفت جاريتـه أم خليل الملقبة بـ **(شجر الـدر)** خبر موتـه، وأظهرت أنه مريض ومنعت الناس عن زيارته، وظلـت توقع على المناشير والمراسيم حتـى جمعت قادة الجيش وأمـراء الدولة، وأطلعتهم علـى الحقيقة، واتفقت معهم علـى الإرسال لولده الكبـير الأمير **'توران شـاه'** وكان بالشام وقتها، وكان جافياً لأبيه، وأبوه ينقم عليه كثيراً لسوء أفعاله، وكان غرضهـم مـن استقدامه ضمـان ولاء الجيش للبيت الأيوبي، ولعدم اختـلاف الأمراء فيما بينهم، وبالفعـل جاء توران شــاه مسرعاً، وقاد الجيوش المصرية، وحقق انتصـاراً هائلاً على الصليبيين، وقتل منهم ثلاثين ألفاً، وأسر ملكهم لويس التاسع، وتم فداء الأسرى بمبلغ عشرة ملايين فرنك.

مقتل توران شاه[١]:

لما حقق توران شاه انتصاره الباهر على الصليبيين، استدار على زوجة أبيه وباقي قادة الجيش وكانوا جميعاً من المماليك البحرية؛ الذين قد أكثر من شرائهم الصالح أيوب، وترقوا في المناصب حتى صاروا من قادة الجيش، وكان توران شاه ينقم على أبيه هذه السياسة، ولعله هجّره إلى الشام بسبب ذلك، وكان يكـره هؤلاء بشـدة، وخطط للتخلص منهم، وبـدأ بإساءة معاملتهـم خاصة كبار قادتهـم، وشدد في محاسبة شجر الدر عن أموال أبيه وذخائره، وهذه الأمور جعلت شجر الدر تتآمر مع قادة المماليك على قتـل تـوران شاه قبـل أن يقتلهم هو، وبالفعـل هجموا عليه فـي قصـره في ليلة ٢٨ محـرم سنة ٦٤٨هـ، واعتـوروه بسيوفهـم وتفرق دمه بينهم، ثم تنـادوا فيما بينهم، وملكوا عليهـم الأمير **عز الدين أيبك التركماني**، وتلقب بالملك المعز، وكان ذلك بداية دولة المماليك ونهاية دولة الأيوبيين.


مسجد السلطان الأيوبي (توران شاه) بحي عابدين بالقاهرة



الأعمـدة الحجرية التي تحيط بصحـن مسجد السلطان الأيوبي (توران شاه) من الداخل وتتميز بالنقش البديع.

---
١ - موقع مفكرة الإسلام.

الملكة شجر الدر (أم خليل)

٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م (ثمانون يوماً)

بمقتل توران شاه سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م، انقرضت دولة بني أيوب من أرض مصر ، بعد أن حكموها نحواً مـن إحـدى وثمانين سنة . فأصبحَت السلطة في مصر والشام بعد ذلك في أيدي المماليك، فاجتمَع رأيهم علـى تنصيب زوجة أستاذهم سلطانة على البلاد، وهي من حيـث الأصل والنشأة أقربُ إلى المماليك؛ كما يقـول الأستـاذ الدكتور سعيد عاشور؛ ولذا اعتبرَها المقريزي أولَى سلاطين المماليك في مصر، وقال: إنها "أول مَن مَلَك مصر من ملوك الترك المماليك" .

وقـد أجمـع المؤرخون المعاصرون على أن شجر الدر كانت « خيرة، دينة، رئيسة، عظيمة في النفوس ». بل لقد وصفها بعضهم بأنها: « كانت أحسن تدبيراً من زوجها الصالح نجم الدين أيوب » .

ولكـن قيـام امـرأة في حكم المسلمين - كان غاية في صعوبة القبول بـه -. وقد أحست شجر الدر نفسها بالحـرج، فكانـت لا توقع باسمها على المناشير، وإنما جعل توقيعها (والدة خليل). وخليل هذا ولد كانت قد أنجبته من الصالـح أيوب، وتوفي في حياة أبيه. ونقش اسمها على السكة (النقود) في صيغة « المستعصميـة الصالحيـة، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليـل » . أما الخطباء في المساجد فكانوا يقولـون فـي الدعاء لها: (واحفظ اللهم الجهة الصالحة، ملكـة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية، صاحبة الملك الصالح)[١] .

ولكـن هـذه المحاولات لم تُفلح في صرْف الناس عن كونها امرأة، وبـدأَت الأحوال تضطرب، وخاصة في بـلاد الشام، وخرَج أُمراء الشام عن طاعتها، وتوجه بعضهم للهجوم على مصر، وطمَع بقايا الأيوبيين في حُكـم مصـر، ورأوا أنهـم أحـق وأوْلَى، ووصَـل الملك السعيـد حسن الأيوبـي إلى غزة، وانقسَمـت الدولة، فأصبحَت بلاد الشام في أيدي الأيوبيين، ومصر في أيدي شجر الدر والمماليك.

ولَم يَقبل الخليفـة العباسـي المستعصـم هذا الوضـع الجديد، برغم تمسـح (شجر الدر) بـه، وتلقبها بالمستعصميـة، وكتَـب إلى أُمراء مصـر: "إنْ كان الرجال قد عدمَـتْ عندكم، فأعْلِمونا حتـى نسيّرَ إليكم رجـلاً"! وظهـرَت المعارضة فـي صفوف المماليـك أنفسهم، فقـد انطلقَـت الألْسِنة باتهـام (شجر الدر) بالتهاون في قتال الصليبيين، والتساهل في إطلاقِ مَلِكهم وأسْراهم.

ولَم تَجِد (شجر الدر) وسيلةً للخروج من هذا المأزق سوى التنازُل عن السلطنة لأحد أُمراء المماليك، وأن تَحتفـظ بنفوذها الفعلي بالتزوج منه، ومشاركته في الحكم، فقَبِلت الزواج من وزيرها وأتابك العسكر عز الديـن أيبـك التركماني في سنة ٦٤٨ هـ بعد ثمانين يوماً من حُكمها، ومنذ ذلك الحين يبدأ التاريخ الفعلي لدولة المماليك البحرية[٢] .

---

١ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٨٢ - ١٨٣.

٢ - د. محمد عبدالحميد الرفاعي، حكم السلطانة شجرة الدر. موقع الألوكة .



عملة شجر الدر (أم خليل)

الوجه مكتوب عليه (والدة الملك المنصور).. أما الظهر (الإمام المستعصم - ضرب القاهرة)..

منتدى العملات والطوابع العربي

إن أول مـا قامـت بـه (شجر الدر) بعد تسلمهـا السلطة أن صفت الموقف مـع الصليبيين، ففاوضت لويس التاسـع ملـك فرنسا، وقائد الحملة الفاشلة، واتفقت معه على رحيله من مصر وتسليم دمياط، وذلك في يوم الأحد الرابع من صفر ٦٤٨ هـ الثامن من مايو ١٢٥٠ م، ونص هذا الاتفاق على الآتي:

(أن ينسحـب لويس من دميـاط ويردهـا إلى المصريين، وأن يطلق جميع أسرى المسلمـين، وأن يتعهد بألا يعود لمهاجمة سواحل بلاد الإسلام مرة أخرى، كما يدفع لها ثمانمائة ألفَ دينار فدية لنفسه وللأسرى الصليبيين، وعوضاً عما أتلفه في دمياط، ومقابل ذلك يتعهد المسلمون برعاية الجرحى من أسرى الصليبيين، وقيل أيضاً مقابـل أن يحافظـوا على بعض معدات الصليبيين التي سيضطـرون لإبقائها بمصر إلى أن يتمكنوا من نقلها، وجعلت مدة الاتفاقية عشر سنوات).

وبرغـم كل ذلـك فقـد اضطربت الأمور في مصر عامة والقاهرة خاصـة، وذلك احتجاجاً وأنفة من حكم امـرأة، وعمت الفوضى القاهرة، مما اضطر (شجر الـدر) إلى الأمر بإغلاق أبوابها منعاً لانتشار خبر هذه الاضطرابـات. وزاد مـن خطورة هـذا الوضع انضمام علمـاء المسلمين إلى العامة في هـذه المعارضة، وعلى رأسهـم الشيخ **عز الدين عبد السلام**، الـذي كتب كتاباً حول ما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة. كما لم يوافـق الخليفة العباسـي على توليها السلطة، وعيَّر أهـل مصر بذلك قائلاً في رده علـى رسالة من المماليك يطلبـون فيـه تأييده لحكمها: "إن كانت الرجال قـد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسـيِّر لكم رجلاً". وهدأت الأمور بتولي الأتابك عز الدين أيبك السلطة - كما أسلفنا-.

السلطان عز الدين أيبك

٦٤٨ - ٦٥٥ هـ

رأى المماليك البحرية الصالحية المؤيدين لـ (شجر الدر) أنه لابد لهم من حل لهذا الموقف العصيب، وقالوا: "لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة، ولابد من إقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه".

وزاد من اقتناعهم بهذا الرأي، خوفهم من خطر الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب، الذي استغل هذا الموضوع لصالحه، ورأى فيه فرصة سانحة للاستيلاء على مصر، فقام بالاستيلاء على دمشق وبعض نواحي الشام، مما أخاف المماليك فسارعوا إلى تزويجها من الأتابك **عز الدين أيبك التركماني** أتابك العسكر، وتنازلت له (شجر الدر) عن السلطة بعد ثمانين يوماً من حكمها. فأصبح عز الدين أيبك سلطاناً - ولو بالاسم- حيث إن (شجر الدر) "كانت هي المسئولة عنه في كل أحواله ليس له معها كلام.

ولقد وقع اختيار المماليك **لأيبك** لهذا المنصب لاعتقادهم بضعفه مقارنة بأقطاي وبيبرس، وأنه سيكون من السهل عليهم عزله متى ما شاءوا. وقد خاب ظنهم فيه، حيث أثبت أيبك أنه ليس بالحاكم الألعوبة، فمنذ بداية عهده بادر إلى اغتيال أكبر منافسيه وهو خوشداشة أقطاي الجمدار عام ٦٥٢ هـ (١٢٥٤م) وساعده في ذلك كل من قطز وبهادر وسنجر وعدد من المماليك المعزية، واضطر خشداشية أقطاي من المماليك إلى الفرار، ومنهم بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي، حيث لم يستطيّعوا مغادرة القاهرة التي كانت موصدة الأبواب، إلا بحرق إحدى الأبواب التي ظلت تسمى بالباب المحروق، وتابعوا هربهم نحو الشام وتفرقوا ما بين دمشق وحلب والكرك ودولة السلاجقة الروم [١].

وعند ذلك قام أيبك بمصادرة أموال المماليك الفارين، وتجريد من بقي منهم في مصر من سلطاتهم، ولم يفلح الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق والمنافس السابق لـ (شجر الدر) في مساعدتهم، فاضطروا للتوجه إلى المغيث عمر في الكرك. ولإبطال حجة الملوك الأيوبيين في الشام، ومطالبتهم بعرش مصر، قام أيبك بتولية الطفل الأشرف (موسى الأيوبي) السلطنة وهو في السادسة من عمره، وجعله شريكاً له في الحكم، فخطب باسمهما على المنابر وسكت العملة باسمهما.

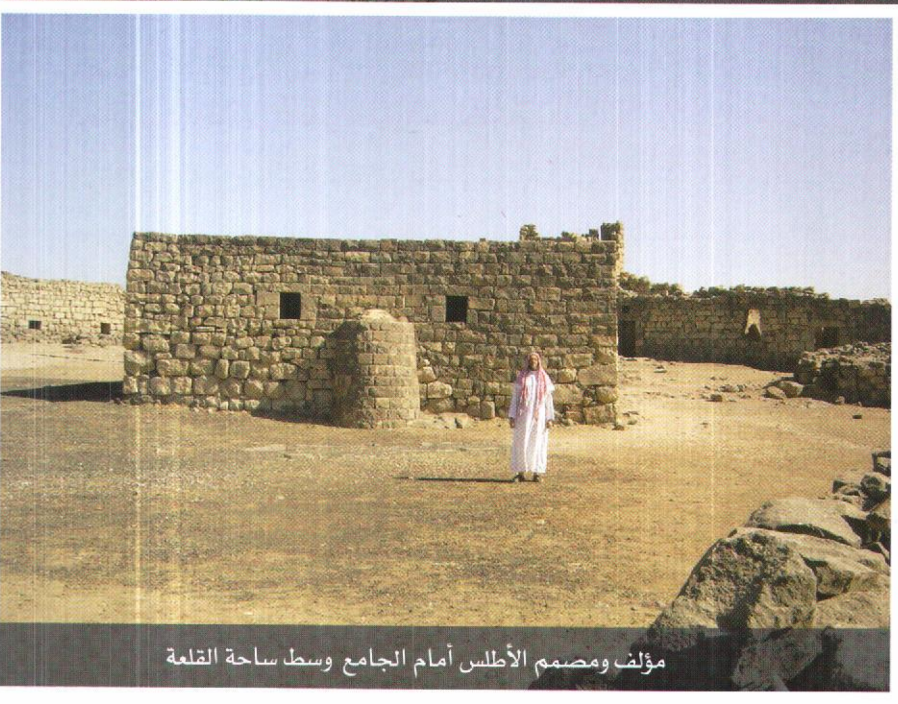
ولما لم تنطِل حيلته هذه على الناس، التجأ أيبك إلى **الاستعانة بالخليفة العباسي المستعصم بالله** في **بغداد**، ونصب نفسه نائباً له على مصر، ثم أخذ في الاستعداد للتصدي للملك الناصر يوسف، الذي كان قد كاتب الملك لويس التاسع في عكا، عارضاً عليه التعاون ضد أيبك مقابل تسليمه القدس للصليبيين- وكانت تحت حكم الأيوبيين-. ولما علم أيبك بهذه المفاوضات أرسل إلى لويس التاسع مهدداً بقتل أسرىَ الصليبيين الذين لديه، وواعداً إياه إن رفض عرض الناصر أن يقوم بتعديل اتفاقية دمياط لإعفائه من نصف الفدية المتفق عليها، وطلب منه بدوره أن ينضم إلى جانبه، فرد عليه لويس بأنه قرر الوقوف على الحياد بينه وبين الناصر.

١- د. شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة، ص ٣٥.

النقش الكتابي الذي يؤرخ بإعادة بناء القلعة على يد عز الدين أيبك

قلعة الأزرق هي إحدى القلاع التاريخية الموجودة في المملكة الأردنية الهاشمية.. تقع في وسط واحة الأزرق على بعد مئة كيلو متر شرقي مدينة عمان – العاصمة الأردنية – وقد شُيِّدت القلعة أساساً لتكون حصناً للنبطيين أو الرومان، ثم أعاد المماليك بناءها من جديد في القرن ١٣م.

بقيت قلعة الأزرق مأهولة وعامرة بالسكان إبَّان الفتح الإسلامي لها، وتدل على ذلك الكتابات العربية المنقوشة فوق عتبة الباب الرئيس للقلعة. وتشير الكتابة أيضاً إلى أن القائد المسلم عز الدين أيبك (رحمه الله) أعاد بناءها، وقام ببناء جامع كبير في وسط باحة القلعة خلال مدة الحروب الصليبية وفي أثناء مدة حكمه التي امتدت من عام (١٢١٣ - ١٢٣٨م).



مؤلف ومصمم الأطلس أمام الجامع وسط ساحة القلعة

وتقدم الملك الناصر حتى العباسية بين مدينتي بلبيس والصالحية ٦٤٩ هـ- ١٢٥١م فهزمه أيبك بسبب انحياز مماليكه العزيزية إلى المماليك، ولاحقه حتى الشام، واتفق أيبك مع لويس التاسع على أن يساعده ضد الناصر يوسف مقابل تسليمه القدس، ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ، حيث تدخل الخليفة العباسي بين الناصر وأيبك ٦٥١ هـ (١٢٥٣م) لمنع تسليم القدس للصليبيين، حيث أرسل رسوله الشيخ نجم الدين البادرائي، فأصلح بين صاحب مصر وصاحب الشام، وأيضاً لإحساسه- أي الخليفة- ببداية الخطر المغولي الذي داهم الخلافة من الشرق. واتفق على أن تكون مصر وجنوبي فلسطين بما فيها غزة والقدس للمماليك.

ثم دب الخلاف بين أيبك وزوجته (شجر الدر)، بسبب تسلطها وشدة غيرتها عليه، فحاول أن يتزوج من ابنة بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل، نكاية بها، خصوصاً وقد شعر بتآمرها مع أنصارها من المماليك البحرية عليه وعلى مماليكه المعزية.

وعندما علمت (شجر الدر) بخطة هذا الزواج، ازدادت معارضتها وتآمرها مع المماليك البحرية وضوحاً وتحدياً، مما دفعه لسجن من بقي من هؤلاء المماليك في القاهرة، متحدياً بذلك (شجر الدر)، مما جعلها تقرر قتله، وتتصل سرًّا بالملك الناصر في دمشق تعرض عليه التعاون معها في ذلك، وأن يتزوجها ويشركها معه في السلطة مقابل تسليمه مصر، ولكن الناصر لم يتحمس لهذا العرض ظانًّا أنه خدعة منها. وعَلم بدر الدين لؤلؤ بأخبار هذا الاتصال بين (شجر الدر) والناصر يوسف، فقام بإعلام أيبك به، فاحتاط لنفسه من غدر (شجر الدر)، وقرر في طويته قتلها، ولم تلبث (شجر الدر) أن سبقته في تنفيذ عزمها؛ بأن تحايلت عليه، فاستدعته إلى القلعة- بعد أن كان هجرها إلى مناظر اللوق- ودست إليه خمسة من غلمانها فقتلوه في الحمام، وذلك في ٢٣ ربيع الأول ٦٥٥هـ (١٢٥٧م).

استيلاء المظفر قطز على السلطنة:

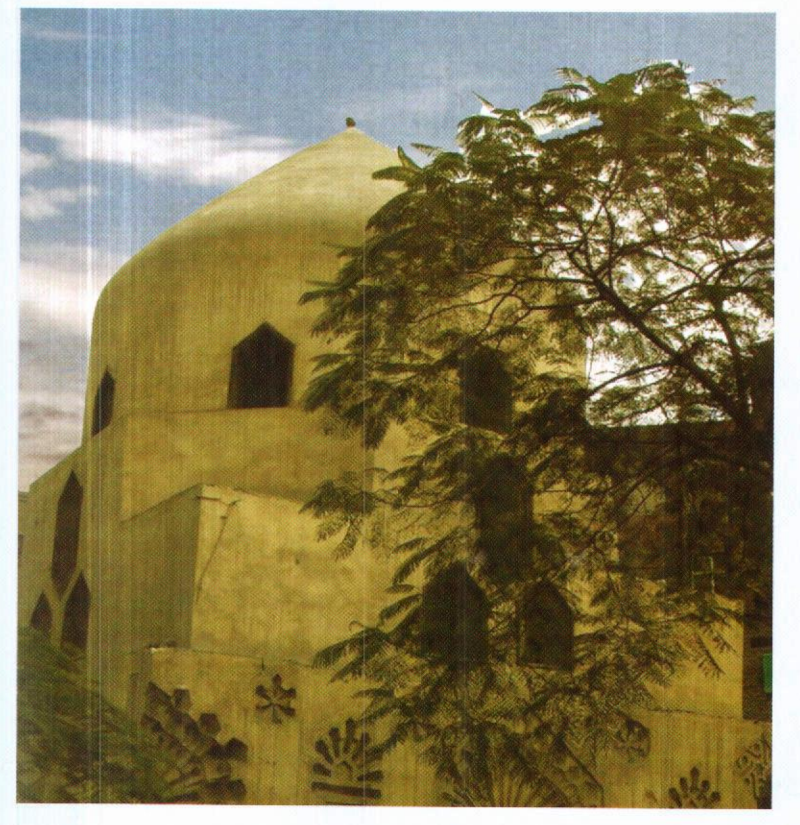
عندما علم المماليك المعزية بوفاة سيدهم في القلعة، حامت شكوكهم حول زوجته (شجر الدر)، لما كانوا يعلمونه من خصام بينها وبينه، فصعدوا إلى القلعة ليحققوا في سبب وفاته، فعلموا بالحقيقة، لذلك حاولوا قتلها، وكادوا ينجحون في ذلك لولا تدخل بعض المماليك الصالحية، الذين نقلوها على عجل إلى البرج الأحمر في القلعة حماية لها، أما المماليك المعزية: فقاموا بتعيين الطفل نور الدين علي ابن معز الدين أيبك مكان أبيه باسم الملك المنصور، وكان عمره خمس عشرة سنة، وعينوا قطز أتابكاً له، وذلك برغم معارضة المماليك الصالحية، وبرغم تعيين الأمير علم الدين سنجر الحلبي نفسه نائباً للسلطنة، فقد رفض المعزية تأييد سنجر وقاموا باعتقاله وولوا قطز هذا المنصب، وقيل: إن (شجر الدر) فور قتلها للسلطان معز الدين أيبك قد عرضت السلطنة على عدد من الأمراء، ولكنهم رفضوها خوفاً من المماليك المعزية.

١- د. شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة، ص ٣٦.

وكان أول عمل قام به السلطان علي وأتابكه قطز، هو الأمر بقتل السلطانة السابقة (شجر الدر)، وذلك بتحريض من والدته، بعد أن ضعف شأن حماتها من المماليك الصالحية، فأمر بحملها إلى أمه حيث أمرت بقتلهـا، بـأن أمرت جواريهـا "فضربتها الجـواري بالقباقيب إلى أن ماتـت، وألقوها عن سـور القلعة إلى الخنـدق، وليسـ عليها سوى سراويـل وقميص. فبقيت في الخنـدق أياماً. ثم دفنت بعـد أيام وقد نتنت، فحملت في قفة إلى تربتها قريب المشهد النفيسي".

مـات عز الديـن أيبك و(شجر الدر) بعد أن أسسا دولة المماليك. تلك الدولة التي سيطرت على جنـوب وشرقي حوض البحر المتوسط لبضعة عقود من الزمان، قضت خلالها على القوى المغولية والصليبية التي تآزرت ضد المسلمين، وحاولت اقتلاع العالم الإسلامي من جذوره.

وبعـد مقتل أيبك تعصب المماليك المعزيـة لابن سيدهم المدعو "نور الدين علي" بن أيبك، وكان في الخامسة عشـــر من عمره. وعينوه سلطاناً عليهم.



أنشـأت هـذا الضريح شجر الدر زوجـة السلطـان الصالـح نجـم الديـن أيوب سنـة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) لنفسها، لكي تدفـن فيه بعد وفاتها.

والضريـح مربع المساحة يبلغ طول ضلعـه ٧ أمتار تقريبـاً من الداخل. يتوسط كل ضلع من أضلاع الضريح الأربعة حنيـة مستطيلة من الجص عرضهـا ٢٠٥ سـم. وفـي الجنـاح الجنوبـي الشرقـي يوجـد محراب كبير يعلوه عقد نصف دائري.



الدولة المملوكية عند قيامها سنة ٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م



خارطة مصر التاريخية

الزحف المغولي نحو الخلافة العباسية

استأنف المغول زَحْفهمْ باتجاه مناطق غربي آسيا، بعد وفاة جنكيزخان في عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، ضمن سياســة توسعيــة. فقد عهد **منكوخان**، الذي تسلـم الزعامة في عام ٦٤٦هــ/١٢٢٨م إلَى أَخِيه **هولاكو** بقيــادة حملة على فارس، وَأَوْصَاهُ بأن يبســط السيطرة المغولية على البلاد الممتدة من العراق حتى أَقَاصِي مصــر. وحــدد له إطَار العلاقة مع الخليفة العباسي، بحيث إِذَا قدَّم فروض الولاء والطاعة فلا يتعرض له. أَمّا إِذَا عصى، فعليه أن يتخلص منه حتى لا يشكل عقبة في طريق الزحف المغولي[1].

ومن جهته، وضع هولاكو خطة عسكرية تقضي أولاً بالقضاء على **الإسماعيلية**، ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى مصر في مرحلة ثانية. وبعد أن حقق هدفه الأول انطلق لتحقيق هدفه الثاني.

ووفقــاً للخطــة التي وضعهــا منكو، كان على هولاكــو أن يهاجم الحشيشية (الإسماعيليــة النزارية) في معاقلهــم البالغة نحــو خمسين قلعة منتشرة في قومس وقهستان، أشهرهــا كردكوه وميمون دز وألموت التي اتخذوهــا عاصمة لهــم وقاعدة لملكهم بفعل مناعتهــا، وكان القائد المغولي كتبغا قــد استولى على بعضها، وعندما تقدمت القوات المغولية نحو القلاع انتاب **ركن الدين خور شاه زعيم الحشاشين** الفزع، وأبدى استعــداده للخضوع للمغول، وطلــب منه هولاكو أن يدمر قلاعه كافة، فرفض ذلك، عندئذ قرر هذا الأخير مهاجمته، وعندما استولى المغول على معظم القلاع ولم يتبق إلا ميمون دز وألموت وكردكوه؛ عندها استجاب ركن الدين خور شاه لمطالب المغول وسلَّم قلعة ميمون بنفسه لهولاكو[2].

توجــه هولاكــو بعد ذلــك إلى قلعة ألمــوت الحصينــة وحاصرها، وطلب مــن ركن الدين خور شــاه إقناع المحاصَريــن بالاستســلام، لكن قائدها رفض ذلك ثم استسلم بعــد ثلاثة أيام من حصارها. ودخل المغول إلى القلعــة، وحطمــوا مــا فيهــا مــن الأسلحة والعتــاد واستولوا علــى الكنــوز والأمــوال، **وكان لاندحار الحشاشــين صــدى إيجابي في العــالم الإسلامي** على الرغــم مما كان يعانيه المسلمــون على أيدي المغول، وما يتوقعونه منهم في المستقبل. ولعل مرد ذلك يعود إلى أن هذه الطائفة:

- قاومت في القرن السادس الهجري جهود السلاجقة في القضاء عليها[3].
- أرهبت الخلافة العباسية وأفزعت رجالها.
- كانت سبباً من أسباب الفساد المعنوي والتفرق في العالم الإسلامي.

فإذا كان هولاكو قد قضى على وجودها في خراسان وإيران، فإنه يكون بذلك قد أدى خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة، وصفه المؤرخ الجويني: بأن هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين وتداركاً للدين من الخلل.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص ٢٥١.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيليخانيين، ص ١٣٧.

٣ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيليخانيين، ص ١٣٨ - ١٣٩.



خرج **هولاكو** على رأس جيش هائل قُدِّر بنحو ٢٥٠ ألف جندي من خيرة جنود المغول، بالإضافة إلى كبار القادة والفرسان، وحرص الخان الأكبر "منكوقا آن" أن يوصي أخاه قبل التحرك بأن يلتزم بالعادات والتقاليد ويطبّق قوانين جده جنكيز خان، وأن يكون هدفه هو إدخال البلاد من ضفاف نهر **"جيحون"** حتى **مصر** في دولة المغول، وأن يعامل من يخضع لسلطانه معاملة طيبة، ويذيق الذل من يبدي المقاومة حتى لو كان الخليفة العباسي نفسه، فعليه أن يزيحه ويقضي عليه إذا ما اعترض طريقه.

وحقق هولاكو هدفه الأول بالاستيلاء على **قلاع طائفة الإسماعيلية** سنة (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م) بعد معارك عديدة واستماتة بذلها أفراد الطائفة الإسماعيلية النزارية في الدفاع عن حصونهم وقلاعهم، لكنها لم تجدِ نفعاً إزاء قوة الجيش المغولي.

الزحف المغولي نحو القلاع الإسماعيلية في إيران سنة ٦٥٠ - ٦٥٤ هـ

- الخلافة العباسية في بغداد
- دولة الأشراف (الحسنيون) في مكة المكرمة
- السيطرة المغولية على الدولة الخوارزمية
- الإمبراطورية البيزنطية
- مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى
- سلطنة المماليك
- الدولة الغورية
- بقايا الاحتلال الصليبي
- الإسماعيليون (الحشاشون) في إيران
- الأيوبيون
- آل عصفور العقيليون

سقوط بغداد ونهاية الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م

كانت اَلأَوْضَاع في العراق سيئة جدًّا. كما تعددت مراكز القوى آنذاك، واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية. واشتدت الخلافات بين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سني المذهب، وبين مؤيد الديـن أبِي طالبٍ محمد بـن أَحْمَد بن العلقمي، وزيـر المستعصم، وكان شِيعيّاً. ممـا كان لها أَثَرهَا اَلسّيِّئ في اضطراب اَلأُمُور وتقويض سلطة الخلافة[١].

وتعـددت خلافـات أَهْل الحكم لتنتقل إِلَى العامة من سكان بغداد الذين انقسموا على أَنْفُسهمْ في تناحر مذهبي ، مما دفع الوزير ابن العلقمي إِلَى مراسلة المغول وَأَطْمَعَهُمْ في ملك بغداد.

فـي هـذه الظروف الحرجة، طلب هولاكو من الخليفة أن يمده بجيش ليعاونـه في القضاء على اَلطَّائِفَة الإسماعيليـة . شـاور المستعصم معاونيه، فنصحـوه بعدم الإقدام على هذا العمـل، لأن هولاكو يريد بهذه الوسيلـة إفراغ بغـداد من المدافعين عنها حتى يسهل عليه الاستيلاء عليهـا عندما يهاجمها. فوافقهم على رأيهم ، وامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو.

لمـا فـرغ الزعيم المغولي من القضـاء على اَلإِسْمَاعِيلِيّة، أَرْسَلَ إِلَى الخليفـة رسالة عتاب تتضمن تَهْدِيداً وَوَعِيداً لامتناعه عن تنفيذ مطالبه، وطلب منه أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه، وأن يحضر لمقابلته أَوْ يرسل الوزير سليمان شاه الدواتدار . والواقع أنّ هذا الاحتجاج لم يكن إلا ذريعة للمطالبة بالسلطـة الزمنية التي سبق أن منحـت في بغداد للأمراء البويهيين ثـم للسلاطين السلاجقة، وطلب منه[٢]:

- **أن يهدم الحصون ، ويردم الخنادق ، ويسلم البلاد لابنه.**
- **أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدواتدار.**

رَدّ الخليفـة بالرفض الـذي اتسم بالتهديد والوعيـد ، ظنًّا منه، أن ذلك سوف يثنـي هولاكو عن عزمه، ويجعله يفكر مَلِيّاً قبل أن يقدم على خطوته .ويبدو أن الخليفة العباسي أَمَلَ في تلقي المساعدة من اَلأُمَرَاء المسلمـين إلا أنـهُ أَخْطَأَ في تقديره. إِذْ إنّ الأيوبيينَ في بلاد الشـام والمماليك في مصر، الذين عقد آماله عليهم، توافر عندهم من المشكلات ما منعهم من النهوض لمساعدته . ولم يتحرك الأتابكة والترك والفرس لمساندته بفعل ما استبد بهم من الخوف من المغول. أمّا سلاجقة الروم فقد خضعوا لحكم هؤلاء.

وهكذا بدا العالم اَلإِسْلامِيّ مُفَكّكاً، فلا يعقل أن يهب أُمَرَاؤه لنجدة الخليفة الذي لم يكن له سند حقيقي، حتى يستطيع أن يقف هذا الموقف المتشدد. فكان لهذا الموقف العباسي الرافض أَسْوَأَ اَلأَثَر في نفس هولاكو، ممـا دفعـه إِلَى الزحـف باتجاه بغـداد. لما اشْتَـدّ حصار المغول علـى العـراق، اِنْقَسَمَ الرأي بـين المداهنة

---

١ - ٢ ، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص ٢٥١ - ٢٥٢.



مضى **هولاكو** في تحقيق هدفه الرئيس بالاستيلاء على **بغداد عاصمة الخلافة العباسية** والقضاء عليها؛ فأرسل إلى الخليفة المستعصم بالله يتهدده ويتوعده، ويطلب منه الدخول في طاعته وتسليم العاصمة، ونصحه بأن يسرع في الاستجابة لمطالبه؛ حتى يحفظ لنفسه كرامتها ولدولته أمنها واستقرارها، لكن الخليفة باستشارة الخاصين رفض هذا الوعيد بشدة وقرر أن يقاوم، على الرغم من ضعف قواته وما كان عليه قادته من خلاف وعداء، فضرب هولاكو حصاره على المدينة المنكوبة التي لم تكن تملك شيئاً يدفع عنها قدَرَها المحتوم، فدخل المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م).

الزحف المغولي نحو بغداد وإسقاط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م

- الخلافة العباسية في بغداد
- دولة الأشراف (الحسنيون) في مكة المكرمة
- السيطرة المغولية على الدولة الخوارزمية
- الإمبراطورية البيزنطية
- مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى
- سلطنة المماليك
- الدولة الغورية
- بقايا الاحتلال الصليبي
- سقوط بغداد
- الرسوليون
- آل عصفور العقيليون

والتصـدي للعـدوان . فقـد نصـح **وزير الخليفة ابـن العلقمي** أن يبـذل الأموال والتحـف والهدايا، ويرسلهـا إلى هولاكو مع الاعتذار إليه، وأن يجعل الخطبـة والسكة باسمه، على النحو الذي كان مُتَّبَعاً أيام البويهيـين والسلاجقـة. أَمَّا مجاهـد الدين أيبك الدواتـدار الصغير، الذي كان يستنـد على قوة الجيش، ومسانـدة العناصـر السُّنِّية في بغداد، رفض رأي الوزير، وَأَصَرَّ على المقاومة. فعدل الخليفة عند ذلك عن رأي الوزير وتبنى خيار المقاومة (١).

ولمـا أيقـن **هولاكو** (انظـر صورته في الصفحة المقابلة) أن في استطاعتـه السير إلى **العراق** دون أن يتعرضـ للمصاعـب، وأن فـي مقدور قواتـه الاستيلاء على بغـداد، أخذ في تنفيذ خططـه الحربية التي وضعها في أثناء إقامته في **همذان**، وأصدر أوامره بأن تتحرك الجيوش المغولية باتجاه عاصمة الخلافة. ولمـا وصلـت إليها في الثالث عشر من شهر محـرم عام ٦٥٦هـ/ شهر كانون الثـاني عام ١٢٥٨م ، ضربت حِصَاراً مُرَكّزاً عليها، وأقام هولاكو معسكره في ظاهر المدينة من ناحية الشرق.

ولما رأى **الخليفة** حرج موقفه أراد أن يُهَدِّئَ المغول ويثنيهم عن عزمهم على متابعة الهجوم، فَأَرْسَلَ إلى هولاكـو الرسل والهدايـا، لكن هولاكو رفض الاستجابـة لهذا النداء. ونفذ خطة عسكريـة، تقضي بإفراغ بغـداد مـن مدافعيها قبل أن يقتحمهـا جنوده . فَأَرْسَلَ نصير الديـن الطوسي إلى الخليفة يَأْمُـرهُ بإِرْسَال سليمـان شاه والدواتدار . فَاضْطَرَّ الخليفة إلى الاستجابة. ولما وصلا إليه، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب أتباعهما وأصحابهما بحجة أنهم سينفون إلى الشام ومصر. فخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان. فلمـا خـرج هذا الجمع، أمر هولاكو بقتلهـم جَميعاً؛ فانكشف عندئذ موقف الخليفـة. ولما رأى ألا مفر من دخول المغول بغداد مال إلى التسليم.

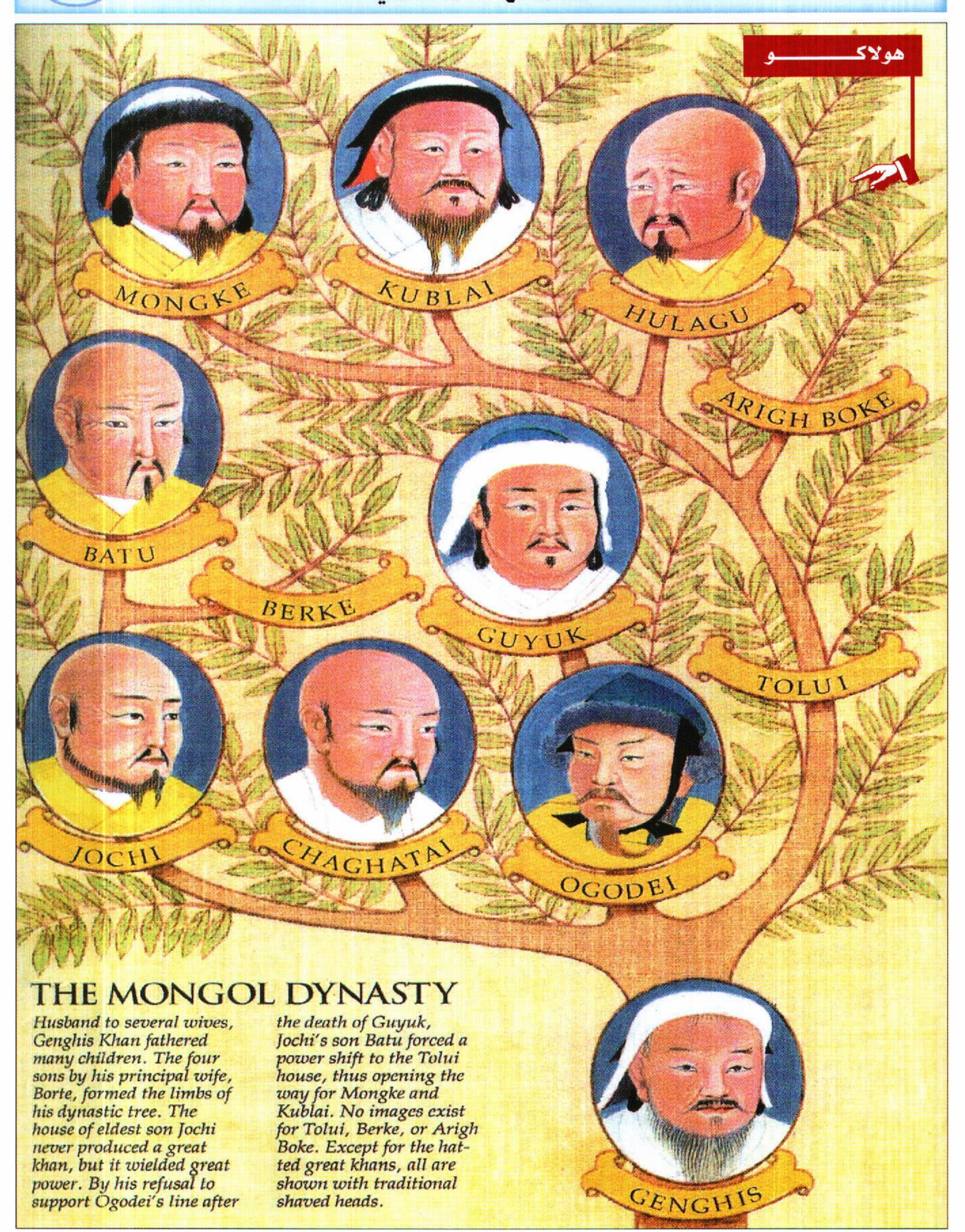
ولم يمضـ على ذلك يومان حتى خدعه المغـول بالوعود الكاذبة. وقد اشترك **ابن العلقمي**، في هـذه المؤامرة حين أقنع الخليفة بوجوب الاستسلام، لأنه مهد طريـق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين (٢).

وقـد ذكـر المؤرخ ابن كثير: أن الوزير ابن العلقمي كان قـد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم أشـار علـى الخليفة بالخـروج إليه والمثول بـين يديه لتقع المصالحة علـى أن يكون نصف الخـراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة.

وفـي يـوم الأحد **(الرابع من شهـر صفر عام ٦٥٦ هـ/ شهر شباط عام ١٢٥٨م)** خرج الخليفة من بغداد وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، بعد أن وعده هولاكو الأمن والأمان.

---

١ - ٢ ، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.



THE MONGOL DYNASTY

Husband to several wives, Genghis Khan fathered many children. The four sons by his principal wife, Borte, formed the limbs of his dynastic tree. The house of eldest son Jochi never produced a great khan, but it wielded great power. By his refusal to support Ögodei's line after the death of Guyuk, Jochi's son Batu forced a power shift to the Tolui house, thus opening the way for Mongke and Kublai. No images exist for Tolui, Berke, or Arigh Boke. Except for the hatted great khans, all are shown with traditional shaved heads.



منمنمة تبين كيفية القتل والتنكيل بالمسلمين من قبل الجيش المغولي الذي استباح بغداد عاصمة الخلافة

دخل **الجنود المغول** بكل وحشية وقسوة إلى عاصمة الخلافة العباسية « **بغداد** »، وعاثوا فيها فساداً مـدة أَرْبَعِينَ يَوْماً، هدمـوا المساجد التي يرفع فيها ذكر الله تعالى، وجردوا القصور الجميلة مما فيها من التحـف النادرة، وَأَتْلَفُوا عدداً كثيراً مـن الكتب القيمة في مكتباتها التي أفرزتها العقول النيرة، حتى إنهم ملؤوا نهر دجلة بالكتب وجعلوها جسوراً لخيولهم، فتحولت مياه النهر الأزرق الصافي إِلَى اللون الأَسْوَد من اختلاطهـا بالمداد، وأهلكوا كثيراً من رجال العلـم فيها، وقتلوا أئمة المساجد، وحملة القرآن، وطلبة العلم. وتعطلـت المدارس ومناحي الحياة. وأضحـت المدينة خاوية على عروشها. فتكدسـت الجثث في الطرقات والأزقة. ثم انتشر الوباء فحصد كَثِيراً ممن كتبت لهم النجاة من هذا البطش الهمجي.

وقـد انتهت هذه الأحداث المؤسفة بفاجعة مؤلمـة وحادثة أليمة، وهي **قتل الخليفة المستعصم وأبنيه** أبـي العباس أحمد وأبـي الفضائل عبد الرحمـن، وأسر ابنه الأصغـر مبارك وأخواتـه (فاطمة وخديجة ومـريم). وبسقـوط بغداد ومقتل الخليفـة العباسي المستعصـم **انتهت دولة الخلافـة العباسية** التي عمَّرت أكثر من خمسة قرون.

السلطان سيف الدين قطز

٦٥٧ - ٦٥٨ هـ

أحـدث مـوت أيبـك و(شجر الـدر) فراغاً ضخمـاً في صفوف المماليك، حتـى استقر رأيهم على اختيار **علي ابن أيبك**، فأعلن سلطانـاً عقـب مقتل أبيه وقبل مقتل (شجر الـدر) سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧م، وقـد لقب السلطان الجديد بالمنصور، وكان في الخامسة عشـر من عمره، فأقيم الأمير سيـف الدين قطز؛ أتابكاً له، ونائباً للسلطنة (وصار مدبر الدولة).

وكان أول خطـر واجـه قطـز هو محاولة المغيث عمر الأيوبـي - صاحـب الكرك- الاستيلاء على مصـر في عامي ٦٥٥-٦٥٦ هـ (١٢٥٧-١٢٥٨م) بمعاونـة المماليك البحريـة الفارين من مصر. ولكن قطز قضى على هاتين المحاولتين، ثم قام بعزل السلطان علي ابـن معـز الدين أيبـك، الـذي كان هـذا السلطان الطفـل مهتماً بمناقـرة الديـوك، ومناطحـة الكباش، وتربية الحمـام، وركوب الحمـير في القلعة، ومعاشـرة الأراذل والسوقة، تـاركاً لأمه ومن وراءها تسيير أمور الدولـة في تلك الأوقات العصيبة، وقد استمر هـذا الوضع الشـاذ قرابة ثـلاث سنوات، على الرغـم من تعاظم الأخطار وسقوط بغداد بيـد المغول، وكان من أشد المتأثرين بذلك والمدركين لهـذه الأخطار الأمير قطز، الذي كان يحزّ في نفسه ما كان يـراه من رعونة الملـك، وتحكم النسوان فـي مقدرات البلاد، واستبـداد الأمراء، وإيثارهـم مصالحهم الخاصـة على مصلحة البـلاد والعبـاد. ولاسيما أن قطز استغل مـا أصاب المصريين من ارتبـاك إثـر سماعهـم مـا حل ببغـداد، ونوايـا المغـول تجاههم، ووصولهم إلى حلب. وتم له ذلك في عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٨م)، حيث عزله ونفاه مع أمه وإخوانه.

وبدأ السلطان قطز في إعداد مصر للتصدي للخطر المغولي.

من هو قطز؟

سيـف الديـن قطز هـو واحد مـن أعظم الشخصيـات في تاريـخ المسلمـين.. اسمه محمـود بن ممـدود، وهـو من بيـت مسلم ملكـي. فهـو ابـن أخـت جـلال الديـن الخوارزمي(ملـك الخوارزميـين المشهور)، الـذي قاوم المغول مـدة وانتصـر عليهم ثم هُـزِمَ منهم، وفرَّ إلى الهند، وعند فراره إلى الهنـد؛ أمسك المغول بأسرته فقتلوا بعضهم واسترَقّوا بعضهم.

وكان محمود بن ممدود أحد أولئك الذين استرقّهـم المغول، وأطلقوا عليه اسماً مغولياً هـو قطز، وهـي كلمة تعني الكلـب الشرس، ويبـدو أنـه كانـت تبـدو عليـه مـن صغـره علامـات القوة والبأس، ثـم باعه المغول في أسـواق الرقيـق في دمشـق واشـتراه أحد الأيوبيـين، وجاء به إلى مصر، ثم انتقل من سيـد إلى غيره، حتى وصل فـي النهاية إلى الملك المعز عـز الدين أيبـك، ليصبح أكبر قادته كما رأينا.

وقطـز - رحمه الله - كبقية المماليك نشأ علـى التربية الدينية، والحميـة الإسلامية، وتـدرب منذ صغـره علـى فنـون الفروسية وأساليـب القتـال، وأنـواع الإدارة، وطـرق القيـادة. فنشأ شاباً فتياً أبيـاً محباً للدين، معظماً له، قويـاً جلداً صبوراً. فإذا أضـفت إلى ذلـك كونه ولـد في بيت ملكـي، وكانت طفولتـه طفولة الأمراء وهـذا ما أعطاه ثقة كبـيرة بنفسه؛ إضافـة إلى أن أسرته هلكت تحت أقدام المغول، وهـذا -بلا شك- جعله يفقه جيداً مأساة المغول.

م . قصة الإسلام.

توحيد الصف لمواجهة المغول:

رأى السلطان **قطز** أطماع المماليك في الحكم، فقام بتوحيدهم خلف هدف واحد، وهو وقف زحف المغول ومواجهته، فقام بجمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر، وقال لهم في وضوح:

"إني ما قصدت (أي ما قصدت من السيطرة على الحكم) إلا أن نجتمع على قتال المغول، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم". فهدأ معظم الحضور ورضوا بذلك. كما قام قطز بتعيين أمراء من **المماليك البحرية**، برغم أنه نفسه من المماليك المعزية التي كانت على خلاف مع المماليك البحرية، فقام بإقرار فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي مكانه كقائد للجيش، حيث وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية عالية.

وكانت العلاقات مع إمارات الشام الأيوبية متوترة جداً، وقد فكروا أكثر من مرة في غزو مصر، ونقضوا الحلف الذي كان بين مصر والشام أيام الصالح أيوب، واستقطبوا المماليك البحرية عندهم عندما فروا من مصر، بل إن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من المغول بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر.

سعى قطز إلى الوحدة مع الشام، أو على الأقل تحييد أمراء الشام، فيخلوا بينه وبين المغول دون أن يتعاونوا مع المغول ضده. فأرسل قطز رسالة إلى الناصر يوسف الأيوبي يعرض عليه الوحدة، على أن يكون الناصر يوسف الأيوبي هو ملك مصر والشام، فإن تشكك الملك الناصر الأيوبي في نية قطز فيستطيع قطز أن يمده بالقوات للمساعدة في قتال المغول، كما ترك قطز للملك الناصر اختيار قائد الجيش المصري الذي يذهب لنجدته في الشام، ولكن الناصر الأيوبي رفض ذلك، فسقطت كل من حلب ودمشق في يد المغول وفر الملك الناصر الأيوبي إلى فلسطين. بعد فرار الناصر الأيوبي وجيشه انضم إلى قطز فازدادت بذلك قوة الجيش المصري.

راسل قطز بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير "المنصور" صاحب حماة، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز في مصر. أما المغيث عمر صاحب الكرك، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي فقد فضلاً الحلف مع المغول والخيانة. وأما الأخير وهو الملك السعيد حسن بن عبد العزيز صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل انضم بجيشه إلى قوات المغول ليساعدهم في محاربة المسلمين.

اقترح السلطان قطز أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وهذا قرار يحتاج إلى فتوى

---

١ - السلطان قطز، موسوعة إسلام أون لاين.

شرعيــة؛ لأن المسلمــين في دولة الإسلام لا يدفعون سوى الــزكاة، ولا يدفعها إلا القادر عليها، وبشروط الــزكاة المعروفــة، أما فرض الضرائب فوق الــزكاة فهذا لا يكون إلا في ظــروف خاصة جدًّا، ولابدّ من وجــود سند شرعــي يبيح ذلك. فاستفتى قطــز الشيخ **العز بن عبد السلام** فأفتى قائلاً : "إذا طرق العــدو البــلاد وجب على العــالم كلهم قتالهم، وجــاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعــان به على جهازهم؛ بشــرط أن لا يبقــى في بيــت المال شــيء، وأن تبيعوا مالكم مــن الممتلــكات والآلات، ويقتصر كل منكم علــى فرســه وسلاحــه، وتتساووا في ذلك أنتــم والعامة، وأما أخــذ أموال العامة مع بقــاء ما في أيدي قــادة الجنــد من الأموال والآلات الفاخــرة فلا ." قبل قطز كلام الشيخ العز بــن عبد السلام، وبدأ بنفســه، فبــاع كل مــا يملك، وأمــر الــوزراء والأمــراء أن يفعلــوا ذلك، فانصــاع الجميــع، وتم تجهيز الجيش كله.

العــز بن عبد السلام

هــو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبــي القاسم، الشافعي، الملقب بسلطان العلماء، لــه مصنفــات حسان، جمع علوماً كثيرةً، وأفاد الطلبــة، وولي خطابة دمشق، ثم سافر إلى مصــر ودرَّس بها وخطــب، وحكم، وأعز الله بــه الإسلام والمسلمــين، فلقبه شيخ الإسلام ابن دقيق العيد -تلميذه- بسلطان العلماء، له مواقف حكيمة كثيرة في دعوته إلى الله -تعــالى-، فقد أزال بإنكاره الحكيم كثيراً من المنكرات، وباشر تبطيل بعضها بنفســه، ومن ذلك: إبطالــه كثيراً من البدع المنتشرة: كصــلاة الرغائب، وصلاة ليلة النصــف من شعبان، وبدعة دق المنبر بالسيف، وحكمته في بيع الملوك الأرقاء وصرف ثمنهــم فــي بيت مــال المسلمــين، وذوده الحكيــم عن أمــوال المسلمين، ومــن ذلك أن السلطــان وعساكــره- عندمــا دهمت المغول البلاد عقــب وقعة بغداد- استشــاروا الشيخ فقال: اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر، فقال السلطان: إن المال في خزانتي قليل وأنــا أريــد أن أقترض من التجار، فقــال الشيخ عز الدين: إذا أحضــرت ما عندك وعند حريمــك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام وضربته سكةً ونقداً، وفرقته في الجيــش، ولم يقــم بكفايتهــم ذلك الوقت اطلــب القرضــ، وأما قبل ذلك فــلا. فأحضر السلطان والعسكر ما عندهم من ذلك وامتثلوا أمره فانتصروا بإذن الله -تعالى-.

الزحف المغولي نحو ديار بكر وبلاد الشام

ذكرنـا فـي كتابنا الموسوم (أطلس تاريخ الدولة العباسية) أن هولاكو بعد أن حقق هدفه الأول بالقضاء على طائفة الإسماعيلية، وجعلها عبرة لمن يفكرون في مقاومته، سار إلى بغداد لتحقيق هدفه الثاني - كما ذكرنـا في الصفحات السابقـة - وهو القضاء على الخلافة العباسية وتدمـير بغداد، وتحقق له ذلك في التاسـع من المحـرم سنة ٦٥٦هـ / السادس عشر مـن يناير سنة ١٢٥٨م، حيث وصلـت جيوش هولاكو إلى بغـداد، وأعمـل السيف في أهلها لمـدة أربعين يوماً، فقُتِلَ مـن المسلمين عددٌ كبيرٌ، وقُتِـلَ الخليفة العباسي المستعصم بالله وآل بيته، ولم ينج من بين أيديهم إلا العدد القليل.

وقضـى هولاكـو بذلك على **الخلافة الإسلاميـة** ثم تقدم نحو بلاد الشام، وفـي طريقه استولى على **ميافارقين** في ديار بكر، وقتل صاحبها الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وحمل المغول رأسه على رمح قصير وطيف به لأنه رفض الاستسلام للمغول.



مَيّافارِقين: بفتح أوله، وتشديد ثانيه ثم فاء، وبعد الألف راء، وقاف مكسورة، وياء، ونون؛ **قال بعض الشعراء:**

فإن يَكُ في كَيلِ اليمامة عُسْرَةٌ
فما كَيلُ مَيّافارقين بأعْسَرا

وقال كُثَيِّر:

مشاهد لم يَعفُ التنائي قديمها،
وأُخرى بمَيّافارقين فمَوْزَن

وهي أشهر مدينة بديار بكر. قالوا: سميت بميّا بنْت لأنها أول من بناها، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارجين، لأنها كانت أحسنت خندقها فسميت بذلك.وقيل: ما بُني منها بالحجارة فهو بناء أنوشروان بن قباذ وما بُني بالآجرّ فهو بناء أبرويز... . الحموي، معجم البلدان.



بـدأ جيشـ المغـول الجرّار في التحرك من قواعده في **همدان** في اتجاه الغرب، حيـث اجتاز الجبال في غربي إيران، ثم دخل حدود العراق من شمالها الشرقي، ثم اجتاز مدينة أربيل، ووصل إلى مدينة الموصل الموالية له، فعبر عندها نهر دجلة، وهو العائق المائي الأول في هذه المنطقة، وهو عائق خطير فعلاً، وكان لابد من عبور هذا النهر في منطقة آمنة تماماً، وذلك لخطورة عبور الجيش الكبير، ولم يكن هناك أفضل من هذه المنطقة المواليـة تمامـاً لـه !!.. ثم سار جيش المغول بحذاء نهر دجلة على شاطئه الغربي في أرض الجزيرة ليصل إلى مدينة "نصيبين" (في جنوبي تركيا اليوم)، وهي مدينة تقع جنوبي ميافارقين بحوالي ١٧٠ كم فقط، وبذلك اقترب من جيش ابنه أشموط، إلا أنه لم يذهب إليه لاطمئنانه لقوته.

احتل هولاكو مدينة "نصيبين" دون مقاومة تذكر، ثم اتجه غرباً ليحتل مدن "حرَّان"، ثم مدينة "الرها" ثم مدينة "إلبيرة"، وكل هذه المدن فـي جنوبـي تركيـا، فكان علـى هولاكو أن يخترق كل هـذه المدن التركية لينزل علـى مدينة "حلب" مـن شمالها، وبذلك يطمئن لعـدم وجود أي جيوب إسلامية في ظهره.

قرر **هولاكو** أن يتوجه بجيشه إلى **حلب** أولاً، على أن يبقى ابنه أشموط محاصراً لميافارقين، وفي هــذه الأثنــاء حدث حادث أليم ومفجع، إذ سقطت مدينة ميافارقــين تحت أقدام المغول بعد الحصار البشع الذي استمــر عاماً ونصف عام!.. ثمانية عشـر شهراً متصلة من النضــال والكفاح والجهاد، وذلــك دون أن تتحرك نخوة قلب أمير من الأمــراء، أو ملك من الملوك؟!، ثمانية عشر شهراً والناصر والأشـرف والمغيـث وغيرهم من الأسمــاء الضخمة يراقبــون الموقف ولا يتحركــون !!! سقطت مدينة ميافارقين الباسلة، واستبيحت حرماتها تماماً. فقد جعلها **أشموط بن هولاكو** عبرة لكل بلد يقاوم المغــول فــي هذه المنطقــة، فقتل السفاح كل سكانها، وحــرَّق ديارها، ودمرها تدمــيراً، ولكنه احتفظ بالأمــير الكامل محمد الأيوبي -رحمه الله- حيًّا ليزيد من عذابه، وذهب به إلى أبيه هولاكو وهو في حصار مدينة حلب[١].

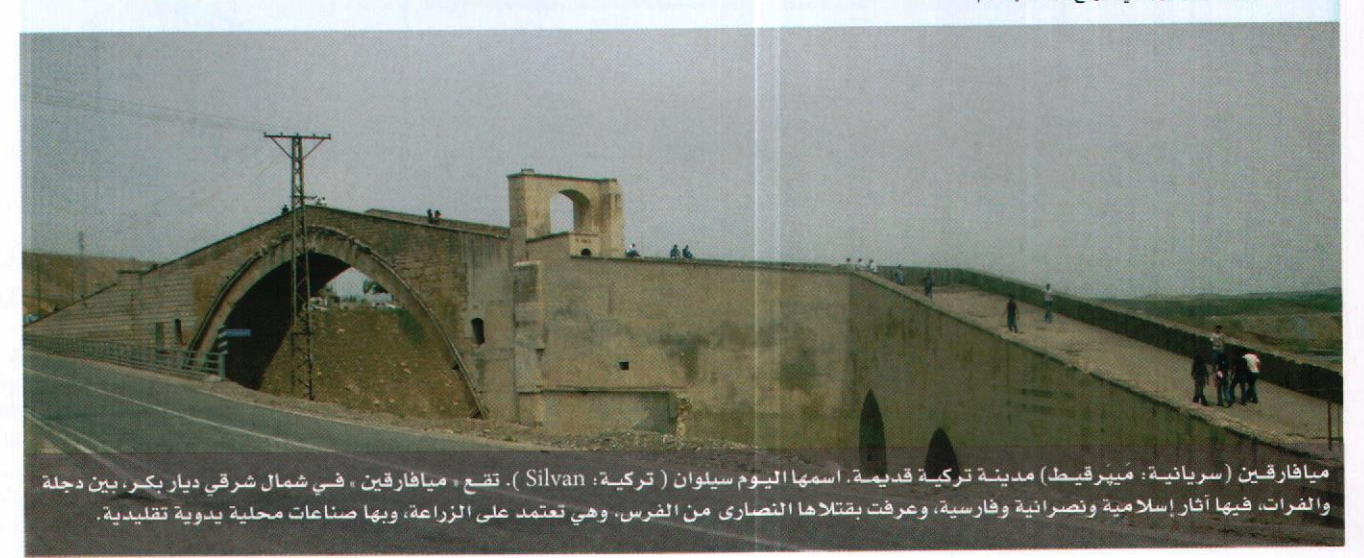
استشهاد الكامل محمد الأيوبي:

استجمــع هولاكــو كل شــره فــي الانتقام من الأمــير البطل الكامل محمــد الأيوبي -رحمه الله-، فأمسك به وقيده، ثم أخذ يقطع أطرافه وهو حي، بل إنه أجبره أن يأكل من لحمه!!.. وظل به على هذا التعذيب البشع إلى أن أذن الله للروح المجاهدة أن تصعد إلى بارئها.. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسـولُ الله: "ما من عبد يموت . له عند الله خير . يسـره أن يرجع إلى الدنيا. وأن له الدنيا وما فيها. إلا الشـهيد ، لما يرى من فضل الشـهادة، فإنه يسـرّه أن يرجع إلى الدنيا ، فيقتل مرة أخرى" .حسـن صحيح ، أخرجه الشيخان.

---

١ - د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام.



ميافارقين (سريانية: مَيپَرقيط) مدينة تركية قديمة. اسمها اليوم سيلوان (تركية: Silvan). تقع « ميافارقين » في شمال شرقي ديار بكر، بين دجلة والفرات، فيها آثار إسلامية ونصرانية وفارسية، وعرفت بقتلاها النصارى من الفرس. وهي تعتمد على الزراعة، وبها صناعات محلية يدوية تقليدية.



(١) قاد هولاكو الجيش المغولي للاستيلاء على شمال غربي سوريا؛ فتولى قيادة المقدمة كتبغا، بينما قاد بيجو ميمنة الجيش، وتولى الميسرة قائد آخر من المقربين لهولاكو، وهو سنجق؛ أما هولاكو فتولى قيادة قلب الجيش. وزحف مجتازاً نصيبين وحرّان والرها، حتى بلغ إلبيرة حيث عبر نهر الفرات، حاولت سروج أن تقاومه، فتعرضت للنهب وفي أوائل سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، أطبق الجيش المغولي على حلب من كل الجهات، ولكن حامية المدينة رفضت التسليم، فتقرر اقتحامها سنة ٦٥٨ هـ.

(٢) ولما هبت العاصفة كان السلطان الناصر في دمشق إذ كان يأمل في أن وجود ابنه في معسكر هولاكو سوف يدرأ الخطر عن بلاده. ولما تبين له أنه كان مخطئاً لم يسعه إلا أن يتخذ حركة أو محاولة أخرى، بالغة المهانة والذلة، وهي أن عرض قبول سيادة المماليك بمصر إذا وعدوه بالمساعدة غير أنهم لم يتعجلوا بذلها. وفي نفس الوقت حشد عسكراً خارج دمشق، ودعا ابني عمه أميرا حماة والكرك لمساعدته. غير أنه بينما كان ينتظر في دمشق، شرع بعض قادته الترك في التآمر عليه، واكتشف خططهم في الوقت المناسب، ولكنهم فروا هاربين إلى مصر، بعد أن حملوا معهم أخوته، وأدى إلى تسللهم وهروبهم إلى أن جيشه أضحى من الضعف، ما جعله يفقد كل أمل في السير لنجدة حلب.

الزحف المغولي نحو حلب ودمشق

ذكرنـا -علـى الخارطة الماضية- كيف اتجهت القوات المغولية نحو **حلب** قادمة من مدينة ميافارقين في ديار بكر، وكيف كانت ردود أفعال السلطان الناصر يوسف تجاه هذا الحدث المفجع!

وفي واقع الأمر أنه بعد أن وصل هولاكو إلى حلب وحاصرها، أرسل يطلب من **الحلبيين** تسليم **المدينة والقلعـة** (انظر قلعة حلب المنيعة في الصفحة المقابلة) ليبقى فيهما جيشه. ويتوجه هو في سبيله، وكان رسولـه إليهـم آرزن الروم، فلم يجب الملك المعظم توران شاه، عم الناصـر يوسف إلى ذلك، وقال له: ليس لكم عندنا إلا السيف.

وهاجـم **هولاكـو** المدينـة الكبيرة التي كان دأبها الصمود في وجه المغـول، وذلك من نواح عدة، وأعمل السيـف في المسلمين، ودام القتال والسلب والنهب من نهـار الأحد التاسع من صفر إلى الجمعة رابع عشر منه سنة ٦٥٨ هـ.

أمـا الأسـرى فقد كانوا " زيادة على مائة ألـف من النساء والأطفال " وقد بيع معظم أولئك الأسرى في أسـواق الرقيـق فـي مملكة أرمينيـة الصغرى وفي المـدن الصليبية بالشـام. ولم يتعرض المغـول لكنيسة اليعاقبة في حلب في حين حرص **هيثوم الأول** ملك أرمينية الصغرى على إحراق جامع حلب نفسه.

ومـا إن سقطـت حلب في يد المغول حتى أسرع كثير من الحـكام المسلمين المتخاذلين إلى الاستسلام له، والدخـول فـي طاعته، فأتى إليـه صاحب **حمص** الأشرف موسـى بن إبراهيم شيركـوه الأيوبي، وقدم له خضوعه، فأقره على ملك حمص؛ وحضر أيضاً شخصيات كبيرة من **حماة** ومعهم مفاتيح المدينة، وطلبوا الأمـان مـن هولاكو لأهلها؛ فأعطاهم الأمان، وأرسل إلى حماة رجـلاً أعجميًّا يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليـد ويسمـى بـ " خسروشاه " ، وكان صاحب حماة الملك المنصور بـن المظفر وقتذاك بدمشق، فرحل مع عياله إلى مصر [١].

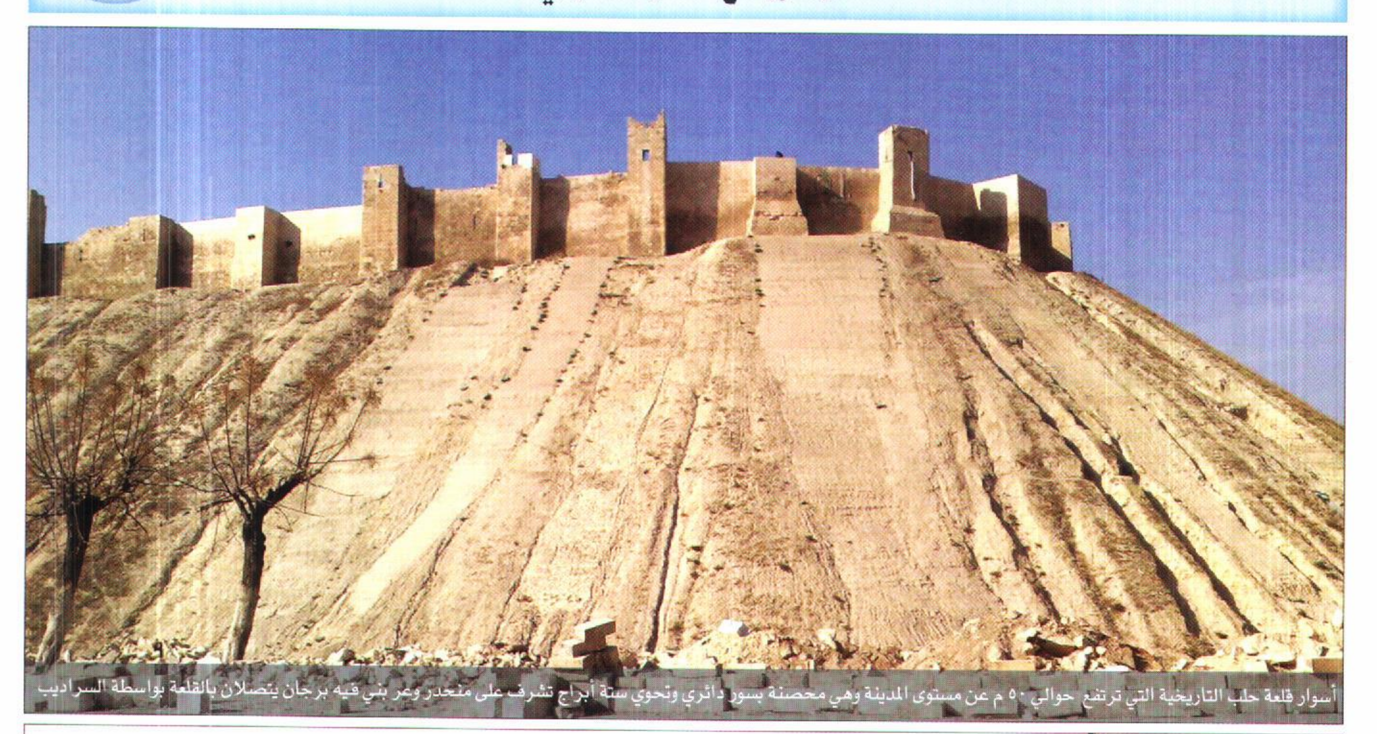
وهنا يتأكد، أن غزو المغول لبلاد الشام اتخذ طابع الحملة الصليبية، ولا أدل على ذلك مما تؤكده بعض المراجـع المعاصـرة مـن أن الخطة الخاصة بغـزو بلاد الشام اشـترك في وضعها الملك هيثـوم الأول ملك أرمينيـة الصغـرى، وقـد طلب هولاكو مـن هيثوم مقابلتـه عند مدينة الرُّهـا، حتى يذهب معـه إلى **بيت المقدس**، ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للنصارى.

أما الملك الناصر يوسف الأيوبي ملك دمشق وحلب، فقد بعث يستغيث بصاحب الكرك، الملك المغيث عمر فلـم يغثـه، وطلب نجدة من مصر فلم ينجده أحد، فهجر دمشـق إلى غزة ليعبر الحدود إلى مصر، إلا أنه عاد وغير رأيه، وعرج على الأردن، فوقع في يد القائد المغولي **كتبغا** الذي أرسله إلى هولاكو [٢].

---

١ - د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، دولة المماليك، ص ٣٦ - ٣٩ .

٢ - د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، المرجع نفسه، ص ٣٩ .



أسوار قلعة حلب التاريخية التي ترتفع حوالي ٥٠ م عن مستوى المدينة وهي محصنة بسور دائري وتحوي ستة أبراج تشرف على منحدر وعر بني فيه برجان يتصلان بالقلعة بواسطة السراديب

المدخل الرئيس للقلعة وهو عبارة عن جسر عريض مائل ذو درجات يتخطى الخندق ومحمول على سلسلة من القناطر الحجرية عددها ثمانية، وقد تعرضت القلعة للأضرار التي ألحقها بها هولاكو وجيشه المغولي في أثناء حصارهم المرير عليها .

وفــي تلــك الأثنــاء **أوفد الدمشقيون** بعض أعيانهم إلى **هولاكو في حلـب**، **حيث سلموه مفاتيـح مدينتهم**، **فتسلمهـا وعيَّن نائباً عنه عليها**، وهو القاضــي ابن محيي الدين الزنكي، ولكـن **قلعـة دمشق رفضت التسليم**، فأسرع القائد كتبغا إليها وحاصرها مدة أربعين يوماً، حتى استسلمت الحامية وسلمت القلعة[١].

وقـد ساعـد في محاصـرة **قلعة دمشق** أمير إنطاكيـة وطرابلس، الذي أقـام قداساً في إحدى كنائس دمشق، بينما كان جنوده يدخلون المساجد ويدنسونها.

وتابـع المغول اغتصابهم لمدن الشام الإسلامية، فاستولوا على سائرها، حتى وصلوا إلى غزة دون مقاومـة تذكر، واستقرت شحناتهـم (معسكراتهم) بهذه البلاد، بحيـث أصبحوا خلا مدة وجيزة يتمتعون بالسيطرة على ديار بكر، وديار ربيعة، والشام بأسرها؛ فضلاً عن بغداد ومدن العراق.

وفي خضم هذه الحروب استدعى هولاكو إلى قفقاسيا، فترك سورية بعد أن عيَّن كتبغا نائباً عنه فيها، وكان هذا **نصرانيًا نسطوريًا**، على أمل أن يستميل بواسطته بارونات عكّا الصليبية إليه.

وهكـذا يمكننـا القـول: إنه بسقوط المدن الثلاثـة الكبرى (بغداد وحلب ودمشـق)، تراءى كأن الإسلام في غربي آسيا حان أجله.

ففــي دمشـق وسائـر الجهـات في غربي آسيـا، لم يكن للتوسـع المغولي من معنـى سوى انتعاش النصـارى المحليـين، وإن كان كتبغـا على المعتقـد النسطوري النصـراني، ولم يخف عواطفـه ومشاعره تجاهـم؛ فأضحى المسلمون في داخل سورية ولأول مرة منذ القرن السابع الهجري يعتبرون أقلية – برغم كثرتهم – مغلوبة على أمرها، فأخذوا يتحرقون للانتقام[٢].

النساطـرة: طائفـة من النصارى ينتسبـون إلى نسطور (٣٨٠-٤٥١م) بطريـرك القسطنطينية المولود في قيصرية (مدينة في آسيا الصغرى). انتخب بطريركاً للقسطنطينية سنة ٤٢٨م. قطنوا كردستان بين الموصل و أرمينية إلى أن تبدد شملهم بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩٤٤م.

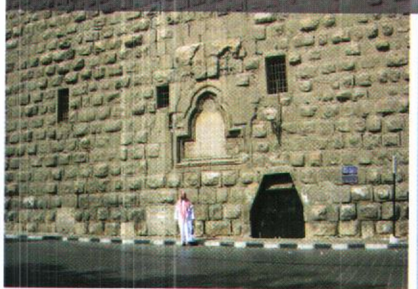
ازدهرت عندهم الحياة الرهبانية، فأوفدوا المنصرين إلى آسيا الشرقية في القرن ٦ م، ونشروها في إيران والهند والصين، انضم قسم منهم إلى المذهب الكاثوليكي في القرن ١٦ م وهم الكلدان.

---

١ – د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، دولة المماليك، ص ٣٩ – ٤٠ .

٢ – د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، المرجع نفسه، ص ٤٠ .

تبلغ مساحة قلعة دمشق حوالي ٣٣١٧٦ م٢، وقد كان لها أربعة أبواب وحالياً ثلاثة، شكلها مستطيل غير منتظم بأضلاع ليست مستقيمة. وعدد أبراجها ١٢ برجاً كان فيها عدد من القصور والمنازل والحوانيت، ومسجد أبي الدرداء - رضي الله عنه - ودار رضوان والطارمة، ودار المسرة، ومخازن، وطاحون للحبوب، وقد سكن القلعة في عصور مختلفة السلاطين والملوك والأمراء والولاة إضافة للفقهاء والعلماء والوزراء.





في ربيع الأول عام ٦٥٨ هـ/ آذار ١٢٦٠م، قضى **المغول** بقيادة هولاكو على الدولة الأيوبية في دمشق، فنهبوها وأحرقوها وقتلوا الكثير من سكانها، ودخلوا قلعتها التي استعصت عليهم بعد ٤٠ يوماً من حصارها.

معركة عين جالوت

٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م

فــي منتصف عــام ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) بعــث **هولاكو** من الشــام برسله يحملــون رسالته المشهــورة إلى سلطان مصر المملوكي (سيف الدين قطز).

بعــث هولاكو بهــذه الرسالة فــي هذه الظـروف السياسية والنفسيــة الحرجة، ومن خلال وهج السيوف التي تقطر دماً وأصــداء المعــارك التي أثار نقعها سيــل لا أول له ولا آخر من خيول الغزاة.

لقــد كان الطاغيــة يعرف جيداً خلفيــة الرعب والانهزام التي رسمتها العقود الأخيرة على مدى خارطة عالم الإسلام وفــي أعماق نفوس أبنائه، فعرف كيــف ينتقي كلماتها، قال: (من ملك الملوك شرقاً وغرباً، الخان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولتــه وأهل مملكته بالديار المصريــة وما حولها ومن الأعمــال، إنــا نحن جند الله فــي أرضه، خلقنــا من سخطه وسلّطنــا على من حل به غضبه، فلكــم بجميع البلاد معتَبَر، وعن عزمنا مزدجــر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبــل أن ينكشف الغطــاء فتندموا ويعود عليكــم الخطأ، وقد سمعتــم أننا قد فتحنــا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنــا معظم العبــاد، فعليكم بالهــرب وعلينــا الطلب. فأي أرض تأويكم؟ وأي طريق تنجيكــم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكــم مــن سيوفنا خلاص، ولا مــن مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفــع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع، فمن طلب حربنا ندم، ومن

عين جالوت

قــال ياقوت: عَينُ الجالوت: اسم أعجميّ لا ينصــرف: وهــي بليدة لطيفة بــين بَيْسان ونابلُس مــن أعمال فلسطــين كان الروم قد استولــوا عليهــا مدة، ثــم استنقذهــا منهم صلاح الدين الملــك الناصر يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٩. أ. هـ. معجم البلدان.

وتقــع عين جالــوت عند أسفل سفح جبل القليلة مــن سلسلة جبــال فقوعه من الجهة الشمالية الغربية فــي مرج بيسان من أرض فلسطين المحتلة، وسلسلة جبال فقوعه تضم خمسة جبال: جبل المزار، جبل القليله، جبل الشيــخ برقان، جبل الشيــخ عجمي، جبل أم غنمــه. وهــي سلسلــة علــى شكل هــلال من الغــرب إلى الجنوب. وفي حضن الهلال تقع قريــة فقوعــه. أما مرج بيســان حيث وقعت أحداث المعركــة الحاسمة فيهــا، فيبدأ من الغرب عند موقــع قرية زرعين المهجرة وبين جبــل الدحي، ويمتد شرقــاً بين جبال فقوعه جنوباً وهضبة مراح الغــزلان شمالاً لينتهي بمدينــة بيسان عند طرف غــور الأردن وهي المنطقــة الوحيــدة المفتوحة على طــول الغور مــن الشمــال إلى الجنوب، لــذا أطلق عليها العرب اسم لسان الأرض.

الجديــر بالذكــر أننــي ذكــرت بيسان في معرض الحديث عن معركة فحل بيسان بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الفاروق عمر ابــن الخطاب رضــي الله عنه. كمــا وينسب إليهــا العالم واحــد مهندسي قبــة الصخرة رجــاء بن حيــوة والــذي أشار علــى الخليفة سليمــان بــن عبــد الملــك بتعيــين الخليفــة الخامــس عمــر بن عبــد العزيــز رضي الله عنهم أجمعين.

أمننـــا سلم، فـإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلكـوا نفوسكـم بأيديكم، فقد حذر من أنـذر، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعـوا برد الجواب قبل أن تضـرب الحرب نارهـا، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجـدون منا جاهاً ولا عـزاً ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهـون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكـم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذّرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم)[١].

قرأ **سيف الدين قطز رسالة التحدي**، واستدعى أمراءه ليعرض الأمر عليهم، أيد الأمـــراء قتـال المغول كافة. وكان على قطز أن يتخذ قـراره، وقد اتخذه فعلاً، فقتل الرسل وعلق رؤوسهم على بـاب زويلة أيامـاً، ورفع سيف الدين قطز رأســه متحدياً بمواجهة الطاغية، وأصـدر أوامر بالتجهز للقتال جهاداً في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

اتجـه السلطـان قطـز على رأس جيش كثير العدد إلى بلاد الشام فـي أوائل رمضان سنة ٦٥٨هـ، وكانت الخطة التي رسمها هي أن يقابل المغول في أرض الشام، وألا ينتظر قدومهم إلى مصر، وكان يهدف من وراء ذلك إلى أمرين[٣]:

الأول: انتهـاز فرصـة البدء بالقتال التـي كان المغول يحرصون على انتهازهـا أولاً؛ ليضعفوا الروح المعنوي في نفوس أعدائهم.

الثاني: لقاء المغول خارج أرض مصر حتى لا تكون ميداناً للحروب وعرضة للتدمير والتخريب.

وقـد أرسـل السلطـان أمـام قواته طليعة مـن الفرسان بقيـادة **ركن الدين بيبرس** وعند بلدة الصالحيـة. انضمـت الكتائـب الشاميـة التي كانت قـد جاءت إلى مصـر فارة من وجـه المغول إلى الجيوش المصرية.

وصلت طلائع الجيوش المصرية إلى غزة وأرغمت المغول على التخلي عنها ودخلها الأمير بيبرس علـى رأس فرسانـه، ولم يكن المغـول يتوقعون أن يصـل المصريون إليهـم بهذه السرعـة، فلما رأوا الجحافـل الإسلامية قد مـلأت السهول والأودية، اضطـروا إلى إخلاء جنوبي الشـام، وأشار بعض ضباطهـم على قائدهم **كتبغا** نويان بطلب النجـدة من السلطان **هولاكو**، ولكنه اغتر بقوته وخدع بانتصاراته السابقة ولم يعمل بمشورتهم.

سارت الجيوش الإسلامية من **غزة** متجهة إلى الشمال، ومحاذية ساحل البحر الأبيض المتوسط، ومـرت بيافـا وقيسارية إلى جبل الكرمل جنوبي حيفا، وعند قريـة (عين جالوت) الواقعة بين بيسان ونابلس دارت المعركة الفاصلة بين الجيش الإسلامي وجيش المغول في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ.

---

١ - ٢ ، د . عماد الدين خليل، مجلة الأمة، العدد التاسع، رمضان ١٤٠١ هـ .

٣ - ، د . جاد محمد رمضان، كيف نجا المسلمون من عاصفة المغول والتتار المدمّرة؟ مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦، ص ١٥٠ وما بعدها .

بـدأت المعركة بهجوم عنيف من المغول فتراجعت ميْسَـرَة الجيش الإسلامي، وإذا بنداء يدوّي في ساحة المعركـة (وا إسلامـاه وا إسلامـاه وا إسلامـاه) فاتجهـت الأنظار إلى مصـدر الصوت؛ فـإذا المنادي هو **السلطـان نفسه**، فالتهب حماس الجيش، وعادت الميسـرة إلى مكانها الأول، وحمل الجيش الإسلامي حملة صادقة على جيش المغول، حتى هزمهم هزيمة ساحقة، ومزقهم شرّ ممزق، وخرّ قائدهم كتبغا صريعاً في الميـدان، واعتصمت طائفة منهـم بالتل المجاور لمكان الموقعة، فأحدقت بهـم العساكر المسلمة، وصابروهم علـى القتال حتى قتلوا معظمهم، وفرّ الباقون لا يلوون على شيء، وقتل الأهالي الموتورون من المغول من وقع في أيديهم من هؤلاء الفارين.

وبعـد انتهاء الموقعـة اتجه السلطان قطز إلى دمشق، فقوبل بحفاوة بالغة من أهلها، لأنه صدّ هذه الموجة العاتية التي اجتاحت بلادهم، وأنزلت بهم صنوف البلايا، وقد أمر السلطان بشنق الذين تعاونوا مع المغول وعيّن حاكماً على دمشق من قبله.

أما **بيبرس** فإنه تعقب المنهزمين من المغول، حتى كاد أن يلحق بهم على مقربة من مدينة حلب، ولكنهم أطلقوا من كان في أيديهم من الأسرى، وتركوا أولادهم وأسرعوا خفافاً حتى لا يلحق بهم، فتخطف الناس أولادهم ودانت حلب بالطاعة لسلطان مصر(١).

نتيجة الموقعة:

لـو قـدر للمغـول أن ينتصروا في موقعة (عين جالوت) لانسابوا في مصـر كالسيل الجارف، ولامتدت موجتهـم إلى السـودان وبـلاد المغرب، وعـبرت إلى الأندلس، واجتاحـت أوروبا، وقضـت على الحضارة الإسلاميـة والمسيحيـة على السواء؛ لذلـك تعد هذه الموقعة من أهـم المواقع الفاصلة فـي التاريخ؛ لأنها أنقـذت العـالم الإسلامي مـن شر مستطير، وأطفأت هـذه الصاعقة المهلكة، التـي كادت أن تقضي على حضارة العالم ومدنيته(٢).

إنهـا **الوحـدة** نفسها التي سهر عماد الدين زنكي وابنه نـور الدين محمود على إقامتها، وجاء الناصر صلاح الدين من بعدهما، لكي يبني عليها انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين الغزاة ويحرر القدس، وها هـي معركة عين جالـوت؛ تشد الآصرة مرة أخـرى، وتمنح المسلمين الأرضية التـي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم ودفعهم إلى إحدى اثنتين:

الإذعـان لكلمة الإسلام، أو العودة من حيث جـاؤوا، لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت السلاجقة من قبل، **فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة** أن تعوض عالم الإسلام عما فقدَ هناك(٣).

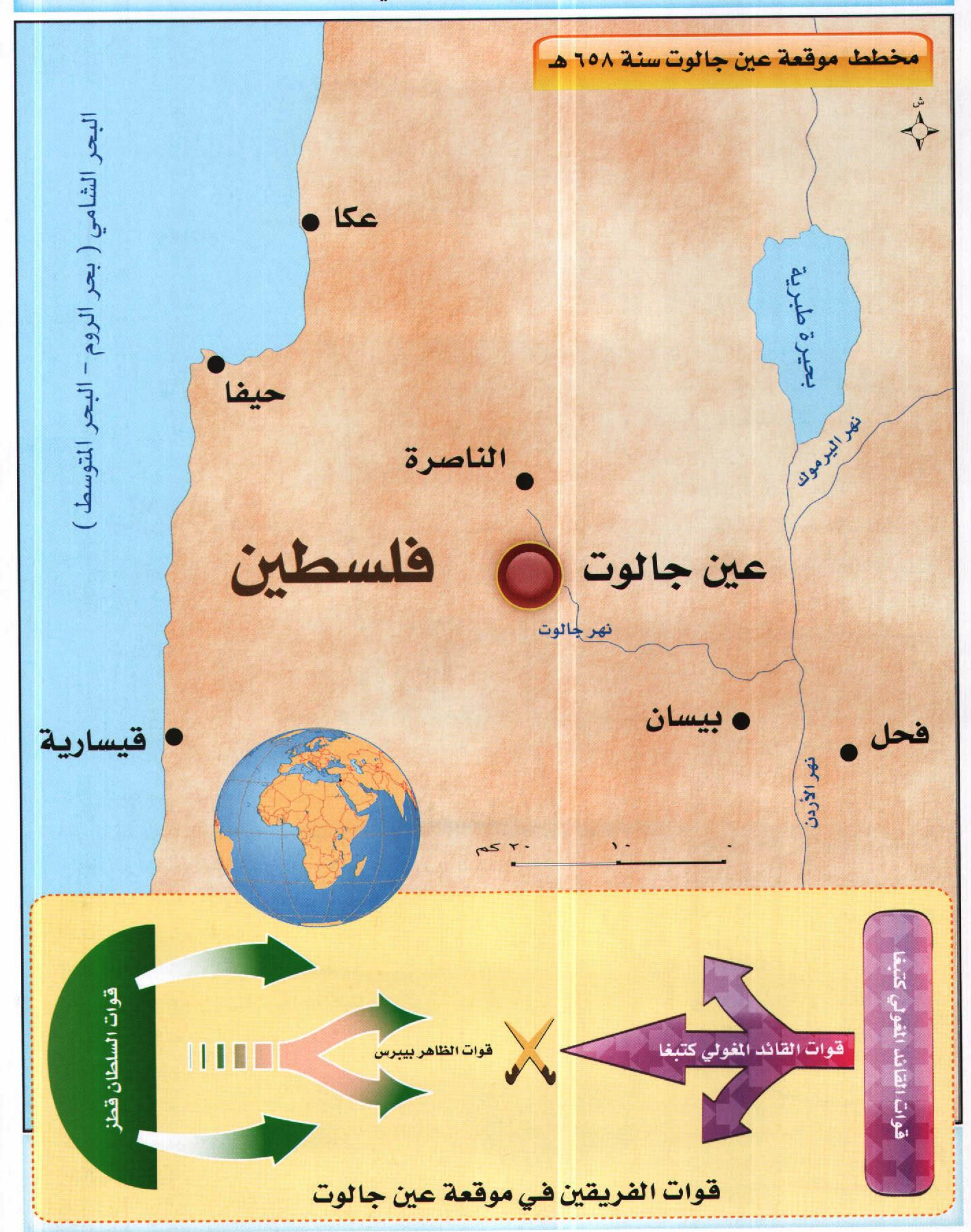
---

١ - ٢ ، د . جاد محمد رمضان، كيف نجا المسلمون من عاصفة المغول والتتار المدمّرة؟ مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦، ص ١٥٠ وما بعدها .

٣ - ، د . عماد الدين خليل، مجلة الأمة، العدد التاسع، رمضان ١٤٠١ هـ .



موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ
مكان المعركة
بقايا الصليبيين
الشمال
حمص
كونتية طرابلس
البحر الشامي (بحر الروم - البحر المتوسط)
بعلبك
صيدا
دمشق
صور
أقسم المظفر قطز لقادة الصليبيين في مملكة (أور شليم بعكًا) أنه متى تبعه منهم فارس، أو راجل؛ يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى المغول!
بلاد الشام
عكًا
انطلق السلطان قطز مواصلاً سيره من أرض مصر مروراً بالساحل الفلسطيني، ومضى شمالاً لتهديد مواصلات كتبغا إذا حدث وتقدم إلى فلسطين.
بادر قطز على الفور بالانعطاف بقواته باتجاه الجنوب الشرقي بعد أن حذر الصليبيين في عكًا من الغدر بهم، ثم اجتاز الناصرة حيث وصل في الرابع عشر من رمضان (المصادف الثاني من أيلول عام ١٢٦٠م) إلى عين جالوت.
حيفا
طبرية
الناصرة
بصرى
بيسان
فحل
عجلون
قيسارية
نهر الأردن
كان كتبغا في بعلبك، فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن تجاوز بحر طبرية، غير أن منعه اشتعال ثورة المسلمين في دمشق ضد السلطة المغولية وأنصارها من النصارى المحليين، حيث حطمت دورهم وكنائسهم، واشتدت الحاجة إلى العساكر المغولية لإعادة الأمن إلى نصابه. عبر كتبغا نهر الأردن وتوجه صوب الجليل الشرقي، صوب أرض عين جالوت، وفي صبيحة اليوم اللاحق قدم الجيش المغولي تعززه كتائب كرجية وأرمينية، دون أن يعلم أن جيش المماليك أضحى قريباً منه.
فلسطين
يافا
بيت المقدس
الخليل
بحيرة لوط (البحر الميت)
غزة
داروم
مصر
٤٥ كم ٣٠ ١٥


مخطط موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ
ش
البحر الشامي (بحر الروم - البحر المتوسط)
عكا
حيفا
الناصرة
فلسطين
عين جالوت
نهر جالوت
بحيرة طبرية
نهر اليرموك
بيسان
فحل
نهر الأردن
قيسارية
٢٠ كم
١٠
٠
قوات السلطان قطز
قوات الظاهر بيبرس
قوات القائد المغولي كتبغا
قوات القائد المغولي كتبغا
قوات الفريقين في موقعة عين جالوت

عندمـا **اصطـدم المعسكران** اضطرب جناح عسكر السلطان، وانتقض طرف منه؛ فألقى الملك المظفر قطز عنـد ذلك خوذته عن رأسـه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: **(وا.. إسلاماه!)** وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيّده الله بنصره..

مرّ العسكر في إثر المغول إلى قرب بيسان، فرجع المغول والتقوا بالمسلمين لقاء ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة سمعه معظم المعسكر، وهو يقول: (واإسلاماه!) ثلاث مرات: يا الله انصر عبدك قطز على التتار (المغول)! فلما انكسر المغـول الكسرة الثانية نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه علـى الأرض وقبلها، وصلَّى ركعتين شكراً لله تعالى، ثم ركب؛ فأقبل العساكر، وقد امتلأت أيديهم بالمغانم!

كتـب السلطـان إلى دمشق يبشر الناس بفتح الله وخذلانه المغول، وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق. فلما ورد الكتاب سرّ الناس به سروراً كثيراً، ولما بلغ **هولاكو** عسكره وقتل نائبه كتبغا، عظم عليه فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك.



سهل معركة عين جالوت بالقرب من بيسان الفلسطينية

بعـد معركـة عين جالوت قام ولاة المغول في الشام بالهرب، فدخل **قطز دمشق** في ٢٧ رمضان ٦٥٨ هـ، وبدأ في إعـادة الأمن إلى نصابـه في جميع المدن الشاميـة، وتعيين ولاة لهـا. واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع المغول وقد جعله هولاكو خان نائباً له على الشام كله، فأمَّنه الملك المظفر، ورد إليـه حمص، وكذلـك رد حماة إلى المنصـور وزاده المعرة وغيرها. وأطلق سلميـة للأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا بن مانع أمير العرب، واتبع الأمير **بيبرس البندقداري** وجماعة من الشجعان المغول يقتلونهـم فـي كل مـكان، إلى أن وصلوا خلفهـم إلى حلب، وهرب من بدمشق منهم يـوم الأحد السابع والعشرين من رمضان. فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم، ويفكّون الأسارى من أيديهم.

وكان قطـز قـد أرسـل بيبرس البندقـداري ليطرد المغول عن حلـب ويتسلمها ووعـده بنيابتها، فلما طردهـم عنهـا وأخرجهم منها استناب قطـز عليها غيره وهو علاء الدين ابـن صاحب الموصل. وكان ذلك سبب الوحشة التي وقعت بينه وبين بيبرس، واقتضت قتل الملك المظفر قطز سريعاً.

كانـت النتيجـة النهائيـة لهـذه المعركة هـي **توحيد (بلاد الشـام ومصر) تحت حكـم سلطان المماليك** على مدى ما يزيد عن نحو مئتين وسبعين سنة، حتى قام العثمانيون بالسيطرة على أراضيهم في عهد سليم الأول سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م.

وفـي واقـع الحـال؛ فـإن المؤرخين يعـدون هذه المعركـة ونتائجهـا بداية النهايـة **للإمبراطورية المغوليـة** إذ لم يهزموا في معركة قط قبلها. كان بركة خان زعيم القبيلة الذهبية في روسيا وابن عم هولاكـو خان؛ قد أعلن إسلامه أيـام الغزو المغولي لبلاد المسلمين، وكان قد تأثـر كثيراً لسقوط الدولة العباسية (دولة الخلافة الإسلامية) على يد ابن عمه، وكان يتحين الفرصة للانتقام من هولاكو خان. فقـام بيركـي أو بركة خـان - بعد أن تحالف مع السلطـان المملوكي الظاهر بيبرس - بتجهيز جيوشه واتجـه جنوباً نحو هولاكو الذي عاد من بـلاد الشام، وهُزِم هولاكو هزائم كبيرة من قبل جيوش بيركي ولم يتمكـن من مقاومته. تذكر بعض المصادر أن هولاكو لم يستطع إرسال كامل جيشه للشام للانتقام مـن هزيمة جيشه بعين جالـوت بسبب بركة خان، فقد أرسل جيشاً إلى بـلاد الشام ليستعيدها بقيادة ابنه "يشموط" إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، حيث كان قد أقام حفلاً وكان في حالة ثمالة فانتهز جنـد بيبرس هذه الفرصة فانقضوا علـى معسكرهم وأفنوهم عن كاملهم، وتركوا بعضهم لينقلوا خبر الهزيمة إلى هولاكو ومعهم رأس ابنه، فما كان من هولاكو إلا أن قتل بقية الناجين من المذبحة.

بعـد هـذا النصـر العظيم، دانـت أغلب المناطـق الشمالية مـن الإمبراطورية المغوليـة لبركة خان، واستمرت سلالته وهي القبيلة الذهبية في حكم روسيا وأواسط آسيا لمدة تزيد عن القرنين من الزمن. أما سلالة هولاكو وهي الخانات فقد حكمت لمدة ٩١ سنة حتى سقطت سنة١٣٥١ م.

بعـد هـذا الفتح العظيم عاد المماليك إلى مصر، وقتل الظاهر بيبرس أميره سيف الدين قطز، وربما كان للخلاف السابق بين المماليك البحرية الذين منهم بيبرس والمماليك المعزية الذين منهم قطز، وقد اضطـر المماليـك البحريـة للعودة إلى مصر بعد أن فـرُّوا منها عندما لم يجدوا لهـم مقاماً في الشام لهجـوم المغـول، فكان لابد من الاتفـاق لحماية دار الإسلام، فلما أصبحت ديـار الإسلام في أمان من هجـوم المغول عاد الخلاف وظهر من جديد، وقتل قائد جنـاح المماليك البحرية أمير المماليك المعزية، وربمـا كان سبـب هذا القتل ما بقي في نفس بيبرس من قطـز، عندما رفض إعطاءه ولاية حلب، - كما ذكرنا في الصفحة السابقة - وهو يريد أن يتابع المغول ويستعيد للمسلمين أرضهم، وعلى كل فقد قُتِل الأمير سيف الدين قطز، واتفق أمراء المماليك على تعيين الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر.

وقد كان الملك المظفر سيف الدين قطز قد استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، فلما قتل قطز نادى سنجر بنفسه سلطاناً، وتلقب بالملك المجاهد، وأخذ شعار السلطنة بعد مقتل قطز بشهر واحـد، وطلـب من الملك الأشرف موسـى الأيوبي، والملك المنصور صاحب حمـاة الأيوبي أيضاً، والأمير الظاهـر بيبرس حملـة إلى دمشق حملت سنجـر إلى القاهرة مقيداً بالأغـلال ولم يمض على سلطنته المحلية أكثر من شهر.

وخلال هذه المدة قام **رجل شيعي يدعى الكوراني** يدعو لنفسه، ويرغب في عودة النفوذ العبيدي مرة أخرى، أو الشيعة كما يسميها، واستطاع الظاهر بيبرس القضاء عليه بسرعة [١].

مستـند تاريـخي

(السلطان الشهيدُ المَلِكُ المظفر سَيْفُ الدِّين قُطُزُ بْنُ عَبْدالله المعزي. كَانَ أَنْبَلَ مَمَاليك المعزّ، ثُم صَارَ نَائِبَ السلطنة لوَلَده المَنْصُور. وَكَانَ فَارِساً شُجَاعاً، سَائساً، دِيِّناً، مُحبباً إِلَى الرَّعيَّة. هَزَمَ التتَارَ (المغول)، وَطَهرَ الشامَ مِنْهُمْ يَوْمَ عَيْن جَالُوتَ، وَهُوَ الذي كَانَ قَتَلَ الفَارسَ أَقْطَايَ فَقُتل به، وَيُسْلَمُ لَـهُ إِنْ شَاءَ الله جهَـاده وَيُقَالُ: إنه ابْنُ أخت خُوَارِزْم شَاهْ جَـلال الدِّين، وإنه حر وَاسْمُهُ مَحْمُـودُ بْـنُ مَمْدُود. وَيُذْكَرُ عَنْـهُ أنه يَوْمَ عَيْن جَالُوتَ لمـا أَنْ رَأى انْكشَافاً في المسلمين رَمَى عَلَى رَأْسه الخُوذَةَ وَحَمَل، وَنَزَلَ النصر. وَكَانَ شاباً أَشْقَـرَ، وَافرَ اللحيَة، تَام الشكْل، وَثَبَ عَلَيْه بَعْض الأُمـراء وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى مصْر بَين الغُرَابِـيّ وَالصالحية، فَقُتلَ في سَادسَ عَشَرَ ذي القَعْدَة سَنَة ثَمَانٍ وَخَمْسينَ وَستّمائَة وَلَمْ يكمل سَنَةً في السلطنة رَحمَهُ الله).

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، الطبقة الرابعة والثلاثون، ج ١٦، ص ٤٤٧.

---

١ - محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد المملوكي)، ص ٣٣.

السلطان الظاهـــر بيبـــرس

٦٥٨ - ٦٧٦ هـ

هـو الملـك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحـي النجمي لقب بأبي الفتوح. سلطان مصر والشام، ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي، بدأ مملوكاً يباع في أسواق بغداد والشام، وانتهـى به الأمر كأحـد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط. لقّبه الملك الصالح أيوب في دمشق بـ"ركن الدين"، وبعد وصوله للحكم لقب نفسه بالملك الظاهر. ولد بيبرس سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢١م.

ويرجع أصل ركن الدين بيبرس إلى أتراك ما وراء النهر؛ وبالتحديد قيرغيزستان، حيث أخذ وهو طفل صغـير وتربى تربية إسلاميـة وجهادية، كما كان هو الحال مع طبقة المماليـك، واشتراه السلطان الصالح نجـم الديـن أيوب، ثم انتقل بعد ذلك إلى الأمير فارس الدين أقطاي، وارتقى في سلم الجندية حتى صار من كبار قادة المماليك، وأبدى قوة وشجاعة وبسالة نادرة في كل المعارك التي اشترك فيها ضد الصليبيين فـي أثنـاء الحملة الصليبيـة السابعة على دمياط سنة ٦٤٧هـ، ولما تولى عز الدين أيبـك حكم مصر بعد زواجـه مـن (شجر الدر) لم يكن على وفاق معه، فذهب إلى الشـام والتحق بخدمة أمرائها من بني أيوب، وظل بها حتى آل الأمر إلى سيف الدين قطز، وهجم المغول على دمشق وأخذوها فاستدعاه قطز وطلب منه قيـادة فيلـق بالجيش المصري المقاتل للمغول، وبعد الانتصار الكبير في عين جالوت عهد **قطز لبيبرس** بمهمة مطاردة فلول المغول المنهزمين، ومنعهم من التجمع مرة أخرى، فأدى المهمة بنجاح كبير.

بعـد مقتـل قطز في ظروف مريبة؛ لم يجـد قادة المماليك خيراً من ركن الدين بيبرس ليولوه هذه المهمة الشاقة، و في هذه الظروف الدقيقة تولى الحكم في آخر سنة ٦٥٨هـ، وكانت هذه الولاية من رحمة الله عز وجـل بالمسلمـين، إذ تمر الأمـة الإسلامية بحقبـة عصيبة من حياتهـا؛ فقد كان بيبرسـ فارسها المنتظر وقائدها الهمام، حيث تجلت أهم أعماله خلال هذه المرحلة:

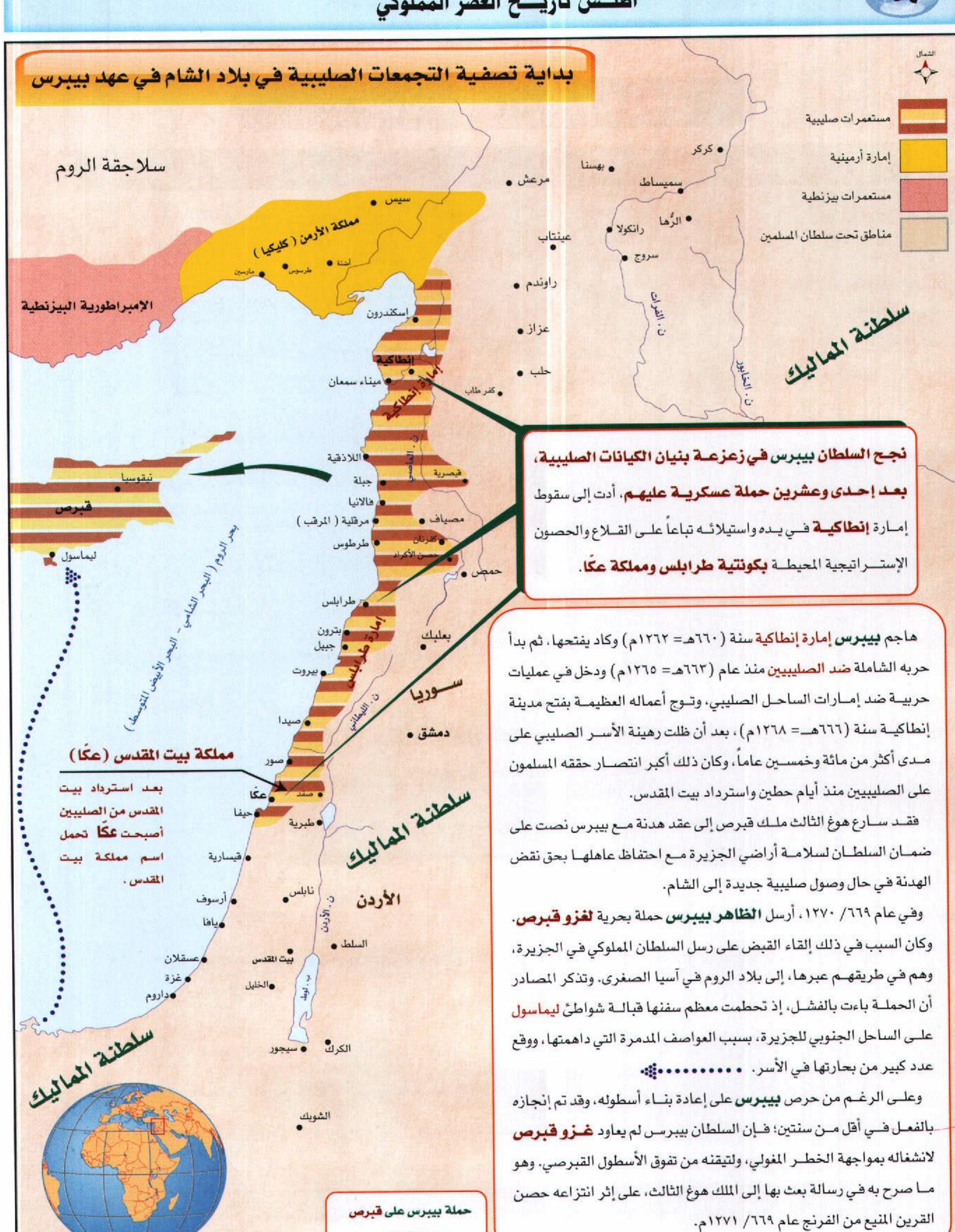
إعـادة الخلافـة الإسلامية : فعندما احتل المغول بغداد زين لهم الوزير الشؤم ابن العلقمي الباطني قتـل الخليفة المستعصم العباسي، لتسقط بقتله الخلافـة العباسية سنة ٦٥٦هـ ،وظل العالم الإسلامي بلا خلافـة ولا خليفة طيلة ثلاث سنوات، حتى تولى بيبرس حكم الديـار المصرية والشامية، وعمل على إعادة الخلافة العباسية مرة أخرى، فبحث عن رجل من نسل العباس فوجد الأمير **أبا القاسم أحمد بن أمير المؤمنـين الظاهـر العباسي** وكان معتقلاً في بغـداد، وهو أخو أمير المؤمنـين **المستنصر** باني المدرسة المستنصريـة الشهيرة، فاستقدمه إلى مصر ودعا الناس لبيعته، فبايعه الناس في يوم عظيم مهيب، ذكّر الناس بأمجادهم السابقة وأفراحهم الماضية؛ إذ سرت روح الوحدة الإسلامية من جديد بين أفراد الأمة.

جدول الخلفاء العباسيين في مصر

م	الخليفة ولقبه	تاريـــخ الحـــــكم	
١	أبو القاسم أحمد بن محمد الظاهر (المستنصر بالله)	٦٥٩ - ٦٦٠ هـ	١٢٦١ م
٢	أبو العباس أحمد بن الحسن (الحاكم بأمر الله الأول)	٦٦٠ - ٧٠١ هـ	
٣	أبو الربيع سليمان بن أحمد (المستكفي بالله)	٧٠١ - ٧٣٦ هـ	
٤	أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد (الواثق بالله الأول)	٧٣٦ - ٧٤٢ هـ	
٥	أبو العباس أحمد بن سليمان (الحاكم بأمر الله الثاني)	٧٤٢ - ٧٥٣ هـ	
٦	أبو الفتح أبو بكر بن سليمان (المعتضد بالله الأول)	٧٥٣ - ٧٦٣ هـ	
٧	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوكل على الله الأول) ١	٧٦٣ - ٧٧٩ هـ	
٨	أبو يحيى زكريا المستعصم بالله (المستعصم بالله) ١	٧٧٩ - ٧٧٩ هـ	
٩	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوكل على الله الأول) ٢	٧٧٩ - ٧٨٥ هـ	
١٠	أبو حفص عمر بن إبراهيم (الواثق بالله الثاني)	٧٨٥ - ٧٨٨ هـ	
١١	أبو يحيى زكريا المستعصم بالله (المستعصم بالله) ٢	٧٨٨ - ٧٩١ هـ	
١٢	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوكل على الله الأول) ٣	٧٩١ - ٨٠٨ هـ	
١٣	أبو الفضل العباس بن محمد (المستعين بالله)	٨٠٨ - ٨١٦ هـ	
١٤	أبو الفتح داود بن محمد (المعتضد بالله الثاني)	٨١٦ - ٨٤٥ هـ	
١٥	أبو الربيع سليمان بن محمد (المستكفي بالله الثاني)	٨٤٥ - ٨٥٤ هـ	
١٦	أبو البقاء حمزة بن محمد (القائم بأمر الله)	٨٥٤ - ٨٥٩ هـ	
١٧	أبو المحاسن يوسف بن محمد (المستنجدبالله)	٨٥٩ - ٨٨٤ هـ	
١٨	أبو العز عبد العزيز بن يعقوب (المتوكل على الله الثاني)	٨٨٤ - ٩٠٣ هـ	
١٩	أبو الصبر يعقوب بن عبد العزيز (المستمسك بالله) ١	٩٠٣ - ٩١٤ هـ	
٢٠	محمد بن يعقوب بن عبد العزيز (المتوكل على الله الثالث) ١	٩١٤ - ٩٢٢ هـ	
٢١	أبو الصبر يعقوب بن عبد العزيز (المستمسك بالله) ٢	٩٢٢ - ٩٢٣ هـ	
٢٢	محمد بن يعقوب بن عبد العزيز (المتوكل على الله الثالث) ٢	٩٢٣ - ٩٢٣ هـ	١٥١٧ م

تنازل الخليفة العباسي المتوكل على الله محمد بن يعقوب في هذا العام للسلطان العثماني سليم الأول بالخلافة

بداية تصفية التجمعات الصليبية في بلاد الشام في عهد بيبرس



نجح السلطان بيبرس في زعزعـة بنيان الكيانات الصليبية، بعد إحـدى وعشرين حملة عسكريـة عليهم، أدت إلى سقوط إمـارة **إنطاكيـة** فـي يـده واستيلائـه تباعاً علـى القـلاع والحصون الإستـراتيجية المحيطـة **بكونتية طرابلس ومملكة عكّا**.

هاجم **بيبرس إمارة إنطاكية** سنة (٦٦٠هـ= ١٢٦٢م) وكاد يفتحها، ثم بدأ حربه الشاملة ضد الصليبيين منذ عام (٦٦٣هـ= ١٢٦٥م) ودخل في عمليات حربيـة ضد إمـارات الساحـل الصليبي، وتـوج أعماله العظيمـة بفتح مدينة إنطاكيـة سنة (٦٦٦هـ= ١٢٦٨م)، بعد أن ظلت رهينة الأسـر الصليبي على مـدى أكثر من مائة وخمسـين عاماً، وكان ذلك أكبر انتصـار حققه المسلمون على الصليبيين منذ أيام حطين واسترداد بيت المقدس.

فقـد سـارع هوغ الثالث ملـك قبرص إلى عقد هدنة مـع بيبرس نصت على ضمـان السلطـان لسلامـة أراضي الجزيرة مـع احتفاظ عاهلهـا بحق نقض الهدنة في حال وصول صليبية جديدة إلى الشام.

وفي عام ٦٦٩/ ١٢٧٠، أرسل **الظاهر بيبرس** حملة بحرية **لغزو قبرص**. وكان السبب في ذلك إلقاء القبض على رسل السلطان المملوكي في الجزيرة، وهم في طريقهـم عبرها، إلى بلاد الروم في آسيا الصغرى. وتذكر المصادر أن الحملـة باءت بالفشـل، إذ تحطمت معظم سفنها قبالـة شواطئ **ليماسول** علـى الساحل الجنوبي للجزيرة، بسبب العواصف المدمرة التي داهمتها، ووقع عدد كبير من بحارتها في الأسر.

وعلـى الرغـم من حرص **بيبرس** على إعادة بنـاء أسطوله، وقد تم إنجازه بالفعـل فـي أقل مـن سنتين؛ فـإن السلطان بيبرس لم يعاود **غـزو قبرص** لانشغاله بمواجهة الخطـر المغولي، ولتيقنه من تفوق الأسطول القبرصي. وهو مـا صرح به في رسالة بعث بها إلى الملك هوغ الثالث، على إثر انتزاعه حصن القرين المنيع من الفرنج عام ٦٦٩/ ١٢٧١م.



كنيسة القديس بطرس في المدينة القديمة بإنطاكيا التركية

قال ياقوت: (ولم تزل إنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية وهي من أعيان البلاد وأمهاتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير، وقال ابن بُطلان في رسالة كتبها إلى بغداد إلى أبي الحسين هلال بن المحسن الصابي في سنة نيف وأربعين وأربعمائة، قال فيها: وخرجنا من حلب طالبين إنطاكية وبينهما يوم وليلة فوجدنا المسافة التي بين حلب وإنطاكية عامرة لا خراب فيها أصلاً، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون، قُراها متصلة ورياضها مُزهرة ومياهها منفجرة، يقطعها المسافر في بالِ رخي وأمنِ وسكون، وإنطاكية بلد عظيم، ذو سور وفسيل، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً، يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس يُنفَذون من القسطنطينية من حضرة الملك يَضْمنون حراسة البلد سنة ويستبدل بهم في السنة الثانية، وشكلُ البلد كنصف دائرة، قُطرها يتصل بجبل والسور يصعد مع الجبل إلى تُلته فتتم دائرة، وفي رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة، وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلُع عليها إلا في الساعة الثانية، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب، وفي وسطها بيعة القُسيان، وكانت دار قُسيان الملك الذي أحيا ولده بطرس رئيس الحواريين، وهو هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون، وعليه كنيسة على أساطين وكان يدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة ومتعلمو النحو واللغة على أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة، وهو من عجائب الدنيا وفي أعلاه خمس طبقات، في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة، تخر منها المياه وعِلَّة ذلك: أن الماء ينزل عليها من الجبل المطل على المدينة، وهناك من الكنائس ما لا يحَد، كلها معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع ...). معجم البلدان، ج١، ص ١٨٠.

السلطان بيبرس ومواجهة الدولة الإيلخانية (مغول فارس)

كان للهزيمـة القاصمـة التـي نالت المغول في عين جالـوت؛ أشد الأثر في نفوس قـادة المغول خاصة هولاكـو الـذي أصر على معاودة الكـرة مرة بعد أخرى، لـذا سعى بيبرس إلى توسيـع شقة الخلاف بين خانـات المغول لإضعافهم وصرفهم عن بـلاده، وهنا برز ذكاء بيبرس الفذ عندما استطاع استمالة أحد كبار قادة المغول (التتار) وهو بركة خان - ذكرنا شيئاً عنه في الصفحات السابقة - وهو ابن عم هولاكو زعيـم القبيلة الذهبيـة في شرقي آسيا الصغـرى والقفقاس على دخول الإسـلام، ووطد صداقته معه، وأغـراه بقتـال هولاكو وأبناء عمومته من خانات إيران. وقد أصبـح 'بركة خان' مسلماً صادقاً مخلصاً، فأخـذ بيبرس في مراسلته واستمالته لجهاد وقتال 'هولاكـو'، وأفهمه ذلك فـي رسائل متبادلة حتى اقتنع بركـة خان بذلك، وأصبح مـن أكبر أنصار الإسلام والمسلمين، وأخذ فـي التنسيق مع المسلمين وبيبرس ضد 'هولاكو' الأرعن، واستطاع أن يستميل كثيراً من المغول بالشام لدخول الإسلام، وأغدق عليهم الهدايا والعطايا فدخلوا في دين الله أفواجاً.

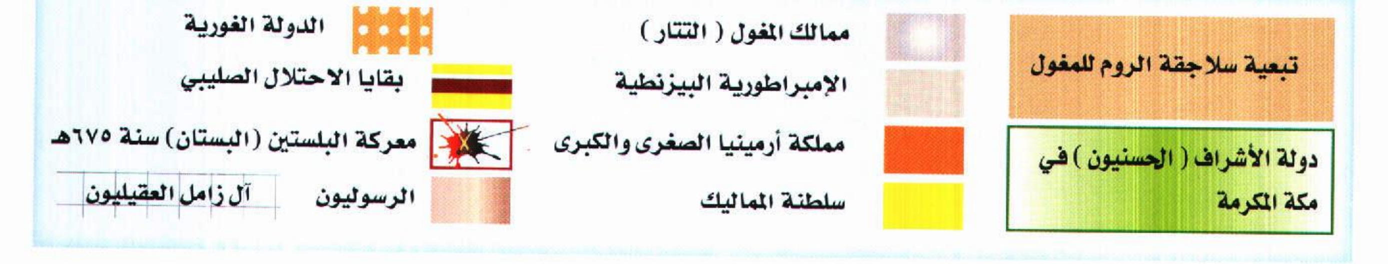
ولمـا هلـك الطاغيـة هولاكو وتولى من بعده ابنه **أبغـا**، وكان أشد مـن أبيه عداوة للإسلام والمسلمين سعـى لتجديـد التوسع المغولي بالشام، الذي أصبح من أملاك الدولة المملوكية، وكتب إلى بيبرس يتهدده قائلاً: «**أنت صعلوك حقير، فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟ واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني، فاعمل لنفسك على مصالحتي**».

فجـاء رد **الملـك بيبـرس** في منتهى العزة، فرد يقول: وأعلموه أني مـن ورائه المطالبة، ولا أزال حتى أنتـزع منـه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض، وبالفعل كان الظاهر بيبرس مـن أشجع أمـراء المسلمين في حرب المغـول وأنشطهم، وكان لا يسمح لهـم بالتجمع، بل يسارع بالانقضاض كالأسد الضاري كما حدث سنة ٦٧١هـ، عندمـا وصلت لمسامع بيبرس أن طائفة كبيرة من جنـود المغول تجمعـت عند نهر الفرات، أسـرع بجيشه وخاض بنفسه وجيشه نهـر الفرات، وانقض على المغـول فمزقهم تمزيقاً. ثم كانت معركته الشهيرة مع المغول سنـة ٦٧٥هـ والمشهورة بموقعة '**البلستين**' (وقد سميت البستان بعد ذلك)، وتقع في شرقي قيصرية في آسيا الصغرى بين جبال طوروس والقسم الأعلـى مـن نهر جيحان، وهي من مدن الثغور. وكان مع جيش المغول فرقة كبيرة من الروم، وهذا يوضح مـدى العلاقة بين أعداء الإسلام فيما بينهم علـى اختلاف راياتهم، وكانت معركة رهيبة استشهد فيها الكثـير من أبطال المسلمين وقادتهم، وصبر المسلمون صبراً بليغاً حتى أنزل الله -عز وجل- عليهم نصره، وكسروا المغول كسرة قريبة من يوم عين جالوت.

الأسرة الذهبية (مغول الشمال)
سراي بركة
قبائل القراخطاي التركية
مملكة الخزر
الأتراك القرخانية
بحر آرال
أطرار (أترار)
سيحون
ويغور
بحر بنطس (الأسود)
القسطنطينية
البيزنطيون
جورجيا
تفليس
الكرج
مملكة إرمينية
طرابزون
شماخة
باكو
بحر الخزر (قزوين)
خوارزم
الشاش
طشقند
ماوراء النهر
بخارى
خوقند
سمرقند
الأسرة الجغطائية
سلاجقة الروم
قيصرية
قونية
ديار بكر
تبريز
مرو
بلخ
جيحون
أرمينية الصغرى
حلب
الأكراد
الموصل
ألموت
نيسابور
خراسان
قبرص
همذان
الري
هراة
كابول
غزنة
الرقة
بغداد
أصفهان
البحر الشامي (بحر الروم - البحر المتوسط)
دمشق
مغول فارس (الدولة الإيلخانية)
بيت المقدس
الإسكندرية
الشام
العراق
الكوفة
الأهواز
القاهرة
البصرة
شيراز
فارس
كرمان
سجستان
مصر
المماليك
هندوستان
بندر عباس
الغور
غ. البحرين (العربي)
آل زامل العقيليون
بنو مهنا الحسينيون
المدينة النبوية
البحرين
خليج عمان
الحجاز
نجد
مسقط
النوبة
الأشراف
جزيرة العرب
عمان
مكة المكرمة
بحر القلزم (الأحمر)
سواكن
الأئمة الإباضية
ديو
دامان
بحر العرب
الرسوليون
حضرموت
صنعاء
زبيد
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ كم

قوات المماليك بقيادة الظاهر بيبرس
القوات المغولية - السلجوقية المشتركة بقيادة القائدين تودان نوين، وتوغو آغا.

لقاء المماليك بالقوات المغولية - السلجوقية المشتركة في معركة البلستين (البستان) سنة ٦٧٥ هـ ١٢٧٥ م



كان **الظاهر بيبرس** قائداً استراتيجيًّا فذًّا موفقًا في حروبه، مواظبًا على الجهاد، لم يمض عام من أعـوام حكمـه إلا وخرج فيه لقتال، أتقن فنون القتال وفن الحرب (التكتيك)، واستعمال أسلحة عصره، كما أتقن فن المناورة والخداع والتمويه والمفاجأة في الحرب، وكانت له عناية بالاستطلاع وكشف أحوال الأعداء، وكان متيقظاً مطلعاً على أحوال أمرائه وأعيان دولته، يبث عيونه في كل مكان، ويراقب قصاده، ويستقصـي الأخبـار من مصادرهـا. وكان مقدامـاً يباشر الحرب بنفســه، يتقدم العسكـر ويركب في الطليعة لا يبالي من يلاقي، وكان إذا نازل حصناً عاينه بنفسه، وكشف عيوبه، ورتب عسكره بما يناسب ذلـك، فإذا أحدث النقابون فيه نقبـاً كان أول من يلج فيه، وكان يعمل بيديه فيساعد في حفر الخنادق ونقـل الحجـارة وجر حبال المجانيق ويرصد رميهـا، ويرمي بنفسه ويصنع نشابه بيـده. وكان إلى جانب ذلـك خفيف الركاب جـم النشاط، لا يكاد يستقر في موضع، يركب الهجـن وخيل البريد لكشف الأمور والنظـر فـي أحوال البلاد، ثـم يقفل راجعاً مـن دون أن يعلم بـه إلا الخاصة. وكان جليـل القدر مهيب الجانب، يخافه الأمراء ويخشاه الأعداء. عني بتنظيم الجيش وجدد في وظائف أصحاب المراتب، وكان تعـداد جيشـه إذا اجتمع ثلاثين ألف فارس، أما عسكره الخاص فـكان اثني عشر ألفاً؛ ثلثهم في مصر، وثلثهم في دمشق، والثلث الثالث في حلب، فإذا خرج للغزو خرج معه جيش من أربعة آلاف يسمونه جيش الزحـف، فـإن احتـاج أردفه بأربعة آلاف أخـرى، فإن اشتد به الأمـر استدعى إليه الثلـث الثالث. وكان يحرص على أن تكـون قواته في حالة جاهزية كاملة، فما إن ترد إليه الأخبار بحركة محتملة للعدو حتى يأمـر العسكر بالخروج، فلا يبيـت فارس منهم في بيته، وإذا تحرك للغزو فلا يعرف أحد هدفه، ويناور بقواتـه بعـد أن يقسمها أطلاباً، فيوجه كل طلب إلى ناحية، ثم يرسـل إليهم أوامره فيلتقي الجميع على الهـدف. كذلك كانت له عناية بالأسطول وبناء السفن فـي دور الصناعة، ويهتم بحماية الثغور البحرية وتحسين شروط الملاحة فيها.

أعاد بيبرس تنظيم البريد في سائر أنحاء البلاد، وخصص للبريدية محطات ونفقات، فكانت الأخبار تصل إليه من أطراف حلب وأطراف النوبة في بضعة أيام، ويخرج البريد من دمشق فيصل القاهرة في أربعة أيام.

وكان بيبرس إلى جانب ذلك محبًّا للعدل، غيوراً على الإسلام، مناصراً للشرع لا يخالف فتيا، وهو أول مـن جعـل لكل مذهب قاضياً مستقلاً؛ فصار عدد القضاة أربعة، كما كان كريماً ينفق على العسكر ويفرق الغنائم بينهم، حتى يرغبهم في القتال، مع ميله إلى جمع المال ومصادرة أرباب الأموال من أجل الجهاد. وكان مغرماً بالصيد ماهراً في الرمي، محبًّا للعمارة، جدد الكثير من العمائر في مصر والشام، ولا سيما القـلاع والحصـون التي خربها المغول أو حـررت من الفرنجة، وشيد قرية في مصـر سماها «الظاهرية» وقصراً في دمشق عرف بالقصر الأبلق، وأقام نصباً تذكارياً لمعركة عين جالوت في موقعها، كما شـيد

كثـيراً من المساجد والمدارس والحمامـات والقيساريات والاصطبلات والجسور والقناطر والقنوات ، وأدخل علـى نظـام الحكم في المملكة أمـوراً ووظائف كثيرة لم يسبقـه إليها أحد. وكان شعـاره (رنكه) راية عليها **صـورة أسـد** رابض إشارة إلى فروسيته وبأسه. وقد حيكـت حول بيبرس روايات وقصص كثيرة، أضفت عليه صفات أسطورية، وصورته بطلاً من أبطال القصص الشعبي، وهي ما تزال متداولة إلى اليوم في عدة مجلدات تحت عنوان «سيرة الملك الظاهر». محمد سعيد الجلاد، موسوعة المعرفة. ص ٦٦٩.



تعد عملات السلطان "الظاهر بيبرس" من أجمل عملات العصر المملوكي لدقة نقوشها وجمالها، ولتميزها بوجود صورة الأسد عليها، كما هو واضح في العملتين ، وكذلك نقش الأسد - وهو شعاره - على بعض أبواب الأسوار في سلطنته كما في الصورة في الأسفل.

صورة لأســدين شعار بيبرس وبينهما آيات قرآنية بجسر بمدينة اللد - فلسطين

جامع السلطان الظاهر بيبرس ٦٦٥-٦٦٧ هجرية = ١٢٦٧ -١٢٦٩م. لم تكن شواغل الظاهر بيبرس الحربية لتعوقه عن الاهتمام بالعمارة والإنشاء، فترك الكثير من المنشآت الدينية والمدنية كان من أهمها **جامعه العظيم** الواقع بميدان الظاهر بالقاهرة، الذي شرع في إنشائه سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٧ م وأتمه سنة ٦٦٧ هـ ١٢٦٩م. ويعد هذا الجامع؛ من أكبر جوامع القاهرة، حيث تبلغ مساحته ١٠٣ في ١٠٦ م، وأبقى الزمن على كثير من تفاصيله الزخرفية؛ سواء الجصية منها أو المحفورة في الحجر. وتعطينا هذه البقايا فكرة صحيحة عما كان عليه الجامع عند إنشائه من روعة وجلال. وتخطيطه على نسق غيره من الجوامع المتقدمة، يتألف الجامع من صحن مكشوف، يحيط به أروقة أربعة؛ أكبرها رواق القبلة كانت عقودها محمولة على أعمدة رخامية فيما عدا المشرفة منها على الصحن، فقد كانت محمولة على أكتاف بنائية مستطيلة القطاع، كذلك صف العقود الثالث من شرق كانت عقوده محمولة على أكتاف بنائية أيضاً. أما عقود القبة التي كانت تقع أمام المحراب فإنها مرتكزة على أكتاف مربعة بأركانها أعمدة مستديرة. وكانت هذه القبة كبيرة مرتفعة على عكس نظائرها في الجوامع السابقة فإنها كانت صغيرة متواضعة. أما واجهات الجامع الأربع فمبنية من الحجر فتحت بأعلاها شبابيك معقودة وتوجت بشرفات مسننة، وامتازت بأبراجها المقامة بأركان الجامع الأربعة وبمداخلها الثلاثة البارزة عن سمت وجهاتها. ويقع أكبر هذه المداخل وأهمها في منتصف الوجهة الغربية قبالة المحراب. وقد حلّي هذا المدخل كما حلّي المدخلان الآخران الواقعان بالوجهتين البحرية والقبلية؛ بمختلف الزخارف والحلّيات، فمن صفف معقودة بمخوصات إلى أخرى تنتهي بمقرنصات ذات محاريب مخوصة، إلى غير ذلك من الوحدات الزخرفية الجميلة، اقتبس أغلبها من زخارف وجهات الجامع الأقمر وجامع الصالح طلائع ومدخل المدرسة الصالحية. وكانت المنارة تقع في منتصف الوجهة الغربية أعلى المدخل الغربي، ويبقى رواق القبلة مخصصاً لإقامة الشعائر الدينية. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر العربية.

كما اهتم بيبرس بتجديد الجامع الأزهر، فأعاد للأزهر رونقه، فشن عليه حملات من الترميم والتجميل، حتى عاد له جماله ومكانته مرة أخرى، وأعاد خطبة الجمعة والدراسة إليه بعد أن هجر طويلاً، ونصب أربعة قضاة شرعيين، واحداً من كل مذهب من مذاهب السنة الأربعة بعد أن كان القضاء مقتصراً على قاضي قضاة شافعي.

وفي خارج مصر قام بعدد من الإصلاحات في الحرم النبوي بالمدينة النبوية، وقام بتجديد مسجد إبراهيم عليه السلام في الخليل، وزار بيت المقدس يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م، فقام بتجديد ماتهدم من قبة الصخرة، وجدد قبة السلسلة وزخرفها، ورتب برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة آلاف درهم. وأنشأ بها خاناً للسبيل نقل بابه من دهليز كان للسلاطين المصريين بالقاهرة. وقد زار بيت المقدس في شعبان سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م وأجرى عليها تعميرات إضافية. وعمل على إقامة دار للعدل للفصل في القضايا والنظر في المظالم.

Main entrance المدخل العمومي

THE MOSQUE OF SULTAN AZ-ZAHIR BAYBARS جامع السلطان الظاهر بيبرس

صورة قديمة لجامع السلطان الظاهر بيبرس







صور منتقاة لجامع السلطان الظاهر بيبرس ٦٦٥-٦٦٧ هجرية = ١٢٦٧ -١٢٦٩م، وهو في مراحل الترميم بالتعاون بين الجهات الدينية الرسمية في جمهورية مصر والبعثة الكازاخستانية. بعدسة الأخ أحمد عزت

السلطان قلاوون الألفـــي

٦٧٨ - ٦٨٩ هـ

هو قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي أبو المعالي وأبو الفتوح السلطان الملك المنصور، أحد المماليك البحرية، اشتراه الأمير علاء الدين «آق سنقر» بألف دينار وهو مبلغ ضخم يدل على أهمية صاحبه ومايتمتع به من مواهب، فعُرف بالألفي، وبعد موت سيده انتقل الى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأصبح لقبه الألفي العلائي الصالحي النجمي أبا الناصر محمد. يعود أصل قلاوون إلى منطقة القبجاق الواقعة شمالي البحر الأسود، وهو السابع بين الملوك الأتراك الذين حكموا مصر، والرابع ممن مسّه الرق. وعلى الرغم من أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة للسلطة إلا أن أسرة قلاوون شذّت عن القاعدة واحتفظت بمنصب السلطنة لأكثر من قرن من الزمن، مما يعدّ حدثاً متميزاً بين المماليك، وهذا يدّل على أهمية ماقدمته هذه الأسرة من جهة، وعلى الالتفاف الشعبي حولها من جهة ثانية، وقد مثّلت هذه الحقبة عصر الازدهار في دولة المماليك[١].

أخـذ نجـم الأمير قـلاوون يرتقي بسرعة في أثنـاء الأحداث التي رافقت قيـام سلطنة المماليك، فقد أصبـح أحد زعمـاء البحرية البارزين. وقد غادر مصر إثر مقتل زعيم المماليك البحرية أقطاي في عهد أيبـك، وعـاد إليها زمـن بيبرس في أثناء تصدّيـه للمغول، وقد اعتمد عليه بيبرس فـي كثير من أعماله الحربيـة والسلمية. تقرّب إليه بيبرس بالمصاهرة، فزوج ابنـه الملك السعيد بركة من ابنة قلاوون غازية خاتـون، ولكـن هذه المصاهـرة لم تنه أحلام قـلاوون بالسلطة وطموحاتـه وهو يرى أنه الأكفـأ، وقبوله بسلطنـة أحد زملائـه لايعني بالضرورة القبـول بسلطة ولده، ومع ذلك فقد اختـار الطريق الدبلوماسي للوصـول إلى السلطـة وبطريقـة مدروسـة، وتدريجيًّا لمـا كان يتمتع به مـن ذكاء وبعد نظـر، ولم يحاول مساعدة صهره الملك السعيد عندما حاصره أمراء المماليك، وإنما نصحه بالتنحي عن السلطة، وقبل أن يكون أتابكاً للسلطان الجديد الأمير بدر الدين «سلامش» ابن السلطان بيبرس[٢].

وفـي هـذه الحقبة مهدّ لنفسه الطريق للوصول إلى السلطة فعزل كثيراً من مماليك بيبرس ومن الولاة الذيـن عينّهـم، وأحلّ محلهم مماليك موالين لـه، وتقرّب من زملائه وأحسن إليهـم، وتخلصّ من بعض منافسيه بإبعادهم عن مصر مثل: الأمير شمس الدين سنقر فقد عيّنه نائباً للسلطنة في الشام. واستقر رأي زعماء المماليك على خلع سلامش وتولية سيف الدين قلاوون منصب السلطنة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م. وُصف قلاوون بأنبل الصفات، فإلى جانب صفاته الشخصية كحسن الصورة واكتمال الرجولة، فقد كان تـام الشـكل مستدير اللحيـة، عليه هيبة الملك، ويتميـز بالحشمة والسكينة والوقار. وفـوق ذلك كان حليماً

---

١ - ٢، عبد الكريم العلي، موسوعة المعرفة، مج ١٥، ص ٤٩١.

عفيفاً في سفك الدماء كارهاً للأذى مهيباً وشجاعاً.

تقرب قلاوون من العامّة بطيب أعماله، وأقام عدداً من المنشآت العمرانية، منها مدرسة، وبيمارستان رتّبه على منوال بيمارستان نور الدين محمود في دمشق. لم يسلم قلاوون من المؤامرات والفتن الداخلية، فقد خرج عليه شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطنة بالشام، وأعلن نفسه ملكاً باسم الملك الكامل، ولكنّه لم يلق التأييد من الشاميين، ودخل في سلسلة من الصراعات مع السلطان قلاوون انتهت بخسارته، ومع ذلك عفا عنه المنصور، وعينّه حاكماً على إقليم إنطاكية، ونتيجة لمواقف المماليك الظاهرية منه؛ أنشأعصبية خاصة به من المماليك الذين اشتراهم ورباهم تربية خاصة في أبراج القلعة، ولذلك عرفوا **بالمماليك البرجية**، واعتمد عليهم كثيراً لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية. وعلى الصعيد الخارجي، فقد تصدّى لجيش المغول بقيادة **أبغا بن هولاكو**، وخاض ضدهم معركة فاصلة في ضواحي **حمص**، انتهت بهزيمة المغول وانتصار المماليك نصراً كبيراً[١].

واغتنم فرصة ضعف الصليبيين وما يسببه وجودهم من خطر، فأنزل بهم ضربة قاصمة؛ إذ استولى على **حصن المرقب وجبلة واللاذقية**، وحاصر **طرابلس وفتحها**، وتهيأ لحصار عكا، ولكن المنيّة حالت دون ذلك فقد وافاه الأجل فجأة، ودفن في تربة بين القصرين لتنتقل السلطة بعده إلى ولده الأشرف خليل.

مســـتند تاريـــخي

(السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي النجمي، السابع من ملوك الترك بالديار المصرية، والرابع ممن مسه الرق. ملك الديار المصرية بعد خلع الملك السعيد، وصار مدبر مملكة الملك العادل بدر الدين سلامش إلى أن خلع سلامش، وتسلطن الملك المنصور قلاوون هذا من بعده في حادي عشرين، وقيل عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، وجلس على سرير الملك بأبهة السلطنة وشعار الملك وتم أمره. ولما استقل بالمملكة أمسك جماعة كثيرة من المماليك والأمراء الظاهرية وغيرهم، واستعمل مماليكه على البلاد والقلاع. فلم يبلع ريقه حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب دمشق، فإنه لما وصل إليه البريد إلى دمشق بسلطنة المنصور قلاوون في يوم الأحد سادس عشري رجب، وعلى يده نسخة يمين التحليف للأمراء والجند وأرباب الدولة وأعيان الناس، فأحضروا إلى دار السعادة بدمشق وحلفوا إلا الأمير سنقر الأشقر نائب الشام، فإنه لم يحلف ولا رضي بما جرى من خلع سلامش وسلطنة قلاوون، فلم يلتفت أهل دمشق إلى كلامه. وخطب بجامع دمشق للملك **المنصور قلاوون** وجوامع الشام بأسرها خلا مواضع يسيرة توقفوا، ثم خطبوا بعد ذلك).

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢٦ / ١.

١ - عبد الكريم العلي، موسوعة المعرفة، مج ١٥، ص ٤٩١.

كان من الطبيعي أن يركز المماليك جهودهم للاستيلاء على عكّا، منذ بدأ الظاهر بيبرس نشاطه العسكري في بــلاد الشــام. فسقوطهــا سيؤدي بالضــرورة إلى تهاوي المناطق الصليبيــة الواقعة في دائــرة نفوذها، **ولا سيما الشريـط الساحلي بين بيروت وصـور**. وقد أسفرت العمليات العسكرية عن عقد السلطان اتفاقية **هدنة مع أسياد عكّا** عام ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ م، مدتها عشر سنوات.

أمــا المنصــور **قلاوون**، فقد سعــى حثيثاً لمنع التقارب بــين **الصليبيين والمغول**، وهذا مــا يعلل تعهده بضمان سلامــة أملاك أسياد عكّا من أي اعتداء، كي يتفرغ لجبهة غزوات المغول لبلاد الشام. فأعاد السلطان للصليبيين بعضــ الأراضــي التي سبــق أن استولى عليها، ومنــه ضمانات للنصــارى القاصدين من بلاد عــكّا زيارة **كنيسة الناصـرة**. وتشـير بعضــ نصوص هدنة عكّا إلى حالة القلــق التي كانت تراود السلطان قــلاوون من شيوع أخبار مشاريــع التحالــف بــين الصليبيــين والمغول، وهــي مشاريع عمــل اللاتين علــى تحقيقهــا جدّيًا، لضمــان سلامة مستعمراتهــم فــي فلسطين. لذا حرص السلطان علــى تضمين الهدنة نصاً يلزم أسياد عــكّا بإنذاره بعزمهم على فسخ الهدنة قبل شهرين على الأقل من قدوم صليبية جديدة إلى الشرق. أما إذا علم أحد الطرفين بحركة المغول، أو أي شعــوب أخــرى آتية من سهوب آسيا باتجــاه الشام، فيتوجب عليه أن يخطر الطــرف الآخر بذلك كي يتدبر أمــره، ويستعــد لمواجهة الخطر الداهم. ولأن خطر المغول يستهدف **المسلمين** أساساً، فقد تعهد أسياد عكّا بتوفير الحماية لهؤلاء إذا ما أرغموا على الانهزام أمام المغول إلى بلاد مملكته[١].

لقد كانت الحالة التي سادت بلاد الشام على أهبة الاستعداد من تكرار هجمات المغول، وترقب المماليك الدائم لحركــة المــدد الأوروبيــة إلى الشرق، فضــلاً عن التنافــس الحاد بين أمــراء اللاتّــين أنفسهم، قد دفــع المماليك والصليبيــين إلى **تجديـد الهُدن**، فإن ثمة عاملاً كان لــه أهمية أبعد مدى في الزمان أفسد كل جهد ممكن ذلك بأن المماليك المطعون في مشروعيتهم من أنصار الأيوبية ومن بقايا الدولة العبيدية في مصر والشام، وجدوا في **إحياء خلافة بني العباس في القاهرة**، بعد سقوطها في بغداد على يد المغول عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، فرصة لإضفــاء صفــة الشرعية الدينية على حكمهم، **ورأوا في متابعة حركـة الجهاد ضد الصليبيين والمغول ما يعـزز مكانتهـم لـدى المسلمـين كافة، ويجعـل سلاطين المماليـك في مرتبـة أعلى من حـكام البلاد الإسلاميـة الآخريـن؛ باعتبارهم حماة الإسلام والخلافة الإسلامية**. لــذا لم يكن بوسع المماليك أن يرضــوا باستمرار وجود دولة أجنبية دخيلة على بلاد المسلمين، بالرغم من "علاقات حسن الجوار" التي ضمنتها اتفاقيات الهدن، ولو إلى حين[٢].

---

١ - ٢، د.أحمد حطيط، تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي. الصليبي.

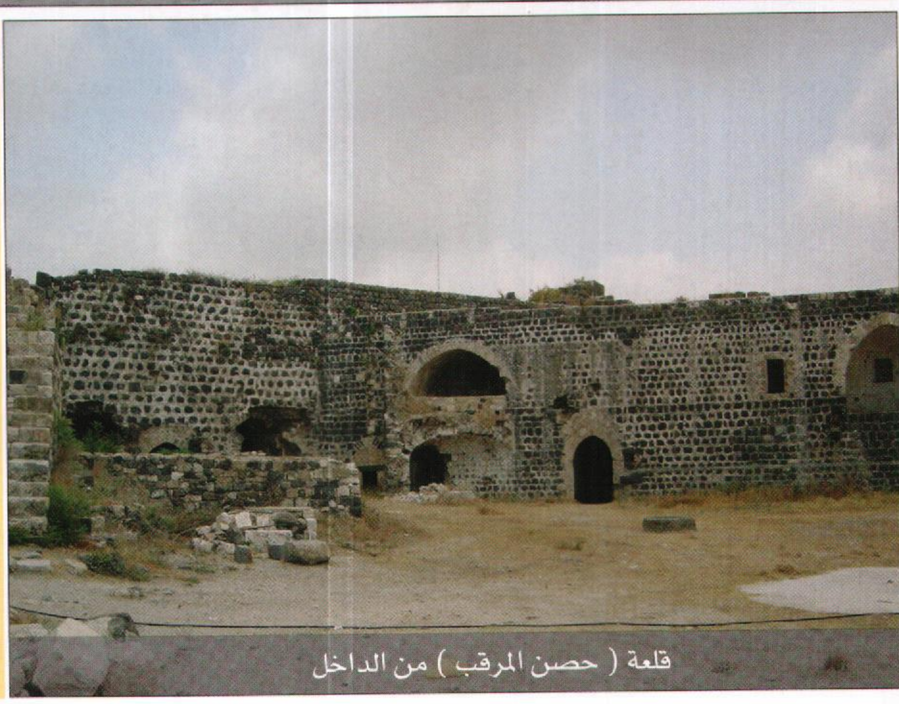
تصفية التجمعات الصليبية في بلاد الشام في عهد قلاوون



واصـل **المماليـك** جهادهـم ضـد **الصليبيـين** في عهد السلطـان "**المنصور قـلاوون**"، الذي تولى السلطنة في سنـة (٦٧٨هـ= ١٢٧٩م)، فاستـولى علـى "**حصن المرقب**" سنـة (٦٨٤هـ= ١٢٨٥م)، واسترد "اللاذقية" سنـة (٦٨٦هـ= ١٢٨٧م)، وفتح "طرابلس" بعد حصار دام شهريـن في (٦٨٨هـ= ١٢٨٩م) ثم تلتهـا "بيروت" و"جبلة"، **ولم يبق للصليبيين في الشام سوى "عكّا" و"صيدا" و"عثليت" وبعض المدن الصغيرة**، وتجهز لفتـح "عكّا"، غير أن المنيـة كانت أسبق مـن إنجاز أمله؛ فتوفـي فـي (ذي القعدة ٦٨٩هـ= نوفمبر ١٢٩٠م).

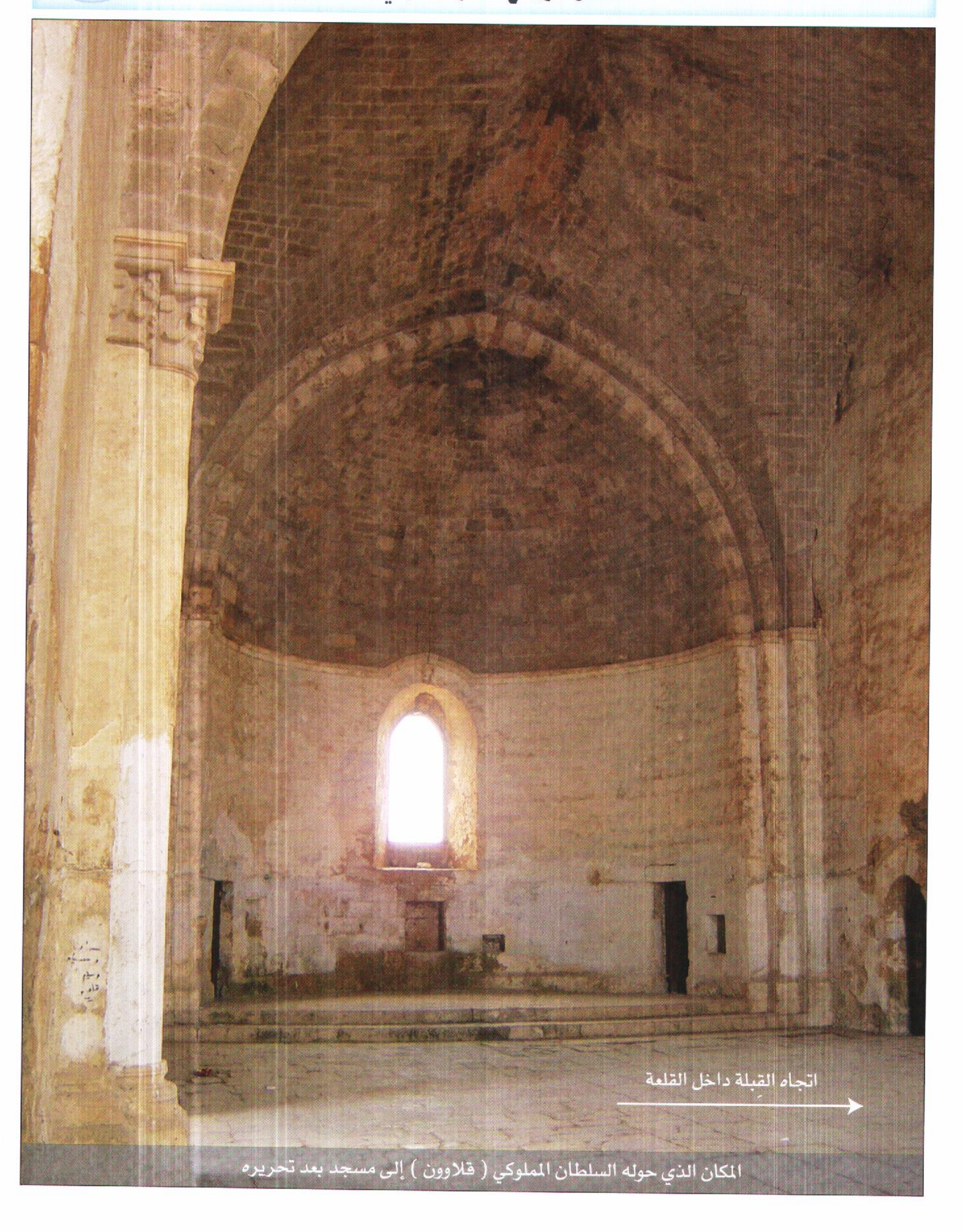
لقـد اندرجـت **اتفاقيـات الهُدن** المعقـودة مـع الصليبيـين فـي سيـاق إستراتيجيـة عمادهـا إقامـة الأحـلاف واستفراد الأعـداء، أرسـى قواعدها السلطـان المظفـر قطـز (٦٥٧-٦٥٨هـ/ ١٢٥٩-١٢٦٠م)، حـين نجح عشية معركـة عين جالـوت (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، فـي عقد اتفاقية مـع بارونات **عكّا** قضـت بالتزامهـم الحيـاد من الصـراع المملوكـي-المغولي، والسمـاح لجيشه باجتيـاز أراضـي عـكّا، وهـو في طريقـه إلى ساحـة المعركة. وتابـع سلاطين المماليـك سياسة سلفهم قطز، ونقضوا عهودهم مع الصليبيين حينما يشتمون منهم رائحة الغدر والخيانة، في أثناء مجيء تعزيزات صليبية ضد المسلمين !؟

المؤلف أمام واجهة القلعة (حصن المرقب) الذي استعاده السلطان **قلاوون** من أيدي الصليبيين


قلعة (حصن المرقب) من الداخل

قلعة (حصن) المرقب: حصن يقع على بعد ٥ كم جنوب شرقي بانياس (محافظة طرطوس). بناها العرب عام ١٠٦٢م. احتلها الصليبيون عام ١١١٧م، وأصبحت من أهم مواقعهم الحصينة في المنطقة. استعادها **السلطان قلاوون** في العام ١٢٨٥م، بعد قتال عنيف وحصار استمر ٣٨ يوماً، وتم جلاء حامية القلعة إلى إمارة عكّا. **كانت هزيمة الصليبيين في المرقب إيذاناً بانتهاء وجودهم في الشرق.**

أمر قلاوون بتحصين القلعة وترك فيها فرقته من المماليك البحرية. يحيط بالقلعة سوران، داخلي وخارجي، يحتوي الأخير على ١٤ برجاً دفاعيًا، لعل أهمها البرج الجنوبي، **وهو برج ضخم تزينه أحجار بيضاء نقش عليها تاريخ فتح القلعة على يد قلاوون**. من أجزاء القلعة المهمة أيضاً قاعة الفرسان والقاعة الكبيرة وكنيسة تعود للقرن الثاني عشر.



المكان الذي حوله السلطان المملوكي (قلاوون) إلى مسجد بعد تحريره

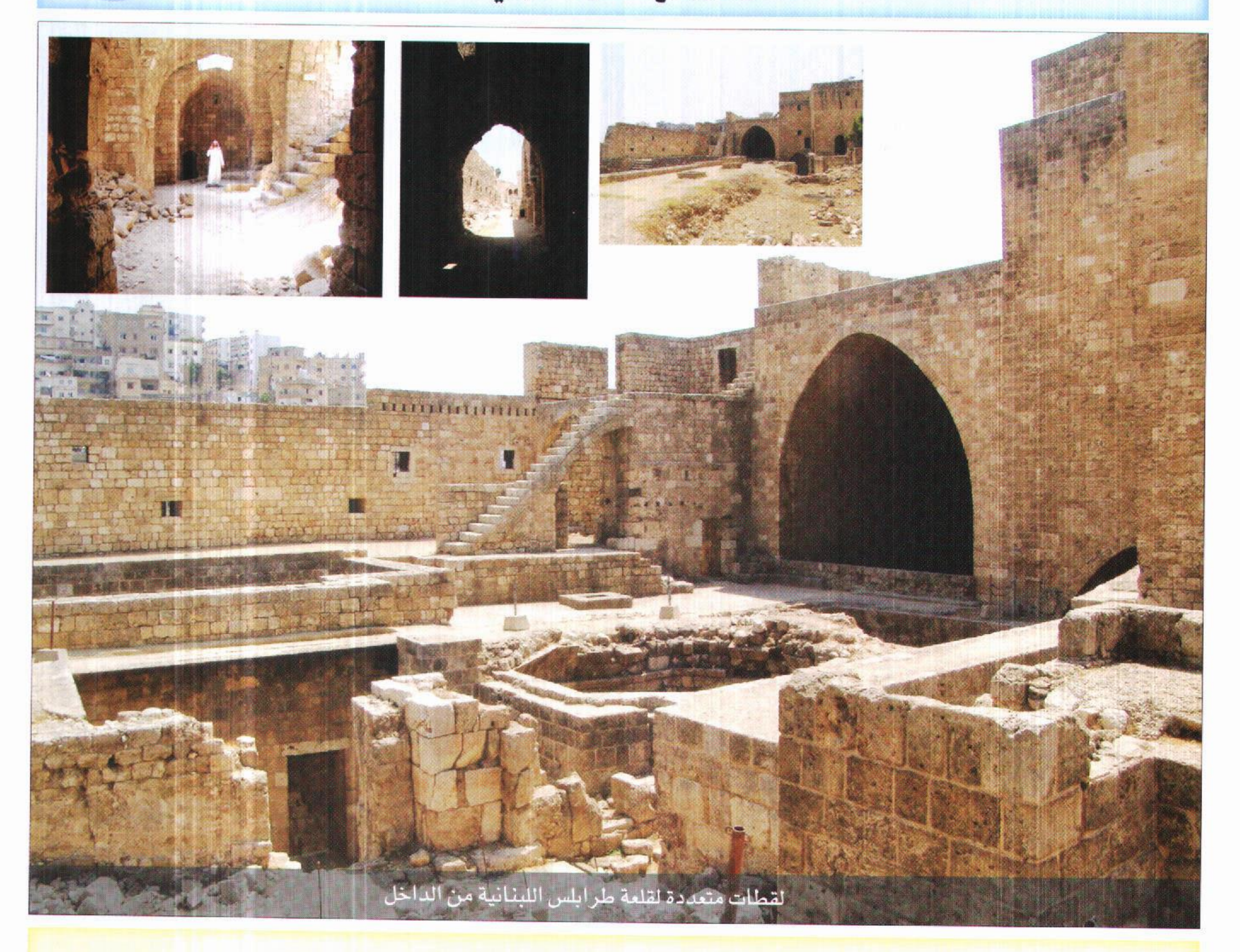
(ولا يـزال ـ الأثر الأندلسـي ـ المغربي زاهراً في عمارة طرابلس المملوكية، فـي الهندسـة والتزيينـات والكتابـة بالخط المغربي، والمظاهر الأخرى... ويمكـن القـول: إن جماعـــة مـن الأندلسيين والمغاربـة كانوا من جملة المتطوعـة الذين أتوا مـن مصـر مع جيش المنصور قلاوون) وأسهموا في فتح طرابلس وتحريرها من الفرنجة سنـة ٦٨٨ هــ/ ١٢٨٩ م، ثـم نزلوها واستوطنوها، وشاركوا في إعادة بناء مدينـة المنصـور. لبنـان مـن السقـوط بيـد الصليبيين، ص ٣٦٨.



واجهة قلعة طرابلس اللبنانية من الخارج التي حررها السلطان المملوكي قلاوون

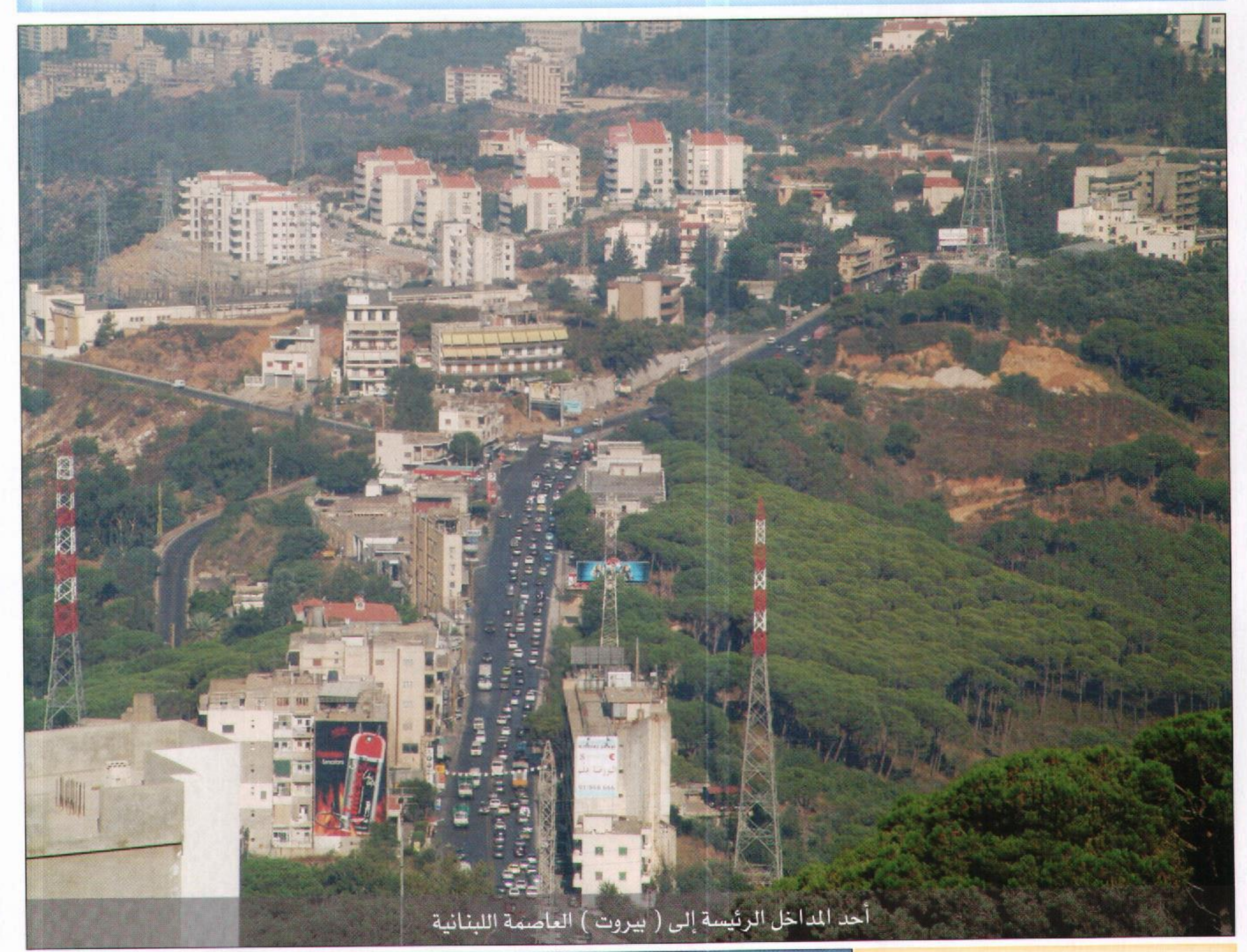
أخــذ **الصليبيـون** سنـة ١١٠٠م، يشـددون حملاتهم على سواحل المنطقة قصـد التوغّـل إلى بيـت المقدس فـي فلسطين، وكان ريمون دي صنجيل يحلم بإنشاء إمـارة له ولأولاده في **طرابلس**، وقـد حـاول أكـثر مـن مـرة بمساعـدة الأساطيـل **الجنويـة الإيطاليـة** خـلال سنـوات عدة فلـم يفلح، وقـد تابع خلفه محاصـــرة طرابلس وتمكنـوا مـن الاسـتيـلاء عليهـا عـام ١١٠٩م، وظل يحكمـون فيهـا ومن بعـده أولاد وأحفاد ريمون دي صنجيل حتى العام ١٢٨٩م.

مدخل القلعة



لقطات متعددة لقلعة طرابلس اللبنانية من الداخل

كان التنافس بين الأمراء الصليبيين على الحكم على أشدّه، مما أضعف قوتهم وشتت شملهم، وهنا وجد **المماليك** في مصر الفرصة سانحة أيام **حكم السلطان قلاوون** الذي جهز حملة عسكرية كبيرة من ٤٠ ألف فارس، و١٠٠ ألف جندي من المشاة، حيث حاصر طرابلس في أول آذار من عام ١٢٨٩م، وظل يهاجمها حتى ٢٦ نيسان أي لمدة ٣٤ يوماً، واستولى عليها وقتل كل من غدر فيها من الصليبيين، والذين تمكنوا من النجاة الغادرين، **ولجأوا إلى جزيرة صغيرة قبالة ساحـــل طرابلس** حيث كان يوجد فيها كنيسة، لحقت بهم **جيوش السلطان قلاوون** وقتلت الغادرين منهم. وبعد استيلاء المماليك على طرابلس، أمر السلطان **قلاوون** بهدمها ولم يبق فيها حجر على حجر، ثم أمر ببناء مدينة "طرابلس"، من جديد على ضفتي النهر. بقيت طرابلس تحت حكم المماليك قرنين وربع قرن، حتى دخلت قوات السلطان سليم العثماني البلاد العربية وأنهت حكم المماليك فيها، واستمر حكم العثمانيين أربعة قرون إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، ودخل الحلفاء منطقة الشرق الأوسط؛ وكان لبنان من نصيب الفرنسيين، حتى نال لبنان استقلاله فيما بعد.



أحد المداخل الرئيسة إلى (بيروت) العاصمة اللبنانية

باسترجاع المسلميـن طرابلس، فقد **الصليبيون** بعدها، **بيروت** وجبلـة وما حولها مـن الحصون دون مقاومة تُذكر.

ولم يبق في حوزتهم بالسواحل الشامية سـوى مدينة **جبيل** التي أقر السلطـان **قلاوون**، حاكمها الصليبـي عليها مقابـل مبلغ من المـال، بالإضافـة إلى مـدن عكّا وصور وصيدا، وحصن عثليت.

واجهة متحف (بيروت) في العاصمة اللبنانية



المدخل الرئيس **لقلعة جبيل** التاريخية في لبنان التي أقر السلطان قلاوون، حاكمها الصليبي عليها مقابل مبلغ من المال

علـى مـدى أكثر من ثلاثة قرون ارتبط مصـير **مدينة جبيل** بمصير مدينة طرابلـس، التي أكّدت هيمنتها كعاصمـة إقليميـة على البلاد الممتدّة من نهر الكلـب جنوباً حتى طرطوس شمالاً. بقـي الأمر كذلك في المرحلة الصليبيـة التي دامت حوالي قرنين من الزمـن، أي من مطلع القرن الثاني عشر (حزيران ١٠٩٨م تاريخ سقوط إنطاكيـة بأيـدي الصليبيـين) حتـى أواخـر القرن الثالـث عشـر (آب ١٢٩١م تاريـخ فتح طرطوس على أيدي المماليـك)؛ فقـد ظلّت إقطاعيـة جبيل بزعامة أمـير الات آل الأمبرياتشـي الجَنَويين تابعـة لإقطاعية طرابلس (كونتية) بزعامة كونتات آل تولوز الفرنسيين.

ومـع مطلـع القرن الرابـع عشر وحتى منتصفه كانت جبيل جـزءاً من الدولة الأيوبيـة المتمركِزة في القاهرة، وانتقلـت إلى الدولـة المملوكية بعـد استلام المماليـك السلطة في مصر، وظلـت ترنو باتّجـاه طرابلس، المدينة المستقطبة التي ازدانت في هذه المرحلة بمجموعة رائعة من الأعمال المعمارية، التي لا تزال فخراً لمدينة اليوم.

معركة حمص الثانية ١٤ رجب سنة ٦٨٠ هـ

وقعت معركـة **حمص الأولى** بتاريخ ٥ محرم ٦٥٩هـ / ١٠ ديسمبر ١٢٦٠م فـي عهد السلطان الظاهـر بيبرس، ما بين جيش مغول الإلخانات، وقـوات يقودها الملك الأشرف موسى شيركوه صاحب حمص والملك المنصور صاحب حماة وزامل بن علي أمير بني ربيعة. وكان ذلك بعد انتصار المماليك بقيـادة قطز على المغول في معركة عين جالـوت، حيث أعدم هولاكو خان سلطان دمشق الأيوبي وبقية الأمـراء الأيوبيـين الذين عنده كنوع من الانتقام، وبذلك انتهى حكم الأيوبيـين بالشام. وأيضاً أوقفت نتيجة المعركة زحف المغول وأخرجتهم خارج الشام. وبسبب الحرب الأهلية الدائرة ما بين هولاكو وابن عمه- بركة خان - الذي غضب لتدمير هولاكو بغداد، فأراد الانتقام لذلك فثارت حرب ما بينهما.

أما معركة **حمص الثانية** وقعت بالقرب من مدينة حمص بتاريخ ١٤ رجب ٦٨٠ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٢٨١م بـين جيش مغول الإلخانـات ومركزهم في إيران وهـم جزء من إمبراطوريـة المغول، وبين المماليـك بقيادة **المنصور قـلاوون**. وتلك المعركة هـي المحاولة الثانية **لأبغا خـان** للاستيلاء على الشـام مـرة أخرى. فبعد هزيمة المغول في عين جالوت ثم عند بلـدة "أبلستين" بآسيا الصغرى في ١٠ ذي القعـدة ٦٧٥ هـ بقيادة بيبرس أيضاً. أرسل أبغا خان هذه المرة أخوه **منكوتمر** بجيش ضخم يقـارب مـا بين ٥٠ إلى ٨٠ ألفـاً من المغول، وبإسنـاد ٣٠ ألف أجنبي؛ غالبيتهم مـن جورجيا بقيادة ملكهم ديمتريوس الثاني، والأرمن بقيادة ليو الثالث.

علم **قلاوون** من أسير مغولى إن المغول يستعدون لغزو الشام بحوالى ٨٠ ألف محارب، فكتب إلى مصـر وغيرها من البـلاد يستدعي الجيوش لأجل اقتراب مجيء المغول، فقـدم الناس عليه ووفدوا إليه من كل مكان، وجاءته التركمان والأعراب وغيرهم، وكثرت الأراجيف بدمشق، وكثرت العساكر بها. ووصلت المغول صحبة **منكوتمر** بن هولاكو إلى **عنتاب**، وسارت العساكر إلى نواحي **حلب** يتبع بعضهـا بعضاً، فكتب السلطان المنصور قـلاوون إلى سنقر : "إن التتار قد أقبلوا، والمصلحة أن نتفق عليهـم، لئـلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم، وإذا ملكوا البلاد لم يدعـوا منا أحداً"، فكتب إليه سنقر بالسمع والطاعة، فتم الصلح بينهما، واقطع لسنقر إنطاكية وأفامية.

قـرر قلاوون عقـد هدنة مع الإمارات الصليبية ليأمن جانبهم خلال صراعه مع المغول، فالمعروف أن بيبرس عقد هدنة مع عـكا سنة ١٢٧١م لمدة عشر سنوات، وعقد قـلاوون سنة ١٢٨١م هدنة مع بوهمنـد أمير طرابلس، وبذا يكون قد أمن جانـب الصليبيين في معركته القادمة مع المغول. فامتنع الفرنجـة عـن الانحيـاز لأي طرف عند مرور قـلاوون بجيشه شمـالاً لملاقاة المغـول، إلا أن الجنود

معركة حمص الثانية ١٤ رجب سنة ٦٨٠ هـ



القائـد المغولي (أبغا خان) يرسل أخاه (منكوتمر) وهو في كبادوكيا في آسيا الصغرى بجيش ضخم يقارب ما بـين ٥٠ إلى ٨٠ ألفاً من المغول وإسنـاد ٣٠ ألف أجنبي غالبيتهم من جورجيا بقيـادة ملكهم ديمتريوس الثاني والأرمن بقيادة ليو الثالث.

توجـه فـي جمادى الآخرة سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م **جيشان مغوليان** إلى بلاد الشام:

خـرج الجيش الأول من إقليم الجزيرة وتعـداده ٣٠٠٠ فارس بقيادة (أبغا خان)، وتولى في أثناء زحفه إخضاع المدن والحصون الإسلامية على امتداد نهر الفرات، ومر في طريقه بالرحبة ورابط هناك بهدف مراقبة التحركات المملوكية.

وخرج الجيش الثاني مـن كبادوكيا عن طريـق عينتاب قاصـداً حمص للاصطـدام بالمماليك، وتعداده مائة ألف جندي بقيادة منكوتمر أخي أبغا، وضم القوات المغـول الرئيسة، وانضم إليه ليون الثالث ملـك أرمينية الصغرى، وجموع مختلفـة من الكرج والعجم وغيرهم، وهبط وادي العاصـي بعد أن اجتاز عينتاب وحلب ووصل إلى ظاهر حمص.

اصطدم **الجيشان** ضحى يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠ هـ، بالقرب من مشهد خالد بن الوليد في رحى معركة طاحنة، قال ابن كثير: (واقتتل الجنود من الطرفين قتالاً عظيماً لم يُر مثله من أعصار متطاولة). وأسفر القتال عن انتصار واضـح للقوات المملوكية، وقتل الكثير من جنود المغول، وجرح منكوتمر وتوفي بعد عام متأثراً بجروحه.

اجتـاز المغـول المنهزمون نهـر الفرات الذي أضحـى حداً فاصلاً بـين الدولتين المغوليـة والمملوكية، ولم يغامر قلاوون بمطـاردة الأرمن وإنزال العقاب بهم، فعاد إلى دمشق ثم إلى القاهرة.

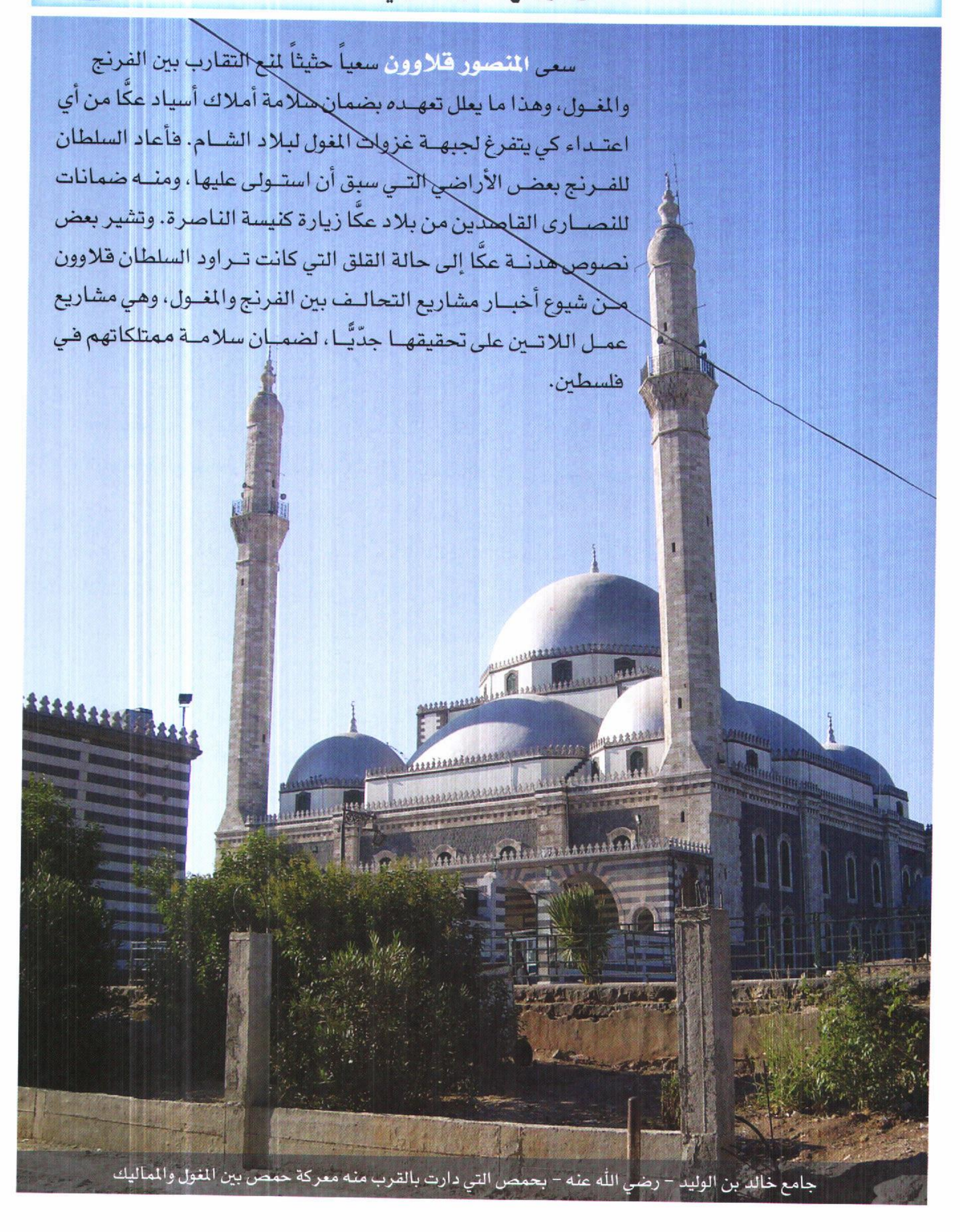
الوضـع السياسـي كان السلطان المملوكي "قـلاوون الصالحي" الحاكم علـى مصر وبعض بلاد الشـام، "وسنقـر الأشقر" الحاكم على دمشق وأعمالهـا، و"مسعـود بن الظاهر" الحاكـم على الكـرك، و"ناصر الدين محمد بن تقي الدين" الحاكم على حماة، و"يوسف بن عمر" الحاكم على اليمن، و"نجم الدين بن أبي نمي الحسني" الحاكم على مكة، و"عز الدين جماز الحسيني" الحاكم على المدينة.

الأسبتارية **بالمرقب** لم يعدوا أنفسهم داخلين في عقد الهدنة الذي اشتركت فيه فرسان الرهبان بعكّا، فانحازت جماعة منهم إلى ملك أرمينية.

نزل المغول بقلعة **الرحبة** في أواخر جمادى الآخرة جماعة من الأعراب، وكان فيهم ملك المغول إبغا ينظر ماذا يفعل أصحابه، وكيف يقاتلون أعداءه. والسلطان المنصور معسكراً في **حمص** في عساكر كبيرة من الأتراك والتركمان وغيرهم ، وأقبل المغول في مائة ألف مقاتل أو يزيدون.

عند **بداية المعركة** عسكر المغول في مائة ألف فارس، وعسكر المسلمون على النصف من ذلك أو يزيد قليلاً. والجميع فيما بين **جامع خالد بن الوليد** إلى الرستن. على ميمنة الجيش المغولي قوات الكرج ومعهم ليو الثالث ملك قليقية والأسبتارية، وعلى ميسرة الجيش أمراء المغول ويقود منكوتمر قلب الجيش. واصطف المسلمون بحيث أخذ صاحب حماة وبعض أمراء المماليك ميمنة الجيش، ووقف العرب بقيادة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا من قبيلة بني مرة، وآل فضل أبناء ربيعة في أربعة آلاف فارس. وشغل سنقر الأشقر مع خيالته التركمان الميسرة. ووقف في الصدر ٤ آلاف شركسي برجي ووحدات أخرى منتقاة من المماليك. واتخذ قلاوون لنفسه موقعاً على تلة صغيرة يستطيع منها أن يراقب سير المعركة ومعه مئتي مملوك. ثم بدأت المفارز المغولية تظهر، وتشكل أمام المماليك وحلفائهم جيش من المقاتلة أخذ مساحة ما بين مشهد خالد بن الوليد في حمص إلى الرستن، أي حوالي ٢٠ كم.

وفي يوم الخميس رابع عشر رجب التقى الجمعان وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس. فهاجم المغول ميمنة الجيش بوحشية عنيفة، فثبتت الميمنة بعناد كبير أمام الهجوم، فانقض هؤلاء بدورهم على المغول ودفعوا ميسرته إلى الصدر. ولكن في أثناء ذلك انسحقت الميسرة بقيادة سنقر وهرب باتجاه أسوار حمص، فاضطربت الميمنة أيضاً. وكسر جناح القلب الأيسر وثبت **السلطان قلاوون** ثباتًا عظيمًا جدًا في جماعة قليلة، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين، والتتار ومعهم الأرمن والأسبتارية في آثارهم حتى وصلوا وراءهم إلى بحيرة حمص، ووصلوا حمص وهي مغلقة الأبواب، فقتلوا خلقًا من العامة وغيرهم، ولكن مماليك سنقر استمروا بالهروب بلا توقف باتجاه دمشق، وهم ينشرون أنباء هزيمة المسلمين، مما خلق جوًّا من الذعر الرهيب في مؤخرة جيش قلاوون، وأشرف المسلمون على خطة عظيمة من الهلاك. ولكن **قلب الجيش المملوكي ومعهم السلطان وقف بثبات**، وأمر قلاوون بقرع الطبول، وهي إشارة على التجمع. فرجعت بعض فلول تتحرك صوب الوسط، وبدا جليًّا أن المعركة قد حسمت للمغول.



سعى **المنصور قلاوون** سعياً حثيثاً لمنع التقارب بين الفرنج والمغول، وهذا ما يعلل تعهده بضمان سلامة أملاك أسياد عكّا من أي اعتداء كي يتفرغ لجبهة غزوات المغول لبلاد الشام. فأعاد السلطان للفرنج بعض الأراضي التي سبق أن استولى عليها، ومنه ضمانات للنصارى القاصدين من بلاد عكّا زيارة كنيسة الناصرة. وتشير بعض نصوص هدنة عكّا إلى حالة القلق التي كانت تراود السلطان قلاوون من شيوع أخبار مشاريع التحالف بين الفرنج والمغول، وهي مشاريع عمل اللاتين على تحقيقها جدّيًّا، لضمان سلامة ممتلكاتهم في فلسطين.

جامع خالد بن الوليد - رضي الله عنه - بحمص التي دارت بالقرب منه معركة حمص بين المغول والمماليك

فــي أثنــاء ذلك سار الأمـير **أزدمير الحاج** أحد قادة المماليك علـى حصانه، وبرفقته بضعة من المقاتلـين باتجـاه المغول صائحاً: إنــه يستسلم لرحمة منكوتمر. وبعد أن اقـترب من المغول، قال: إنه يرغب في أن يخبر القائد أمراً مهماً، فاصطحب أزدمير ومقاتلوه إلى خيمة الخان. وبمجرد أن رأى أزدمير **منكوتمر** حتى هاجمه وضربه برمحه وأسقطه عن حصانه. ففقد منكوتمر الوعي من شدة الضربــة، فاعتقـد من حوله أنه قد قتـل، تبع ذلك اضطراب رهيب، وقـام مماليك أزدمير بمذبحة حقيقيــة وهــم يحمون قائدهم. وماتوا جميعــاً من ضربات حرس الخــان الشخصيين، **وقد أوجد سقـوط منكوتمر الذعر في صفوف المغـول**، وكان المماليك ينتظرون تلك اللحظة، ثم هاجموا العــدو بضراوة، فارتبـك المغول، فجاءهم الأمير عيســى بن مهنا من ناحية العرضـ فصدم المغول فاضطربـت الجيوشـ لصدمتــه، وقتلوا من المغــول مقتلة عظيمة جــداً، ولم يعــودوا يحتملون وطأة الهجوم وهربوا. هرب قسم باتجاه حلب، بينما فر الآخر باتجاه السلمية والبرية، والأخرى إلى ناحية حلب والفرات. فأرسل السلطان في آثارهم من يتبعهم.

فــي أثنــاء ذلك عاد المغول ومعهــم الملك ليو الثالث بجيشه، الذين كانــوا يطاردون سنقر، ومعهم الكثـير مـن الغنائم غنموها من ضواحــي حمص. ولم يجدوا أحداً في ساحــة المعركة، وكان السهل ممتلئــاً بجثث أخوتهــم. صدمهم هــذا المشهد، وفي تلك اللحظــة كان السلطــان وحرسه مختبئين ويمسكــون بأعنــة الخيل، وعددهم يقارب الألف، إذ إن البقية قــد تم إرسالهم خلف المغول الفارين. عندمــا اجتمع البقية من المغــول في ساحة المعركة **أعطى السلطان قـلاوون** الإشارة بالهجوم، فانقضـ المماليــك على العــدو ودارت رحى معركة رهيبــة، أجبروهم على الهــروب، وكان ذلك عند الغــروب. وقد تحمل المغــول خسائر رهيبة، فمات عــدد كبير منهم في أثناء الفــرار باتجاه ضفاف الفــرات، أكــثر ممن قتل فــي أثناء المعركة نفسهــا. واختبأت بقيتهــم بين أدغال القصــب، فأشعل المماليـك النيران في تلك الأدغال، فمات عدد كبير منهم جراء النار والدخان. وكان لزاماً على ليو أن يشق طريقه إلى الشمال، مما كبده خسائر فادحة في الأرواح.

بعد المعركة كان **أبغا** مشغولاً بمحاصرة **قلعة الرحبة**، فلما بلغه هزيمة أخوه بحمص فر هارباً بجنــده. وقــد صب جام غضبــه على أخيه منكوتمــر، فقال لــه: "لمَ لمْ تمت أنت والجيشـ بدلاً من الهزيمــة؟". بعدها بعام مــات أبغا وخلفه أخوه أحمد تكودور الذي غير سياسته بعد إشهار إسلامه، وفضل التحالف مع المماليك والمسلمين.

الهُدن بين المسلمين والصليبيين في عهد السلطان قلاوون

عنوان الهدنة	تاريخها	مدتها	طرفا الهدنة
الهدنـة بـين السلطـان قلاوون والصليبيين في عكّا.	٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م	١٠ سنوات و١٠ أشهر و١٠ أسابيع	السلطان قلاوون ومقدم الأسبتارية.
الهدنـة بـين السلطـان قلاوون وصاحب طرابلس.	٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م	١٠ سنوات و١٠ أشهر و١٠ ساعات	السلطان قلاوون وبوهيموند السابع صاحب طرابلس.
الهدنـة بـين السلطـان قلاوون والصليبيين في عكّا.	٦٨١ هـ / ١٢٨٣ م	١٠ سنوات و١٠ أشهر	السلطـان قـلاوون وأفريـر كليـام ديباجوك مقدم الداوية بعكّا.
الهدنـة بـين السلطـان قلاوون والصليبيـين فـي عـكّا وصيدا وعثليت.	٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م	١٠ سنوات و١٠ أشهر و١٠ ساعات	السلطـان قـلاوون والصليبيين في عكّا وصيدا وعثليت.
الهدنـة بـين السلطـان قلاوون وحاكمة صور.	٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م	١٠ سنوات و١٠ أشهر و١٠ أيام	السلطـان قـلاوون ومرجريـت بنت سير هنري حاكمة صور.
الهدنـة بـين السلطـان قلاوون وملك عكّا.	٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م	١٠ سنوات و١٠ أشهر و١٠ ساعات	السلطـان قلاوون والملك هنري ملك عكّا.
الهدنـة بـين السلطـان قلاوون والجنوية في طرابلس.	٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م	لم تذكره الهدنة	السلطـــــان قـلاوون والجنويـة الإيطاليين.

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون

٦٨٩ - ٦٩٢ هـ

هوالسلطـان الملـك الأشرف صلاح الديـن خليل بن سيف الدين قلاوون الألفـي الصالحي النجمي، ثامـن سلاطـين المماليك الأتـراك البحرية فـي الشام ومصـر. ولد فـي مصـر وبها نشـأ. عينه والده السلطـان قـلاوون ولياً لعهده، بعد وفـاة أخيه الأكبر عـلاء الدين علي سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م ونودي به سلطانـاً بعد وفاة أبيه قـلاوون، سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، فجدد له الأمراء والجند البيعة، وأخذ في ترتيب أمـور مصر، فأبقـى الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري نائباً للسلطنة فـي مصر، واختار لوزارته شمس الديـن محمد بن السلعوس الدمشقـي، وكان نائبه في دمشق الأمير حسام الدين لاجين، ومن بعده علم الدين سنجر الشجاعي ثم عز الدين أيبك الحموي.

لم يكن الأشرف خليل مُقرّباً من أبيه قلاوون في أيام سلطنته، حتى إنه تردد في منحه ولاية العهد، ومع ذلك فقد ناب عنه أكثر من مرة في غيابه، وخاصة عندما حاصر قلاوون مدينة طرابلس عام ٦٨٨ هـ. وقد سعى الأشرف خليل منذ توليه السلطـة إلى فرض هيمنته الكاملة على شؤون الحكم والحد من تسلـط أمراء المماليك، وتركـت مساعيه هذه بصمات قوية على عهده القصـير، فلم تكد قدم الأشرف خليـل ترسخ في الملـك حتى راح كبار الأمراء، الذيـن كان لهم باع طويل في عهد أبيـه، يتآمرون عليه، فصـادر أكثرهـم وأقصاهم عن أعمالهم، وقتل بعضهم مثل حسـام الدين طرنطاي، وسجن عدداً آخر منهـم مثل شمس الدين سنقر الأشقر، وسيف الدين بن جرمـك الناصري، وحسام الدين لاجين، وبدر الدين بَيْسَرى، وجمال الدين أقوش الأفرم المنصوري وغيرهم، وأطلق جماعة منهم بعد أن سجنهم.

مسـتند تاريـخي

(الأشـرف خليـل، خليل بن قلاوون، السلطـان الملك الأشرف صلاح الدين ابـن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، جلس على تخت الملك في ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة، بعد موت والده، واستفتح الملك بالجهاد، وسار فنازل عكا وافتتحها، ونظف الشام كله من الفرنج، ثم سار في السنة الثانية فنازل قلعة الروم وحاصرها خمسة وعشرين يوماً وافتتحها، ثم في السنة الثالثة جاءته مفاتيح قلعة بهسنا من غير قتال إلى دمشـق، ولـو طالت مدتـه ملك العراق وغيرها، فإنـه كان شجاعاً مقداماً مهيباً عـالي الهمة يملأ العين ويرجف القلب. وكان ضخماً سميناً كبير الوجه بديع الجمال مستدير اللحية، على صورته رونق الحسن وهيبة السلطنة، وكان إلى جوده وبذله الأموال في أغراضه المنتهى، تخافه الملوك في أقطارها؛ أباد جماعةً من كبار الدولة، وكان منهمكاً على اللذات؛ لا يعبأ بالتحرز على نفسه لشجاعته...).

محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي الداراني الدمشقي، فوات الوفيات، ج ١ ، ص ٣٧١.

القضاء نهائيًا على الوجود الصليبي الفرنجي في عهد السلطان (الأشرف خليل) [1]

بعد أن فتح **المنصور قلاوون** (٦٧٩- ٦٨٩ هـ) طرابلس وعزم على حصار **عكّا** ولكن المنية عاجلته. خلفه ابنه **الأشرف خليل** (٦٨٩- ٦٩٣ هـ) الذي توجه بقواته نحو عكّا، واجتمعت إليه جيوش مصر والشام سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) فقام بمحاصرتها مدة أربعة وأربعين يوماً، ورماها بالمنجنيق، حتى فتحها في جمادى الأولى من عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١م)، برغم المقاومة العنيدة التي أبدتها حاميتها، وإمدادات قبرص لها - حيث إن الصليبيين كانوا يعلمون أنها آخر أمل لهم في البقاء في الشام- وقد فر بعض سكانها إلى عرض البحر المتوسط، وتكدسوا في السفن التي غرق بعضها لكثرة من كانوا على ظهرها .

وبعد ذلك قام **الأشرف خليل** بالاستيلاء بسهولة على **بقية ما تبقى بأيدي الصليبيين** مثل: **صور وحيفا** اللتين قاومتا مقاومة كبيرة، ثم اضطرتا للتسليم فنجتا بذلك من التخريب ، ثم استولى الأشرف خليل على **عثليث (عثليت) وصيدا وانطرسوس** ، وبهذا تم القضاء نهائيًا على الوجود الصليبي في الشام، وإن كان الصليبيون في **جزيرة إرواد** المقابلة للساحل الشرقي قد ظلوا يغيرون على السواحل بين الفينة والأخرى ويقطعون الطرق، مما أزعج نائب السلطنة المملوكية على الشام، وجعله يطلب معونة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فجهز أسطولاً ووجهه نحو هذه الجزيرة بعد أن ضم إليه جيش **طرابلس**، ففتحها وملكها وقتل من أهلها خمسمائة، وذلك عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م).

وهكذا بالقضاء على **الصليبيين** في عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) وبزوال **الخطر المغولي** عن **الشام ومصر**، أصبح **لدولة المماليك** شأن عظيم في السياسة الدولية خصوصاً في عهد سلطانها الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة.

أدرك **الصليبيون** في **أوروبا** فشل محاولاتهم المتلاحقة للعدوان على **بلاد الإسلام** في الشام ومصر، ورأوا زوال آخر إماراتهم بعد قرنين من تأسيسها، برغم ما بذل في سبيل إقامتها من جهود مادية ومعنوية، ومن سفك في سبيلها من دماء، كما لمسوا فتور الحماس الصليبي، بعد فشل حملتي لويس التاسع السابعة والثامنة على مصر وتونس، لذلك اضطروا إلى تقبيل اليد التي حاولوا قطعها، فلجأوا إلى الدبلوماسية والمراسلات والسفراء والهدايا، علهم يحققون عن طريقها ما فشلوا في تحقيقه بالتعصب والسيف.

انهال سفراء الدول الأوروبية على بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، محملين بالهدايا والرسائل التي تلح في طلب الصداقة والموادعة، وتوثيق عرى الصداقة، في حين كان غرضها الأساسي هو استدرار عطف الناصر على النصارى في دولته، سواء من كان منهم من الأقباط في مصر أو من أهل الشام، فأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين في عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م) رسالة إلى الناصر طالباً منه أن يعامل نصارى الشرق معاملة عادلة، مقابل معاملة مماثلة للمسلمين، فرد عليه الناصر مجيباً طلبه.

---

١ - سامي المغلوث، أطلس تاريخ الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ص ٢٠٨ .

لم يكد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي يشرف على الانتهاء حتى تمخض عن ولادة مملكـة نصرانيـة صغيرة في الجـزء الجنوبي الشرقي من آسيـا الصغرى، وهي **مملكـة أرمينية الصغـرى**، التـي لعبت الحركـة الصليبيـة دوراً كبيراً في نشوئهـا، بصفتها مملكـة تقف على قدم المساواة مع الإمارات والممالك الصليبية في الشرق.

وأصبحـت هذه المملكة أحد الخصـوم الذين يضمرون العداء للدولة الإسلامية، مما جعلها وسيلة بيـد القـوى الصليبية والمغولية. فكان دورها فاعـلاً في هذا الجانب، وخاصة فـي أثناء حكم الدولة الأيوبيـة ودولـة المماليك، مـن خلال إقامة الأحلاف، سـواء كان ذلك مع الإمـارات الصليبية، أو مع الدولـة المغولية وبيزنطة وأوربا، لتحقيق أغراضها، وقد تطرقنا في صفحات هذا الأطلس عن طبيعة العلاقات خلال هذه المرحلة.

فمن المتعارف عليه أن الموقف قد اختلف في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بعد أن قامت الدولة الأيوبية في خضم الأحداث المضطربة، وكيف أخذت على عاتقها مهمة قيادة العالم الإسلامي ومكافحة القوى الأجنبية الغازية؛ فكان على الأرمن أن يواجهوا السياسة التي رسمهـا الأيوبيـون والقائمة على أساس الجهاد ومكافحـة الصليبيين. فبعد وفاة نـور الدين زنكي، استطـاع صـلاح الديـن الأيوبـي (٥٦٩ـ٥٨٩ هـ/ ١١٧٣ـ١١٩٣ م) أن يرسـخ جـذور دولتـه ويوسع حدودهـا، لتشمل مصـر ومعظم بلاد الشام والجزيـرة واليمن والموصل. وبذلـك أصبحت ممتلكات الأيوبيين متاخمة لحدود إمارة الأرمن في قيليقيا؛ فكان له الأثر الأكبر في نشوء علاقات متوترة بين الطرفـين. هذا، فضلاً عن أن الأمراء الأيوبيين لا يمكنهـم أن يغضوا النظر عن دور الأرمن التآمري مـع الصليبيين ضد المسلمين في بلاد الشـام والجزيرة وما أبدوا للصليبيين من مساعدات في أثناء إقامـة كياناتهم. فكانت بداية الصدام الأيوبـي ـ الأرميني في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي... كمـا اشترك الأرمن في الحملة المغولية على بلاد الشـام والجزيرة، وبلغ عدد الجيش الأرميني فيها ستـة عشر ألف مقاتل بقيـادة الملك هيثوم الأول، حيث أنزل مذبحة كبـيرة بمسلمي مدينة ميفارقين الأيوبيـة، بعـد أن ساهم مع المغول فـي إسقاطها؛ وكذلـك كان حال مدينة نصيبين وحـرَّان وسروج والرُّها والبيرة. إلا أن اصطدامهم بالمماليك في مصر سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م في موقعة عين جالوت التي ألحق فيها المماليك هزيمة تاريخية.

لكـن المماليـك الذين تسيدوا الساحـة السياسية في البلاد الإسلامية أخـذوا على عاتقهم تحييد مملكـة أرمينيـا خلال مدة القضاء على آخر معاقل الصليبيين في بـلاد الشام، ولعل مرارة الهزيمة التي لحقت بالمغول والأرمن في موقعة حمص كانت كفيلة على تحقيق ذلك خلال هذه المدة.

تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام في عهد الأشرف خليل



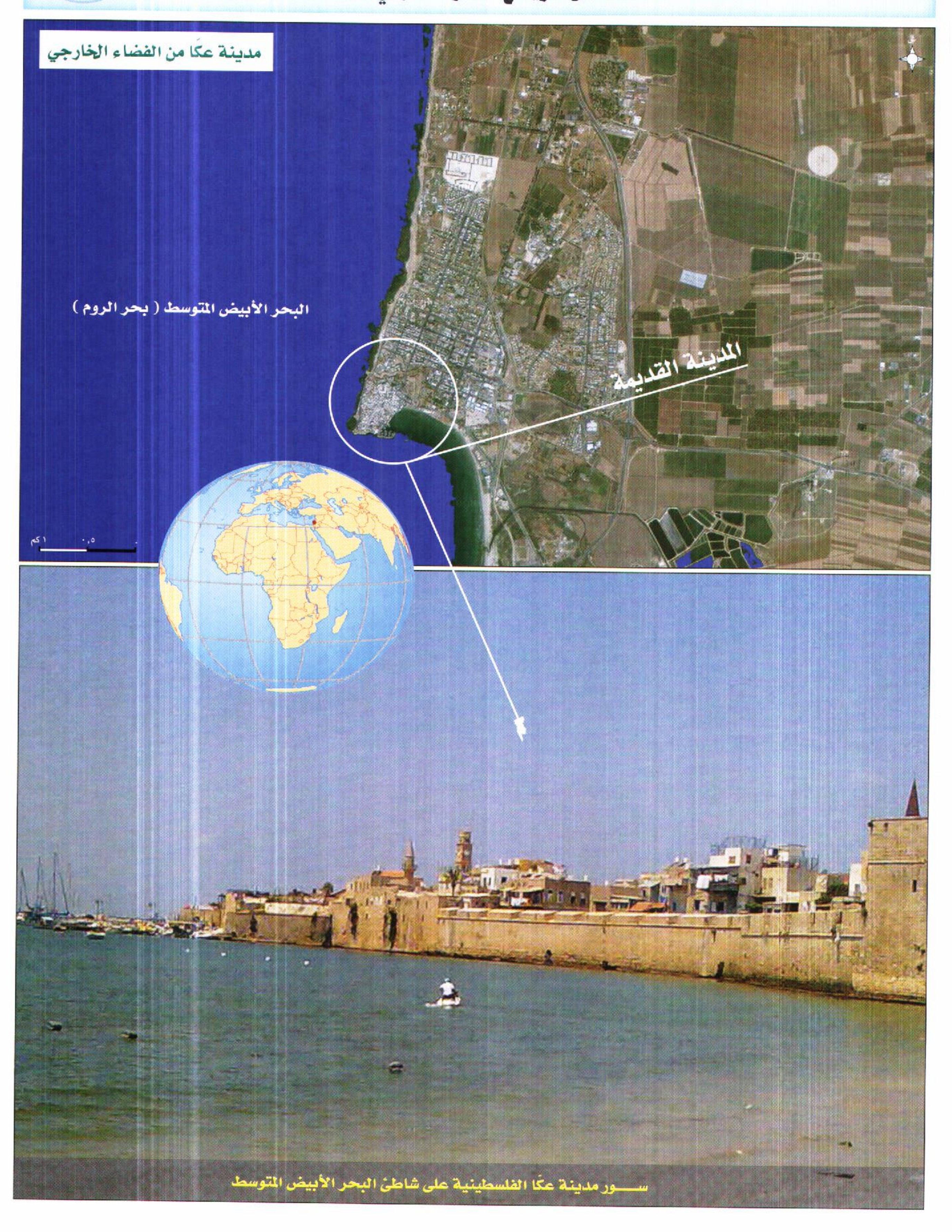
خـرج الأمـير "حسام الديـن لاجين" نائـب الشام بجيشه مـن "دمشق"، وخـرج الملـك المظفر بجيشـه من "حمـاة"، وخرج الأمـير "سيف الدين بلبان" بجيشه مـن "طرابلس"، وخرج الأمير "بيبرس الدوادار" بجيشه من "الكرك"، وتجمعت كل هذه الجيوش الجرارة عند أسوار **عكّا**، وقدر عددهـا بنحو ستـين ألف فارس، ومائـة وستين ألفاً مـن المشاة؛ مجهزين بالأسلحـة وعدد كبير من آلات الحصـار، وبدأت في فرض حصارها على "عـكّا" فـي (ربيـع الآخر ٦٩٠هـ= ٥ مـن إبريـل ١٢٩١م)، ومهاجمة أسوارهـا وضربهـا بالمجانيق؛ وهو مـا مكنهم من إحداث ثقـوب في سور المدينة.

حملة صليبية شعبية من إيطاليا الوسطى ولومبارديا، وصلت عن طريق **قبرص**، ثـم **عكّا** في منتصف ١٢٩٠م، وكانت تضم بين ظهرانيها عصابات أشبه بعصابات بطرس الناسك ووالـتر المفلـس ورفاقهما، والتـي تشكلت في سنـة ١٠٩٦ م، أي فـي بدء الحملـة الصليبية الأولى؛ فراحـت تعبث بالنظام، وتعيث فساداً في المدينة، فناصبهـا الأهالي العداء، فأقدم بعضها في أحد الأيـام مـن شهر آب سنـة ١٢٩٠ م، على ارتكاب مجازر بحـق الفلاحين والتجـار المسلمين الآمنين، والعـزّل من السلاح، وقتلوا معهم بعض السريان الملكانيين خطأ بسبب تركهم لحاهم كالمسلمين؛ ثم أخـذوا يخرجـون إلى ضواحي عكّا لترقب مرور القوافل التجاريـة الإسلامية لنهبها وقتل أصحابها، ولما ترامت الأخبار للسلطان الأشرف قلاوون، بما فعله هؤلاء الصليبيون من أعمال بربرية، طلب من سلطـات عـكّا، تسليمه المجرمـين المسؤولين عنها، فلم تستجـب سلطات عكّا لذلك، بـل أرسل نائب المملكـة (مملكـة بيـت المقدس عـكّا) يعتذر له عنهـم؛ فما كان مـن **قـلاوون** إلا أن اعتبر الهدنة منقوضة .

بـدأ السلطـان (قـلاوون) بتجهيـز حملـة عسكرية لذلك، ولكن قبل أن ينتهي من إعدادها، وافته المنية، فتوفي بعد خروجه من الديار المصرية، وكانت وفاته بالقرب من المطرية في ٦ ذي القعـدة ٦٨٩ هـ وتولى **ابنـه الأشرف صلاح الدين خليل** سـدة السلطنة بعده، وخرج من مصر بجيش كان والده قد هيأه له لفتح عكّا.

العساكر الشامية تخرج من مدن شامية متعددة لملاقاة العساكر المصرية، بناء لطلبه؛ ولما التقى الجمعان (الشامي والمصري) ألقى المسلمون الحصار على مدينة عكّا أول جمادى الأولى سنـة ٦٩٠ هـ ٥ نيسان ١٢٩١ م، وضاق الخناق عليهـا، لدرجة أن كل محاولة كانت تجري من قبل الصليبيين لفكه تنتهي بالفشل الذريع .

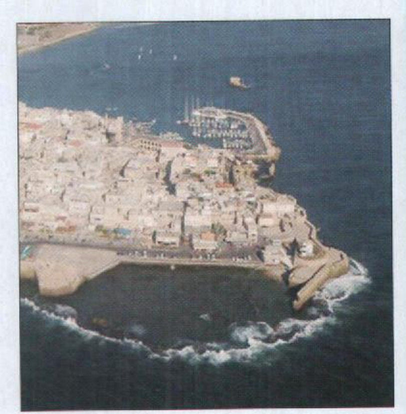

تحرير عكّا من أيدي الصليبيين
خُلِّد اسم السلطان الملك الأشرف خليل الذي تم تحرير بلاد الشام من الصليبيين على يديه.
١
ملك قبرص (هنري الثاني) يصل بـ ٤٠ سفينة حربية، تنقل ٢٠٠ من الفرسان، و ٥٠٠ من المشاة لمساعدة صليبيي عكّا في ٤ آيار سنة ١٢٩١ م..
٢
معسكر الجيش الإسلامي بقيادة الأشرف خليل ، يتعرض معسكره لضرب متعمد من أحد منجنيقات الصليبيين؛ مما أغضب السلطان، وأوقف المفاوضات، وعادت المناوشات تشتد بين المحاصِرين والمحاصَرين الذين أبدوا مقاومة قوية بعد مجيء قوات ملك قبرص .
٣
الداوية والاسبتارية ، وجان دي غرايي قائد الفرقة الفرنسية، وأوت دي غرانسون قائد الفرقة الإنجليزية، وهو فارس سويسري إضافة إلى ملك قبرص (هنري الثاني).
٤
دمشق وطرابلس وحماة والكرك [منطلق الجيش الشامي لحصار عكا] .
سلطنة المماليك
حلب
إنطاكية
قبرص
اللاذقية
حماة
طرطوس
ج. أرواد
حمص
طرابلس
بحر الروم (البحر الشامي - البحر الأبيض المتوسط)
بيروت
دمشق
صور
عكّا
حيفا
أربد
سلطنة المماليك
عمّان
بيت المقدس
بيت لحم
البحر الميت
الكرك
٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ كم



ســـور مدينة عكا الفلسطينية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط

ميناء عكّا من الفضاء الخارجي

اشتـد **الحصـار الإسلامـي** على **الصليبيين** في **عـكّا** الذي دام ثلاثة وأربعين يومـاً، وعجز **الصليبيون** عن الاستمرار في المقاومة، ودب اليأس في قلوبهم؛ فخارت قواهم، **وشق المسلمون طريقهم إلى القلعة**، وأجبروا حاميتهـا على التراجع؛ فدخلوا المدينة التي استسلمت، وشاعت الفوضى في المدينة، بعد أن زلزلت صيحات جنود المماليـك (الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر) جنبـات المدينة، وهز الرعب والفـزع قلوب الجنود والسـكان؛ فاندفعـوا إلى **الميناء** في غـير نظام يطلبون النجـاة بقواربهـم إلى السفن الراسية قبالـة الشاطئ؛ فغـرق بعضهم بسبب التدافع وثقل حمولة القوارب وانهارت المدينة ووقع عدد كبير من سكانها أسرى في قبضة المماليك، وسقطت في يد الأشرف خليل في (١٧ من جمادى الأولى ٦٩٠هـ= ١٨ مايو ١٢٩١م)، ثم واصل سعيه لإسقاط بقية المعاقل الصليبية في الشام، كما سيتضح لنا في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى .





مرتسم تخيلي لتحرير عكّا من أيدي الصليبيين

الإجهاز على البقية الباقية من الصليبيين (الفرنجة) في بلاد الشام



واصل السلطان الأشرف خليل سعيه لإسقاط بقية المعاقل الصليبية في الشام؛ فاسترد مدينة "صور" دون مقاومة، و"صيدا" ودمَّرت قواته قلعتها، وفتح "حيفا" دون مقاومة، و"طرسوس" في (٥ من شعبان ٦٩٠هـ = ٣ من أغسطس ١٢٩١ م)، و"عثليت" في (١٦ من شعبان ٦٩٠هـ).

ظلت الجيوش المملوكية تجوب الساحل الشامي بعد جلاء الصليبيين من أقصاه إلى أقصاه بضعة أشهر تدمر كل ما تعده صالحاً لنزول الصليبيين إلى البر مرة أخرى، **وبهذا وضع "الأشرف خليل" بشجاعته وإقدامه خاتمة الحروب الصليبية.**

فرار الصليبيين من **عكّا** ثم نحو **صور** ثم اتجاه جزيرة **أرواد** السورية.

قال أبو الفداء: وخرج الفرنج (الصليبيون) في أثناء مدة الحصار بالليل، وكسبوا العسكر، وهزموا اليزكية، واتصلوا إلى الخيام، وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهم فارس في جورة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك، وتكاثرت عليهم العساكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد، وقتل عسكر حماة منهم عدة، فلما أصبح الصباح، علق الملك المظفر صاحب حماة، عدة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف، واشتدت مضايقة العسكر لعكّا حتى فتحها الله تعالى لهم، في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة بالسيف، ولما هاجمها المسلمون، هرب جماعة من أهلها في المراكب، وكان في داخل البلد عدة أبرجة عاصية، بمنزلة قلاع، دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها، وقتل المسلمون وغنموا من عكّا شيئاً يفوت الحصر من كثرته، ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة، ولم يتأخر منهم أحد، فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكّا، ثم أمر بمدينة عكّا فهدمت إلى الأرض، ودكت دكاً، ومن عجائب الاتفاق. **أن الفرنج استولوا على عكّا وأخذوها من صلاح الدين، ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، سنة سبع وثمانين وخمسمائة، واستولوا على من بها من المسلمين، ثم قتلوهم، فقدر الله عز وجل في سابق علمه، أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين (خليل)، فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه، وكذلك لقب السلطانيين.**

ذكر فتوح عدة حصون ومدن :

لما فتحت عكّا، ألقى **الله** تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخلوا **صيدا وبيروت**، وتسلمها الشجاعي في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل مدينة **صور**، فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عثليت في مستهل شعبان، ثم تسلم **أنطرطرس** في خامس شعبان. جميع ذلك في هذه السنة، أعني سنة تسعين وستمائة. واتفق لهذا السلطان من السعادة، ما لم يتفق لغيره، من فتح هذه البلاد العظيمة، الحصينة، بغير قتال ولا تعب، وأمر بها فخربت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات، جميع البلاد الساحلية الإسلامية، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج (الصليبيين)، بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية، وعلى ملك دمشق، وغيرها من الشام، فلله الحمد والمنّة على ذلك، ولما تكاملت هذه الفتوحات العظيمة، رحل السلطان الملك الأشرف، ودخل دمشق وأقام مدة، ثم عاد إلى الديار المصرية ودخلها في هذه السنة. المختصر في أخبار البشر - (ج ١ / ص ٤٧٨).



١

بسقوط مدينة عـكّا ، تخاذلت قوى الصليبيين في المدن الباقيـة لهم في بلاد الشام، وكما ذكرنا في الخريطـة السابقـة، سقطت صور وصيـدا وحيفا، ولم يعـد هنــاك للداوية، إلا **طرطوس** وجزيرتها أرواد وعثليـت، وهمـا آخـر معقلـين مـن معاقلهم سقطا بيد المسلمين في الثالث والرابع عشر من آب سنة ١٢٩١ م، مستهل شهر شعبان سنة ٦٩٠ هـ .

٢ قصيدة القاضي محيي الدين عبد الظاهر:

يابني الأصفر قد حل بكم
نقمة الله التي لاتنفصـل
نزل الأشرف في ساحتكم
فابشروا منه بصفع متصل

٣

خروج الفرنج (الصليبيين) النهائي من بلاد الشام ولجوؤهم إلى جزيرة قبرص .



نظـم شعـراء كثـيرون في فتـح السلطـان الأشـرف بقايا قـلاع وحصون الصليبيين في بلاد الشام، فمن ذلك ما نظمه شهاب الدين محمود:

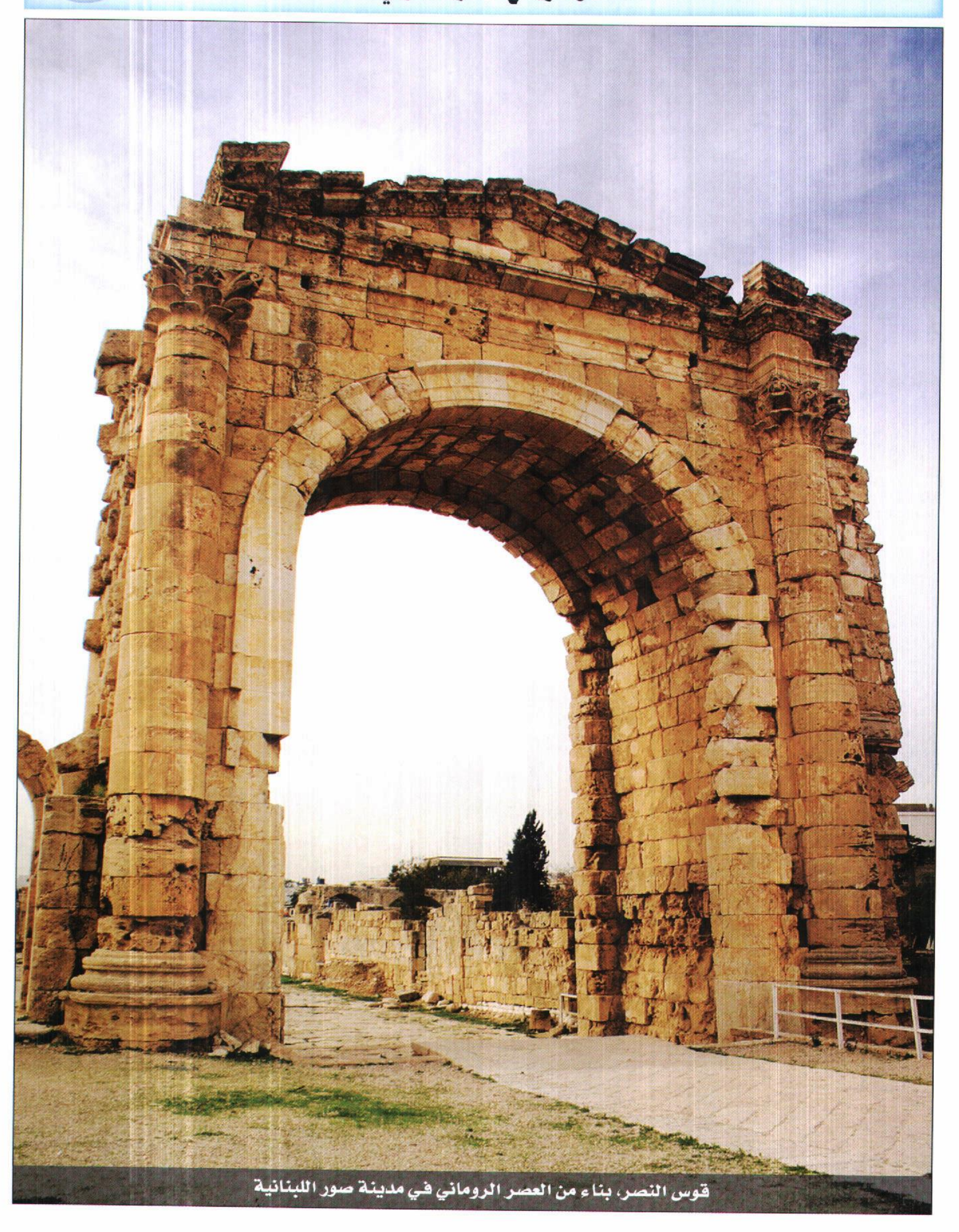
الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في اليوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكّا وقد هدت قواعدها ... في البحر للشرك عند الدين من أرب
كم رامها ورماها قبله ملكٌ ... جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم ترض همته إلا الذي قصدت ... هجر عنها ملوك العجم والعرب
فأصبحت وهي في بحرين مائلة ... ما بين مضطرم النار ومضطرب
جيشٌ من الترك ترك الحرب عندهم ... عارٌ وراحتهم ضربٌ من الوصب
وأطلع الله جيش النصر فانتشرت ... طلائع النصر بين السمر والقضب
أجرت إلى البحر بحراً من دمائهم ... فراح كالراح إذ عرفاه كالحبب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت ... بك الممالك واستعلت على الرتب
لقيتها يا صلاح الدين الدين معتقداً ... فإن ظن صلاح الدين لم يخب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ عصيت ... عنه لسر طواه الله في الكتب

وأنشد أبو غانم بيتين عند فتح عكّا في هذا المعنى وهما:

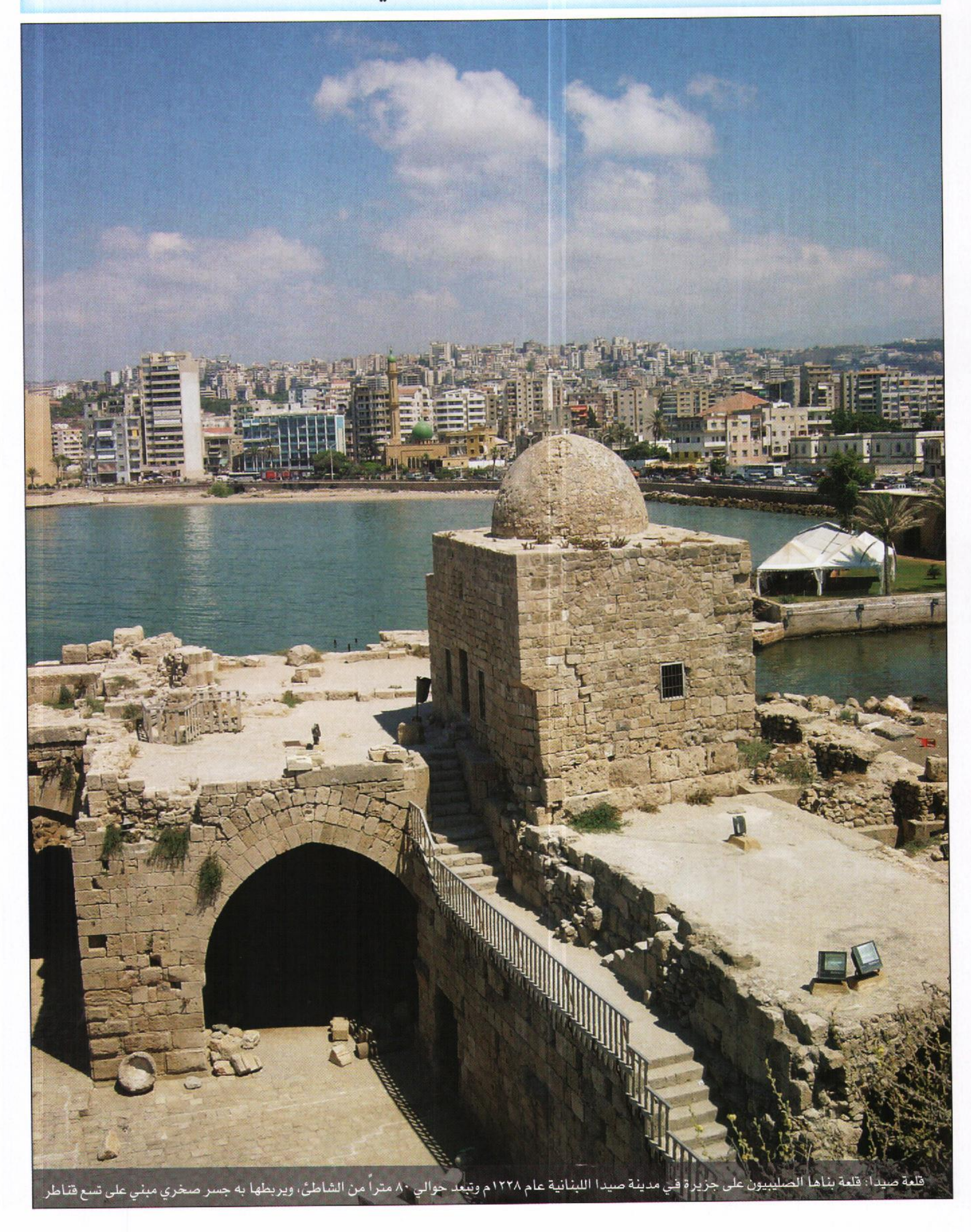
مليكان قد لقبا بالصلاح ... فهذا خليل وهذا يوسف
فيوسف لا شك في فضله ... ولكن خليلٌ هو الأشرف

ومن نظم شمس الدين ابن الصائغ:

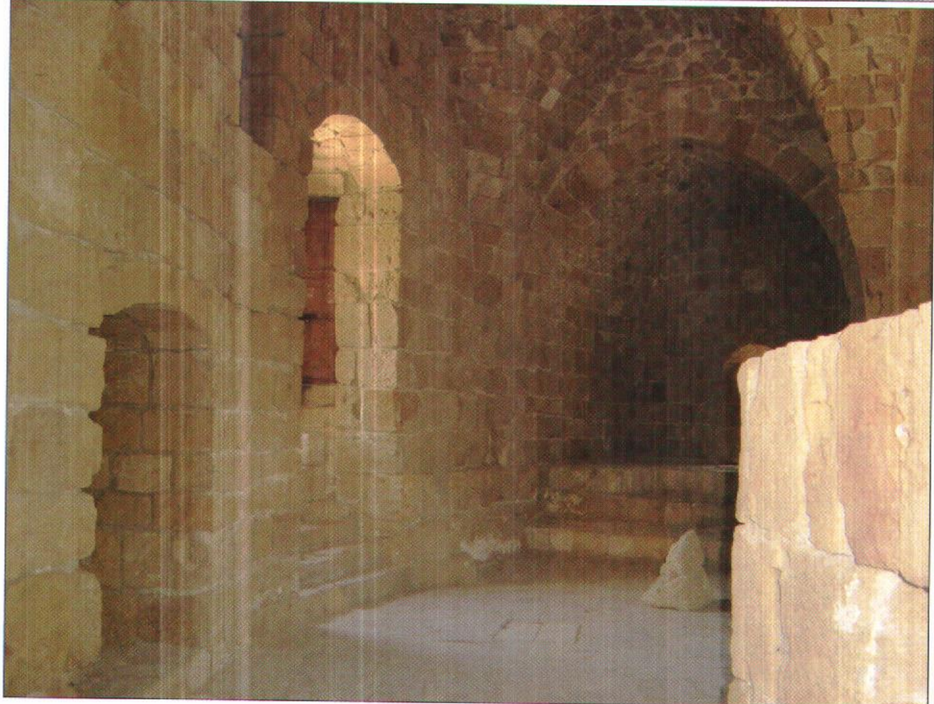
يا أشرف الدنيا تهن فإنه ... فتحٌ سواك بمثله لم يحلم
أشبهت معتصم الخلافة همةً ... فالروم منك ديارها لم تعصم
قاتلت بلق جيوشهم بسوابق ... غر عليها الريح لم تتقدم
كم رعتها بسواد ليل أليل ... وصدمتها ببياض يوم أيوم
وأعدتها للمسلمين ولم يكن ... منهم يرى التطهير إلا بالدم
فالجمعة الغراء كان صباحها ... وجه الزمان بمثله لم يرقم

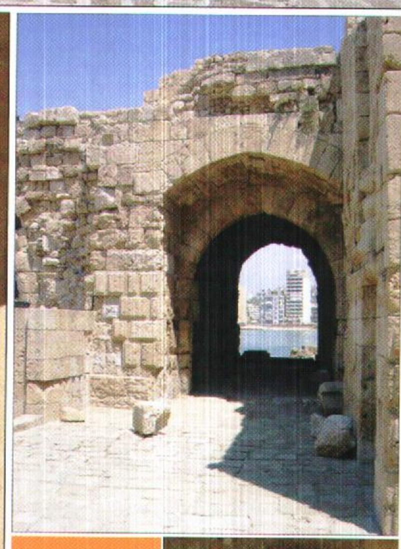


قوس النصر، بناء من العصر الروماني في مدينة صور اللبنانية



قلعة صيدا: قلعة بناها الصليبيون على جزيرة في مدينة صيدا اللبنانية عام ١٢٢٨م وتبعد حوالي ٨٠ متراً من الشاطئ، ويربطها به جسر صخري مبني على تسع قناطر







لقطات متنوعة لقلعة صيدا، الذي تركها الصليبيون بعد هزيمة حصار عكّا.

مدينة طرطوس
السورية

البحر الأبيض المتوسط

جزيرة أرواد

لجوء بقايا الصليبيين بعد هزيمة حصار عكّا إلى طرطوس وجزيرة أرواد

ميناء طرطوس السوري وجزيرة أرواد من الفضاء الخارجي

قام **الأشرف خليل** بالاستيلاء بسهولة على بقية ما تبقى بأيدي الصليبيين مثل صور وحيفا اللتين قاومتا مقاومة كبيرة، ثم اضطرتا للتسليم فنجتا بذلك من التخريب، ثم استولى الأشرف خليل على عثليث وصيدا وطرسوس، وبهذا تم القضاء نهائياً على الوجود الصليبي في الشام، وإن كان **الصليبيون** في **جزيرة إرواد** المقابلة للساحل الشرقي؛ قد ظلوا يغيرون على السواحل بين الفينة والأخرى ويقطعون الطرق، مما أزعج نائب السلطنة المملوكية على الشام، وجعله يطلب معونة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فجهز أسطولاً ووجهه نحو هذه **الجزيرة** بعد أن ضم إليه **جيش طرابلس** ففتحها وملكها وقتل من أهلها خمسمائة وذلك عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م).


جزيرة أرواد



فرار بقايا اللاجئين الصليبيين إلى جزيرة قبرص بعد مطاردة الجيش المملوكي لهم

جزيرة قبرص: بحكم موقعها الجغرافي، تصلها، من كل حدب وصوب، منتجات المناطق التي حباها الله تعالى بالتنوع الغذائي. فهي على مسافة يومين بحراً من مصر، وعلى عدة ساعات من سواحل الشام وآسيا الصغرى. ومع ذلك، فإن البحر يفصلها عن هذه المناطق، مما يحفظ لها استقلالها. على أن الجبال العالية والوعرة المسالك المحيطة بها من الشمال والشرق تقيها خطر الهجمات المحتملة من جهة آسيا الصغرى وبلاد الشام؛ لجأ إليها الكثير من **الصليبيين** إبان حصار إنطاكية، وبخاصة فرسان **الداوية**، واستقروا فيها؛ كما ارتادت مرافئها سفن التجار اللاتين، منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وهي في طريقها إلى القسطنطينية أو إلى الإسكندرية، وكذلك سفن الأوروبيين القاصدين زيارة الديار المقدسة في فلسطين بعد تحرير **صلاح الدين لبيت المقدس** على إثر معركة حطين عام ١١٨٧م، نزحت أعداد غفيرة من اللاتين عن الشرق قاصدة قبرص، لتقع الجزيرة البيزنطية الطابع في قبضة اللاتين، عام ١١٩١م، حين انتزعها ريتشارد قلب الأسد (Richard Cœur de Lion)، ملك إنكلترا، من إسحاق كومنين (Isaac Comnène) المتمرد على السيادة البيزنطية، وباعها **لفرسان الداوية** ثم انتقلت بالشراء، بعد أقل من سنة، إلى أسرة لوزينيان (Lusignan) اللاتينية، بعد أن ثار السكان على الداوية وبطل البيع، فأقامت فيها مملكة استمرت نحو ثلاثة قرون، كان أمراً محتماً أن يحظى **الدور العسكري لجزيرة قبرص بتعاطف البابوية التي رأت فيه فرصة جديدة لمعاودة الاستيلاء على بيت المقدس**، وخاصة بعد أن أحسن القبارصة استقبال فلول **الإسبتارية** الهاربين من الشام، وساعدوهم على انتزاع **رودوس** من السيادة البيزنطية عام ١٣٠٩ م، فاتخذها هؤلاء قاعدة صليبية شاركت قبرص في سياستها الحربية والاقتصادية ضد المسلمين.

لقد سار الأشرف خليل على نهج أبيه في **سياسته الخارجية**، فعزم منذ توليه السلطنة على حرب الصليبيـين والعمـل على طرد بقاياهـم من بلاد الشام، حتـى تم له تحرير المناطق التـي مابرحت في حوزتهـم، فحررت عكّا بعد حصارها في ٣ ربيـع الأول سنة ٦٩٠هـ/ ٥ نيسان ١٢٩١م، وسقطت أسوار المدينـة في يده فـي ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ/ ١٨ آيار ١٢٩١م، وولى الفرنجة الأدبار- كما ذكرنا ذلـك آنفـاً - هاربين في المراكـب وتساقطت الأبراج المحصنـة التي كانت للأخويـات الفرسانية برجاً برجـاً، وكانـت ضرباً من الحصون داخل المدينة، إلى أن سقط آخرهـا وهو برج الداويَّة فـي ٢٨ جمادى الأولى/ ٢٩ آيـار، فانتقم الأشرف منهـم لغدرهم برجاله، وسمح لمن بقي بالانتقال إلى قبرص، وخشية أن يفعـل الصليبيون ما فعلوه بصلاح الدين الأيوبي أرسل أحد قادته إلى صور ليمنع الخارجين من عكَّا من الالتجاء إليها. وبعد سقوط عكَّا تساقطت المدن المحتلة الأخرى واحدة واحدة من دون مقاومة تذكر، فاستسلمـت صيـدا وصـور وعثليث (عثليـت) وجبيل وحيفـا وطرطوس وبيروت، وانتقـل من فيها من الصليبيـين إلى قبرص، وألزم الملـك الأشرف من بقي منهم فـي تلك المدن دفع الجزيـة، وأمر بهدم الحصـون التي تحميها خشيـة معاودتهم. ولم يبق في يد الفرنجة في الشـام إلا **جزيرة أرواد** قبالة ساحـل طرطوس وعمت مظاهر الابتهـاج بالنصر مـدة شهر في دمشـق، وخُلِّد اسـم السلطان الملك الأشرف خليل الذي تم تحرير بلاد الشام من الصليبيين على يديه.

تحـول الأشـرف **بعـد تحريـر الشـام من الفرنجـة** لقتـال **المغول فـي الجزيـرة الفراتية والعـراق**، حيـث استثمر المماليك حالـة الفوضى التي عمَّت دولة **المغـول الإيلخانية** بسبب الصراع على السلطة في أعقاب وفاة أرغون سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م، استثمر المماليك ذلك بالاستعداد لشن حملة عسكرية، تعاقبها الأرمن الذين كان ملكهم قد جدد تحالفه مع المغول. ففي ربيع سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م، خـرج السلطـان الأشرف خليل من **حلب** قاصداً **قلعة الروم** الواقعة على نهر الفرات، التي كانت مقر جاثليـق الأرمن. وبعد حصـار ثلاثين يوماً، تمكن من فتحهـا وسماها قلعة المسلمـين [١]، وأسر أميرها ورؤوس أصحابه، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً، وزينت دمشق سبعة أيام احتفالاً بهذا النصر المؤزر.

لـما شعـر ملك **أرمينية** هيثـوم الثاني بقوة موقف الملـك الأشرف خليل، تخلى لـه بعد عام من ذلك التاريـخ عـن قلاع **بَهَسْنا ومرعش وتل حمدون**، التي تتحكم بالطرق المؤدية إلى حلب، وبعد أن رتب الأمور في الشام عاد الملك الأشرف خليل منتصراً إلى مصر [٢].

---

١ - أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ج ٤، صص. ٢٦ ـ ٢٧.

١ - أمينة بيطار، الموسوعة العربية،مج ٢، ص ٥٤٩.

التحالف المغولي - الأرمني في عهد الأشرف خليل



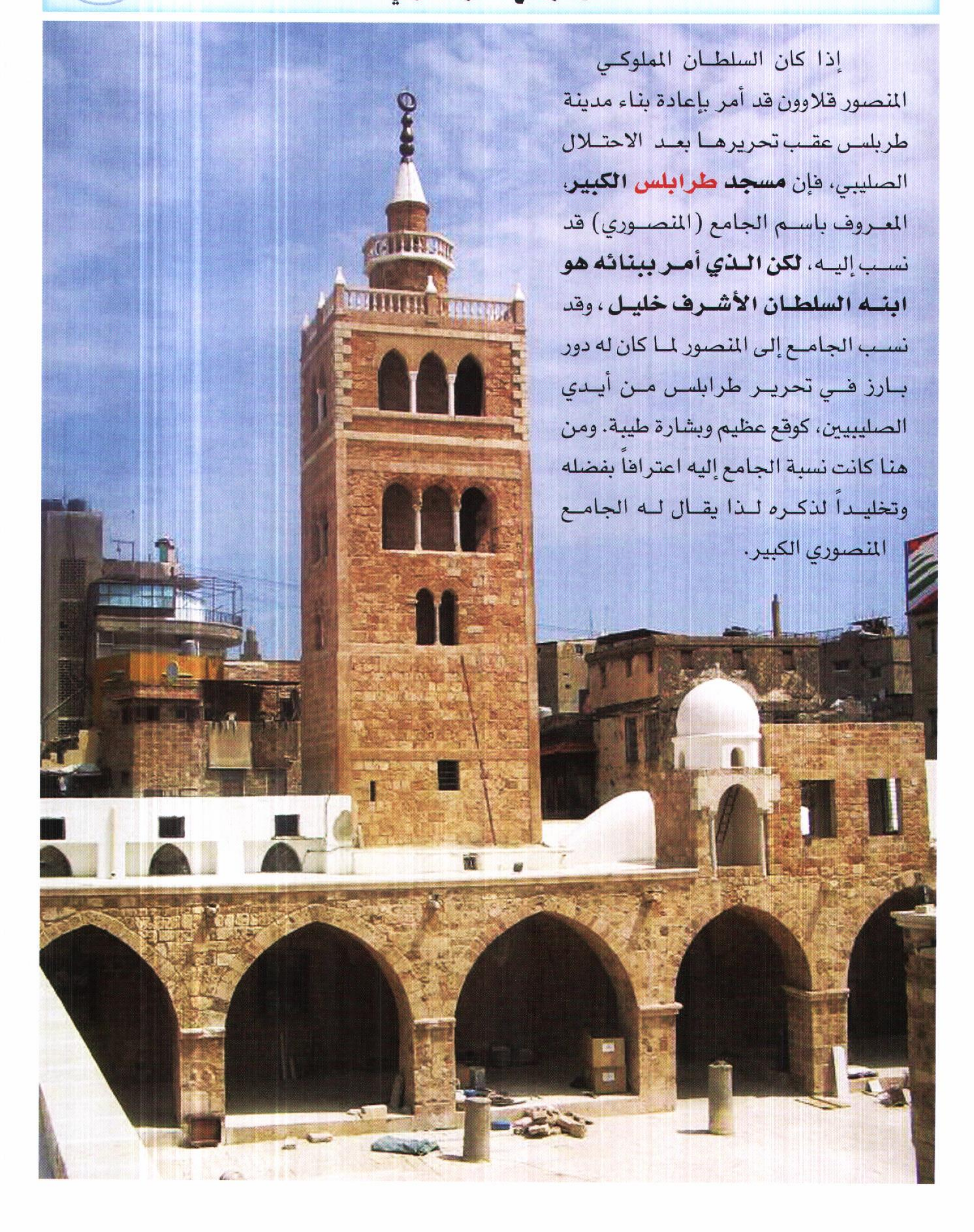
فـي شهـر رجب سنـة ٦٩٢ هـ/ ١٢٩٣ م، تلقـى **الجيش المملوكي** المرابط في دمشـق الأوامر من السلطان الأشرف خليـل بالزحف على عاصمـة الأرمن **سيس**، فأنفذ هيثوم الثاني -الذي خلف أباه ليو (ليون) الثالث في حكم أرمينيا الصغـرى سنـة ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م- الرسـل إلى السلطـان الأشـرف خليل يعرض التنازل عن كل ما تبقى من الحصون الشرقيـة، وهي **بهنسا وعرش وتل حمـدون** فضلاً عن دفـع مبلغ كبير من المال لقاء عدم التعرض لبلادهم؛ فقبلها السلطان وأرجأ تحركاته. المقريزي، السلوك في معرفة الملوك، ج ١، ق ٣، ص. ٧٨٤.

سارت **سياسة الأشرف خليل الداخلية** بعد عودته من الشام إلى مصر منتصراً نحو التباهي والغرور، فراح يعامل الأمراء بخشونة واستخفاف، وأصبح يعلم على الأوراق والمستندات بحرف "خ" فقط دون اسمه مما أغضب الأمراء. وفوق ذلك كان الأمراء يكرهون وزيره ابن السلعوس الذي أتى من سوريا، ولم يكن في الأصل أميراً أو مملوكاً وإنما كان تاجراً دمشقيًّا، وتقلد منصب الوزارة الرفيع بدلاً من الأمير الشجاعي، وراح يغدق عليه الأشرف ويفضله على كبار الأمراء لمكانته. وكان ابن السلعوس يتعالى على الأمراء هو الآخر.

لقد أدى هذا السلوك المشين إلى إثارة نقمة عدد كبير من الأمراء المماليك، فتآمروا عليه وانتهزوا فرصة قيام الملك الأشرف برحلة صيد إلى الحمامات بمديرية البحيرة، فانفردوا به وبادره الأمير بيدرا مع جماعة من أصحابه المماليك فضربوه بسيوفهم وقتلوه في الثاني من شهر المحرم سنة ٦٩٣هـ/ كانون أول ١٢٩٣م بعد حكم دام ثلاث سنوات. ودفن في مقبرته في المدرسة الأشرفية في القاهرة، وكان الملك الأشرف خليل قد أنشأها سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م عندما كان ولياً للعهد، ثم أتم عمارتها وزخرفتها بعد أن تسلطن فنسبت إليه، وانتقلت السلطنة بعد وفاته إلى أخيه الأصغر الناصر محمد لأنه لم يعقب سوى ابنتين.

بعد اغتيال الأشرف توجه المتآمرون إلى الدهليز، ونصبوا بيدرا سلطاناً ولقبوه بالملك الأوحد أو الملك القاهر. ولكن بيدرا لم ينعم طويلاً بسلطنته، حيث قبض عليه المماليك السلطانية بقيادة كتبغا وبيبرس الجاشنكير وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى القاهرة. وقبض على الأمراء المتآمرين، عدا حسام الدين لاجين وقرا سنقر الذين فرا واختفيا. وقبض الأمراء، وعلى رأسهم الشجاعي، على ابن السلعوس بعد عودته إلى القاهرة حيث حُبس وضُرب حتى الموت.

بعد **مقتل الأشرف خليل** اتفق الأمراء وعلى رأسهم سنقر الشجاعي على إخفاء الأمر لبعض الوقت، وعلى تنصيب أخيه الصغير الناصر محمد سلطاناً على البلاد ومعه كتبغا نائباً للسلطنة والأمير الشجاعي وزيراً. وكان الناصر محمد صبيًّا في نحو التاسعة من عمره. وأرسل إلى الحكام في الشام مكتوباً وطلب منهم تحليف الناس للملك الناصر محمد، وأن يقرن اسمه باسم الأشرف في الخطبة. وبعد أن استقرت الأمور ورتب الأمراء أمورهم أعلن في البلاد عن وفاة السلطان خليل، قال المقريزي في خططه: (ولبس جواري الأشرف الحداد وطافت النواحات في شوارع القاهرة، وأقيمت المآتم وساد مصر الحزن واحتشدت العامة في الشوارع والميادين للفرجة على عقوبة المتآمرين وإعدامهم). قلت: ولا شك أن إقامة المآتم هي من بقايا آثار الدولة العبيدية التي حكمت مصر قبل الحكم الأيوبي.



إذا كان السلطان المملوكي المنصور قلاوون قد أمر بإعادة بناء مدينة طرابلس عقب تحريرها بعد الاحتلال الصليبي، فإن **مسجد طرابلس الكبير**، المعروف باسم الجامع (المنصوري) قد نسب إليه، **لكن الذي أمر ببنائه هو ابنه السلطان الأشرف خليل**، وقد نسب الجامع إلى المنصور لما كان له دور بارز في تحرير طرابلس من أيدي الصليبيين، كوقع عظيم وبشارة طيبة. ومن هنا كانت نسبة الجامع إليه اعترافاً بفضله وتخليداً لذكره لذا يقال له الجامع المنصوري الكبير.

المرة الأولى

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

٦٩٣ - ٦٩٤ هـ

أضحى **الناصر محمد ابن السلطان المنصور قلاوون** سلطاناً في سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م، بعد قتل أخيه السلطان الأشرف خليل، ولما يبلغ السابعة من عمره، أو التاسعة كما تروي مصادر أخرى.

وخـلال مـدة حكمه الأولى كان **كتبغا** نائباً للسلطنــة، بيد أنه أصبح الحاكم الفعلي بعد خلع الناصر محمد حيث أصبح سلطاناً. ثم قام **لاجين** هو الآخر بخلع كتبغا، ثم عاد الناصر محمد للحكم مرة ثانية سنــة ٦٩٩ هــ / ١٢٩٩ م، حتــى خلعه كلاً من الأمير سلار وبيبرس الجاشنكـير، حيث ولّى وجهه شطر الكرك.

وعلى أي حال فقد كان قادراً على الوثوب للعرش للمرة الثالثة والأخيرة سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م، ولقد كانت مدة حكمه الثالثة مدة استقرار سياسي واقتصادي، انتعشت خلالها الفنون والثقافة، كما تمتعت مملكته بأزدهار كبير، وقد خلفه ابنه أبوبكر المنصور.

إذن حكـم السلطان **الناصر محمـد بن قلاوون** في سلطنته الأولى سنة واحدة، وطبيعي أن تكون سلطته اسمية، فلقد كان غلاماً صغيراً، وتولى كتبغا إدارة شؤون البلاد، وقد حجبه وأسكنه مع أمه في إحدى قاعات القلعة، ومنع الناس من الاجتماع به أو لقائه.

ثم حكم بعده الملك **العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغولي**، وأصله من التتار من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في سنة ٦٥٩ هـ، فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه ثـم أعتقـه، وجعله من جملة مماليكه ورقاه، حتى صار من أكابـر أمرائه، واستمر على ذلك في الدولة الأشرفيــة خليـل بن قــلاوون إلى أن قتـل وتسلطن أخوه الملـك الناصر محمد بن قــلاوون، وهو عاشر السلاطين الأتراك على عرش مصر في عهد المماليك البحرية، تولى الحكم في المدة (٦٩٤ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦م).

ولما كان يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الأول ركب السلطان الملك العادل **كتبغا** بأبهة السلطنة وشعار الملـك من قلعــة الجبل ونزل وســار إلى ظاهر القاهــرة نحو قبة النصــر، وعاد من بــاب النصر وشق القاهرة حتى خرج من باب زويلة عائداً إلى قلعة الجبل، كما جرت العادة بركوب الملوك.

ولم تطل مدة سلطنته حتى وقع الغلاء والفناء بالديار المصرية وأعمالها، ثم انتشر ذلك بالبلاد الشامية جميعهـا فـي شوال من هذه السنة، وارتفع سعر القمح حتى بيع كل إردب بمائة وعشرين درهماً ، بعد أن كان بخمسة وعشرين درهماً ، وأما في سنة خمس وتسعين وستمائة، فوصل سعر القمح إلى مائة وستين درهمـاً، وأما الموت .. فإنه فشا بالقاهرة وكثر، فأحصي من مات بها وثبت اسمه في ديوان المواريث في ذي الحجـة سبعـة عشر ألفـاً وخمسمائة، وهذا سوى من لم يـرد اسمه في ديـوان المواريث من الغرباء والفقـراء، ومـن لم يطلـق من الديوان، ورحل جماعـة كثيرة من أهل مصر عنهـا إلى الأقطار من عظم الغلاء وتخلخل أمر الديار المصرية.

مســتند تاريـــخي

قـال ابـن كثير: (وفيها **ملك التتار قازان بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيزخان** فأسلم وأظهر الاسلام على يد الأمير توزون - رحمه الله -، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ونـثر الذهب والفضـة واللؤلؤ على رؤوس النـاس يوم إسلامه، وتسمى بمحمـود، وشهد الجمعة والخطبـة، وخـرب كنائس كثيرة، وضـرب عليهم الجزية ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد، وظهرت السبح والهياكل مع التتار والحمد لله وحده). البداية والنهاية، ج١٣، ص ٤٠١.

قلـت: لقـد أسلم **غازان (قازان)** على يـد الشيخ صدر الدين إبراهيم الجويني - كما تذكـر ذلك بعض المصادر التاريخية الأخرى -، وتسمى باسم محمود، وبإسلامه اعتنق ما يقرب من مئة ألف شخص من قومه المغول (التتار) الإسلام، وقد عجّل هذا بالقضاء على خصمه.

بعـد أن تولى محمود غازان الحكم؛ أصدر قـراراً يقضي بأن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة. انقطعت الروابط التي كانت تربطه ببلاط الخاقان الأعظم للمغول في الصين.

قـام بعدد من الإصلاحات، منهاتجميل عاصمة مملكته تبريز بأبنية فخمة منها مسجد عظيـم، ومدرسة كبيرة، ودار للكتب، ودار لحفظ الدفاتـر والقوانين التي استنها، ومرصد فلكي، وبستان، ومستشفى وخانقاه للمتصوفة.

السلطان المنصور حسام الدين لاجين

٦٩٦ - ٦٩٨ هـ

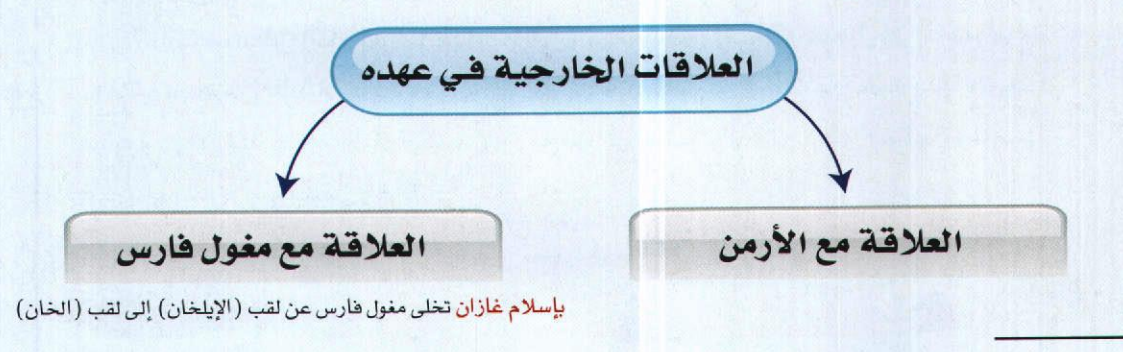
هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، سلطان الديار المصرية، تسلطن بعد خلع الملك العادل كتبغا المنصوري في ١٠ صفر ٦٩٦ هـ.

وبعد تسلطن كتبغا جعله نائب سلطنته؛ بل قسيم مملكته، واستمر لاجين على ذلك حتى سافر الملك العادل كتبغا إلى البلاد الشامية، وأصلح أمورها وعاد إلى نحو الديار المصرية، وسار حتى نزل بمنزلة اللجون، اتفق لاجين هذا مع جماعة من أكابر الأمراء على قتل الملك العادل كتبغا، ووثبوا عليه بالمنزلة المذكورة وقتلوا الأميرين: بتخاص وبكتوت الأزرق العادليين، وكانا من أكابر مماليك الملك العادل كتبغا وأمرائه واختبط العسكر، وبلغ الملك العادل كتبغا ذلك ففر بنفسه وركب في خمسة من خواصه وتوجه إلى دمشق.

فاستولى عند ذلك **لاجين** على الخزائن والدهليز وبرك السلطنة، وساق الجميع أمامه إلى مدينة غزة. وبايعوه الأمراء بالسلطنة بعد شروط اشترطوها الأمراء عليه. وسار الجميع إلى نحو الديار المصرية حتى دخلوها، وملكوا القلعة بغير مدافع، وجلس لاجين هذا على كرسي المملكة في يوم الجمعة المقدم ذكره.

وتم أمره وخلع على الأمراء وظائف عدة وهم: الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري بنيابة السلطنة بالديار المصرية عوضاً عن نفسه، وخلع على الأمير قبجق المنصوري بنيابة الشام عوضاً عن الأمير أغزلو العادلي وعلى عدة أمراء أخر.

استاء الشعب من حكم السلطان لاجين المتعسف، ومن سوء أعمال نائبه منكوتمر، فحثوا المماليك الأشرفية على التخلص منه، بوصفه أحد قتلة الملك الأشرف خليل، وشعر هذا السلطان بالخطر يتهدده من جانب حاشيته، فأراد أن يصرفهم عن تدبير المؤامرات، فشغلهم بالحرب في مملكة أرمينيا الصغرى بناء على نصيحة منكوتمر[1].



١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٢٢.

الصراع المملوكي - الأرمني في عهد السلطان لاجين



(١) كان **الأرمن** قد تنازلوا **للمماليك** عن **بهسنا ومرعش وتل حمدون**، وجددوا الولاء للسلطان المملوكي وأرسلوا إليه الجزية. إلا أنهم استغلوا الصراع المملوكي الداخلي الذي آل إلى مقتل كتبغا، وحاولوا جاهدين استعادة سيطرتهم على تلك المدن، مما دعا السلطان لاجين لتسيير حملة عسكرية لتأديب المملكة الأرمنية الصغرى.

(٢) الجيش المملوكي بقيادة **بدر الدين بكتاش** الفخري، وانضمت إليه قوات من صفد وحمص وبلاد الساحل وطرابلس، ورافق الحملة صاحب حماة، وعندما وصل إلى حلب انضم إليهم علم الدين سنجر، فبلغ عدد الجيش ١٠,٠٠٠ مقاتل.

(٣) توزعت **الفرق المملوكية** إلى الآتي: قوات **بكتاش** إلى إسكندرونة ثم أضنة، و**المظفر** صاحب حماة إلى سيس، و**بلبان الطباخي** نائب حلب إلى مرعش، وحقق المسلمون النصر، وتمخض عن هذا النصر الكبير إعادة الأرمن دفع الجزية للمماليك، وعدم تعاونهم مع مغول فارس، وفق بنود الصلح التي وقعت بين الطرفين.

المرة الثانية

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

٦٩٨ - ٧٠٨ هـ

استُدعـي الناصـر محمد من **الكـرك** - من أرض الأردن - لتولي منصـب السلطنة للمرة الثانية، وخـرج الأمراء والعساكر للقائه، وزينت القاهرة استعداداً لدخوله، حيث استقبل استقبالاً حماسياً من جميع السكان المصريين الذين تفاءلوا خيراً بقدومه، وارتفعت أصواتهم بالدعاء له بالحفظ والسلامة، ولملكه بالعز والتأييد.

ولما استقر على العرش، استهل أعماله بتقليد الحكام، فعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أُستاداراً، وأقرَّ الوزير فخر الدين عمر بن الخليلي في الوزارة، وفوض نيابة الشام إلى الأمـير جمال الدين أقوش الأفرم، الذي خلف الأمـير قبجق المنصوري، وخلع على أعيان الدولة، ومنح مماليك أبيه الهبات والعطايا.

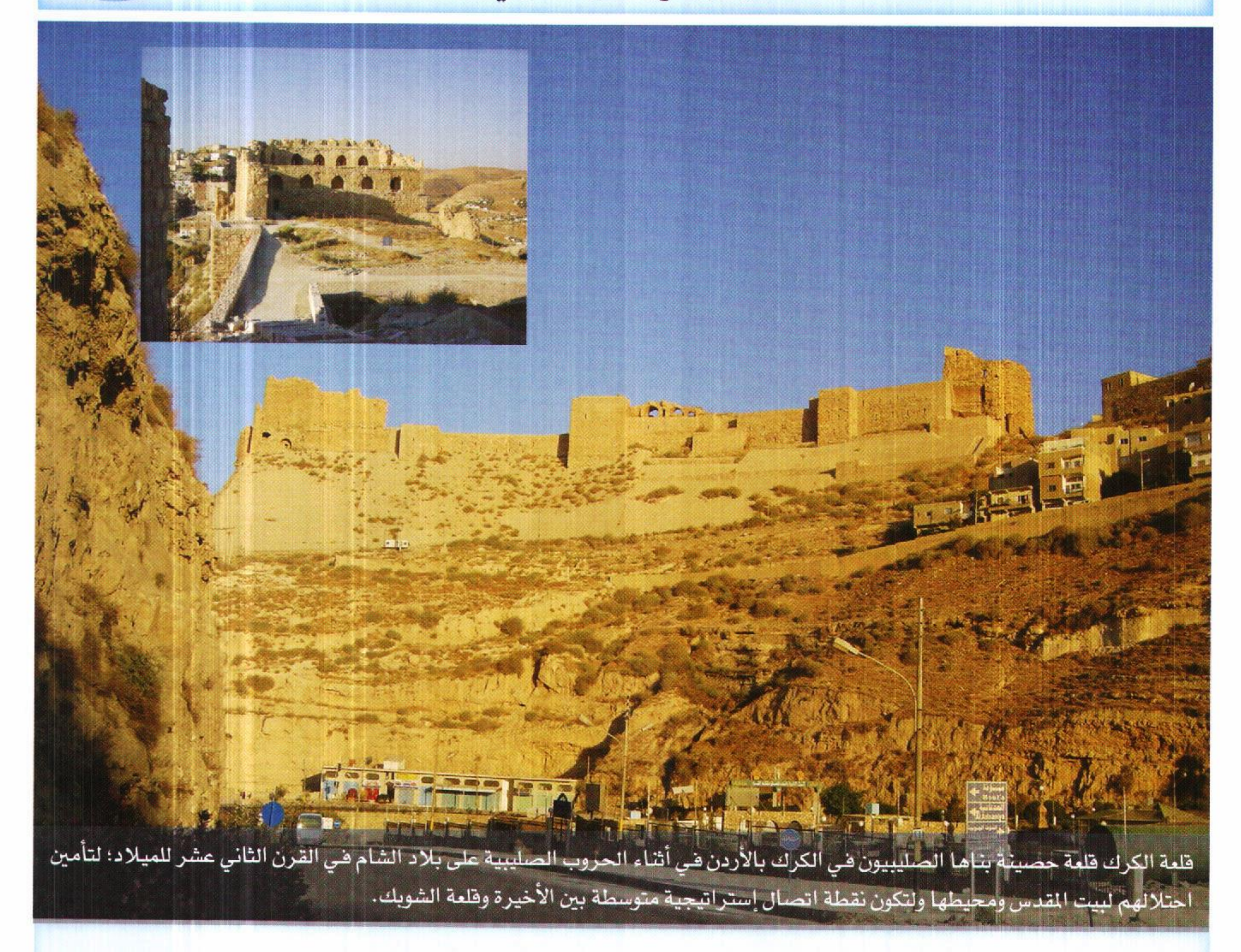
استغـل الأمـيران سـلار والجاشنكير صغر سـن السلطان، واستبدا بالأمـور العامة، وضيقا الخناق عليه، فلم يمكناه من التصرف بأمواله وأموره الشخصية.

وظهـر التنافـس واضحاً بين الأميرين سـلار والجاشنكـير نتيجة للسياسة التي انتهجها كل منهما للاستئثـار بالسلطة والنفـوذ، الأمر الذي أدى إلى عدم استقرار أوضاع البـلاد. ومما زاد الأمر سوءاً نشـوب النزاع بـين طوائف المماليك. فقـد كان بيبرس الجاشنكير يلي أمـور المماليك البرجية الذين ازداد عددهـم، وقوي نفوذهم، حتى أخذ الناس يترددون عليهـم في قضاء حاجاتهم. كما كان الأمير سـلار يشرف على شؤون المماليك الصالحيـة والمنصورية. وقد بلغ التنافس بين هاتين الطائفتين شأواً كبـيراً، كل يطمـع في زيـادة نصيبه من الإقطاعـات، وإذا ما رُقـي أحد من المماليـك البرجية، طلب مماليك الأمير سلار أن يؤمروا واحداً منهم بالمقابل، والعكس صحيح [١].



عملـة نقديـة تعـود إلى حقبـة السلطـان المملـوكي محمـد بـن قلاوون خلال مدة حكمه الثانية ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ، ضرب حماه.

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٣٠.



قلعة الكرك قلعة حصينة بناها الصليبيون في الكرك بالأردن في أثناء الحروب الصليبية على بلاد الشام في القرن الثاني عشر للميلاد؛ لتأمين احتلالهم لبيت المقدس ومحيطها ولتكون نقطة اتصال إستراتيجية متوسطة بين الأخيرة وقلعة الشوبك.

قال ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: "ثم يرحلون إلى **حصن الكرك**. وهو أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها. ويسمى بحصن الغراب. والوادي يطيف به من جميع جهاته، وله باب واحد قد نحت المدخل إليه في الحجر الصلد. ومدخل دهليزه كذلك. وبهذا الحصن يتحصن الملوك، وإليه يلجأون في النوائب، **وله لجأ الملك الناصر**. لأنه وليّ الملك وهو صغير السن. فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه. فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج. ووافقه الأمراء على ذلك. فتوجه إلى الحج. فلما وصل إلى عقبة أيلة، لجأ إلى الحصن وأقام فيه أياماً إلى أن قصده أمراء الشام. واجتمعت عليه المماليك، وكان قد ولي الملك في تلك المدة بيبرس الجاشنكير وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر. وهو الذي بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين الأيوبي. فقصده الملك الناصر بالعساكر. ففر بيبرس إلى الصحراء. فتبعه العساكر فقبض عليه، فأُتِيَ به إلى الملك الناصر فأمر بقتله، فقتل. وقبض على سلار وحبس في جب حتى مات جوعاً. ويقال: أنه أكل جيفة من الجوع. نعوذ بالله من ذلك." ولقد وقفت على هذه القلعة العجيبة، والتقطت لها صوراً عدة، ضمنتها في كتابنا (أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى).



الحملة المغولية الأولى على بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ بقيادة غازان حفيد هولاكو

عندما استولى **غازان** على عرش الإيلخانات كان السلطان العادل كتبغا (حكم ١٢٩٤م - ١٢٩٥م) يجلس على عرش المماليك بقلعة الجبل بالقاهرة، وكان كتبغا ذاته من أصل مغولي، وفي عهده وفد إلى الشام ومصر عدد كبير من المغول الوافدية من طائفة العويراتية. وفيما بين عامي ٦٩٦ - ٦٩٨ هـ حكم البلاد السلطان حسام الدين لاجين، وبعد وفاته نصب الناصر محمد بن قلاوون **للمرة الثانية** سلطاناً على البلاد، وكان عمره حينذاك أربعة عشر عاماً. وفي عهد السلطان **لاجين** فر الأميران **قبجق** المنصوري نائب دمشق **وبكتمر** السلاح دار إلى المغول، وأقاما عند غازان، فلما نصب الناصر سلطاناً أغرى قبجق غازان بسهولة الزحف على الشام، نظراً لصغر سن **السلطان الناصر محمد قلاوون**، وانشغال الأمراء في خلافاتهم. فما كاد الناصر محمد يستقر على تخت السلطنة في عام ٦٩٨ هـ حتى وردت الأنباء بزحف المغول بقيادة غازان على الشام .

معركة مجمع المروج (وادي الخزندار) سنة ٦٩٩ هـ



في ١٧ ربيع الأول خرج عسكر دمشق وتبعه الناصر بجيشه ونزلوا بحمص، وأرسل الناصر العربـان لمعاينة وضع المغـول، فبلغه أنهم يحتشدون عند سلمية. وفي سحر ١٨ ربيع الأول خرج الناصـر من حمص لملاقاة المغول. وقد أمر الجنود بالتخلي عن الرماح والاعتماد على السيوف والدبوس. ووصل الناصر إلى مجمع المرج -الذي عرف فيما بعد باسم وادي الخزندار- وقام الأمراء بترتيب الجنود وتنظيم الصفوف. وراح الفقهاء يعظون المقاتلين ويقوون عزائمهم حتى بكـوا من وقع الكلمات وشدة التأثر . كانت عـدة جيش المسلمين نحو ٢٠ ألف فارس وكان جيش غازان في نحو ١٠٠ ألف، وكان يضم قوات متحالفة من (مملكة أرمينية الصغرى).

أمـر غازان مقاتليه بالثبات وعدم الحركة إلى أن يتحرك هو حتى يتمكنوا من مهاجمة جيش الناصر هجمة رجل واحد. فلما انطلقت طليعة جيش الناصر (الزراقون) بالنفط المشتعل تجاه جيشـ المغول، لم يتحرك غـازان بعكس ما توقع المسلمون، وظل علـى ثباته حتى اقتربت طليعة المسلمين منه وقد خمدت نيران النفط، فهجم بجيشه حملة واحدة. انطلقت سهام عشرة آلاف مغـولي من رمـاة النشاب نحوالعربان وضغطـت ميمنة جيشهم عليهم فـولى العربان مدبرين وخلفهم جيش حلب وحماة فهزمت ميمنة جيش المسلمين. أما ميسرة جيش الناصر فقد تمكنت مـن صدمة ميمنة غازان صدمة قوية فرقـت جمعها ودحرتها عن آخرها، وفقد المغول في تلك الصدمـة نحو خمسـة آلاف. كاد غازان أن يولي الأدبار فاستدعى قبجـق نائب دمشق فشجعه وثبته حتى تماسك ونظم صفوفه وحمل حملة واحدة على قلب جيش المسلمين فلم يصمد سلار وسائر الأمراء البرجية وتولوا أمام جيش غازان الذي تبعهم وراح يرمي السهام على أقفيتهم. رأى الملـك الناصر جيشه يولي الأدبار وخلفـه جيش غازان يمطره بالسهام، فراح يبكى ويبتهل قائـلاً: "يارب لا تجعلني كعبـاً نحساً على المسلمين" . لم يبق مع الناصر من المماليك غير اثني عشر مملوكاً. عاد مقاتلو ميسرة جيش المسلمين التي هزمت ميمنة غازان إلى حمص بالغنائم بعـد العصـر، فإذا بهم يرون الأمراء البرجيـة يولون منهزمين وفي أعقابهـم المغول يتبعونهم فبهتـوا. إلا أن غـازان أمر مقاتليـه بالانسحاب خشية أن يكون المسلمون قـد نصبوا لهم كميناً فنجوا. وغادر السلطان إلى بعلبك ثم إلى دمشق بعد هذه الخسارة المؤلمة.

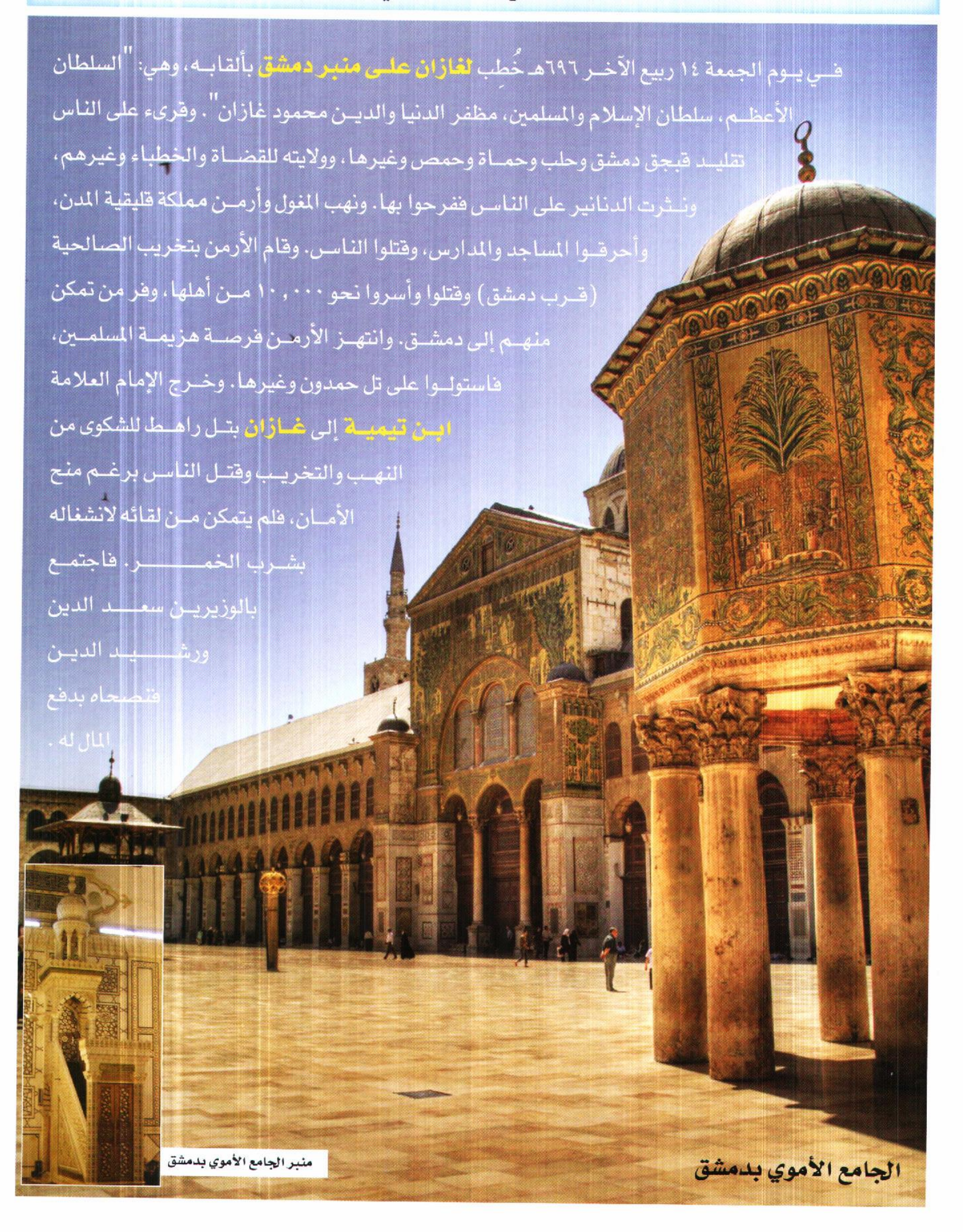
دخول غازان دمشق سنة ٦٩٩ هـ



مـا كاد المنهزمـون يصلون إلى **دمشـق** حتى وصل الخبر بقدوم **غـازان**، فسارعوا بمغادرة المدينـة. وصل غازان إلى أطـراف دمشق بعد أن نهب الخزائن السلطانية وعتاد جيش المسلمـين في **حمص**، فقامت ضجة عظيمـة وهرب الناس مـن المدينة في فزع، وهرب نحـو مائتي سجين من السجون، ومـات من الزحام فـي الأبواب العديد مـن الناس، وفر إلى جهة مصر كثير منهم. واجتمع من بقي في المدينة **بالجامع الأمـوي** واتفقـوا علـى إرسـال قاضـي القضاة بـدر الدين محمـد، والفقيه تقي الدين **أحمد بن تيمية**، في عدة من شيـوخ وقضاة دمشق، إلى غـازان لطلب الأمان، فذهبوا إليه عنـد **النبك**، وطلبـوا منه الأمان عن طريـق مترجم، فقال لهـم "قد بعثت إليكم الأمـان" وصرفهم، فعادوا إلى دمشق، وفـي يوم الجمعة قـرأ الأمير إسماعيل المغـولي، الذي حمل الأمان لأهل دمشق، الفرمان. ولم يخطب في مساجد دمشق لأحد من الملوك في ذاك اليوم. بعد يومين دخل غازان دمشق ومعه قبجق نائب دمشق.

رفـض الأمـير علم الدين **سنجـر المنصـوري** نائب قلعة دمشق المعروف بأرجواش الخضوع لغازان وتحصن في قلعة دمشق، فلما طلب منه قبجق وبكتمر الاستسلام بحجة أن دم المسلمين في عنقـه رفض وسبهما سبًّا قبيحاً، وقال لهما: "إن دم المسلمين في أعناقكم أنتم لأنكم كنتم السبب في مجـيء التتـار". فذهب الأمير إسماعيـل التتري إلى قضاة وأعيـان دمشق يحذرهـم من مغبة عدم استسـلام أرجواش وتسليمه القلعة للمغـول وهددهم بنهب دمشق وقتل الجميع. فأرسلـوا إليـه الرسل يطلبون منـه الاستسـلام فرفض ورد عليهم بالشتائم.

في يوم الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٦٩٦هـ خُطِب **لغازان على منبر دمشق** بألقابه، وهي: "السلطان الأعظم، سلطان الإسلام والمسلمين، مظفر الدنيا والدين محمود غازان". وقرىء على الناس تقليد قبجق دمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها، وولايته للقضاة والخطباء وغيرهم، ونثرت الدنانير على الناس ففرحوا بها. ونهب المغول وأرمن مملكة قليقية المدن، وأحرقوا المساجد والمدارس، وقتلوا الناس. وقام الأرمن بتخريب الصالحية (قرب دمشق) وقتلوا وأسروا نحو ١٠,٠٠٠ من أهلها، وفر من تمكن منهم إلى دمشق. وانتهز الأرمن فرصة هزيمة المسلمين، فاستولوا على تل حمدون وغيرها. وخرج الإمام العلامة **ابن تيمية** إلى **غازان** بتل راهط للشكوى من النهب والتخريب وقتل الناس برغم منح الأمان، فلم يتمكن من لقائه لانشغاله بشرب الخمر. فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فنصحاه بدفع المال له.



منبر الجامع الأموي بدمشق

الجامع الأموي بدمشق

نصب المغول بعد دخولهم إلى دمشق المنجنيق على القلعة **بالقرب من جامع دمشق** الكبير، فلما بلغ أرجواش ذلك بعث بعض رجاله فأفسدوا ما وضعه المغول، ولكن المغول أعادوا وضع المنجنيق وقاموا بحراسته، **وحولوا الجامع إلى حانة**، واستباحوا حرمته وشربوا فيه الخمور وفجروا بنساء المسلمين، ولم تقم به صلاة العشاء في هذا الوقت. فأرسل أرجواش رجلاً لقتل المنجنيقي، فهجم عليه بسكين وقتله وهو في وسط المغول، وهرب إلى القلعة. ثم قام أرجواش بهدم وحرق ما حول القلعة، لئلا يستتر به المغول.

راح المغول يجبون الأموال من أهل الشام وينقلونها إلى خزانة غازان. فلما انتهت الجباية غادر غازان دمشق إلى فارس بعد أن أقام الأمير قبجق نائباً على دمشق، والأمير بكتمر نائباً على حلب وحمص وحماة، والأمير الألبكي نائباً على صفد وطرابلس والساحل تحت حماية نائبه قطلو شاه، ووعد بالعودة لغزو مصر كاتباً: "إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها".

بعد **رحيل غازان استمر نهب وتخريب دمشق وكسر المغول أبواب البيوت، ونهبوا ما فيها** وأحرقوا الكثير من الدور والمدارس، واحترقت المدرسة العادلية. ونهب المغول الأغوار حتى بلغوا القدس، ووصلوا إلى **غزة**، حيث قتلوا بعض الرجال في جامعها. ومما قاله الشعراء في فاجعة الهزيمة:

" غلاء وغازان وغزوة وغارة .. وغدر وإغبان وغم ملازم ".

مسألة في إسلام القائد المغولي غازان؟

كان هذا الإيلخان غازان (قازان): ٦٩٤- ٧٠٤ هـ (١٢٩٥- ١٣٠٤ م) في أول عهده بوذيًّا، ثم اعتنق الإسلام في أثناء ولايته للعهد، وذلك في الرابع من شعبان عام ٦٩٤ هـ (١٢٩٥م) فكان ذلك مفاجأة كبرى وانتصاراً غير متوقع للمسلمين على المحاولات النصرانية لتنصير المغول. لأن هذا الخان فور ارتقائه العرش جعل الإسلام دين الدولة الرسمي، وأدخل في الإسلام عدداً كبيراً من قبائل المغول. ودخل من جيشه في الإسلام عشرة آلاف وقيل مائة ألف من القادة. وقد اختلف في سبب إسلامه ومدى إخلاصه، فقيل: إنه أسلم لكسب تأييد المسلمين الذين يؤلفون غالبية شعبه ضد عدوه وعدوهم. وقيل كان بضغط وإلحاح من قائده نوروس، وتوسلات من بعض أمرائه وبعض المشايخ. ومهما كان السبب وحتى لو كان إسلامه في البداية سياسياً، فإن من الثابت أنه فيما بعد قد أصبح مسلما حقيقيا، وذلك بشهادة رشيد الدين، أحد معاصريه ووزرائه، فقد ذكر أنه كان يشك في صحة إسلام غازان ولكنه تأكد فيما بعد من صحته من حديث جرى بينه وبين غازان حول الذنوب والأوثان. وقد عرف عنه إنه تعلم شرائع الإسلام فصلى وصام وانقطع عن الولاء لخاقان التتار، ألغى اسمه عن عمله إيران. ومع ذلك فإن غازان قد حارب المماليك المسلمين، وقيل: إنه حاول الاستعانة بالنصارى ضدهم، واعداً إياهم أن يرد إليهم الأراضي المقدسة عندما يستخلصها، فراسل البابا بانونيفاس الثامن ودعاه لشن حرب صليبية ضد المماليك سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م)، واعداً إياه وملوك أوروبا بإعطائهم فلسطين ثمناً لذلك.

وقد استجاب له جيمس الثاني ملك أرغونة، وأرسل إليه سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩م) يهنئه بانتصاراته، ويعده بإمداده بالسفن، ويعلمه بأنه سمح لمن يرغب من رجاله بالانضمام إليه. كما زعم بعضهم أن غازان عرض على الأوروبيين أن يعتنق النصرانية في سبيل الحصول على مساعدتهم ضد المماليك. د. شفيق جاسر أحمد محمود، محاولات التحالف بين المغول والصليبيين ضد المسلمين في القرنين السابع والثامن الهجريين وآثارها - مجلة الجامعة الإسلامية، العددان ٧٥-٧٦، ص ٧٨.

من مواقف شيخ الإسلام الإمام أحمد ابن تيمية (رحمه الله)

تمثلت شجاعة شيخ الإسلام الإمام أحمد ابن تيمية بنوعيها العقلية والقلبية في شتى المواقف، ولا سيما في موقفه مع المغول.

فقد روي أن ملك الكرج أراد أن يفتك بأهالي دمشق؛ فيسبي نساءهم وذراريهم؛ ويغنم أموالهم، فبذل مالاً كثيرا للسلطان غازان المغولي، الذي كان قد أول من أسلم من ملوك المغول، بذل له أموالاً طائلة ليخلي بينه وبين سكان دمشق. وبلغ الخبر شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية فقام من فوره، وانتدب رجالاً من وجوه البلاد وكبرائهم، من ذوي النهى والعقول الراجحة. ولما وصلوا إلى السلطان المغولي، أخذ الشيخ يحدثه بقول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان، ويقرب منه في أثناء حديثه، حتى كاد يلصق ركبته بركبتي السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه، مصغ لما يقول، شاخص ببصره إليه لا يعرض عنه، وذلك مما أوقع الله تعالى في نفسه من المحبة والهيبة للشيخ، حتى سأل قائلاً: من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله، ولم أر من هو أوقع منه حديثاً في نفسي، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه! وقال الشيخ للترجمان قل للسلطان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين وعملا الذي عملت: عاهد قومنا ... وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وَجُرْت [1].

فبذل الشيخ نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله ذلك، فكان سبباً في صد الظلم والجور، وكان رحمه الله -تعالى- يقول: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه.

هو الإمام تقي الدين أبو العباس أَحمد ابن عبد الحليم بن الإمام مجد الدين أبى البركات عبد السلام بن أبى محمد بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحراني. ولد يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ. وهاجر به والده إلى دمشق عندما أغار التتار على بلاد الإسلام سنة ٦٦٧ وتوفي بقلعة دمشق ليلة الاثنين لعشرين خلت من القعدة الحرام سنة ٧٢٨ هـ.

طلب أحمد بن تيمية العلم صغيراً ولازم الدرس والتحصيل كبيراً، حتى فاز بأنواع العلوم والمعارف، ما أصبح به إماماً للعلماء، وشيخاً للإسلام والمسلمين في سائر أنحاء العالم الإسلامي.

قال عنه ابن النجار- كما ذكر ذلك بهجة البيطار- : قدم بابن تيمية والده إلى دمشق، فأخذ الفقه والأصول على والده. وسمع من خلق كثيرين منهم الشيخ شمس الدين، والشيخ زين الدين بن المنجا والمجد بن عساكر. وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه وعنى بالحديث، وسمع الكتب الستة، والمسند مرات وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه، والفرائض والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وكبارهم، وتأهل للفتوى والتدريس، ولم يبلغ العشرين سنة، وتضلع في علم الحديث وحفظه، حتى قال من قال: إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث. وأمده الله تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد، إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه، وألف في أغلب العلوم التآليف العديدة. حتى قال الحافظ الذهبي: وما أبعد أَن تصانيفه تبلغ خمسمائة مجلد. وقال الحافظ المزي: ما رأيت مثله (أي ابن تيمية) ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أَحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه. أبو بكر الجزائري، نماذج من الدعاة الصالحين، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٥٧، ص ٣٨٤ .

١ - الشيخ/ أبو بكر الجزائري، نماذج من الدعاة الصالحين، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٥٧، ص ٣٨٥ .

الحملة المغولية الثانية بقيادة غازان

يؤكد الواقع على أن **غازان** استمر في تصميمه على غزو بلاد الشام، ولم تقلع نهائيًّا عن ضمها، هي ومصر، إلى أملاكه، وراح يتحين الفرص لتحقيق ذلك، مايدل على أن العداء لم ينته بين المغول في إيران والمماليك؟!

ورأى الإيلخان في (محرم ٧٠٠ / أيلول ١٣٠٠م) أن الفرصة أضحت مؤاتية للقيام بحملة أخرى على بلاد الشام، وكان الفصل شتاء، فخرج من **تبريز** متوجهاً إلى **حلب** عن طريق الموصل، فأخلى الحلبيون مدينتهم، وعم الذعر سائر مدن بلاد الشام، ولما وصل الخبر إلى مسامع السلطان الناصر محمد، جهز حملة عسكرية وخرج على رأسها، ولما وصل إلى **غزة** ورده خبر عبور غازان نهر الفرات، فأمر جنوده بالاستعداد للتصدي له.

ويبدو أن عامل المناخ أدى دوراً بارزاً في اتجاهات الفريقين، وحال دون لقائهما في معركة. فقد حدث في ذلك الوقت أن هطل المطر بغزارة، وكثر الوحل، واشتدت البرودة، فهلك كثير من جند المغول، كما نفق أكثر خيلهم ودوابهم، وكان غازان قد وصل في غضون ذلك، إلى إنطاكية، فرأى نفسه عاجزاً عن الاستمرار في الزحف واضطر للعودة الى إيران في (جمادى الأولى ٧٠٠هـ/كانون الثاني ١٣٠١ م)، وبعد أن نهبت قواته إنطاكية وجبل السماق [١].

والواضح أنه على الرغم من اعتناق غازان الدين الإسلامي، فإن نظرته السياسية إلى طبيعة الصراع مع المماليك، لم تمنعه من الترحيب بحلفاء نصارى من أجل الحصول على مساعدتهم بهدف زيادة قوته، والتحالف معهم للقضاء على الدولة المملوكية، ومن ثم فإن الإيلخان يئس أخيراً من مناصرة ملوك وأمراء أوروبا له، وكان قد نمي إليه بأن المماليك يتهيؤن للأخذ بثأرهم، فمال إلى المهادنة، فأرسل في (رمضان ٧٠٠هـ/ آيار ١٣٠١م) رسالة إلى السلطان الناصر محمد تتضمن أفكاراً تعبر عن وجهة نظرة لتحسين العلاقات بين الدولتين، ممزوجة بالتهديد والوعيد، وقد رد السلطان المملوكي برسالة مماثلة [٢].

جبلُ السماق: بلفظ السماق الذي يطبخ به، هو جبل عظيم من أعمال **حلب الغربية** يشتمل على مدُن كثيرة وقرىً وقلاع عامتها للإسماعيلية الملحدة وأكثرهم في طاعة صاحب حلب، وفيه بساتين ومزارع كلها عذي والمياه الجارية به قليلة، إلا ما كان من عيون ليست بالكثيرة في مواضع مخصوصة، ولذلك تنبت فيه جميع أشجار الفواكه وغيرها حتى المشمش والقطن والسمسم وغير ذلك، وقيل: إنه سمي بذلك لكثرة ما ينبت فيه من السماق ... . الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٢.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٧٩.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٠.

الحملة المغولية الثالثة بقيادة غازان (معركة عُرْض)

بعـد فشـل إحـلال السلام بين **الدولتين المغوليـة في إيران والمملوكية**، قـرر **غازان** غزو بلاد الشـام للمـرة الثالثـة، فقـاد فـي (جمـادى الآخـرة ٧٠٢هـ/شبـاط ١٣٠٣م) جيشـاً جـراراً، عبر به نهـرالفـرات، ونزل في **الحلّة**، حيـث زار مشهد **الإمام حسين في كربـلاء**، ووزع الهدايا، وتعطف علـى العلمـاء والمشايخ، ثم تقدم إلى **عانة** على شاطئ الفرات، فوصـل إليها في شهر (رجب /آذار)، وبعـد أن أمضـى فيها أيامـاً عدة انتقـل إلى **الرحبة** على الشاطـئ الأيمن لنهر الفـرات، بين **عانة والرقـة**، وحاصرهـا فاستسلمت لـه، وحاول استقطاب الأمـير عز الدين أيبك الأفـرم، نائب الشام، فأرسل إليه كتاباً يوضح فيه أنه حين هاجم بلاد الشام من قبل لم يكن متعدياً، وأن السلطان أخطأ في تقديـر الموقـف السياسي؟، فلم يتبع طـرق اللباقة في رده، ويضـيـف بأن بلاد الشام كانت تابعة فيما مضـى للروم (سلاجقة الروم) تارة، وللعراق تارة أخرى، ولم تكن تابعة لمصر، وطلب منه أن تكون غزة والرملـة مـن ثغور مصـر، وبرر تصرف جنوده السـيء أنه حصل بغير أمره، وعرض عليه الدخول في طاعته[١].

ومهما يكن من أمر، فقد غادر غازان **الرحبة** عائداً إلى **إيران** بعد أن ترك **سنجار**، ثم عبر دجلة وتوجه إلى مدينة **كشف** التي تقع على مسيرة يومين من **أردبيل**، وأقام فيها ينتظر نتيجة المعركة.

ويبـدو أنـه عانـى من تهديد حـدود بلاده الشرقيـة، أو أنه علم بمحاولة السلطـان **محمد الناصر** استقطـاب بعض قادته المقربين منـه، ومستشاريه الذين حذروه من حـر بلاد الشام، ومن المتاعب التي سيصادفها هناك، وسار **قتلغ شاه** إلى بلاد الشام على رأس جيش جرار بلغ تعداده ثمانين ألف جندي، وقيل مائة ألف، ونزل على نهر الفرات ومن جهته استعد وأرسل في مقدمته الأمير بيبرس الجاشنكير، فدخـل دمشق فـي (شعبان/ نيسان)، ولما اطلع على الأوضاع العسكرية فيها، وعلم باقتراب المغول كتب إلى السلطـان يستحثه على الخـروج، ووصل قتلغ شاه في هذه الأثناء إلى حمـاة، وأرسل فرقة عسكرية مؤلفـة مـن السكان، فتصدى لهم نائـب طرابلس في موضع **عُرْض**[٢]، ومعـه ألف وخمسمائة جندي، وأخذهـم علـى حين غـرة، استمرت المعركة مـن منتصف النهار حتـى العصر، وأسفـرت عن **هزيمة الفرقـة المغوليـة**، ووقع ألـف وثمانمائة جندي مغـولي في الأسـر، بالإضافة إلى مائـة وثمانين من **الأرمـن**، وتم إنقـاذ ستة آلاف أسير من **التركمان**، كانوا قد وقعوا في قبضة المغول، وقد أبلغ السلطان الناصـر محمـد نبأ هذا الانتصار الذي علق عليه المؤرخ أبو الفداء الذي حضر المعركة: بعد ذلك « وكان هذا النصر عنوان النصر الثاني »، ويقصد النصر في **معركة شقحب القادمة**.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٧٩.

٢ - عُرْض: بليدة في برية الشام من أعمال حلب بين تدمر والرصافة. الحموي: ج ٤، ص ١٠٣.

معركة (شَقْحَب أو مرج الصُّفَّر) في ٢ رمضان سنة ٧٠٢ هـ / ٢٠ إبريل ١٣٠٣م

استأنف **قتلغ شاه** زحفه باتجاه **دمشق**، في حين خرج **الناصر محمد** من **القاهرة** على رأس خمسين ألف مقاتل قاصداً دمشق، واصطحب معه **الخليفة العباسي المستكفي بالله**، وكان قد سبقه إليها الأميران ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وحسام الدين لاجين الاستادار المنصوري، فاطمأنت قلوب الناس بعد أن خشوا عاقبة الأمر.

والواقع أنه حصل الارتباك في حلب وحماة وحمص بعد أن تقهقرت القوات الحلبية والحموية إلى حمص أمام تقدم المغول، ونزلت هذه القوات في مرج الصُّفَّر في (٥ شعبان ٧٠٢هـ/ ٢٥ آذار ١٣٠٣م)، ووصل المغول في هذا الوقت إلى حمص وبعلبك، وعاثو فساداً فيهما، وانتاب الناس القلق مجدداً، لأن جيش الشام مع القوات التي قدمت من مصر لاتستطيع وحدها الوقوف في وجههم نظراً لكثرتهم العددية. وعلى الرغم من ذلك، قرر القادة والأمراء والأعيان وذوو الرأي، الخروج للقاء العدو، ثم خرج **شيخ الإسلام ابن تيمية** إلى **المرج**، واجتمع بالجند القادمين من حماة، وأخبرهم بما تحالف عليه الأمراء والعامة، فتحالفوا معهم وخرجت العساكر الشامية في (٢٤شعبان/١٣نيسان) وخيمت على الجسور من ناحية الكسوة، في الوقت الذي وصل فيه المغول إلى مشارف دمشق، فاضطرب أمر الناس مجدداً، وغرقت المدينة في بحر من الفوضى وانتشرت اللصوصية، ولم تهدأ الأوضاع، وتطمئن القلوب، إلا بوصول السلطان الناصر محمد يوم السبت (٢ رمضان /١ أيار) حيث عقد اجتماعًا فوريًا مع قادته، تقرر فيه لقاء العدو **بشقحب** تحت جبل غباغب من أرض مرج الصُّفَّر[١].

وتعبأ الجيشان استعداداً للمعركة، واستعرض السلطان، بصحبة الخليفة، الجيش ومعهما القراء يتلون القرآن، ويحثون على الجهاد، والتقى الطرفان في رحى معركة رهيبة، بدأت عصر يوم السبت واستمرت إلى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأحد، أبلى فيها المماليك وجيوش الشام بلاء حسناً، فتم لهم النصر المؤزر، وهلك عدد كبير من المغول، وأسر بعضهم، وطارد المنتصرون فلول المنهزمين حتى **الرحبة** وقتلوا الكثير منهم، وحتى الذين استطاعوا النجاة صادفهم نهر الفرات فلم يتمكنوا من العبور، وغرق أكثرهم، واختار بعضهم السير بمحاذاة النهر قاصدين بغداد، ولكن هلك أكثرهم جوعاً، ولم يصل إلى **غازان** سوى واحد من كل عشرة، بمعنى أن عدد الذين قتلوا وأسروا بلغ تسعة أعشار الجيش[٢].

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٥.

معركة (شَقْحَب أو مرج الصُّفَّر) في ٢ رمضان سنة ٧٠٢هـ / ٢٠ إبريل ١٣٠٣م



الجَابِيَةُ: بكسر الباءِ وياءٍ مخففة، وأصله في اللغة الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل. قال الأعشى: كجابية الشيخ العراقي تُفَهَّقُ، فهو على ذا منقول، وهي قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدُور من ناحية الجولان قرب **مرج الصُّفَّر** في شمالي حوران إذا وقف الإنسان في **الصنمين**، واستقبل الشمال ظهرت له، وتظهر من **نوى** أيضاً، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية، فيه حيات صغار نحو الشبر عظيمة النكاية، يسمونها أم الصوَيت، يعنون أنها إذا نهشت إنساناً صوَت صوتاً صغيراً ثم يموت لوقته، وفي هذا الموضع خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطبته المشهورة، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع، ويقال لها: جابية الجولان أيضاً. الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٩١ - ٩٢.

جبل غباغب: قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق - (المقريزي، السلوك).

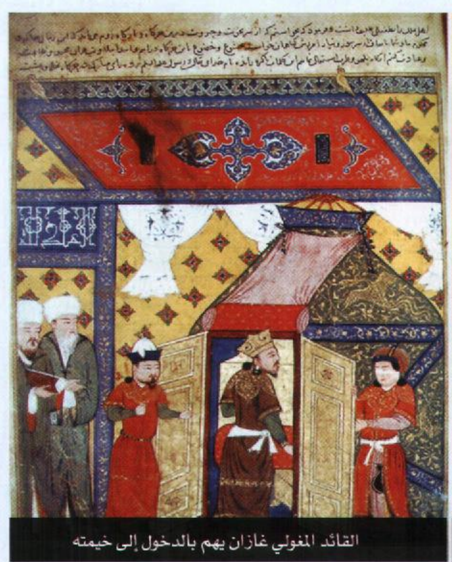
دخـل السلطان **الناصر محمد**، بعد المعركـة، مدينة **دمشق** وسط مظاهر الفرح والابتهاج، وأوفد مبعوثًّاخاصًّـا إلى مصـر ليقـوم بتبليغ هذه البشارة، ومكـث فيها حتى عيد الفطـر، أنعم خلالها على الأمراء، وصلَّى فيها صلاة العيد، ثم غادرها في (٣شوال/٢١آيار) عائداً إلى القاهرة، ولما وصل خبر الهزيمة إلى غازان اغتم، لأنه لم يذق طعم الهزيمة من قبل !؟ وازداد غضبه حين وصل إليه كتاب من السلطان المملوكي يحقر من شأنه، ويتهكم عليه في سخرية لاذعة، ويطلب منه الجلاء فوراً عن العراق وتركها للخليفة العباسي، وهدده قائلاً: وإن سولت لك نفسك بخلاف ذلك، فأنت لامحالة هالك، وعما قليل يخلو منك العراق والعجم، وتندم حيث لاينفع الندم[١].

أمـا عامـة المغول فقد أسقـط في أيديهم، واضطربـوا اضطراباً شديداً، وخـرج أهل **تبريز** للقاء المنهزمـين أسـوأ استقبال، ليطلعوا منهم على أسباب الهزيمة، وليعرفوا من فقد منهم، حتى إذا وقفوا على الحقيقة القاسية، علت الصرخات، وعمَّ الحزن، وقامت النياحة على القتلى مدة شهرين كاملين.

ودفـع الحـزن بغازان إلى أن ينزل العقـاب بقادته المقصرين، ولم ينج **قتلغ شاه** من سخطه، وأمر بقتله، ثم تراجع عن ذلك بعد تدخل الأمراء، فعفا عنه، لكنه طرده من مجلسه ونفاه إلى جيلان.

كانـت **معركة شقحـب** إيذاناً بأفول نجم غازان فبالإضافـة إلى الخسارة الجسيمة التي مني بها، فقـد كـثرت الدسائس والمؤامرات من قبل الأمراء المغول لخلعه عن العرش، وكان من الطبيعي أن يكون لهذه الأحداث تأثير كبير عليه[٢].


هيثوم الثاني، ملك أرمنيا (يسار) والمغولي غازان، يرافقهم أمراء سنة ١٣٠٢م


القائد المغولي غازان يهم بالدخول إلى خيمته

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٥.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٦.

شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وأثره في شحذ الهمم لقتال المغول:

عمل العلماء على إشراك الخليفة العباسي المستكفي بالله، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الصالحي في مواجهة الغزاة، وقام **شيخ الإسلام ابن تيمية** بدور عظيم في هذا الجانب، فقد اجتمع نائب السلطان والأمراء وقادة الجند والعلماء، ونظروا فيمن يبعثوه إلى السلطان ليحثه على المجيء لنصرة أهل الشام، فوقع اختيارهم على الإمام ابن تيمية رحمه الله لما علموا من شجاعته وجرأته في قول الحق والصدع به ، ووقف ابن تيمية موقفاً شجاعاً في وجه السلطان - رغم جبروته وقوته - وقال له فيما قال: " إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن " ، ثم قال له: " لو قُدِّر أنكم لستم حكّام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم، وأنتم مسؤولون عنهم؟! " ، ولم يزل بهم حتى أرسلوا الجيوش إلى الشام.

وبعد ذلك اجتمع الأمراء وتحالفوا على لقاء العدو، وشجّعوا أنفسهم ورعاياهم حتى نودي في دمشق: بألاّ يرحل منها أحد، وتهيّأ الناس للقتال، وارتفعت الروح المعنوية عند الجند وعامة الناس، وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية أعظم الأثر في إلهاب عواطف الأمة وإذكاء حماسها، حتى إنه كان يحلف للأمراء وللناس: إنهم في هذه الكرّة منصورون ، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: " **إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً** " ، ثقةً منه بموعود الله بالنصر لمن أطاعه وجاهد في سبيله.

وكان يدور على الأجناد والأمراء، ويفتي الناس بالفطر، ويأكل هو من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم أفضل ليتقووا على القتال، فيفطر الناس معه.

ومرّ السلطان بصفوف الجيش والقراء يقرؤون الآيات التي تحضّ على الجهاد والاستشهاد، وهو يقول لهم: دافعوا عن دينكم وحريمكم، ووضعت الأحمال وراء الصفوف، وأمر الغلمان بقتل من يحاول الهرب من المعركة. وقد **ثبت السلطان ابن قلاوون** في ذلك الموقف ثباتاً عظيماً، وبايع الله وصدَقه فصدقه الله، حتى إنه أمر بجواده فقيِّد لئلا يهرب.

ثم بدأ القتال والتحم الصفّان في يوم السبت الثاني من رمضان بسهل شقحب جنوبي دمشق، وكان عدد جيش التتار خمسين ألف مقاتل، وقيل: إن عدده كان يصل إلى مائة ألف، وطلب شيخ الإسلام ابن تيمية من قائد الجيش أن يوقفه موقف الموت، فأخذه القائد وأوقفه في مكان ينحدر منه التتار كالسيل الهادر، فلما أقبلوا وبريق سيوفهم يلمع من بعيد، والغبار منعقد فوق رؤوسهم ، قال له: يا سيدي هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذا الغبار المنعقد، فدونك ما تريد، فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفتيه طويلاً ، ثم أقدم على القتال، حتى تم النصر المؤزر للمسلمين. رحم الله الشيخ وبلّغهُ منازل الشهداء.

الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري

٧٠٨ - ٧٠٩هـ

لم تستقم الأمور طويلاً لبيبرس الجاشنكير لأنه لم يكن محبوباً عند المصريين بسبب سوء الأحوال الاقتصادية والسياسية، حيث انخفض في عهده منسوب النيل وارتفعت الأسعار، وفشا الوباء، ولاحت في الأفق تهديدات مغولية وصليبية. وحينما استقر بيبرس على عرش السلطنة حتى وردت الأنباء بأن ملك **قبرص** قد اتفق مع بعض ملوك الصليبيين على غزو دمياط، فأمر بيبرس بمد جسر من القاهرة إلى دمياط وجسر آخر بطريق الإسكندرية.

ثم وردت أخبار أخرى بتأهب المغول للهجوم على الشام. إلا أن وجود الناصر في الكرك كان هو ما يفزع بيبرس كثيراً، فأرسل اليه يطالبه بإعادة المال الذي أخذه من مصر إلى **الكرك**، وأمره أن لا يبق عنده سوى عشرة مماليك، مهدداً أياه بأنه إن لم يفعل ذلك فلسوف يرسل إليه العسكر لتخرب الكرك عليه، فأرسل له الناصر مبلغاً من المال. وأمر بيبرس الجاشنكير بمنع الخمر في مصر، واستُخْدِمَ عنف مفرط ضد العامة والتجار وحتى الأمراء. وتدهورت الأحوال وخرجت العامة تطوف الشوارع مرددة: " سلطاننا ركين ونائبنا دقين، يجينا الماء منين. جيبوا لنا الأعرج، يجى الما ويدحرج "[١]، وبركين ودقين كانوا يقصدون بيبرس (ركن الدين) وسلار لقلة عدد شعرات لحيته، أما بالأعرج فكانوا يعنون الناصر محمد لأن كان به عرج خفيف.

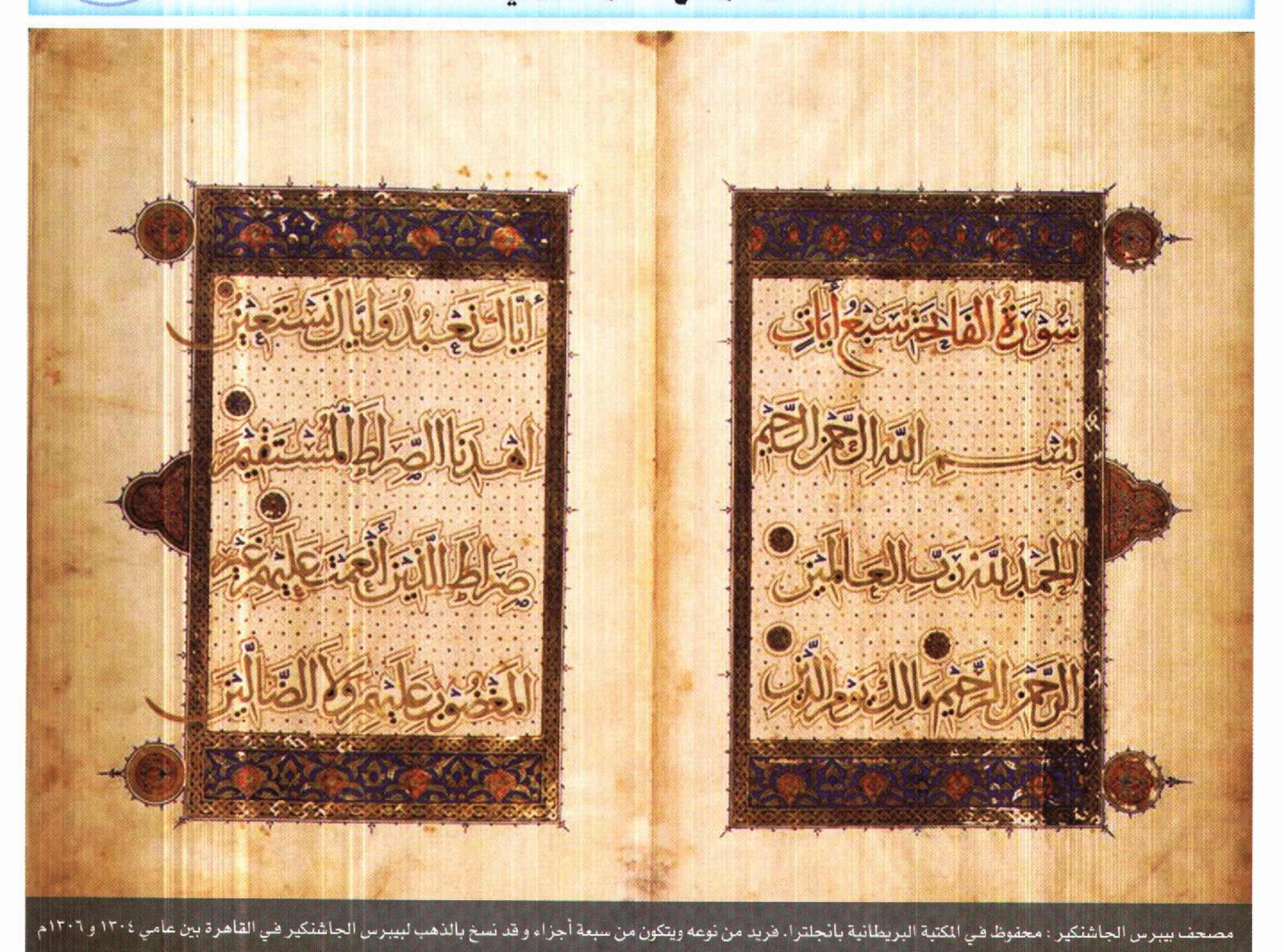
ونتيجة لهذه الظروف السيئة، فر بيبرس الجاشنكير إلى بلدة **أطفح بصعيد مصر**،ثم إلى مدينة **أخميم** عازماً الهروب إلى **برقة**،إلا أن أكثر مرافقيه تخلوا عنه وفارقوه في أخميم وعادوا إلى **القاهرة**، فقرر عدم الذهاب إلى برقة.

وفي اليوم اللاحق لفرار بيبرس من القاهرة، وكان يوم الأربعاء، وبأمر من سلار الذي بقي في القلعة، هتف الحراس باسم الملك الناصر وكتب سلار إلى الناصر محمد بن قلاوون بتنحي بيبرس وفراره، وفي يوم الجمعة خطب على منابر القاهرة ومصر باسم الملك الناصر، وأسقط اسم الملك المظفر بيبرس بعد أن حكم البلاد مدة تقل عن سنة.

وصل الملك الناصر إلى قلعة الجبل وجلس على تخت السلطنة لثالث مرة، واحتفل الناس بعودته وزينت القاهرة. وقبض على بيبرس الجاشنكير وحمل إلى الناصر مقيداً بالحديد، فعدد له ذنوبه وأقر بها بيبرس، وطلب العفو ولكن الناصر أمر بخنقه فخنق ودفن خلف القلعة[٢].

١ - المقريزي، السلوك، ٢/ ٤٣١

٢ - المقريزي، السلوك، ٢/ ٤٤٩



مصحف بيبرس الجاشنكير: محفوظ في المكتبة البريطانية بانجلترا. فريد من نوعه ويتكون من سبعة أجزاء وقد نسخ بالذهب لبيبرس الجاشنكير في القاهرة بين عامي ١٣٠٤ و١٣٠٦م

أسماء متشابهة لبعض الأمراء الذين كانوا يحملون اسم ركن الدين بيبرس وهم على النحو الآتي:

ركن الدين بيبرس البندقداري وهو الظاهر بيبرس السلطان المعروف.

ركن الدين بيبرس الأحمدي.

ركن الدين بيبرس الأوحدي.

ركن الدين بيبرس الجالق.

ركن الدين بيبرس الحلبي، ويعرف أيضاً بـ أياجي الحاجبي.

ركن الدين بيبرس الدوادار، وهو أيضاً ركن الدين بيبرس المنصوري، وهو المؤرخ المملوكي المعروف.

ركن الدين بيبرس الركني المظفري.

ركن الدين بيبرس السلاح دار.

ركن الدين بيبرس العجمي، وهو أيضاً الجالق المنصوري.

ركن الدين بيبرس المغربي.

ركن الدين بيبرس الموفقي.

ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير.

المرة الثالثة

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

٧٠٩ - ٧٤١ هـ

عندمـا أدرك **السلطـان الناصر محمد** أن الأوضاع الداخليـة أضحت مهيأة له، خرج من **دمشق** يـوم الثلاثـاء في التاسع من رمضـان سنة ٧٠٩ هـ قاصـداً **القاهرة**، يرافقه مماليكـه وأتباعه، وقد صحبه المؤرخ أبو الفداء، فوصف لنا كشاهد عيان، كيف كان السلطان يلتقي كل يوم، في أثناء رحلته، بجموع المماليك، والأمراء الفارّة من القاهرة، وقد خرجوا لاستقباله وتقديم فروض الولاء والطاعة له. واستراح في **الكرك**، ثم غادرها إلى **غزة**. وتدفقت عليه جيوش مصر وبلاد الشام، ثم سار آمناً على نفسـه، فوصل إلى القاهرة في أول أيـام عيد الفطر، فاستقبله الأمير سلار وبعض الأمراء، وقدموا له فروض الولاء والطاعـة. واستقر على سرير ملكه فـي اليوم الثاني، وأقيمت الخطبـة باسمه، وحضر الخليفـة العباسي وكافة الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولـة لتهنئته واستبشر العامة بقدومه، ومدحه الشعراء وبذلك بدأت مدة حكمه الثالثة[1].

تعـد سلطنـة الناصر محمد الثالثـة على جانب كبير من الأهمية؛ لأنها ظهـرت فيها شخصيته التي طبعت أحداث التاريخ المملوكي بخاصة، وتاريخ المنطقة بعامة، بطابع فريد وخاص لما يقرب من إحدى وثلاثـين سنـة. كان الناصر محمد في الخامسة والعشرين من عمـره، أي في سن تمكّنه من مباشرة شـؤون الحكم بنفسـه، وفرض كلمته على الأمـراء، وعدم الاستسلام لهم ليتحكمـوا به كما حدث في الحقبتين السابقتين[2].

قـام الناصر بإلغاء بعض مناصـب الدولة ومنها منصب الوزير في ٧١٣هـ / ١٣١٣م، وصادر أموال أربـاب الدولة الفاسدين الذين كونوا ثرواتهم من الرشاوي واستغلال المناصب، وأبعد المغول العويرتية عـن مناصب الدولة، وألغى فـي ٧١٥هـ / ١٣١٥م المكوس الجائرة التي فرضهـا الأمراء ورجال الدولة علـى عامـة الناس لإثـراء أنفسهم وكان هـذا جزء من سياسته للحـد من نفوذ وقوة الأمـراء، وأبطل الرشوة وعاقب عليها. وكان الناصر يذهب بنفسه في كل يوم اثنين إلى دار العدل للإصغاء إلى شكاوي عامـة النـاس من أرباب الدولـة والأمراء والموظفـين. وأصدر قراراً يمنع النواب مـن معاقبة المتهمين والإسـاءة إليهم دون تصريح منه. ومنع ضرب النـاس بالمقارع. وأغلق جب القلعة الذي كان يستخدم سجناً، وكانت له سمعة سيئة وتسكنه الخفافيش. وقد بلغ النظام الإداري في عهد الناصر محمد مبلغاً عظيماً في الدقة والتنسيق.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٥٩.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٥٩.

٣ - المقريزى، السلوك، ٣/ ٢١٩



وصول الناصر محمد إلى مصر سنة ٧٠٩ هـ

في أول أيام شهر شوال وصل الناصر إلى القاهرة وصلى صلاة العيد بالدهليز، وفي اليوم اللاحق جلس على تخت الملك للمرة الثالثة. ففي مدة حكمه الأولى كان الناصر دمية في أيدي كتبغا والشجاعي، وفي المدة الثانية، مع أنه كبر وأصبحت له أعمال يعتز بها، إلا أنه عاش محجوراً عليه عن طريق بيبرس الجاشنكير وسلار اللذين كانا يمارسان السلطان الفعلي ويتحكمان في معاشه. أما هذه المرة فقد عاد إلى مصر وقد جاوز سن الطفولة وأصبح في الخامسة والعشرين، وقد صقلته الأحداث وحنكته التجارب. عاد الناصر إلى تخت السلطنة هذه المرة عازماً على الانتقام لنفسه ممن أساءوا إليه ومصمماً على ألا يترك أحداً يستصغره أو يتآمر عليه.

عودة الناصر محمد إلى مصر سنة ٧٠٩ هـ وتوليه الحكم للمرة الثالثة

علاقة الناصر محمد بن قلاوون بالحجـــاز

قامـت سياسـة **الناصر محمد** في بلاد الحجاز على قاعدة ضم هذا الإقليم ووضعه تحت السيادة المملوكية متبعاً نهج أسلافه نظراً للفوائد الدينية والتجارية التي يحصلون عليها.

فمن حيث الفوائد الدينية، فإن استمرار سيادة المماليك على الأراضي المقدسة في الحجاز ستزيد من هيبتهم أمام المسلمين في العالم باعتبارهم أقوى دولة إسلامية، وسينظر المسلمون إليهم على أنهم حماة الدين[١].

ومـن حيـث الفوائد التجارية، فإن سيطرة المماليك على بـلاد الحجاز ضرورية للتحكم في سواحل البحـر الأحمـر وثغوره، لتأمين استمرار التجارة المملوكية. لذلـك لم يتوان عن إحكام قبضته على بلاد الحجاز. وكان يضرب بشدة على أيدي الثائرين، ويقمع كل حركة مناهضة للحكم المملوكي.

وحـدث أن شـبَّ الخلاف في عـام (٧١٤ هـ / ١٣١٤م) بين الأخوين عز الدين حميضة بن أبي نُمي الحسنـي المكي، وأسد الدين أبي عرارة رميثة، وكانا يشتركان معاً في إدارة شؤون مكة. فقد قام الأول علـى حـذف اسم الثاني من خطبة الجمعة، وخطب **لصاحب اليمن** بدلاً منه، كما استبد بالأمور كلها وأساء السيرة في مكة، فدبت فيها الفوضى، واستنجد المكيون بالسلطان الناصر محمد.

لبى الناصر نداء الاستغاثة، فأرسل حملة عسكرية مع أخيهما الثالث أبي الغيث، بهدف عزلهما عن الولايـة وتوليته مكانهما. كان المؤرخ أبو الفداء، آنذاك فـي مكة، فوصله كتاب من السلطان يطلب فيه أن يسانـد هـذه الحملة ويقبض على حميضة، غير أن هـذا الأخير ولّى هارباً عندما علم بتقدم القوات المملوكية، فخلا الجو للأمير أبي الغيث، وتولى إمارة مكة ثم أعاد الحملة التي قدم معها إلى مصر.

ويبـدو أن أبـا الغيـث لم يتمتع طويلاً بالإمارة فقد هاجمه أخـوه حميضة في أواخر عام (٧١٤ هـ / ١٣١٥م) واشتبك معه في معركة انتهت بمقتله، واستبد بالأمور مجدداً. وتحرك في هذه الأثناء الأمير رميثـة بهدف استعـادة سلطته المفقودة. فقدم إلى مصر في عـام (٧١٥ هـ / ١٣١٥م) وقدّم فروض الولاء والطاعة للسلطان، وطلب منه المساعدة لطرد أخيه واستعادة سلطته[٢].

استجـاب الناصـر محمـد لطلبه وأرسل معـه حملة عسكرية ولما وصل إلى مكـة اشتبك مع أخيه وانتصر عليه[٣].

---

١ - ٢، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٦٣.

٣ - أبو الفداء: ج٧، ص ٧٦ - ٧٧.



علاقة الناصر محمد بن قلاوون بالحجاز
ش
طرابلس
دمشــق
البحر الشامي (بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط)
بلاد الشام
السلطنة المملوكية
حطين
عكا
يافا
الأردن
الإسكندرية
دمياط
عسقلان
القدس
فلسطين
الكرك
السلطنة المملوكية
القاهرة
القلزم
الشوبك (مونتريال)
العقبة
سيناء
تبوك
بعـد هزيمة حميضة فـرّ في نفر قليل مـن أصحابه قاصـداً العراق؛ ليطلـب النجدة من الخـان المغولي أولغايتو، بينما استقر الأمر لرميثة، فحكم مكة.
٣
إلى العراق
٢
في عام (٧١٥ هـ / ١٣١٥م) دعا رميثة السلطـان المملوكـي الناصـر محمـد لتلبية دعوتـه. فاستجاب السلطـان لطلبه، وأرسل حملة عسكرية. ولما وصل إلى مكة اشتبك مع أخيه وانتصر عليه.
٤
الوضـع فـي المدينـة النبويـة: استمرت الخلافـات قائمة بين أمرئهـا للاستئثار بالسلطـة، خاصـة بـين الأخويـن مقبل ومنصـور بـن جمـاز من جهـة، ثم هذا الأخـير وابنه كبشة وبين ابن أخيه ماجد ثم ازدادت الحالة سوءاً بعد وفاة الأمير منصـور فـي عـام (٧٣٥هــ/١٣٣٥م) بفعـل تنازع خلفائـه علـى السلطة حتى استتب الأمـر إلى طفيل بن منصور في عام (٧٥١هـ/١٣٤٩م).
الصحراء الشرقية
مصـــــــر
قوص
النوبــــــــة
المدينة النبوية
بحر القلزم (البحر الأحمر)
أسوان
ينبع
أرض الحجاز
رابغ
إبريم
عيذاب
نهر النيل
جدة
مكة المكرمة
في عام (٧١٤ هـ / ١٣١٤م) شبَّ الخلاف بـين الأخوين: عز الديـن حميضة بن أبي نُمي الحسني المكي، وأسد الدين أبي عرارة رميثة، وكانا يشتركان معاً في إدارة شؤون مكة. فقد قـام الأول على حذف اسم الثـاني من خطبة الجمعة، وخطب لصاحب اليمن بدلاً منه، كما استبـد بالأمـور كلها وأساء السـيرة في مكة، فدبت فيهـا الفوضـى، واستنجـد المكيون بالسلطان الناصر محمد.
١
١٠٠ كم
٥٠
٠

اجتمـع **حميضة بالخان المغولي** وشرح له حقيقة الوضع في الحجاز، وطلب منه مساعدة عسكرية لاستعـادة سلطته المفقودة. ولما كانت العلاقات بين الدولتين المملوكيـة والمغولية وفارس تمر آنذاك في حالـة حذر؛ فقد لبـى أولغاتيو طلب الأمير المكي المعزول، **وأمده بجيش من خراسان بلغ تعداده أربعـة آلاف فارس**، كان من بينهم **جماعة من المغول وعرب خفاجة** وسار بهم مكة، إلا أنه لم يحقـق هدفـه، فقد توفي أولغايتو قبل أن يصل هذا الجيش إلى مكة فتفرق، وحلت به الهزيمة على يد محمد بن عيسى أحد أمراء العرب الذي ساءه استيلاء المغول على الحجاز، وأسر حميضة مع أربعمائة مـن المغول، **وأعلن محمد بن عيسى سيـادة الناصر محمد على بلاد الحجاز وذلك في عام (٧١٥هـ/١٣١٥م)**[١].

ابتهـج السلطـان بهذا الانتصار واستدعى محمد بن عيسى إلى القاهرة فاستقبله بحفاوة وخلع عليه وأبدى إعجابه به وتقديره له، وأجزل له العطاء، وعفا عن أخيه مهنا بن عيسى الذي كان قد خرج على حكم المماليك وانضم إلى **قراسنقر** في فارس.

أعيـدت، علـى إثـر ذلك، **الخطبة فـي مكة والمدينـة باسم الناصر محمد** فـي عام (٧١٧ هـ/١٣١٧م)، والجديـر بالذكر أن **لقب خادم الحرمـين الشريفـين الذي اتخـذه الأيوبيون**، واحتفـظ بـه المماليـك من بعدهم، كان مـن ألقاب الناصر محمـد، كما كان من ألقابـه أيضاً صاحب القبلتين أي بيت المقدس ومكة[٢].

بيد أن النزاع ما لبث أن تجدد في مكة في عام (٧١٨هـ/١٣١٨م) بين الأميرين حميضة ورميثة، وتغلـب الأول علـى الثاني، وخلـع طاعة المماليـك، وخطب لأبي سعيـد بهادر إيلخـان المغول. لم يقف الناصـر محمد موقف المتفرج من تطـور الأحداث في مكة لغير صالحه، فأرسـل حملة عسكرية لتعيد الأمـور إلى نصابها، وطلب من الأمير بدر الدين بـن التركماني، الذي ولاه إمرة الحج في هذه السنة، أن يقبض على الأخوين، خاصة بعد أن تبين له تواطؤ رميثة سـراً مع أخيه حميضة.

تمكن التركماني من القبض على رميثة، وأرسله إلى مصر، واستقر هو نائباً للسلطان الناصر محمد فـي مكة، واستمـر في منصبه حتى عام (٧١٩هـ/١٣١٩م) لكنه قتل على يـد المماليك قبل أن يحقق أمنيته[٣].

وفي واقع الأمـر أن سـياسة المماليك في مكـة قامت على عـدم تفرد أي أمير بالحكم، خشـية

---

١ - ٢، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

٣ - أبو الفداء: ج٤، ص ٨٤ - ٨٩.

من الانقلاب على الدولة، لذلك فقد عفا الناصر محمد عن رميثة بعد ذلك، وأرسله إلى مكة ليشترك مـع أخيه عطيفـة في إدارتها. وظلـت السلطة موزعة بـين الأخوين حتى توفي عطيفـة، فانفرد رميثة بالحكـم على أن الأمور لم تستقـر تماماً فقد حدثت فتنة في عام (٧٣١هـ/١٣٣١م)، قام بها العبيد الذيـن انقضوا على جماعة الأمـراء والمماليك. ولما علم السلطان بهذه الانقضاضة أرسل جيشاً بقيادة الأمـير **أيتمش** فهرب العبيد مـن وجه القوات المملوكية، وبـرأ رميثة ساحته أمـام السلطان من هذه الفتنة، فعفا عنه وأعاده إلى مكة، وعينه أميراً عليها.

أمـا فـي **المدينة النبوية**، فقد استمرت الخلافات قائمـة بين أمرئها للاستئثار بالسلطة، خاصة بـين الأخوين مقبـل ومنصور بن جماز من جهة، ثم هـذا الأخير وابنه كبشة وبين ابـن أخيه ماجد ثم ازدادت الحالـة سـوءاً بعـد وفاة الأمـير منصور في عام (٧٣٥هـ/١٣٣٥م) بفعل تنـازع خلفائه على السلطـة حتـى استتب الأمر إلى طفيـل بن منصور في عـام (٧٥١هـ/١٣٤٩م) **والواقـع أن سلطة الناصـر محمـد في الحجاز كانت اسمية،** وأن نفوذه لم يتعد ذكـر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة أحياناً، بالإضافة إلى ذلك فإن أمراء الحجاز لم يعترفوا بسلطة الخليفة العباسي في القاهرة، فلـم يذكروا اسمه في الخطبة وقد عـبَّر العمري عن هذه العلاقة غير التامة، في بعض أوقات العصر المملوكي، بين المماليك وحكام الحجاز، حين ختم كلامة عن إقليم الكرك فقال: « وبهذا تم ذكر النطاق بمصـر والشامـات وما معها من جميع الممالـك الإسلامية إلا الحجاز، وقد قطعـه من جزيرة العرب، وليس أمره بمضبوط ولا بحفظ الثقة منوط»[١].

مستـنـد تاريـــخي — **مكة في عصر المماليك**

ذكـر عـادة أهـل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهـم: فمن عاداتهم أن يصلي أول الأئمـة **إمام الشافعية**، وهو المقـدم مـن قبل أولي الأمر. وصلاته خلف المقـام الكريم، مقام إبراهيم الخليل عليه السلام في حطيـم له هنالك بديع، وجمهور الناس بمكة على مذهبه. والحطيم خشبتان موصول ما بينها بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان على صفتهما، وقد عقدت علـى أرجـل مجصصة، وعرض على أعلـى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق فيهـا قناديل زجاج. فإذا صلى الإمـام الشافعي صلـى بعده **إمام المالكية** في محراب قبالـة الركن اليماني، ويصلي **إمام الحنبليـة** معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلي **إمام الحنفية** قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك، ويوضع بين يدي الأئمة في محاريبهم الشمع. وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهو تخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي. وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو. **ابن بطوطة، ج١، ص ١٤٥.**

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٦٦.

علاقة الناصر محمد بن قلاوون باليمن [١]

استتبعت **سياسة المماليك** في البحر الأحمر، بسط سيطرتهم على اليمن. وتابع الناصر محمد سياسة أسلافه في هذا المجال. **وكان اسم السلطان المملوكي واسم الخليفة العباسي في القاهرة يذكران في الخطبة وينقشان على السكة في بلاد اليمن**. ولكن بعض ملوك اليمن تمتعوا بنزعات استقلالية، فامتنعوا عن أداء ما يتوجب عليهم للدولة المملوكية، ورفضوا ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة، ومالوا إلى إعطاء بلاد الحجاز التي كانت تابعة لمصر، ما اعتادوا إرساله إليها من الغلال بهدف أن يتقدم اسم ملك اليمن على اسم سلطان مصر في خطبة الجمعة، بالإضافة إلى ذلك فإن اليمنيين كثيراً ما أساءوا إلى التجار المصريين الذين كانوا يفدون على بلاد اليمن وسلبوهم أموالهم.

وكان المماليك من جهتهم حريصين على بسط سلطانهم على اليمن، لتأمين استمرار الحركة التجارية في البحر الأحمر، نظراً لما كانت تدره عليهم من منافع مادية، وتحقيق الأمن للتجار وبضائعهم.

وظهرت بوادر العصيان والرغبة في الانفصال عن الحكم المملوكي في عام (٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، عندما توقف الملك المؤيد **هزبر الدين داود بن يوسف بن رسول** عن إرسال المال المقرر إلى مصر في كل عام، كما أساء معاملة التجّار المصريين وسلبهم أموالهم، وأرسل في الوقت نفسه،إلى مكة، ليقدم اسمه على اسم السلطان الناصر محمد.

نتيجة لتطور الأوضاع في اليمن لغير مصلحة المماليك، هدّد السلطان الناصر محمد ملك اليمن، وأنذره إذا استمر على موقفه المعادي ولم يذعن بالطاعة له، كما أرسل إليه الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع كتاباً يعدد فية المخالفات التي ارتكبها، وأنذره بدوره بإرسال حملة عسكرية لإخضاعه.

ويبدو أن ملك اليمن استمر على رفضه للحكم المملوكي، مما دفع الناصر محمد إلى تكليف الأمير عز الدين أيبك الشجاعي بإعداد أسطول لغزو بلاد اليمن. غير أن الأحداث الداخلية التي حدثت في مصر آنذاك، والتي نتجت عن نشوب الخلاف بين السلطان وبعض أمرائه، خاصة سلار وبيبرس، ورغبة الأول في قيادة الحملة بنفسه ليبتعد عن القاهرة، في أثناء اشتداد النزاع، قد أدّت إلى تأجيل المشروع.

والواقع أن الملك المؤيد استفاق بعد أربع سنوات فعدل عن موقفه العدائي، ليفتح صفحة جديدة في

---

١ – ٢، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٦٣.



علاقة الدولة المملوكية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون باليمن

العلاقـات بين البلدين . ويبدو أنه تعرّض لمشـكلات داخلية ورغب في الحصول على مساندة السلطان ضـد منافسيـه على الإمـارة، فأرسل إلى الناصر محمـد هدية من الجمال والخيـول والوحوش، قبلها السلطان وأعدها جزية من ملوك اليمن إظهاراً لخضوعهم لسطان مصر.

وتجدّدت النزاعات الداخلية في عام (٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، وتراجع نفوذ المجاهد سيف الدين، صاحب اليمن، أمام تصاعد نفوذ ابن عمه الظاهر عبد الله بن منصور، صاحب دملوة، بحيث لم يتعدّ حصن تعز، فطلب المساعدة من السلطان. وكان الناصر محمد يرحّب بالتدخل في أمور اليمن لتأمين مصالح الدولـة المملوكية، فأعدّ جيشاً عهـد بقيادته على اثنين من أمرائه همـا **بيبرس الحاجب وطينال**، وأنفق الأموال الكثيرة في إعداده وتجهيزه، وأرسله إلى اليمن لتحقيق هدفين:

الأول: مساعدة المجاهد وتأمين الحكم له.

الثاني: إحلال الوفاق بين الأمراء المتنافسين.

ولـما علـم سـكان **زبيد** بقـدوم الجيش المملوكـي ثاروا على الملـك الظاهر ودخلوا فـي طاعة الملك المجاهد، فقوي جانبه واستولى على زبيد. وعندما وقف الأمير بيبرس على حقيقة الوضع الداخلي في اليمـن، أرسل إلى الملـك الظاهر سفارة تطلعه على كتاب السلطان الناصـر الذي يتضمن الرغبة في التوفيق بينه وبين الملك المجاهد.

واستطاع السلطان، نتيجة تدخله في أوضاع اليمن، حسم الخلافات الداخلية وتأمين مصالح الدولة المملوكيـة. وخضع ملوك هذا البلـد لطاعة المماليك، وأضحت تجارة الشرق المـارة في بلاد اليمن في مأمن من أن ينالها أي سوء.

ثم حدث أن تعرضت سلطة المماليك للتهديد مجدداً، ذلك أن الملك المجاهد خشي أن تضع الحكومة المملوكيـة يدهـا على اليمن تمهيداً لضمهـا إلى الأملاك المملوكية، فتوقف عـن إمداد الجيش المملوكي بالمـؤن، ورفض التعاون مع الأمير بيبرس، كمـا امتنع عن دفع المال المقرر بحجة عدم قدرته على ذلك، وأحضـر قضاة **تعز** وأشهدهم على نفسه أنه أذن للعسكـر المملوكي بالعودة إلى بلادهم، فعاد بيبرس بجنده إلى مصر.

لم يحـاول الناصـر، بعد ذلك، ضم اليمن، ودخلت العلاقات المملوكية اليمنية في أواخر عهده في دور جديد استحكم فيه العداء. ويعبر أبو الفداء عن هذه العلاقة في حوادث عام ٧٣٠هـ فيقول: «وفيـه قـدم رسول صاحب اليمن بهدية، فَقُيـد وسجن؛ لأن صاحب الهند بعـث إلى السلطان بهدايا، فأخذها صاحب اليمن، وقتل بعض من كان معها وحبس بعضهم».

تعد **دولة الرسوليين** (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ - ١٤٥٤م) التي اتخذت من **تعـــز** عاصمة لها من أطول الدول عمراً في تاريخ اليمن الوسيط إذ استمرت قرنين وثلث القرن، وحكمها خمسة عشر ملكاً أولهم نور الدين عمر الرسولي وآخرهم المسعود وهو أبو القاسم صلاح الدين بن الأشرف الرسولي، ويجعل بعض المؤرخين من المؤيد وهو منافس المسعود في الحكم آخر الملوك، لكن كليهما انتهى أمره في عام ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤م على يد **الطاهريين** . **أعلن الرسوليون** استقلالهم عن الدولة الأيوبية في مصر سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م، وخطبوا للخليفة العباسي المعاصر لهم بعد أن طلبوا منه أمر نيابة مباشر عنهم في اليمن دون وساطة الأيوبيين، وكانت الخلافة العباسيــة فــي نزعهــا الأخير، ولا تملك إلا الموافقة على طلبات من لا يزال يرى في غطائها الروحي أهمية لتوطيد ملكه وهو بالضبط ما احتاج إليه **الرسوليون الذين ظلوا على ولاء للخلافة العباسية، ويخطبون في مساجدهم لآخر خلفائها المستعصم دهراً طويلاً بعد وفاة دولتهم في بغداد** عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م على يد المغول، إذ يذكر الخزرجي مؤرخ بني رسول المعاصر والمتوفى عام ٨١٢ هـ/١٤٠٩م، أن المستعصم: " هو الذي يُدعى له على سائر المنابر إلى وقتنا هذا من سنة ثمان وتسعين وسبعمئة " أي بعد مائة وستة وخمسين عاماً من انتهاء الخلافة العباسية، وربما استمر بعد ذلك وإلى بدايات تصدع الدولة.



العلاقة مع دول شمالي إفريقيا[١]

نتيجة لازدياد قوة الدولة المملوكية، وتزعمها للعالم الإسلامي في الشرق الأدنى ؛ أضحى الملوك في بلاد المغرب يتقربون إليها، ويستنجدون بها ضد بعضهم بعضاً. واقتصرت سياسة الدولة العامة على السيطرة على ساحل إفريقيا الشمالي، أو إيجاد قوى حليفة لها للحؤول دون إنزال قوات صليبية معادية لها يمكن أن تهدد مصالحها.

وحدث في عام (٧١١هـ/١٣١١م) أن زار الأمير **أبو يحيى زكريا الحفصي القاهرة**، واجتمع **بالسلطان الناصر محمد**، وطلب منه مساعدة عسكرية لاستعادة عرشه، الذي خسره في صراعه مع الأمير أبي البقاء خالد صاحب تونس، وتعهد له بأن يصبح نائباً له في هذه البلاد، وأن يخطب باسمه.

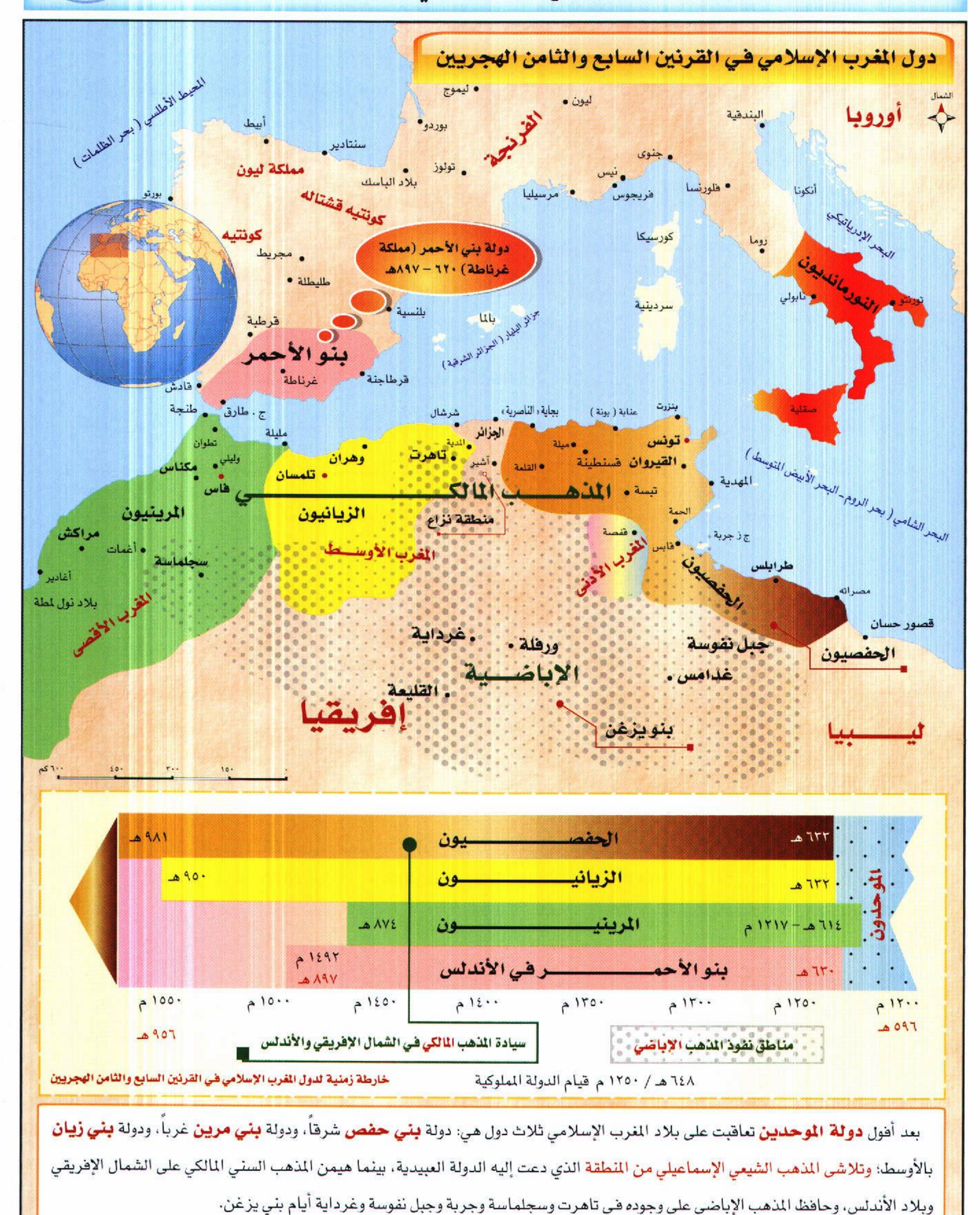
جهّز السلطان محمد فرقة عسكرية و أرسلها معه. ولما وصل إلى طرابلس التفّ حوله جماعة من العربان والمغاربة، فتقوّى بهم، واستطاع أن يضم هذه المدينة إلى نفوذه، ثم تابع زحفه إلى تونس، وضمها إلى أملاكه، وخلع أبا البقاء خالد عن الحكم.

ولما استقرّ في الحكم حذف اسم **المهدي محمد بن تومرت** من الخطبة، وأمر بالدعاء للسلطان الناصر محمد. **وبذلك امتدت سلطة الدولة المملوكية في عهد الناصر محمد إلى برقة وطرابلس وتونس**، وظلت الخطبة تقام باسمه (من عام ٧١١ - ٧١٧ هـ/١٣١١ - ١٣١٧م). إذ حدث في ذلك الوقت، أن تمكّن الأمير أبو بكر، شقيق الأمير خالد المعزول، من دخول تونس فخرج منها أبو يحيى زكريا إلى فاس ثم إلى طرابلس، حيث أبحر منها إلى الإسكندرية في عام (٧١٩هـ/١٣١٩م)، وعاش في كنف الناصر محمد.

واقتصرت العلاقات المملوكية مع المغرب الأقصى على تبادل الرسل والهدايا نظراً لبعد المسافة بين البلدين. لكن حرص ملوكها على إبقاء طريق الحجاج عبر مصر مفتوحة، دفعتهم إلى توثيق العلاقات مع المماليك. فأرسل السلطان الناصر في عام (٧٠٦هـ/١٣٠٦م) وفداً إلى سلطان المغرب الأقصى يوسف بن عبد الحق. وتقرّب خليفته أبو ثابت البزولي من المماليك في مصر، فأرسل إلى الناصر محمد هدية من الخيل والبغال والإبل. وعلى الرغم من أن هذه الهدية قد سُلبت في أثناء نقلها، ولم تصل مصر، إلا أن العلاقات المملوكية - المغربية قد توثقت وازدادت رسوخاً في عهد سلطان المغرب أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب **المريني** الذي حرص على التقرب من سلطان المماليك، فكتب إليه يبشره بفتح بجاية، والانتصار على تلمسان في عام (٧٣٧هـ/١٣٣٧م)، كما أرسل إليه في العام اللاحق الهدايا بصحبة ابنته وحاشيتها، و كانت في طريقها لأداء فريضة الحج وأحسن ضيافتها.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .



خارطة زمنية لدول المغرب الإسلامي في القرنين السابع والثامن الهجريين

بعد أفول **دولة الموحدين** تعاقبت على بلاد المغرب الإسلامي ثلاث دول هي: دولة **بني حفص** شرقاً، ودولة **بني مرين** غرباً، ودولة **بني زيان** بالأوسط؛ وتلاشى المذهب الشيعي الإسماعيلي من المنطقة الذي دعت إليه الدولة العبيدية، بينما هيمن المذهب السني المالكي على الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس، وحافظ المذهب الإباضي على وجوده في تاهرت وسجلماسة وجربة وجبل نفوسة وغرداية أيام بني يزغن.

علاقة المماليك مع الدولة الإيلخانية (مغول فارس)

انتهج الخان المغولي **أولغايتو** نهج أسلافه من حيث الوقوف موقف العداء من المماليك. وبالرغم من أنه أرسل السفراء إلى مصر لإظهار صداقته للناصر محمد وتأكيد حسن نياته نحوه ، إلا أنه لم يكن مخلصاً في تودده. **فقد اعتنق هذا الخان المذهب الشيعي وغلا فيه**، وعمل على نشره في المناطق الغربية من بلاده، **فاشتد العداء بينه وبين المماليك السنة**، وطمع في الاستيلاء على بلاد الشام ومصر، وهي السياسة التقليدية لمغول فارس منذ عهد هولاكو.

وحاول قبل الإقدام على غزو بلاد الشام، التحالف مع الغرب الأوروبي العدو التقليدي للمماليك، لتطويق هؤلاء، والحصول على مساعدة عسكرية. فوجّه، من أجل ذلك، رسائل عدة إلى ممالك الغرب المسيحي. فأرسل إلى البابا كلمنت الخامس، وإلى إدوارد الأول ملك إنكلترا، وفيليب لوبل ملك فرنسا، ليؤكد الاستمرار في الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة التي اتبعها أسلافه معهم، ويعرب عن استعداده للتحالف معهم.

ويبدو أن تبادل الرسائل مع ممالك الغرب الأوروبي لم يؤد إلى نتيجة إيجابية على الرغم من اعتقاد البابا وملوك أوروبا بأن **أولغايتو** كان يميل إلى الدين المسيحي، وقد كوّنوا هذا الانطباع نتيجة إخفاء مبعوثه إليهم نبأ اعتناقه الإسلام حتى يضمن مساعدتهم [١].

محمد خودابندا أولغايتو ثامن سلطان الإلخانية: وهو ابن حفيد هولاكو، وابن أرغون، وشقيق وخليفة محمود غازان على عرش الخانية. عمّدته أمه لدى ولادته مسيحيًا باسم نيقولا، وفي شبابه تحول إلى البوذية، ثم إلى الإسلام السني. ثم تأثر **أولغايتو** بتعاليم الحلي، وتحول للمذهب الشيعي. بل وكان ينوي نقل رفات سيدنا علي -رضي الله عنه- إلى مسجد جديد يبنيه في عاصمته الجديدة، السلطانية. لقد كان يظن بتحوله إلى المذهب الشيعي أن ذلك سيوطد حكمه، إلا أن العكس حدث باندلاع الاضطرابات في العراق.

اعتلى **أولغايتو** العرش الإيلخاني خلفاً لأخيه السلطان محمود غازان، وذلك في (١٥ ذي الحجة ٧٠٣هـ = ٢١ يوليو ١٣٠٤)، ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والعشرين، وتسلم قيادة الدولة وهي في أوج بهائها وعظمتها؛ فإصلاحات غازان قد أصابت كل أنحاء الدولة، ودفعت بها خطوات واسعة نحو الحضارة والمدنية والإنسانية. وبعد ثلاثة أيام من الحكم أصدر (**أولغايتو**) مرسوماً بإقامة شعائر الإسلام، واحترام القوانين الشرعية التي أصدرها أخوه محمود غازان، وإلزام المغول كافة باعتناق الإسلام، وأبقى "رشيد الدين فضل الله الهمداني" في منصب الوزارة كما كان في عهد أخيه، وكان عالماً كبيراً ومؤرخاً عظيماً، صاحب الكتاب المعروف (جامع التواريخ)، وهو يعد أهم كتاب تناول تاريخ المغول في هذه الحقبة.
تأثرت العلاقات بين المغول والمماليك في عهده نتيجة لاعتناق الإلخان المذهب الشيعي، وهو يُعد أول حاكم مغولي يعتنق المذهب الشيعي، وأمر به الجند وألزمه أهل مملكته، وذلك في سنة (٧٠٩هـ= ١٣٠١) بعد أن كان سنيًّا يلتزم المذهب الحنفي ثم الشافعي.
وحاول أن يوثق عرى الصداقة بين دولته والمماليك، وتودد إلى **السلطان الناصر محمد بن قلاوون** سلطان دولة المماليك، ثم لم تلبث أن ساءت العلاقة بين الدولتين. موقع المعرفة على الشبكة العنكبوتية.

١ - د . محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .



الوضع السياسي العام بين المماليك والإيلخانيين

رسالة من أولجايتو (أولغايتو) إلى فيليب الرابع ملك فرنسا عام ١٣٠٥م

الحملة على بلاد الشام (حصار الرحبة)

حدث في أوائل عام (٧١٢هـ/١٣١٢م) أن شقّ الأمير قراسنقر نائب دمشق عصا الطاعة على الناصر محمد، وأخذ يؤلب عليه نواب الشام، انضم إليه جمال الدين أقوش الأفرم الأمير عز الدين الزردكاش، وبعض الجنود. وحتى يكون هؤلاء في مأمن، التجأوا إلى فارس حيث استقبلهم أولغايتو ورحب بهم وأقطعهم الإقطاعات. وهؤلاء اللاجئون هم الذين حثّوا أولغايتو على الإغارة على بلاد الشام، «بعدها هوّن قراستقر عليه الأمر، وحسّن له الأفرم الاستيلاء على هذا البلاد»، بهدف الانتقام من السلطان.

رحّب **أولغايتو** بهذه الفكرة، ووجدها فرصة سانحة لتحقيق أطماعه بالاستيلاء على بلاد الشام، فأعدّ جيشاً جراراً توجه به إلى **الموصل**، واصطحب معه أشهر قادته بالإضافة إلى أمراء بلاد الشام الذين التجأوا إليه، وانضم إلى هذا الجيش عساكر من **الكرج والأرمن**[١].

وتابع الجيش زحفه إلى شاطئ الفرات فألفى أفراده أنفسهم أمام **مدينة الرحبة**، فحاصروها في (السادس عشر من شهر رمضان عام ٧١٢هـ/شهر كانون الثاني عام ١٣١٣م). وكان الأمير الأفرم قد تعهد للخان بإقناع صديقه بدر الدين قائد حامية القلعة بعدم المقاومة والمبادرة إلى التسليم. لكن هذا الأخير رفض الإذعان لنصائح صديقه، وقرر سلوك سبيل المقاومة لمنع أولغايتو من الاستيلاء على الرحبة.

وأمام هذا الحصار القاسي صمد السكان أمام ضغط المغول، لكن عندما اشتد الحصار وحمي وطيس المعركة، لم يجد قاضي الرحبة مفراً من التسليم، فأرسل يستعطف أولغايتو لعله يستجيب لندائه فيأمر بوقف القتال. وأدّى رشيد الدين وزير أولغايتو دوراً كبيراً في إقناع سلطانه بأن يفك الحصار عنها، وعاد مسرعاً إلى فارس. وفي رواية أن رشيد الدين أشار من تلقاء نفسه على السلطان أولغايتو بالعفو عن أهل الرحبة، كما أشار إلى المحاصرين بالخضوع للمغول[٢].

قال ابن جبير: « ... كان وصولنا الفرات ضحوة النهار، وعبرنا في الزوارق المقلة المعدة للعبور قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم، وحولها ديار بادية، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور. وإذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام وسرت في طاعة صلاح الدين دمشق.

والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر. وعن يسار الطريق، في استقبالك الفرات الشام، مدينة الرقة، وهي على الفرات، وتليها **رحبة مالك بن طوق** وتعرف برحبة الشام، وهي من المدن الشهيرة، ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الأول وأسرينا ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور، والثاني والعشرين ليونيه ». رحلة ابن جبير، ج ١، ص ٩٣.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٧١.

٢ - المقريزي: ج٢، ص ١١٥.

حصار الرحبة (رحبة مالك بن طوق) في ١٦ رمضان سنة ٧١٢هـ



حـاول أولجايتو **(أولغايتو)** أن يوثق عرى الصداقة بين دولته والمماليك، وتودد إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان دولـة المماليك، ثم لم تلبـث أن ساءت العلاقة بين الدولتين؛ فقام أولجايتـو **بتجهيز حملة على بلاد الشام** في (١٨ صفر ٧١٢ هـ = ٢٦ يوليو ١٣١٢م) مستعيناً باثنين مـن كبار قادة السلطان الناصر هما: **(الأمير قراسنقر نائب دمشق، وجمال الدين أقوش الأفرم)**، كانا قد فرا إليه، وزيَّنا له الاستيلاء على بلاد الشـام التـي كانـت خاضعة لسلطـة دولة المماليك، غـير أن تلك الحملة التي خـرج على رأسها السلطان أولجايتو اصطدمت بأول قلعة مملوكية على الحدود الشامية، وهي **قلعة الرحبة** الواقعة علـى نهر الفرات، وفشل في اقتحامهـا وإخضاعها؛ فقرر العودة إلى بـلاده فـي (٢٦ رمضـان ٧١٢هـ = ١ فبرايـر ١٣١٣)، ولم يحاول بعد ذلك أن يغزو الشام، وأقلع تماماً عن هذه الفكرة.

ما الذي حدث في المواقف السياسية حتى أقدم أولغايتو على فك الحصار عن الرحبة وعاد مسرعاً إلى بلاده ؟

الواقع أنه كانت هناك عوامل عدة دفعت الزعيم المغولي على ذلك، لعل أهمها:

١- المقاومة الضارية التي لقيها من جانب حامية الرحبة، وفشله في الاستيلاء عليها بالقوة. وبما أنها أول قلاع الشام من ناحية العراق، فإنه قدّر بأن حملته سوف تصادف الفشل.

٢- أنه علم بأن **السلطان الناصر محمد** أعدّ جيشاً جراراً، «حتى لم يبق في مصر أحد من العسكر»، وخرج على رأسه من القاهرة قاصداً بلاد الشام بهدف الاصطدام به، ووقف تقدمه، ويبدو أنه خشي من قوة الجيوش المملوكية خاصة وأنه فشل في الحصول على مساعدات من أوروبا الغربية.

٣- وقع أولغاريتو تحت تأثير وزير رشيد الدين الذي أقنعه بفك الحصار عن الرحبة والعودة إلى فارس. وقد أشار المؤرخ ابن كثير بموقف هذا الوزير حين قال: «وكانت له يد جيدة يوم الرحبة، فإنه صانع عن المسلمين، وأتقن القضية في رجوع ملك التتار عن البلاد الشامية سنة اثنتي عشرة» .

٤- يبدو أن أولغاريتو تعرض لضغط شديد على حدود بلاده الشرقية من جانب الجغتائيين حكام بلاد ما وراء النهر، وأن الهزيمة قد حلّت بجيشه الذي يعسكر هناك. وترتب على ذلك أن ساءت الأوضاع في خرسان، وتعرّض السكان لكثير من المتاعب والمشقات، كما تعرضت حدود بلاده الشمالية لضغط من القبيلة الذهبية بزعامة أوزبك خان، لذلك حرص على فك الحصار عن الرحبة.

٥- كان لعامل المناخ أثر واضح على اتجاهات الحملة. فقد كان الفصل شتاءً، والحرارة متدنية، والطرقات موحلة، ففقد الجيش المغولي عنصر حرية الحركة الضروري لخوض المعركة وتحقيق الانتصار[١] .

أرسل الناصر محمد سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م) قوة من حلب قوامها ستمائة فارس بقيادة الأمير شهاب الدين قراطاي، لإخضاع والي **ماردين** الذي خالف أوامره.

تقدم الأمير قراطاي وأغار على تلك البلاد مدة يومين. وصادف أن قدمت إلى المنطقة آنذاك قوة **مغولية** قوامها ألفا قتل منهم ستمائة رجل، وأسر ما يزيد على المائتين، وقدم بالرؤوس والأسرى والغنائم إلى حلب، فلما علم السلطان الناصر (سُر سروراً زائداً)، وأرسل الخلع والهدايا إلى نائب حلب وقراطاي.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٧١.

العلاقة المملوكية - المغولية الفارسية في عهد أبي سعيد بهادر خان

توفي أولغايتو في (شهر رجب عام ٧١٧هـ/ شهر تشيرين الأول عام ١٣١٧م) وخلفه ابنه أبو سعيد بهادرخان (٧١٧ - ٧٣٦هـ/١٣١٧- ١٣٣٥م)، وكان في الثانية عشرة من عمره، وتولى الأمير جوبان الوصية عليه.

وقد سعى هذا الإيلخان للدخول **في مفاوضات مع السلطان الناصر محمد** بهدف عقد صلح بينهما، لأنه لم يكن على استعداد للدخول في صراع مسلح مع المماليك، وذلك بفعل ثلاثة دوافع:

الأول: داخلي ويتمثل باضطراب الأوضاع الداخلية للإيلخانية نتيجة للصراع الدامي بين الأمراء من أجل تحقيق مصالح شخصية.

الثاني: خارجي، ويتمثل في التهديد المستمر لإيلخانية فارس من قِبَل أبناء أعمامه في بلاد ما وراء النهر والقوقاز الذين يطمعون في الاستيلاء على مناطق نفوذه.

الثالث: توالي الخسائر المادية نتيجة الاصطدامات بالمماليك.

وقد رأى أبو سعيد وأعوانه أنهم عاجزون عن السير في السياسة التقليدية المعادية للمماليك في بلاد الشام ومصر، الذين صمدوا في وجههم، وتغلبوا على أسلافهم في معارك حاسمة عدة.

وكان الناصر محمد، منجهه، لازال يكن العداوة للمغول، على الرغم من المفاوضات السلمية التي ابتدأت بين الطرفين من عام (٧١٨هـ/١٣١٨م)، **حتى إنه أرسل في عام (٧٢٠هـ/ ١٢٠م) ثلاثين رجلاً من طائفة الحشاشين إلى فارس لاغتيال قراسنقر حاكم مراغة.**

وعلى الرغم من فشل هذه المؤامرة، إلا أنها أخافت المغول إلى حد كبير، وأحدثت في نفوسهم أثراً سيئاً. فقد انتشرت الإشاعات في **تبريز** أن هؤلاء **الإسماعيلية** حضروا لاغتيال السلطان أبي سعيد نفسه، بالإضافة إلى جوبان والوزيرعلي شاه وسقراسنقر وأمراء مغول آخرين، فاحتجب الخان المغولي أحد عشر يوماً في خيمته خشية على نفسه[1].

وقد استدعى جوبان رسول الناصر محمد، وهو مجد الدين إسماعيل، وعنفه وهدده بالقتل، وقال له: "ويلك، أنتَ كل قليل تحضر إلينا هدية، وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحب، لتمكر بنا حتى تقتلنا **الفداوية والإسماعيلية.** لكن علي شاه تشفَّع به.

وكان من المتوقع أن يؤدي هذا الحادث إلى قطع مفاوضات الصلح واستئناف سياسة العداء بين البلدين، غير الخوف الشديد الذي اعترى أباسعيد ورجال دولته كان دافعاً للتعجيل بطلب الصلح.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٧١.

وبعد ثلاث سنوات من المفاوضات المستمرة، جنح السلطان الناصر محمد إلى السلم بعد أن عبَّر له أبو سعيد عن نواياه الطيبة، ورغبته الصادقة في قيام علاقات بينهما على أسس من المحبة والاحترام المتبادل.

وأوفد **الخان المغولي** المجد السلامي مبعوثاً له إلى **القاهرة** لإجراء مفاوضات الصلح بشروط محمودة. ثم قدمت الرسل بصحبة نصير الدين قاضي القضاة ومعهم كتاب الصلح الذي تضمن شروطاً منها:

١. الامتناع عن إرسال **الإسماعيليين الحشاشين** إلى البلاد التي يحكمها المغول.

٢. عدم المطالبة بتسليم أي شخص قدم إلى بلاد المغول من مصر.

٣. من يفد إلى مصر من المغول، لايُعاد إلى بلده إلا برضاه.

٤. لا يسمح سلطان مصر للأعراب البدو، ولا التركمان، بالإغارة على بلاد الإيلخانيين.

٥. تسهيل التبادل التجاري بين البلدين، وتأمين انتقال التجار بينهما، مع توفير الحرية التامة لهم.

٦. تسيير **المحمل** كل عام، من العراق إلى الحجاز رافعاً علمين أحدهما باسم سلطان مصر والآخر باسم خان فارس.

٧. وقف مساعي السلطان محمد في القبض على قراسنقر أو محاولة التخلص منه.

عقد الناصر محمد اجتماعاً مع أعوانه للتداول في هذه الشروط، وتقرر قبولها، وإعلام المغول بذلك[١].

كان من مظاهر هذا الصلح بين البلدين أن:

١. توطدت العلاقات الطيبة بين المماليك وإيلخانيي فارس، ويُعد ذلك تحولاً في العلاقات بين الدولتين. إذ هدأت المنطقة ولم تعد تشهد حروباً طاحنة من نوع الحروب التي شهدها القرن الثالث عشر الميلادي، وساد المنطقة جو من السلام والأمان.

٢. صار يُدعى لأبي سعيد في مكة بعد الدعاء للناصر محمد.

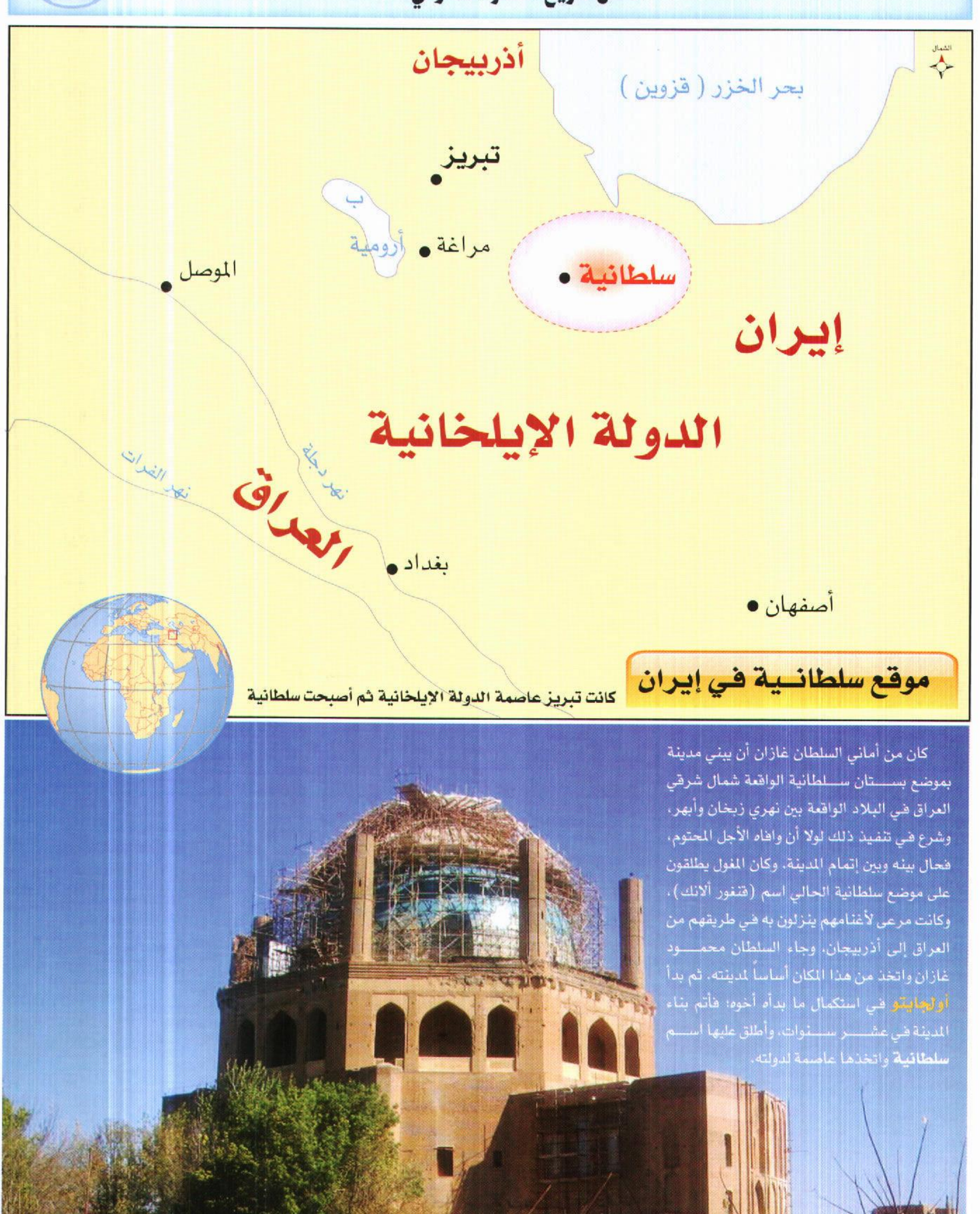
٣. صرف الإيلخانيون النظر عن التحالف مع الغرب الأوروبي، لكن ذلك لم يمنع الخان من إجراء مفاوضات مع البابا يوحنا الثاني والعشرين، الأمر الذي ترتب عليه قدوم مفاوضين من الغرب، وتيسر بذلك قيام هيئة للأساقفة في مدينة السلطانية عاصمة الإيلخانيين تحت زعامة رئيس لهم. كما استمرت العلاقات التجارية قائمة، لكن فرص التحالف بين الجانبين قد تضاءلت.

٤. أقرّ أبو سعيد سياسة الازدواج في الولاء لأرمينيا الصغرى.

٥. محاولة التقرب بين الطرفين عن طريق المصاهرة. فقد أرسل أبو سعيد سفارة إلى الناصر محمد في عام (٧٢٧هـ/١٣٢٧م) يطلب خطبة ابنة السلطان لأمير دمشق خواجا ابن الأمير جوبان نائب الإيلخان. وافق السلطان على هذه المصاهرة، لكنه اشترط حضور العريس إلى القاهرة، وأكرم وفادة أعضاء الوفد، وأعادهم إلى بلاد العراق بهدية جليلة[١].

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٧٥.



موقع سلطانية في إيران

كانت تبريز عاصمة الدولة الإيلخانية ثم أصبحت سلطانية

كان من أماني السلطان غازان أن يبني مدينة بموضع بستان سلطانية الواقعة شمال شرقي العراق في البلاد الواقعة بين نهري زبخان وأبهر، وشرع في تنفيذ ذلك لولا أن وافاه الأجل المحتوم، فحال بينه وبين إتمام المدينة. وكان المغول يطلقون على موضع سلطانية الحالي اسم (قنغور ألانك)، وكانت مرعى لأغنامهم ينزلون به في طريقهم من العراق إلى أذربيجان، وجاء السلطان محمود غازان واتخذ من هذا المكان أساساً لمدينته. ثم بدأ **أولجايتو** في استكمال ما بدأه أخوه؛ فأتم بناء المدينة في عشر سنوات، وأطلق عليها اسم **سلطانية** واتخذها عاصمة لدولته.

مبنى من العصر الإيلخاني بمدينة سلطانية عاصمة الدولة الإيلخانية (مغول فارس) في مراحل الترميم

العلاقات المملوكية مع النوبة[١]

يبدو أن الحملات التي أرسلها السلاطين المماليك إلى بلاد النوبة في أوقات متفرقة قد آتت أُكلها، فخضعت هذه البلاد للسيطرة المملوكية مع مايجنيه المماليك من فوائد تجارية. وظل ملوك **دنقلة** يعبرون عن ولائهم للسلطنة بين حين وآخر، ويحتكمون إلى السلطان كلما نشب نزاع بينهم.

فقد قدم الملك **أماي** إلى القاهرة سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م)، يحمل الهدايا ليجدد الولاء للسلطان الناصر محمد، ويطلب منه مساعدة عسكرية ضد منافسيه.

ويبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لأماي، فقد ثار عليه أخوه **كرنبس** وقتله سنة (٧١١هـ/ ١٣١١م) وحل محله في سدة الحكم. وقد شعر هذا الملك بحاجته إلى مساندة المماليك وتأييدهم، **فزار القاهرة** وأعلن ولاءه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون حاملاً الجزية والضرائب المقررة على بلاده، لكن كرنبس، الذي اتصف بالتقلبات السياسية السريعة، ما لبث أن قلب ظهر المجن للمماليك، **مما دفع الناصر محمد إلى إرسال حملة عسكرية لتأديبه** بقيادة الأمير **عز الدين أيبك جهاركس،** وأمره بوضع حل جذري للمشكلة النوبية، وأرسل معه أحد الأمراء النوبيين وهو سيف الدين عبدالله بن شنبو ابن أخت داود ملك النوبة السابق، لتعيينه ملكاً على بلاد النوبة.

والواقع أن تفكير السلطان المملوكي في تعيين حاكم نوبي مسلم، تربى في المجتمع المملوكي، يدل على اتجاه جديد في العلاقات بين القاهرة ودنقلة، **قائم على حث النوبيين الدخول في الدين الإسلامي، ليصبحوا جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي،** بالإضافة إلى تشجيع الهجرة العربية إلى بلاد النوبة لتعزيز العنصر العربي فيها، مما أدى في نهاية المطاف إلى سقوط مملكة النوبة المسيحية، حتى لم يعد المماليك ينظرون إلى هذه البلاد بوصفها ميداناً جديداً للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي. واختلط النوبيون بالعرب عن طريق المصاهرة.

ولما علم كرنبس بمسيرة الحملة، وبنية السلطان تعيين حاكم مسلم، أرسل ابن أخته كنز الدولة، وهو مسلم، إلى القاهرة يطلب منه توليته الملك، ولكن الناصر محمد لم يستجب لتلك الرغبة، واعتقل كنز الدولة.

ويبدو أن عبدالله لم يتمتع طويلا بالحكم، نظراً لاتصاله بالكبر والتسلط. فقد ثار عليه كنز الدولة، بعد أن أفرج عنه السلطان، وسانده السكان، ونجح في التغلب عليه وقتله، وجلس مكانه على عرش دنقلة. استاء السلطان مما فعله كنز الدولة، فرفض الاعتراف بسلطته، وأطلق سراح **أبرام**، أخي كرنبس، وأرسله إلى **النوبة** ليقبض عليه.

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٧٩ - ٢٨١.

النوبة في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون

معاهدة البقط: هي معاهدة بين مملكة المقرة وحكام مصر المسلمين، استمرت نحو **سبعمائة سنة**، لذا تُعد من أطول المعاهدات في التاريخ. عقدت المعاهدة عام ٣١ هـ حيث قاد عبد الله بن أبي السرح جيشاً بإتجاه الجنوب ضد الممالك المسيحية في النوبة. **بعد معركة دنقلة**، أدرك ابن أبي السرح صعوبة الاستيلاء على هذه المنطقة. لذا عقد المعاهدة التي تم التفاوض عليها بين أبي سرح وملك المقرة "كالديرات".

قال **أبو الحسن المسعوديّ: والبقط** هو ما يقبض من السبي في كل سنة، ويُحَمَّل إلى مصر ضريبة عليهم، وهو ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأساً لبيت المال بشرط الهدنة بين النوبة والمسلمين، وللأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأساً، ولخليفته المقيم بأسوان وهو المتولي لقبض **البقط** عشرون رأساً، وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس، ولاثني عشر شاهداً عدول من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي على حسب ما جرى به الرسم في صدر الإسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٣٦٩.

قال البلاذري في كتاب الفتوحات: إنّ المقرّر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعاماً أي غلة، وألزمهم أمير المؤمنين المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور (العباسي) ثلثمائة وستين رأساً وزراقة. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٣٦٩.

ش
الأقصر
الصعيد
بحر القلزم (البحر الأحمر)
أسوان
أبوسمبل
وادي حلفا
نهر النيل
النوبة
البلميون (البجه)
دنقله
مملكة المقرة
نبتا
مروى
نهر النيل
مملكة علوة
الخرطوم
سوبا
٠ ٥٠ ١٠٠ كم

ولم يكد أبرام يصل إلى **دنقلة** حتى دخل كنز الدولة في طاعته وتنازل له عن الملك، لكنه خشي من طموحاته المستقبلية، فقبض عليه وعزم على إرساله إلى القاهرة، إلا أنه توفي فجأة سنة (٧١٧ هـ/١٣١٧م)، قبل أن يحقق غايته، فاعتلى كنز الدولة العرش مجدداً.

ويبدو أن الناصر محمد أصر على معاملة كنز الدولة كثائر على السلطة المملوكية، وأعد تصرفه تحديًا شخصيًا له، لذلك أرسل حملة عسكرية إلى **بلاد النوبة** سنة (٧٢٣هـ/١٣٢٣م) بقيادة الأمير علاء الدين بن علي قراسنقر، لمحاربته، وأرسل معه كرنبس ليتوج ملكاً على البلاد، خاصة وأنه اعتنق الدين الإسلامي عقب مجيئه إلى القاهرة مأسوراً.

نجحت الحملة في تحقيق هدفها، فتم تنصيب كرنبس ملكاً على بلاد النوبة، وفر كنز الدولة. ثم غادرت الحملة **دنقلة** عائدة إلى مصر، فاستغل كنز الدولة هذا الفراغ العسكري، وظهر مجدداً على مسرح الحياة السياسية، ونجح في استرداد الملك.

كانت هذه الحملة هي الأخيرة في سلسلة **الحملات المملوكية ضد بلاد النوبة**، لأن السكان ساروا سريعاً نحو الدخول في الإسلام، واصطبغت البلاد بالصبغة العربية نتيجة هجرة قبائل عربية إليها، ومن ثم فلم تعد تشكل خطراً على المماليك على حدودهم الجنوبية.

وظل أولاد كنز الدولة، الذين أصبحوا أصحاب السيادة على جزء كبير من مصر العليا، حكاماً للنوبة، حتى ضم السلطان سليم العثماني مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م).

مستـــند تاريـــخي

معاهدة البقط بين المسلمين وأهل النوبة سنة ٣١ هـ

«عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح **لعظيم النوبة** ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حدّ أرض **أسوان** إلى حدّ أرض **علوة**: أنّ عبد الله بن سعد جعل لهم أمانًا وهدنةً جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من **أهل صعيد مصر** وغيرهم من المسلمين وأهل الذمّة: إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبيّ صلى الله عليه وسلم، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم، أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وإنّ عليكم ردّ كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردّوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه، ولا تتعرّضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مُصلياً، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته، وعليكم في كل سنة ثلاثمئة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم، غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي **أسوان**، وليس على مسلم دفع عدوّ عرض لكم، ولا منعه عنكم من حدّ **أرض علوة** إلى **أرض أسوان**، فإن أنتم آويتم عبد المسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرّضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلاثمئة رأس والستين رأساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمّة المسيح، وذمّة الحواريين، وذمّة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك. كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين».

المقريزي، المواعظ والاعتبار، المصدر السابق.

الحملة على بلاد النوبــة

قام المماليك في عهد **الناصر محمد** بتجديد معاهدة البقـط، وتم إرسال حملة عام ٧٢٣ هـ إلى دنقلة لضرب الملك المسيحي النوبي، ووضعوا بدلاً عنه ملك كتري يدعى نصر الدين بن شجاع، ومن الهجرات العربية التي اندفعت إلى النوبة في العصر المملوكي هجرة جهينة، وهي واحدة من أهم الهجرات العربية، وهكذا انتشر الإسلام في بلاد النوبة.

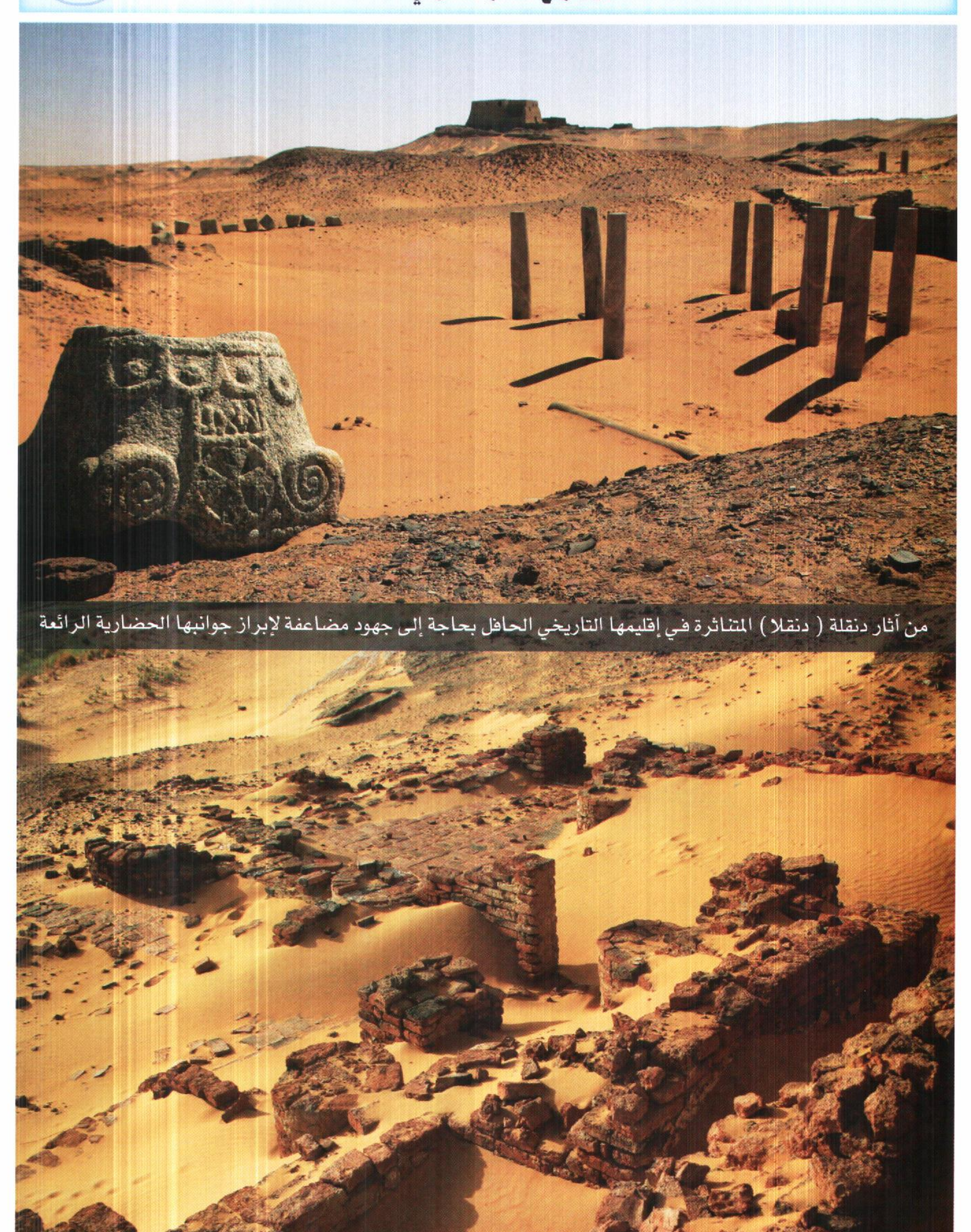
وقد كان للهجرات العربية والتجار العرب الفضل الأول - بعد الله تعالى - في انتشار الإسلام في بلاد النوبة، وأن كان الانتشار تم بشكل بطيء واستغرق وقتاً طويلاً منذ حملات عمرو بن العاص، وعبدالله بن سعد في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان -رضي الله عنه- حتى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثم اكتملت - بفضل الله تعالى - ظاهرة انتشار الإسلام في القرن الخامس عشر الميلادي.



ابن بطوطة في أرض النوبة[1]

« ... ثم سرنا من زاغري فوصلنا إلى **النهر الأعظم**، وهو **النيل**، وعليه بلدة كارسخو " بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهملة وضم الخاء المعجمة وواو " ، والنيل ينحدر منها إلى كابرة " بفتح الباء الموحدة والراء " ، ثم إلى زاغة " بفتح الزاي والغين المعجمة " ، ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي. وأهل زاغة قدماء في الإسلام. ولهم ديانة وطلب للعلم، ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو، ثم إلى كوكو، وسنذكرهما، ثم إلى بلدة مولي " بضم الميم وكسر اللام " من بلاد الليميين، وهي آخر عمالة مالي، ثم إلى يوفي واسمها " بضم الياء آخر الحروف وواو مكسورة " ، وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم. ولا يدخلها الأبيض من الناس، لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها، ثم ينحدر إلى **بلاد النوبة**، وهم على دين النصرانية، ثم إلى **دنقلة**، وهي أكبر بلادهم " وضبطها ضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام " ، وسلطانها يدعي بابن كنز الدين، **أسلم على أيام الملك الناصر**، ثم ينحدر إلى جنادل، وهي آخر عمالة السودان، وأول عمالة **أسوان** من صعيد مصر، ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل، كأنه قارب صغير. ولقد نزلت يوماً إلى النيل لقضاء حاجة، فإذا بأحد السودان قد جاء، ووقف فيما بيني وبين النهر. فعجبت من سوء أدبه. وقلة حيائه، وذكرت ذلك لبعض الناس، فقال: إنما يفعل ذلك خوفاً عليك من التمساح، فحال بينك وبينه. ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة " بفتح الصادين المهملتين والراء وسكون النون " ، وهو على نحو عشرة أميال من مالي. وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بإذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي، وشمس الدين بن النقويش المصري، ليكتروا لي داراً، فلما وصلت إلى النهر المذكور، جزت في المعدية، ولم يمنعني أحد، فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان، فنزلت عند مقبرتها، ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمد بن الفقيه، فوجدته قد اكترى لي داراً إزاء داره، فتوجهت إليها. وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام، ثم جاء ابن الفقيه إلي من الغد وشمس الدين بن النقويش، وعلي الزودي المراكشي، وهو من الطلبة، ولقيت القاضي بمالي عبد الرحمن، جاءني وهو من السودان، حاج فاضل، له مكارم أخلاق، بعث إلي بقرة في ضيافته. ولقيت الترجمان دوغا " بضم الدال وواو وغين معجمة " ، وهو من أفاضل السودان وكبارهم، وبعث إلي بثور، وبعث إلي الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني، وقرعة من الغرتي، وبعث إلي ابن الفقيه الأرز والفوني، وبعث إلي شمس الدين ضيافة وقاموا بحقي أتم قيام. شكر الله حسن أفعالهم. وكان ابن الفقيه متزوجاً ببنت عم السلطان، فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره. وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع شيء شبه القلقاس، يسمى القافي " بقاف وألف وفاء " ، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام. فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنا ستة. فمات أحدنا، وذهبت أنا لصلاة الصبح، ففشي عليَّ فيها، وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلاً فأتى بشيء يسمى بيدر " بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء آخر الحروف وفتح الدال المهملة وراء " ، وهو عروق نبات، وخلطه بالأنيسون والسكر، ولته بالماء فشربته، وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة. وعافاني الله من الهلاك. ولكني مرضت شهرين ».

١- محمد الطنجي (ابن بطوطة) ، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) ، إعتنى به وراجعه د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية.



من آثار دنقلة (دنقلا) المتناثرة في إقليمها التاريخي الحافل بحاجة إلى جهود مضاعفة لإبراز جوانبها الحضارية الرائعة

العلاقات بين المماليك والدول النصرانية في عهد السلطان الناصــر محمد بن قلاوون

تطرقنـا في الصفحـات الماضية عن طبيعة العلاقات بين المماليك **وبـلاد النوبة** والتي كانت خاضعة لبعض الممالك النصرانية، وكيف آل الأمر إلى دخول الإسلام إلى هذه الممالك بعد معاهدة (البقط).



أدرك الصليبيون في أوروبا فشل محاولاتهم المتلاحقة للعدوان على بلاد الإسلام في الشام ومصر، ورأوا زوال آخر إماراتهم بعد قرنين من تأسيسها، رغم ما بذل في سبيل إقامتها من جهود مادية ومعنوية، ومن سفك في سبيلها من دماء، كما لمسوا فتور الحماس الصليبي، بعد فشل حملتي لويس التاسع السابعة والثامنة على مصر وتونس، لذلك اضطروا إلى تقبيل اليد التي حاولوا قطعها، فلجأوا إلى الدبلوماسية والمراسلات والسفراء والهدايا، علهم يحققون عن طريقها ما فشلوا في تحقيقه بالتعصب والسيف.

انهال سفراء الدول الأوربية على بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، محملين بالهدايا والرسائل التي تلح في طلب الصداقة والموادعة، وتوثيق عرى الصداقة، في حين كان غرضها الأساسي هو استدرار عطف الناصر محمد على النصارى في دولته، سواء من كان منهم من الأقباط في مصر أو من أهل الشام، فأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين في عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م) رسالة إلى الناصر طالباً منه أن يعامل نصارى الشرق معاملة عادلة، مقابل معاملة مماثلة للمسلمين، فرد عليه الناصر مجيباً طلبه .

وفي نفس السنة أرسل شارل الرابع ملك فرنسا رسالة مماثلة لنفس الغرض فرد عليه الناصر أيضاً مجيباً طلبه، كما هدفت العلاقة مع البيزنطيين إلى:

١- تمتين العلاقات بين المماليك والدولة البيزنطية.

٢- إبعاد اللاتين عن الأماكن المقدسة في فلسطين الواقعة تحت إشراف المماليك .

٣- عقد تحالف بين الدولتين المملوكية والبيزنطية لمواجهة المشكلات البيزنطية مع الإمارات التـــركمانية

النامية في آسيا الصغرى، وغدا بلاط السلطان الناصر محمد محط أنظار رجال السياسة والدين البيزنطيين. ويبدو أن السلطان فضل بحث العلاقات الدينية فقط، بدليل أن الإمبراطور البيزنطي أرسل سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م سفارة إلى القاهرة برفقة ملك الكرج داود السادس، وحمل أعضاءها هدية ورسالة تتضمن الطلب من السلطان أن يعيد كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها، وأن يعامل المسيحيين المقيمين في أراضيه، لا سيما الملكانين، بالعطف والرعاية، وأن الكرج سيدخلون في طاعته ويكونون عوناً له متى احتاج إليهم، لم يستجب الناصر لتلك المطالب مما دفع الإمبراطور البيزنطي إلى إرسال سفارة ثانية بعد مرور خمس سنوات، وتمنى على السلطان أن: ١- يعيد تلك الكنيسة إلى أصحابها. ٢- أن يسير أهل الذمة بالديار المصرية وفقاً لما جرت به عادتهم. ٣- أن يأذن بفتح كنائسهم.

استجاب السلطان هذه المرة لمطالب الإمبراطور فسمح بإعادة كنيسة المصلبة إلى المسيحيين، بعدما حصل على فتوى من العلماء بعدم جواز اغتصابها، كما وافق على طلبه فيما يتعلق بمعاملة أهل الذمة، وأمر بفتح كنيسة للملكانيين، وأخرى لليعاقبة، وكنيس لليهود في مصر. واعتاد الأمبراطور أن يرسل الهدايا إلى السلطان بين حين وآخر من أجل توثيق عرى الصداقة بين البلدين. وانتهج الإمبراطور أندرونيقوس الثالث (١٣٢٨-١٣٤١م) سياسة سلفه في المحافظة على العلاقات الودية مع دولة المماليك، ويبدو أنه كان بحاجة إلى دعم دولة إسلامية لمواجهة الدولة العثمانية النامية، والآخذة في التوسع على حساب البيزنطيين[١].

وبلغت العلاقات بين الناصر ويعقوب ملك أرغونة شأواً كبيراً بسبب المراسلات بينهما ما بين سنتي ٧٠٣ - ٧٢٨هـ ١٣٠٣-١٣٢٧م، التي كان هدفها إيجاد علاقة صداقة بينهما، والحصول على ميزات تجارية لأرغونة في مصر، وتسهيل الحج للأراضي المقدسة، وإطلاق سراح النصارى المسجونين في مصر، وضمان حسن معاملة الأقباط والنصارى عامة في الشرق.

وقد رأى الناصر محمد- الذي كان ملكاً مستنيراً محنكاً، يميل إلى المسالمة - رأى ذلك فرصة لتوثيق العلاقات بين دولته والآخرين في الشرق والغرب، يحقق بها مصالح مشتركة وخاصة حماية المسلمين في إسبانيا التي كانت خاضعة لحاكم أرغونة، بالإضافة إلى المصالح التجارية والعسكرية في الوقوف أمام الخطر التركي العثماني. ولا أدل على أهمية دولة المماليك الإسلامية في هذا العصر من أن يصبح سلاطينها محط أنظار السفراء والرسل من مغول ويمنيين وأرمن ونوبيين، حتى وصفهم المقريزي بقوله: "وفيه (٢٥ محرم ٧٢٥ هـ) اجتمع بمصر من رسل الملوك ما لم يجتمع منهم في الدولة التركية، وهم رسل اليمن ورسل صاحب أسطنبول ! ورسل الأشكري ورسل متملك سيس، ورسل أبي سعيد (ملك التتار)، ورسل ماردين، ورسل ابن قرمان، ورسل متملك النوبة وكلهم يبذلون الطاعة". إلا أن هذه المكانة قد ضعفت بموت السلطان الناصر محمد، فسبحان مغير الأحوال[٢].

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٨٧.

٢ - د. شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد (٨١ - ٨٢).

من آثار السلطان الناصر محمد بن قلاوون

كان **الملك الناصر** مولع بالعمارة وينفق عليها ببذخ، وفي مدة حكمه الثالثة شيد في مصر ما لم يشيده أي سلطان آخر، وتحولت القرى إلى مدن منفردة. أعاد حفر خليج الإسكندرية، وأنشأ البساتين ومزارع قصب السكر على ضفتيه، وأنشأ الميدان تحت القلعة وغرس فيه النخل والأشجار، وأنشأ الميدان الكبير على نيل القاهرة، وزرع فيه أشجار الفاكهة. وعمَّر الخانكاة بناحية سرياقوس، وحفر الخليج الناصري خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقوس وعمَّره بالقناطر. وشيد الجسور ومد الترع، وأحيا الأراضي في كل أنحاء مصر، وجدد نحو ثلاثين جامعًا قديمًا منها الجامع الناصري بالقلعة، وجامع المشهد النفيسي. وكانت أغلب عمائره من الحجارة، لأنه كان يخشى عليها من الحريق. و في عهد الملك الناصر بلغت دولة المماليك البحرية أوج قوتها داخليًّا وذروة عظمتها دوليًّا، ونعمت مصر فيه بالهدوء والاستقرار.

من أبرز آثاره ومنشآته [١]:

المدرسة الناصرية - القاهرة:

بدأ إنشائها في عهد السلطان العادل كتبغا بجوار القبة المنصورية، وأكملها الناصر محمد وأضاف مئذنتها في عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣ في مدة حكمه الثانية. كانت من أجمل مباني القاهرة، وكانت بها خزانة كتب جليلة. بسبب التاريخ المنحوت عليها والذي يشير إلى عهد كتبغا، يبدو أن الناصر وضع اسمه محل اسم كتبغا. واجهتها تضم بوابة من الرخام الأبيض البديع على الطراز القوطي، لأن البوابة قام الأمير سنجر الشجاعي بنقلها إلى القاهرة من إحدى كنائس عكَّا بعد أن فتحها الأشرف خليل (١٢٩١م). ومحراب المدرسة له ملامح هندسية مغولية. وكانت المذاهب الأربعة تدرس في المدرسة، وقد نقل الناصر جثمان أمه إليها، ولكن الناصر محمد لم يدفن فيها.

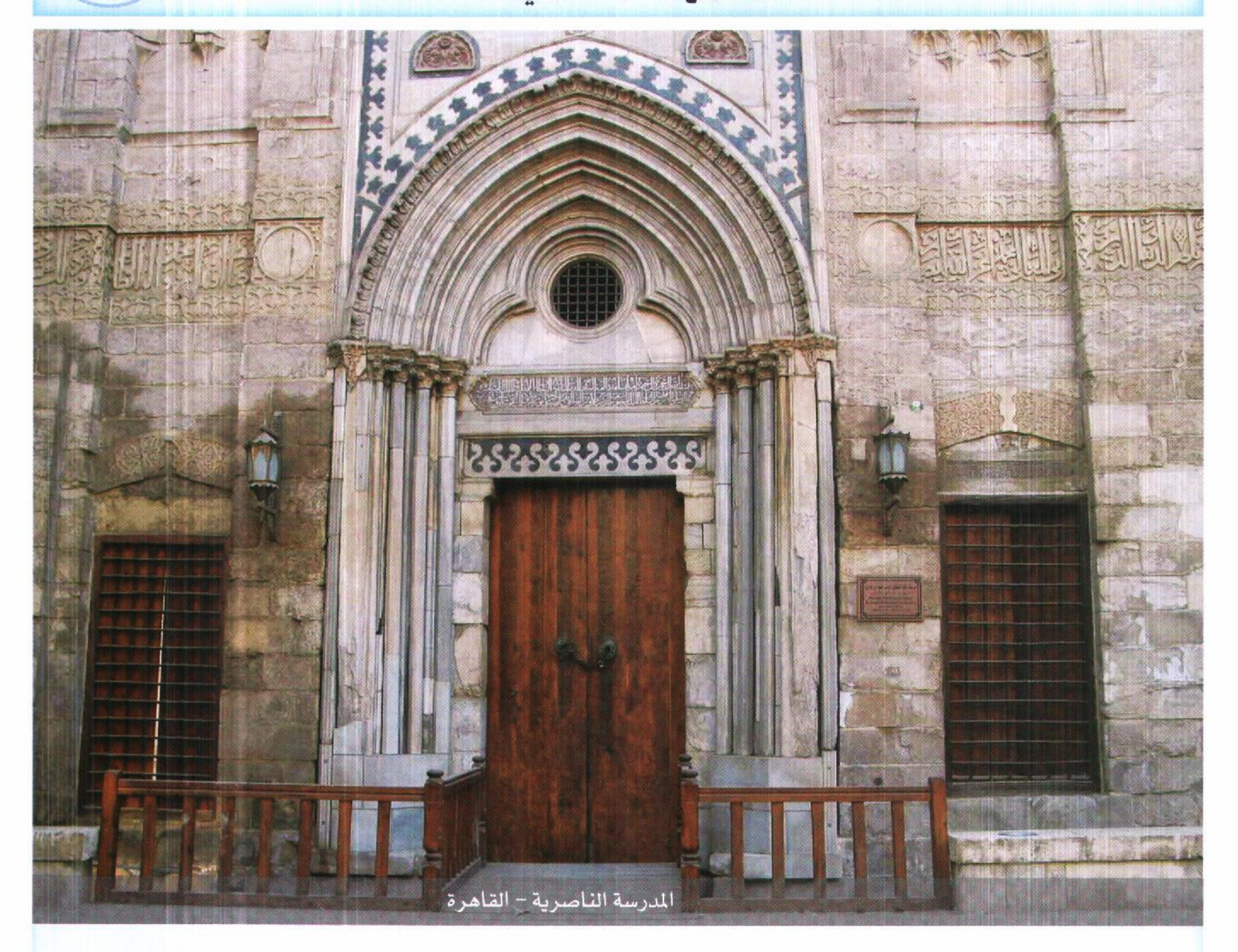
خانقاه سرياقوس - شمالي القاهرة: تعرف أيضاً بخانقاه الصوفية.

بدأ الناصر في تشييدها في عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م وافتتحها في عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م في مدة حكمه الثالثة بوصفه منتجعًا ومنطقة ترويحية ومركزاً للصوفية، نمت المنطقة في السنوات اللاحقة وصارت بلدة يقام بها سوق كبير كل يوم جمعة، ومنطقة ترويحية بها حدائق ومتنزهات وقصور وحمامات. قيل فيها:

سر نحو سرياقوس وانزل بفنا ... أرجائها ياذا النهى والرشد
تلق محلاً للسرور والهنا ... فيه مقام للتقى والذهد "

وهي موجودة اليوم بوصفها قرية تعرف باسم " الخنكاه "، ولكن غير موجودة بوصفها منتجعًا.

١- موسوعة ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية



المدرسة الناصرية - القاهرة

في سنة

٧١٨هـ لحق الناصر محمد بمحمل

كسوة الكعبة إلى الحجاز **للحج**. ودخل مكة

بتواضع وذلة، ولما دخل الحرم كنس مكان الطواف

ومسحه بيده، ورفض أن يطوف راكباً قائلاً:

"ومن أنا حتى أتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم! والله لا طفت إلا كما يطوف الناس". وأمر الحجاب بألا يمنعوا الناس من الطواف معه، فصار الحجاج يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد منهم في مدة طوافه وفي تقبيله الحجر الأسود. وغسّل الكعبة بيده، وبالغ في إكرام الحجاج وأحسن إلى أهل الحرمين، وأبطل المكوس من الحرمين وأكثر من الصدقات. وبعد قضاء مناسك الحج توجه إلى المدينة النبوية **ودخلها ماشياً وهو حافي القدمين**، ووزع الأموال على الفقراء والمحتاجين. وفي طريق عودته إلى مصر توقف في خليص ليعاين توصيل المياه إلى بركتها، حيث كان وهو في مكة قد أمر بملء بركتها بالماء، وعيَّن مالاً لذلك خدمة للحجيج الذين كانوا يجدون شدة من قلة الماء بها في أثناء سفرهم.

جامع الناصر محمد - قلعة القاهرةجامع الناصر محمد - القاهرة: :

هو جامع ملكي بديع شيده الناصر بالقلعة (٧٣٥هـ / ١٣٣٥م) في مدة حكمه الثالثة، بعد إزالة المسجد الأيوبي القديم، حيث كان سلاطين مصر يقيمون الصلاة. مساحته نحو (٥٧,٦ × ٦٠ متراً). أعمدته نقلت من المعابد المصرية القديمة بالأشمونين بصعيد مصر. تعد مأذنتاه من المآذن الفريدة والبديعة في القاهرة المملوكية. كان يواجهه الإيوان الكبير (٧١٨هـ / ١٣١٨م) والقصر الأبلق (٧١٨هـ / ١٣١٨م). والمسجد لايزال قائماً بجوار مسجد محمد علي بقلعة القاهرة.

الخليج الناصري:

قناة حفرت في سنة ١٣٢٦م لري المنطقة المحيطة بالقناة، ولنقل الاحتياجات والبضائع إلى سرياقوس.

القصر الأبلق - القاهرة:

شيد في ٧١٣هـ، كان يشرف على الميدان الكبير، كانت واجهته مكونة من أشرطة حجرية عريضة متوازية ذات لون أسود أو أصفر، ولهذا سمى بالأبلق. - غير موجود الآن.

الإيوان الكبير - القاهرة:

عرف أيضاً بالإيوان الأشرفي، كان قد بناه والده المنصور، وجدده أخوه الأشرف خليل. فقام الناصر بتجديده، وأنشأ به قبة عظيمة، ونصب في صدره التخت السلطاني، وكان مصنوعاً من العاج والأبنوس. كان موقع الإيوان حيث يقوم الآن مسجد محمد علي في قلعة القاهرة.

الميدان الناصري - القاهرة:

كان موضعاً قديماً غامراً بمياه النيل بين مصر والقاهرة، حوله الناصر إلى ميدان وغرس فيه الأشجار وافتتحه في سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م في مدة حكمه الثالثة. كانت تقام به عروض الخيل بالأزياء الفاخرة (كان الناصر شغفاً بتربية الخيول). موقعه الآن حي جاردن سيتي بالقاهرة.

خليج الإسكندرية:

أعاد الناصر حفر خليج الإسكندرية، وكانت الرمال قد طمرته وتعطلت الملاحة به، أدت إعادة حفر الخليج إلى نمو النشاط التجاري بالإسكندرية وازدياد العمران بها، بالإضافة إلى نمو الزراعة على ضفتي الخليج بينها وبين النيل.



جامع السلطان الناصر محمد بن قلاوون - قلعة القاهرة

أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده

بُعيد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون جاءت إيذاناً بانتهاء مدة الاستقرار والرخاء، التي تمتعت بها دولة سلاطين المماليك في عهده، وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمكنوا من البقاء في الحكم أربعين سنة بعد وفاة السلطان الناصر نفسه سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م): فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة خاصة تميز بها أحدهم، بقدر ما يرجع إلى هيبة بيت قلاوون نفسه ومكانته في قلوب المعاصرين، وهي الهيبة التي غرسها المنصور قلاوون، التي ازدادت رسوخاً في عهد ابنه الناصر محمد، وبعبارة أخرى: فإن أبناء الناصر محمد وأحفاده عاشوا على السمعة الطيبة، والمكانة الراسخة، والشهرة الواسعة التي غرسها الناصر محمد بالذات في قلوب معاصريه.

وليست هناك أهمية خاصة لأحد أبناء الناصر محمد أو أحفاده تجعلنا نتكلم عن كل واحد منهم على حدة.

يقول د. سعيد عبد الفتاح عاشور[١] - وإنما تكفي الإشارة إلى أنه في العشرين سنة الأولى التي أعقبت **وفاة الناصر محمد** (٧٤١-٧٦٢هـ/١٣٤١-١٣٦١م)، تولى منصب السلطانة **ثمانية من أولاده**، وفي العشرين سنة اللاحقة (٧٦٢-٧٨٤هـ/١٣٦١-١٣٨٢م) تعاقب في ذلك المنصب **أربعة من أحفاده**، وحسبنا أن نعلم أن بعض هؤلاء الأبناء والأحفاد نودي به سلطاناً وعمره عام واحد - مثل الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد- ، وأن بعضهم لم يبق في الحكم إلا شهرين وبضعة أيام، مثل الناصر شهاب الدين أحمد ابن الناصر محمد، ولعل هذه الأمثلة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى ماعانته الدولة بعد وفاة الناصر محمد من اضطراب وعدم استقرار وفوضى، تركت أثرها واضحاً في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وزاد من أحوال البلاد سوءاً في ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم **الوباء الأسود سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٩م)**، أي في عهد أولاد **السلطان الناصر محمد**، فمات كثير من الناس، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ الأثـر، حتى كادت تتوقف تماماً، وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر.

ولم يكن من المستطاع وقف استغلال الأمراء لصغر سن السلاطين، مما أدى إلى منافسات ومنازعات فيما بينهم وبين بعض من جهة، وإلى تحكم بعضهم واستبدادهم بشؤون الدولة من جهة أخرى.

وعند دراستنا[٢] لعصر أبناء الناصر محمد وأحفاده، تبدو لنا ظاهرة واضحة، هي أن كل سلطان من بني قلاوون كان يقف خلفه أمير أو أكثر من كبار أمراء المماليك، بحيث طغت شخصية هؤلاء الأمراء الكبار على السلاطين، وغدت أسماء الأمراء - دون السلاطين - هي مدار الأحداث المعاصرة، وموضـع

١ - ٢، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ٢٥٣ - ٢٥٥.

اهتمام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين، ومن هؤلاء الأمراء، لمع في عصر أبناء الناصر محمد الأمير قوصون، ويلبغا اليحاوي، وآقسنقر السلاري، وأرغون العلائي، وشيخو وطاز، وصرغتمش، أما عهد أحفاد الناصر محمد، فقد ظهرت فيه أسماء قشتمر المنصوري، ويلبغا الخاصكي، وبرقوق، ويعنينا من أمر هؤلاء الأمراء، أن بعضهم كان من **المماليك البرجية أو الجراكسة**، الأمر الذي يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفة، مما أدى إلى تمكنهم من انتزاع الحكم سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م)، كما سنرى عند الحديث عن المماليك البرجية في هذا الأطلس.

تركز النمو العمراني **لمدينة القاهرة في العصر المملوكي** على الأخص في الأحياء الواقعة جنوبي باب زويلة وحول منطقة طولون، وارتبط اتساع هذه الأحياء بإنشاء العديد من العمائر الدينية والاجتماعية فيه (جامع السلطان حسن، جامع وخانقاه شيخو، مدرسة صرغتمش، خانقاه ومسجد سنجر الجاولي، قصر الأمير يشبك، مارستان المؤيد ...الخ).

وإذا كانت القاهرة قد بلغت أقصى اتساع لها نحو سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م (نهاية سلطنة الناصر محمد بن قلاوون)، فإن الباحثين في تاريخ القاهرة يرون أن عدد سكانها بلغ حينئذ خمسمائة أو ستمائة ألف نسمة، ولكن "**الوباء الأسود**" الذي حدث في سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، الذي اجتاح أيضاً شعوب حوض البحر المتوسط واستمر لمدة خمس عشرة سنة، أدى إلى حدوث انخفاض كبير في عدد سكان القاهرة حتى إن معاصريه أطلقوا عليه "الفناء الكبير". كذلك فقد حدث انخفاض شديد في عدد سكان مصر في أعقاب الوباء الذي حدث في أيام الأشرف شعبان سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م ودام نحو سنتين.

قال المقريزي: «.. فلما عظم **الوباء** في الأرياف والقرى وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر وعظم الموتان (أي الموت) طلبت الأدوية للمرضى، فباع عطار من القاهرة في شهر واحد باثنين وثلاثين ألف درهم، وطلب الأطباء وبذل لهم المال الوفير، وكثر تحصيلهم فكان كسب الواحد منهم في اليوم مئة درهم، وبلغ عدد من يموت في اليوم الواحد ثلاثة آلاف من الأنفس وأما الطرحاء (المرضى طريحو الفراش) فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت بهم الأرض، وحفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها.. وخلت الضياع من أهلها، حتى إن القرية التي كان بها ألف نفس لم يتأخر بها (يبقى على قيد الحياة) سوى عشرين نفساً ... » أ. هـ.

الحملة الصليبية على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م[1]

نظراً لعدم وجود رجل قوي مهيب الجانب على رأس دولة المماليك. أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها التي كانت قد بلغت أوجها على عهد السلطان الناصر محمد، ولم يلبث أن استخف الأعداء بدولة سلاطين المماليك، وطمع الطامعون في أراضيها، بل لقد تجرأ الصليبيون على غزو مصر ذاتها **سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م.**

ومن المعروف أن الحروب الصليبية في الشرق لم تنته باستيلاء المسلمين على عكّا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م أو بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام، وإنما استمرت تلك الحروب - في صورة أو أخرى - حتى نهاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد، وفي ذلك الدور الأخير من أدوار الحروب الصليبية، اتخذ **ملوك قبرص** من آل لوزجنان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الإسلامية في شرقي حوض البحر المتوسط، فضلاً عن القيام بغارات جريئة على بعض الموانئ الإسلامية، وبخاصة موانئ دولة سلاطين المماليك في مصر والشام وساعد ملوك قبرص في تنفيذ ذلك المخطط أن كثيراً من البقايا الصليبية التي طردت من بلاد الشام في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، اتخذت من **جزيرة قبرص** بالذات مستقراً ومقاماً، مما هيأ لآل لوزجنان قوة ضاربة، مرنت على محاربة المسلمين، وتتوق للانتقام مما حل بالصليبيين على أيديهم ببلاد الشام.

وهكذا حتى اعتلى عرش قبرص سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٩م) **الملك بطرس الأول لوزجنان**، الذي اشتهر بقوة شخصيته، وتطرفه في الحماسة الدينية. وقد أراد أن يجعل من نفسه بطل المسيحية في صراعها ضد المسلمين، ولذلك فكر في القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية، وعندما أدرك أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى استعدادات ضخمة، وأموال كثيرة، ورجال عديدين، قام برحلة طويلة في غربي أوروبا سنة ٧٦٣-٧٦٦هـ/١٣٦٢-١٣٦٥م للحصول على أكبر قدر ممكن من مساعدات البابوية وملوك الغرب الأوروبي.

وأخيراً جمع بطرس لوزجنان قواته في **جزيرة رودس**، حيث تم الاتفاق على اختيار **الإسكندرية** بالذات هدفاً للهجوم الصليبي، وذلك للقضاء على **دولة سلاطين المماليك**، التي تسببت في طرد الصليبين من الشام من ناحية، والاستفادة من إستراتيجية تلك المدينة ومكانتها التجارية من ناحية أخرى، ولابد أن يكون الصليبيون والغرب الأوروبي قد سمعوا بأخبار الفوضى، التي غرقت فيها دولة

١- د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ٢٥٥ - ٢٥٨.



عند وصول السفن الحربية الصليبية إلى شواطئ الإسكندرية، توقع أهلها أنها سفن تجارية، لكن صبيحة اليوم اللاحق أدركوا أنها سفن حربية، فتجمعوا أمام جزيرة فاورس وانضم اليهم عربان من الصحراء الغربية، وانضم إليهم نائب حاكم الإسكندرية وكان أميرًا صغير السن قليل الخبرة، ونصح البعض نائب الحاكم والأهالي اللجوء وراء الأسوار والدفاع عن الإسكندرية لحين وصول الجيش المصري من القاهرة. لكن نائب الحاكم لم يسمع النصيحة.

سلاطين المماليك في **عصر أحفاد الناصر محمد**، وكيف كانت المدن والموانئ خالية من وسائل الدفاع.

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار، قبل وقوع الهجوم بمدة طويلة ، إلا أنه لم يكن من الدولة اهتمام -على حد تعبير المقريزي- وكان سلطان دولة المماليك في ذلك الوقت هو الأشرف شعبان - حفيد الناصر محمد - وهو عندئذ طفل صغير في الحادية عشرة من عمره، أما السلطة الفعلية فكانت بيد الأمير يلبغا الخاصكي الذي اشتهر بعسفه وجوره وكبريائه، حتى إنه عندما سمع بنية ملك قبرص في مهاجمة الإسكندرية، قال:« إن القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية » .

ولكن هذه الكبرياء لم تجد شيئاً في صد المعتدين الذين نزلوا على شاطئ الإسكندرية صباح الجمعة ٢٣من شهر المحرم سنة ٧٦٧هـ/ ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥م وهاجموا المدينة فور نزولهم، ولم تفلح الاستعدادات السريعة التي اتخذت لصد الخطر الصليبي، **فاقتحم الصليبيون الإسكندرية**، وفر العربان الذين استحضروا من البحيرة للدفاع عن الثغر، وهكذا سقطت الإسكندرية في قبضة الصليبيين، فقضوا فيها ستة أيام، تُعد من أحلك الأيام في تاريخ الثغر، ذلك أن الصليبيين انتشروا في شوارع المدينة وأزقتها ودروبها، ينتقمون من أهلها المسلمين فاستلموا الناس بالسيف، ونهبوا الحوانيت والدور، وأحرقوا الخانات والقصور، وخربوا المساجد والزوايا، واعتدوا على النساء والبنات.

وكان قائد الحملة - **الملك بطرس لوزجنان** - يرى ضرورة الاحتفاظ بالإسكندرية والبقاء فيها، والدفاع عنها لاتخاذها نقطة ارتكاز لغزو مصر بأجمعها، ولكن بعض رجاله أقنعوه بخطورة تلك المحاولة، فاضطر الصليبيون إلى الجلاء يوم الخميس ٢٨من المحرم٧٦٧ هـ/ ١٦ أكتوبر ١٣٦٥م، بعد أن حملوا في سفنهم آلاف الأسرى، فضلاً عن المنهوبات والبضائع.

وأخيراً وصل **يلبغا الخاصكي** على رأس جيشه إلى الإسكندرية، وكان وصوله عند رحيل الغزاة، فشاهد ما حل بالمدينة من دمار وخراب، وأمر بدفن جثث القتلى، وترميم ما خرب واحترق، وإذا كانت دولة سلاطين المماليك تمر عندئذ بدور من الانحلال والفوضى مما لم يمكنها من الثأر من جزيرة قبرص وملوكها.

بيد أن المسلمين لم ينسوا ما حل بالإسكندرية على أيدي الصليبيين سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، ولم تهدأ نفوسهم إلا عندما انتقموا لأنفسهم، وكان ذلك في عصر **دولة المماليك البرجية**.

مرئية فضائية لموقع مدينة الإسكندرية

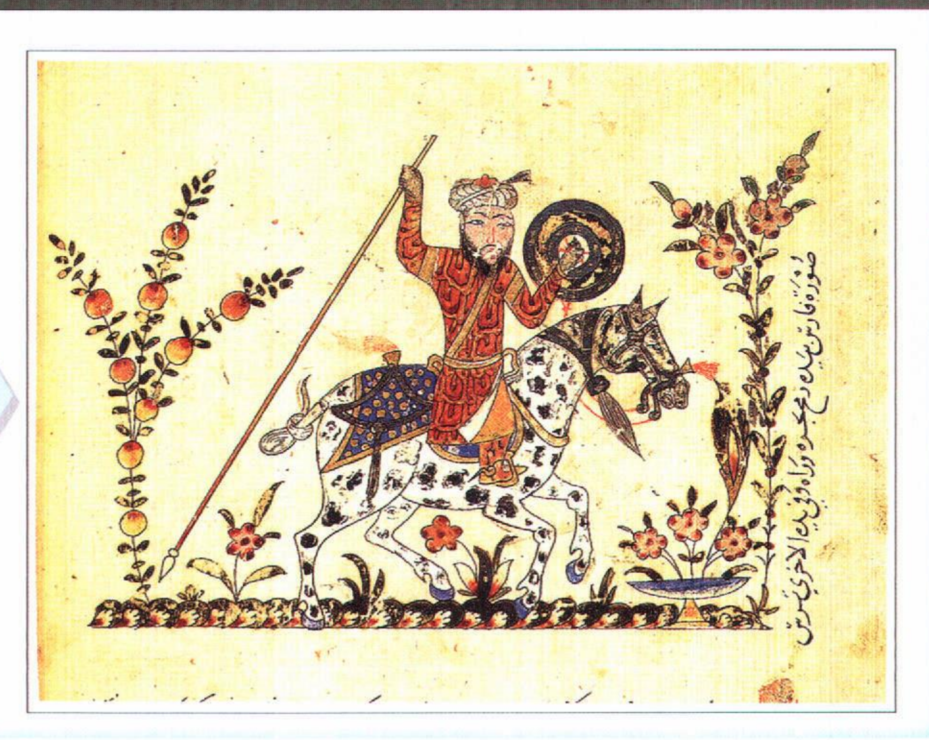
يُعد (محمد بن قاسم النويرى المالكي السكندري) الذي عاصر أحداث غزوة الإسكندرية، وسجلها في كتابه الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، وكذلك الكاتب المصري شهاب الدين النويري مؤلف نهاية الأرب في فنون الأدب". من أهم من أرخ لهذه الحملة الصليبية.

منظر لساحل الإسكندرية، التي نزلت فيها الحملة الصليبية سنة ٧٦٧ هـ بقيادة: الملك بطرس لوزجنان (ملك قبرص)



دولة المماليك البرجية في أقصى اتساع لها
الدولة الإيلخانية
إيران
السلطنة المملوكية
مصر
الصعيد
النوبة
الإمبراطورية البيزنطية
الصغرى
آسيا
الروم
سلاجقة
مملكة الأرمن الكبرى
مملكة الأرمن الصغرى
جورجيا
أذربيجان
بلاد الأكراد
بلاد الشام
جزيرة العرب
نجد
آل عصفور
البحرين
الحجاز
الأشراف
صحراء الربع الخالي (صيهد ووبار)
اليمن
الدولة الرسولية
حضرموت
فارس
البلميون (البجه)
القاهرة
دمشق
حمص
طرابلس
تبريز
سلطانية
مكة
المدينة النبوية
صنعاء
السلطنة المملوكية
أرمينيا الكبرى والصغرى
الإمبراطورية البيزنطية
سلاجقة الروم
مماليك نصرانية بجورجيا
مماليك نصرانية إفريقية
الدولة الرسولية
الدولة الإيلخانية

في الأعلى فارس **مملوكي** يعدو بفرسه وقد اخترط سيفه. منمنة من كتاب نهاية السؤل والأمنية للأقصراني، مكتبة جستر بيتي. م. ص . كتاب (فروسية ١ ، إصدار مكتبة الملك عبد العزيز العامة)، ص ١٠٨ .



صورة **فارس مملوكي** بترس ورمح. تدل على اهتمام المماليك بتربية جنودهم تربية عسكرية أصيلة منمنة من كتاب نهاية السؤل والأمنية للأقصراني، من نسخة مؤرخة في سنة ٧٧٣ هـ محفوظة في المكتبة البريطانية بلندن.

م، ص . كتاب (فروسية ١ ، إصدار مكتبة الملك عبد العزيز العامة)، ص ١٠٩.

الأندلس في العصر المملوكي

لم يبقَ في الأندلس بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب من المدن الإسلامية سوى ولاية غرناطة وولاية إشبيلية، وكان حاكم غرناطة قد عقد معاهدة مع ملك قشتالة، وكان من نصوص المعاهدة أن يحارب مع ملك قشتالة أياً كانت الدولة التي سيحاربها، ووصل الأمر إلى مساعدة ملك قشتالة في حصار إشبيلية، لتسقط هذه المدينة الإسلامية سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م. ثم سقوط مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت **قرطبة حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة**، وسقطت جيان قبل ذلك في سنة ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م. ولم يبق في الأندلس **إلا ولايتان فقط كبيرتان نسبياً**، الأولى هي **ولاية غرناطة**، وتقع في الجنوب الشرقي، وتمثل حوالي ١٥ ٪ من بلاد الأندلس، والثانية هي **ولاية إشبيلية**، وتقع في الجنوب الغربي، وتمثل حوالي ١٠ ٪ من أرض الأندلس. هاتان الولايتان هما اللتان بقيتا فقط من جملة بلاد الأندلس، وكان من العجيب كما ذكرنا أن يظل الإسلام في بلاد الأندلس بعد هذا الوضع وبعد سقوط قرطبة، وبعد هذا الانهيار الكبير لمدة تقرب من ٢٥٠ سنة، فكانت هذه علامات استفهام كبيرة (١).

سقوط مملكة غرناطة:

بعد أن سقطت إشبيلية نقض النصارى الهدنة مع غرناطة، واتجهوا ليحاصروها، ومن ثَم استعان الأندلسيون بيعقوب بن منصور المارينـي وولده يوسف ليساعدوهم في الانتصار على النصارى، ولكن في أثناء مساعدتهم لهم يشعر الأندلسيون بالخوف على ملكهم منهم؛ فيستعينون بالنصارى ضدهم، ثم يحتلون سبتة في بلاد المغرب،وبذلك انقطعت مساعدات بلاد المغرب للأندلس إلى الأبد.

هذا في الوقت الذي يتزوج فيه فرناندو الثالث ملك أراجون من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة، ثم اتحدوا معاً وكونوامملكة إسبانيا، وكان ذلك في سنة ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤م، واستغل ملك إسبانيا أوضاع الأندلس واستطاع أن يدخلها صلحاً على أن لا يمس المسلمين، ولكن هذا لم يحدث، فما إن دخلوا الأندلس حتى هجَّروا من فيها من المسلمين، ونصَّروا من ظل بها، وأقاموا محاكم التفتيش للبحث عَمَّن يخفي إسلامه، وأبادوا من بها من المسلمين (٢). ١-٢،(د. علي الصلابي؛ دولة الموحدين نقلاً عن مصادر أخرى).

لم يكن سقوط غرناطة في يد النصارى حادثاً فجائياً، بل جاء حصاد سنوات من الكيد الصليبي المنظم والغفلة والتخاذل من جانب حكام المسلمين في الأندلس، وكان سقوط غرناطة معناه سقوط دولة الإسلام في الأندلس الأمر الذي أسعد كل صليبي في مشارق الأرض ومغاربها، وأحزن كل المسلمين خاصة أهل المغرب ومصر التي حاولت التدخل أيام المماليك، ولكن دون جدوى خاصة لاضطراب شئونها الداخلية، وهكذا كان الصدى الأليم الذي أثارته حوادث الأندلس في الأمم الإسلامية ولكنه بدأ يخبو شيئاً ولم تمض أعوام قلائل حتى أسدل على تلك الفاجعة حجاب من النسيان ذلك برغم أن المأساة الأندلسية لم تذقه بسقوط غرناطة بل كان عليها أن تجوز فصولاً أخرى أشد فجيعة على كل مسلم قبل أن تصل إلى نهايتها.



سنوات الاحتلال الصليبي لبلاد الأندلس

تستعمل كلمة استرداد Reconquista (وهي كلمة إسبانية وبرتغالية تعني "الاسترداد") في نطاق تاريخ إسبانيا والأندلس، وهو مصطلح خاطئ؛ لأن المسلمين دخلوها فاتحين بنور الهدي الرباني، بعد أن طهروا البلاد من ظلام الجهل والفساد و البغي والاستعباد، وهذه الحقبة تبدأ ما بين سنة ٧١٨م تاريخ ثورة بيلايو، وسنة ١٤٩٢م تاريخ سقوط مملكة غرناطة (إمارة بني الأحمر الإسلامية).

وتختص هذه المدة بتواجد ممالك نصرانية وإسلامية على شبه الجزيرة الإيبيرية.

بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر

أولاً: أن يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنويًّا، وكان هذا تجسيداً لحال الأمة الإسلامية، وتعبيراً عن مدى التهاوي والسقوط الذريع بعد أفول نجم دولة الموحدين القوية المهابة، التي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا.

ثانياً: أن يحضر بلاطه بوصفه أحد ولاته على البلاد، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمنيًّا.

ثالثاً: أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية، وبهذا يكون ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تماماً.

رابعاً: أن يسلمه ما بقي من حصون جيّان- المدينة التي سقطت أخيراً- وأرجونة وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، وحصون أخرى كثيرة تقع كلها في غرب غرناطة، وبذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة مواقع في غاية الأهمية تحيط بغرناطة نفسها.

خامساً: وهو أمر في غاية الخطورة، وهو أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا احتاج إلى ذلك، أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أياً كانت الدولة التي يحاربها.

مستند تاريخي — **محاكم التفتيش**

(هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة، وفي يوليو ١٥٠١ م= ذي الحجة ٩٠٦ هـ أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته "أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال" . (دولة الموحدين - الصلابي ، المرجع السابق).


P. R. 11-207

& 575

وثيقة تسليم غرناطة من قبل عبد الله الصغير لفيرناندو وايزابيلا سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م، ودخولهما قصر الحمراء

بلاد الأناضول بعد زوال الدولة السلجوقية الرومية سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م

عندما زالت الدولة السلجوقية الرومية في سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م، توزعت أملاكها في أرض الأناضول على إمارات صغيرة تتفق حدودها مع حدود المقاطعات اليونانية القديمة في آسيا الصغرى، وهذه الإمارات هي:

إمارة قرمان (قرامان): هي دولة إسلامية نشأت عام ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠م جنوبي الأناضول. حكامها من أصول أرمنية، حيث أسسها نوري الصوفي الأرمني الذي اعتنق الإسلام. وتوالى على حكمها سلالته من بعده. وقد اتخذت التركية (المكتوبة في ذلك العهد بالأبجدية العربية) كلغة رسمية للدولة. كانت علاقة القرمان مع مماليك مصر طيبة، حيث باع القرمان مدينة ألانيا (أو قلعة علانية) -الواقعة اليوم بجنوبي تركيا- للمماليك مقابل ٥٠٠٠ قطعة ذهب، ثم تدهورت العلاقات في عهد سلطان زاد إسحاق. وقف القرمان مع السلطان العثماني خلال محاربته للمماليك في الشام وكانت الانتصارات العثمانية على المجريين شمالاً، أدت إلى ولاء القرمان طواعية للسلطان مراد العثماني ونهاية إمارة قرمان عام ٨٨٢ هـ/ ١٤٨٧م أي: بعد ٢٣٧ سنة من تأسيسها.

إمارة منتشا: تقع على ساحل بحر إيجة، أشهر مدنها: مغلة ميلاس. وقد تقوَّت بما كانت تشنُّه من غارات بحرية على أملاك الدولة البيزنطية.

إمارة تكة: تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في المنطقة الجنوبية الغربية، وهيمنت على مدينة أنطاليا.

إمارة الحميد: تقع داخل الهضبة الأناضولية.

إمارة قزل أحمدلي: تقع على ساحل البحر الأسود في منطقة سينوب وقسطموني.

الإمارة العثمانية: ظهرت أولاً كإمارة صغيرة في مقاطعة فريجيا وما جاورها من أراضي بيثينيا، وانحصرت بين إمارتي كرميان وقزل أحمدلي، وتوسعت بعد ذلك حتى بحر مرمرة، وسيطرت على مدن إزنيق - نيقية - وملاجنة وبورصة، ودوريليوم، وتميزت عن باقي الإمارات في الدور الذي سوف تؤديه على المسرح السياسي داخل آسيا الصغرى وخارجها. وهناك إمارات أخرى أوضحناها على الخارطة في الصفحة المقابلة، - وسيرد تفصيل أشمل وأوسع في أطلس تاريخ الدولة العثمانية-.

تضاف إلى كلمة سلاجقة لفظ (الروم) وهي مأخوذة من تسمية الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية). حيث سمَّى السلاجقة أراضي سلطنتهم بهذا الاسم؛ لأنها تأسست على أراضي كانت تتبع الإمبراطورية الرومانية، قبل أن يتم فتحها بواسطة الجيش الإسلامي، وتسمى كذلك السلطنة القونية أو السلطنة الأيقونية في بعض المراجع الغربية القديمة.



قوس هادريان بمدينة أنطاليا التركية على ساحل البحر الأبيض المتوسط

الهند الإسلامية في عصر مماليك مصر وبلاد الشام[١]

قامت الدولة الخلجية في الهند على أنقاض الدولة الغورية في ٢ جمادى الآخرة ٦٨٩هـ / ١٣ من يونيو ١٢٩٠م، حيث قام الخلجيون في المدة القصيرة التي حكموا فيها - وهي نحو ثلاثين عاماً - بجلائل الأعمال؛ فنشروا الإسلام في "شبه القارة الهندية" كلها، وردُّوا الخطر المغولي بعد أن أضحى هذا الخطر يهدد الحكام المسلمين في دلهي.

وقد وفرت الأموال التي جاءت من الحملات الجنوبية، ونظام الضرائب، إمكانية إعداد جيش كبير للتصدي للمغول، وذلك لما يمتاز به إقليم **غوجارات** من غنى بعد أن أصبح تحت حُكم المسلمين. وبذلك تمكن المسلمون بقيادة السلطان الفارس علاء الدين الخلجي من التصدي لعدد من الحملات المغولية.

ثم جاء بعد ذلك آل طغلق (آل تغلق) وهم من أبرز السلالات التركية الحاكمة في سلطنة دلهي. إذ قَدم مؤسّسها غياث الدين من آسيا الوسطى وعمل ضابطاً في سلاح الفرسان. وبصفته قائداً في جيش الهند أحرز النصر على المغول في سبع وعشرين معركة. أما ابنه محمد طغلق فقد كان جنديًّا لا يعرف الكلل وإداريًّا ناجحاً، شجع في بلاطه الشعراء، ورجال العلم، والفنون. وتم تداول العملة النحاسية بقيمة فضية في عهده. ثم حاول نقل حاضرته من دلهي إلى ديفاغيري (سميت دولة أباد) في الدكن. وخلفه في الحكم **فيروزشاه** طغلق الذي كان حاكماً جاداً ومخلصاً. وقد نعمت السلطنة بالسلام والثروة طوال حكمه الذي امتد نحو نصف قرن[١].

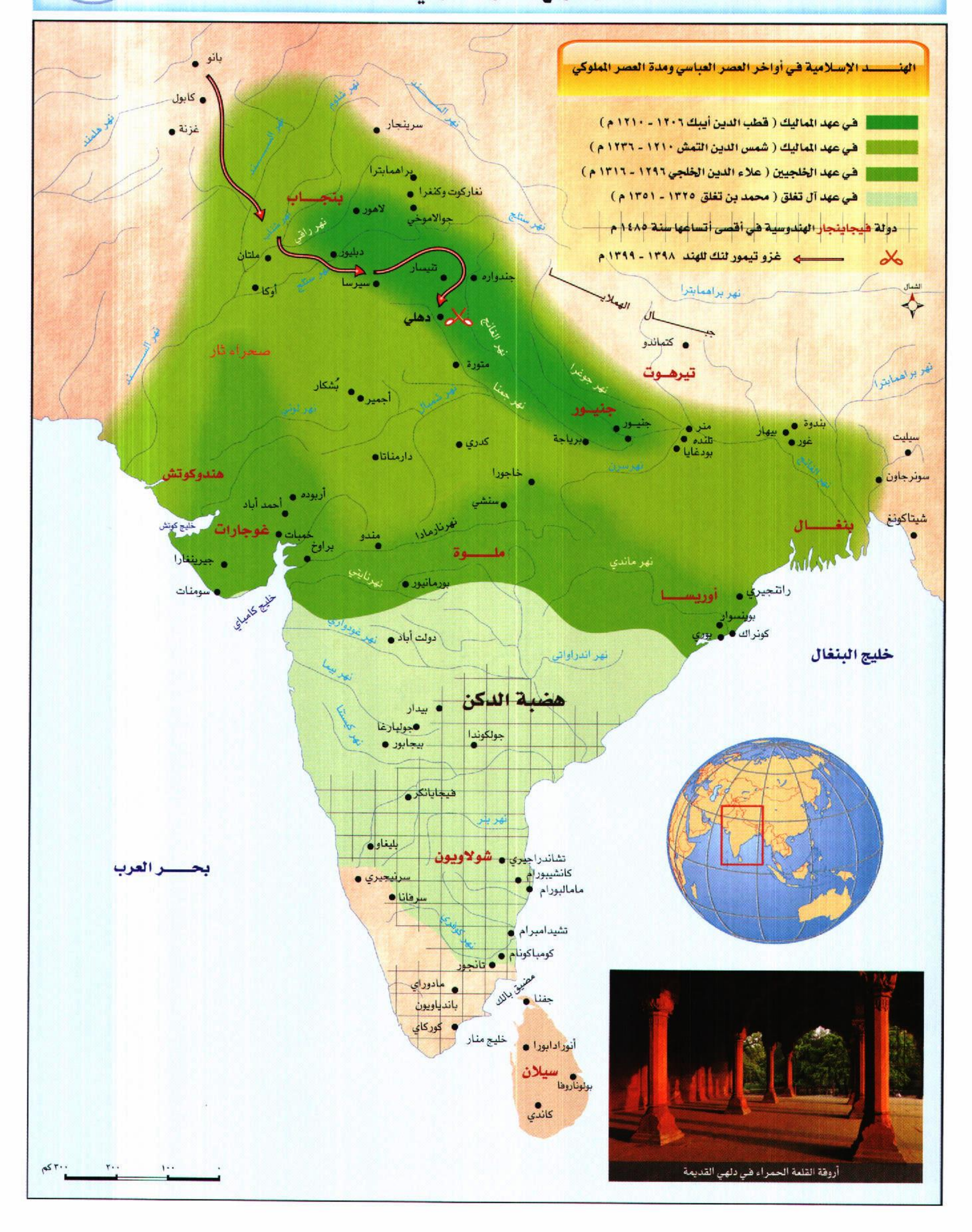
وغزا المغول بقيادة تيمورلنك دلهي (دهلي) عام ٨٠١ هـ ١٣٩٨م، فوضعوا حداً للسلام والعصر الذهبي للسلطنة ونهبوها. وتجزأت بعد ذلك الإمبراطورية الإسلامية في الهند إلى العديد من الممالك الصغيرة المتحاربة التي كان يحكم كل واحدة منها سلطان.

وفي عام ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م تم تأسيس دولة فيجاينجار الهندوسية في هضبة الدكن. وأدَّى ذلك إلى خضوع الجنوب للسيطرة الهندية، وأوجد حاجزاً أمام تقدم المسلمين.

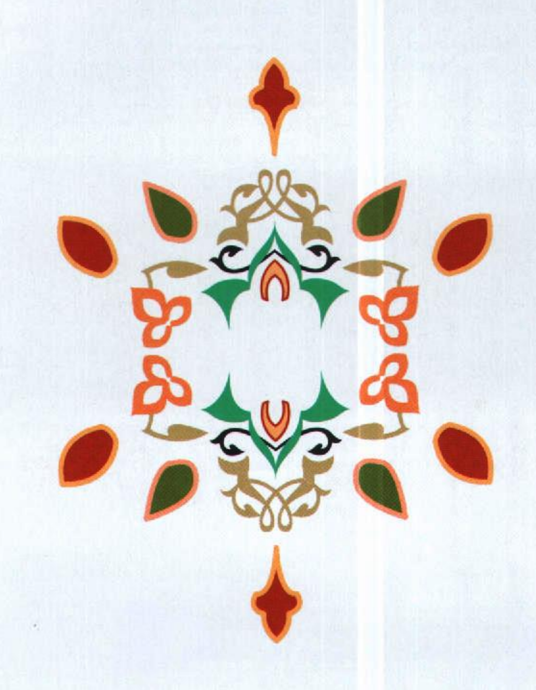
كان السلطان **فيروز شاه** - رغم انشغاله بأمور الحكم وشؤون الرعية - مشتغلاً بالتأليف، فألَّف كتاباً في الرياسة والسياسة، ألَّفه على ثمانية أبواب، كما اخترع السلطان ساعة عجيبة يَخْرُج كُل ساعة منها صوتٌ عجيب يَتَرنَّم ببيت من الشعر، وكانت تُسْتَخْرَج منها أوقات الليل والنهار، ووقت إفطار الصائم، وكيفيَّة الإظلال، وزيادة اليوم ونقصانه باعتبار الفصول.

١ - الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٦، ص ١٣٩ .

٢ - أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ١/١٤٨، ١٤٩ بتصرف.



أروقة القلعة الحمراء في دلهي القديمة



الباب الثاني



المماليك البرجية

٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م



المماليــــك البرجية ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م [(١)]

هــي الدولــة المملوكية الثانية وتسمى **بدولة المماليك الجركسـية**، تلَتْ دولةَ المماليك البحرية مباشرةً عندما قام الأتابك **برقوق الشركسـي** فخَلَعَ آخرَ ملكٍ من بني قلاوون(الأتراك)، وفَرَضَ نفسَه سلطاناً - بالاتفاق مع القضاة وشيخ الإسلام والخليفة – سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م .

وأصــل ملــوك هذه الدولة من الجنس الجركسي الذي يعيشُ فــي بلادِ الكُرْج - (بضمّ أوله وسكون ثانيــه كما ذكــره ياقوت) - وهي المنطقــةُ الواقعة شمــالي أرمينية، بين البحرِ الأســود وبحر الخزر، وتُعرفُ اليومَ بجمهوريةِ جورجيا في منطقةِ القوقاز.

وكان الرقيــقُ الجراكســة كثيرين فــي الأَسواقِ في ذلك الحين (النّصف الثــاني من القرنِ السابع الهجــري)؛ بسبــبِ كــثرةِ السّبي منهــم؛ لتعرضِهم لهجمــاتِ مغول فارســ والقبجاق، ممــا أدى إلى انخفاضِ أسعارِهــم، إلى جانبِ مــا يتَصفون به من جمالِ الشــكلِ، وقوة البــدن، وشجاعة الإقدام، ولذلك اتجه السلطانُ المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ – ١٢٩٣م) إلى الاستكثارِ منهــم، والاعتمادِ عليهم، **وأسكنَهم فــي أبراجِ القلعة، ولـذا عُرِفوا بالبرجية** تمييزاً لهم عن المماليك الأتراك الذين أسكِنوا في قلعةِ الروضة وعرفوا بالبحرية، -وقد تطرقنا للحديث عنهم في الباب الأول من هذا الأطلس ص ١١ – ١٢ -. و بلغ عدد المماليك الشراكسة آنذاك قرابة ٣٧٠٠ نفساً، وقد أسكنهم فـي أبراج قلعة الجبل، واستمرت هذه الدولة قرابة (١٣٩) عاماً.

قد يتبادر إلى الذهن أن غالبية **المماليك** من الجنس التركي، إذ أطلق كثير من المؤرخين على هذه الدولة اسم (الدولة التركية) والواقع أن فيهم عدة أجناس أخرى، واسم الترك غالب على مجملهم لكثرتهم وتميزهم.

وقــد تنــوع الأرقــاء، فمنهــم الســود، ومنهم البيضــ، وهؤلاء الرقيــق البيض يطلــق عليهم اسم (المماليــك)، وهنــاك فرق بين لفظتــي (المماليك) و(العبيد) فلفظة مماليــك نفسها تعني ما يملك بقصــد تربيتهم والاستعانة بهم كجند أو ما شابه ذلك، بخلاف لفظة (العبيد) التي تعني العبودية، فالعبد يولد من الرقيق، بينما يولد المملوك من أبوين حرين، كما أن العبد يكون أسود، فـي حين يكون المملوك أبيض، ويتشابه الاثنان في أنهما قد جمعتهما وحدة الغربة والمخاطرة. الموسوعة العربية العالمية.

١ - د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية .

جدول سلاطين الدولة المملوكية ثانياً : المماليك البرجية

م	السلطان	تاريخ الحكم
١	الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الأولى	٧٨٤-٧٩٠ هـ/١٣٨٢-١٣٨٨م
٢	الصالح حاجي بن شعبان	٧٩٠-٧٩٢ هـ/١٣٨٨-١٣٩٠م
٣	الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الثانية	٧٩٢-٨٠١ هـ/١٣٩٠-١٣٩٩م
٤	الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	٨٠١-٨١٥ هـ/١٣٩٩-١٤١٢م
٥	الخليفة العباسي المستعين	٨١٥ هـ/١٤١٢م
٦	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	٨١٥-٨٢٤ هـ/١٤١٢-١٤٢١م
٧	المظفر أحمد بن شيخ	٨٢٤ هـ/١٤٢١م
٨	الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤ هـ/١٤٢١م
٩	محمد بن ططر	٨٢٤- ٨٢٥ هـ/١٤٢١-١٤٢٢م
١٠	الأشرف برسباي	٨٢٥-٨٤١ هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م
١١	أبو المحاسن يوسف بن برسباي	٨٤١-٨٤٢ هـ/١٤٣٨م
١٢	الظاهر جقمق	٨٤٢- ٨٥٧ هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م
١٣	المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧ هـ/١٤٥٣م
١٤	الأشرف إينال	٨٥٧-٨٦٥ هـ/١٤٥٣-١٤٦١م
١٥	المؤيد أحمد بن إينال	٨٦٥ هـ- ١٤٦١م
١٦	الظاهر أبو سعيد خشقدم	٨٦٥-٨٧٢ هـ/١٤٦١-١٤٦٧م
١٧	الظاهر يلباي المؤيدي	٨٧٢ هـ/١٤٦٧م
١٨	الظاهر تمربغا	٨٧٢ هـ/١٤٦٨م
١٩	الأشرف قايتباي	٨٧٢ -٩٠١هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦م
٢٠	محمد بن قايتباي: المرة الأولى	٩٠١-٩٠٢هـ/١٤٩٧-١٤٩٨م
٢١	الأشرف قانصوه خمسمائة	٩٠٢هـ/١٤٩٧م
٢٢	محمد بن قايتباي: المرة الثانية	٩٠٢-٩٠٤هـ/١٤٩٧-١٤٩٨م
٢٣	الظاهر قانصوه الأشرفي	٩٠٤-٩٠٥ هـ/١٤٩٨-١٥٠٠م
٢٤	الأشرف أبو النصرجانبلاط	٩٠٥-٩٠٦هـ/١٥٠٠-١٥٠١م
٢٥	العادل سيف الدين طومان باي الأول	٩٠٦هـ/١٥٠١م
٢٦	الأشرف أبو النصرقانصوه الغوري	٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١- ١٥١٦م
٢٧	الأشرف طومان باي الثاني	٩٢٢-٩٢٣هـ/١٥١٦-١٥١٧م

الظاهر سيف الدين برقوق (حقبتان) ٧٨٤ - ٨٠١ هـ [١]

هو الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي، السلطان الخامس والعشرون من سلاطين المماليك في ديار مصر وبلاد الشام، وأول السلاطين الشراكسة (البرجية) إذا لم يُعدّ السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير من الشراكسة. وقد سمي هؤلاء بالبرجية لأنهم ينتسبون إلى المماليك الذين كانت ثكناتهم في أبراج قلعة القاهرة.

تسلطن برقوق مرتين (٧٨٤-٧٩١ ثم ٧٩٢-٨٠١هـ) ، وهو يعد صلة الوصل بين سلالتين من سلاطين المماليك، إذ حكم مصر والشام قائداً للعسكر (أتابك العسكر) قبل توليه السلطنة، وكان ذلك في ظل سلطانين صغيرين من نسل قلاوون من المماليك البحرية (الأتراك).

أُخذ برقوق يافعاً من بلاد الشركس (الجركس)، وأصله من قبيلة كسا، وبيع في القرم وجلبه إلى مصر تاجر رقيق معروف يدعى الخواجة فخر الدين عثمان بن مسافر فعرف به، واشتراه بمصر الأمير يلبغا العمري الخاصكي من مماليك السلطان الأشرف شعبان في حدود سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٤م، فأعتقه فلما اغتيل الملك الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٧م، نصب ابنه الملك المنصور علي سلطاناً (٧٧٨-٧٨٣هـ) وكان عمره نحو سبع سنوات.

صعد نجم برقوق، وكوفئ بترقيته من الجندية إلى رتبة أمير طبلخاناه دفعة واحدة (نصيب الأمير فيها أربعون فارساً، وقد يزيد حتى الثمانين بحسب إقطاعه)، ولم تمض أيام حتى غدا برقوق أمير آخور كبيراً (مسؤولاً عن الإسطبل السلطاني)، ثم أتابكاً للعسكر (قائداً للجيش) وصار إليه الحل والعقد مفوضاً من السلطان.

توفي الملك المنصور علي بالطاعون سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، ونُصِّب أخوه صلاح الدين أمير حاج سلطاناً، فتلقب بالملك الصالح حاجي، وعمره لا يتجاوز أحد عشر عاماً، وانفرد الأتابك برقوق بتصريف الأمور بعد أن تخلص من شركائه في الحكم وأكثر خصومه، ثم لم يلبث أن تاقت نفسه إلى السلطنة بتشجيع من أنصاره، فقام بخلع السلطان الجديد، **وقلده الخليفة العباسي المتوكل على الله** مقاليد البلاد، وشهد بذلك القضاة الأربعة وشيخ الإسلام. **وتسلم برقوق السلطنة** في التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ هـ الموافق للسادس من تشرين الثاني سنة ١٣٨٢ م، وتلقب بالملك الظاهر.

واجهت السلطان برقوق، منذ أول عهده، صعوبات أضعفت موقفه، وأفقدته السيطرة على مقاليد الأمور شيئاً فشيئاً، إلى أن دالت دولته الأولى بعد سبع سنوات من حكمه. فقد أكثر من القبض على الأمـــراء

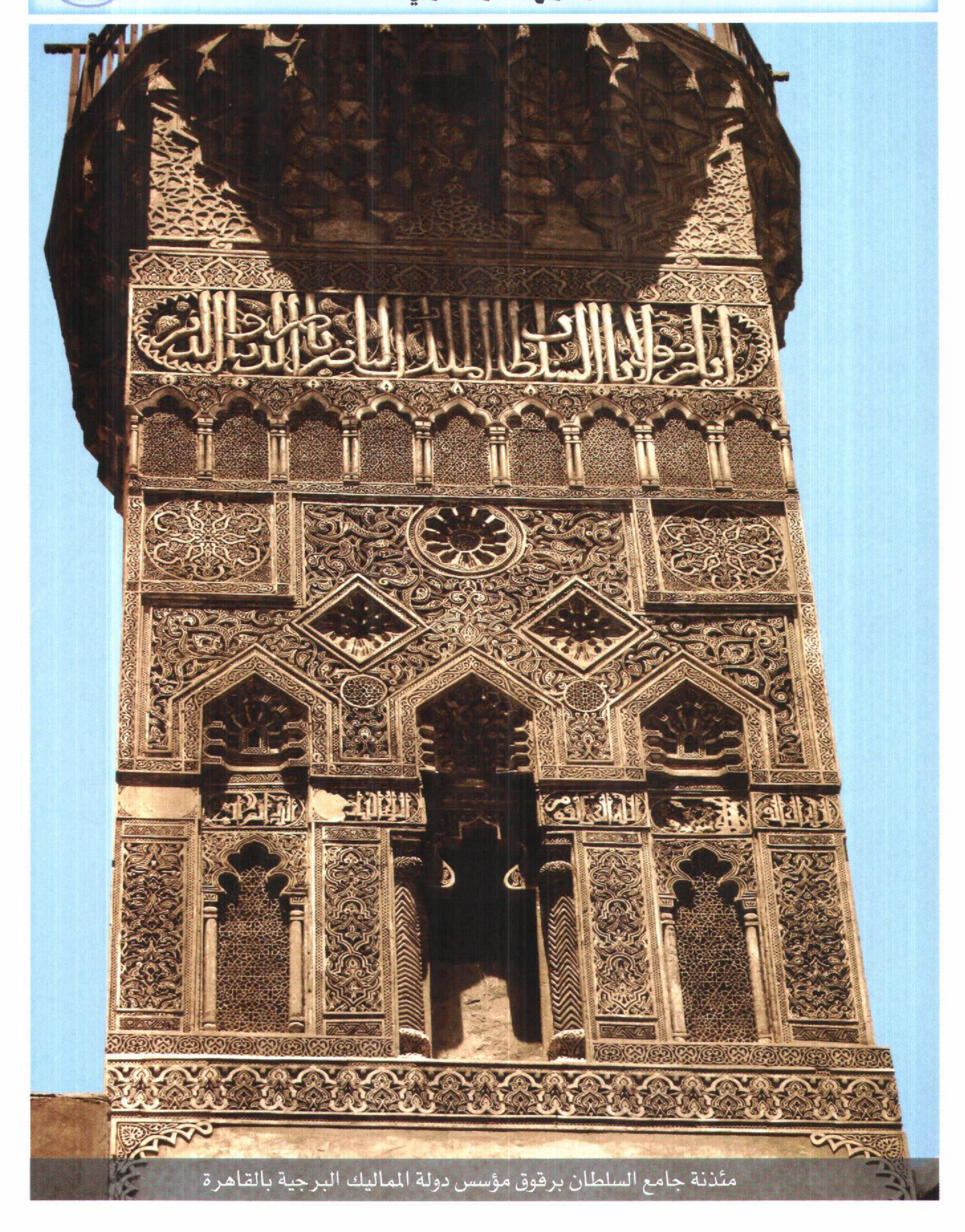
١- محمد وليد الجلاد، الموسوعة العربية، مج ٤، ص ٨٨٣ .

من أقرب المقربين إليه أو عزلهم أو نقلهم، حتى أصاب العزل الخليفة نفسه والقضاة، فتغيرت عليه الخواطر وخافه الخاصة والعامة. وكان أخطر ما واجهه ثورة نائبه على حلب الأمير يلبغا الناصري، الذي تحالف مع أحد الأمراء المطرودين المعروف باسم «منطاش» وانضم إليهما عدد من الأمراء في بلاد الشام، ومنهم نائب سيس. وسيطر الناصري على كامل سورية، وهزم جيش السلطان عند أسوار دمشق، ودخلت دمشق في طاعته في ربيع الأول ٧٩١هـ/آذار ١٣٨٩م.

وصلت طلائع الناصري أراضي مصر وعسكرت في الصالحية على مقربة من القاهرة قبل أن يتمكن السلطان برقوق من تجهيز لجيش آخر؛ استعداداً للمعركة الحاسمة، ودارت المعركة شمالي القاهرة وبين أسوار المدينة في التاسع من جمادى الأولى ٧٩١هـ/أيار ١٣٨٩م من غير نتائج حاسمة، وبدأ السلطان برقوق يفقد رجاله وسلطانه يوماً فيوماً، إلى أن قرر مغادرة قلعته في خاتمة المطاف والاختفاء عن الأعين.

لم يلبث الملك الظاهر أن كشف أمره فقبض عليه وأودع السجن في قلعة الكرك (في الأردن اليوم). وأعيد الملك الصالح حاجي إلى السلطنة مرةً ثانية وتلقب بالملك المنصور. وصار يلبغا الناصري أتابك العسكر وبيده الحل والربط، ولكن سرعان مادب النزاع بين يلبغا الناصري وحليفه منطاش، ودارت رحى المعارك بين الطرفين في القاهرة وغيرها، وتمكن منطاش من القبض على ناصية الأمور، وانتهى أمر الناصري. وانتهز برقوق الفرصة في غمرة الفوضى التي عمت البلاد، ففرّ من سجنه وجمع حوله قوة من مماليكه وأنصاره ومن البدو العرب استطاع بها، بعد كثير من المغامرات المثيرة، أن يحقق نصره كاملاً ويدخل القاهرة في شهر صفر سنة ٧٩٢هـ/شباط ١٣٩٠م. ولم يكن في وسع السلطان الصغير الملك المنصور حاجي سوى الانسحاب متخلياً عن السلطنة لبرقوق. بيد أن السلطان برقوق لم يتمكن من عدوّه القديم منطاش إلا بعد سنتين من المطاردة المستمرة.

كان عهدا السلطان برقوق حافلين بأحداث مختلفة، أكثرها محاولات تمرد وانشقاق ومنازعات بين كبار أمراء المماليك الأتراك والشراكسة من أجل السلطة، إضافة إلى تفشي الأمراض وكساد الأسواق، وكانت العقود الأخيرة من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي سنوات جدب في تاريخ مصر والشام، ولم يخل الأمر من حوادث مهمة لا يمكن إغفالها. **ففي عهده الأول تواترت الأنباء عن ظهور تيمورلنك** في أواسط آسيا، بعد أن سيطر على مناطق شاسعة منها، واتخذ من سمرقند عاصمة له، وغزا فارس (٧٨٢هـ/١٣٨١م)، ثم استولى على تبريز (٧٨٨هـ/١٣٨٦م)، وراح يهدد العراق وديار بكر. ثم **بروز الإمارة العثمانية** في آسيا الصغرى في عهده.



مئذنة جامع السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية بالقاهرة

الدولة العثمانية في الأناضول [١]

سيرد التفصيل الأوسع في أطلس تاريخ الدولة العثمانية

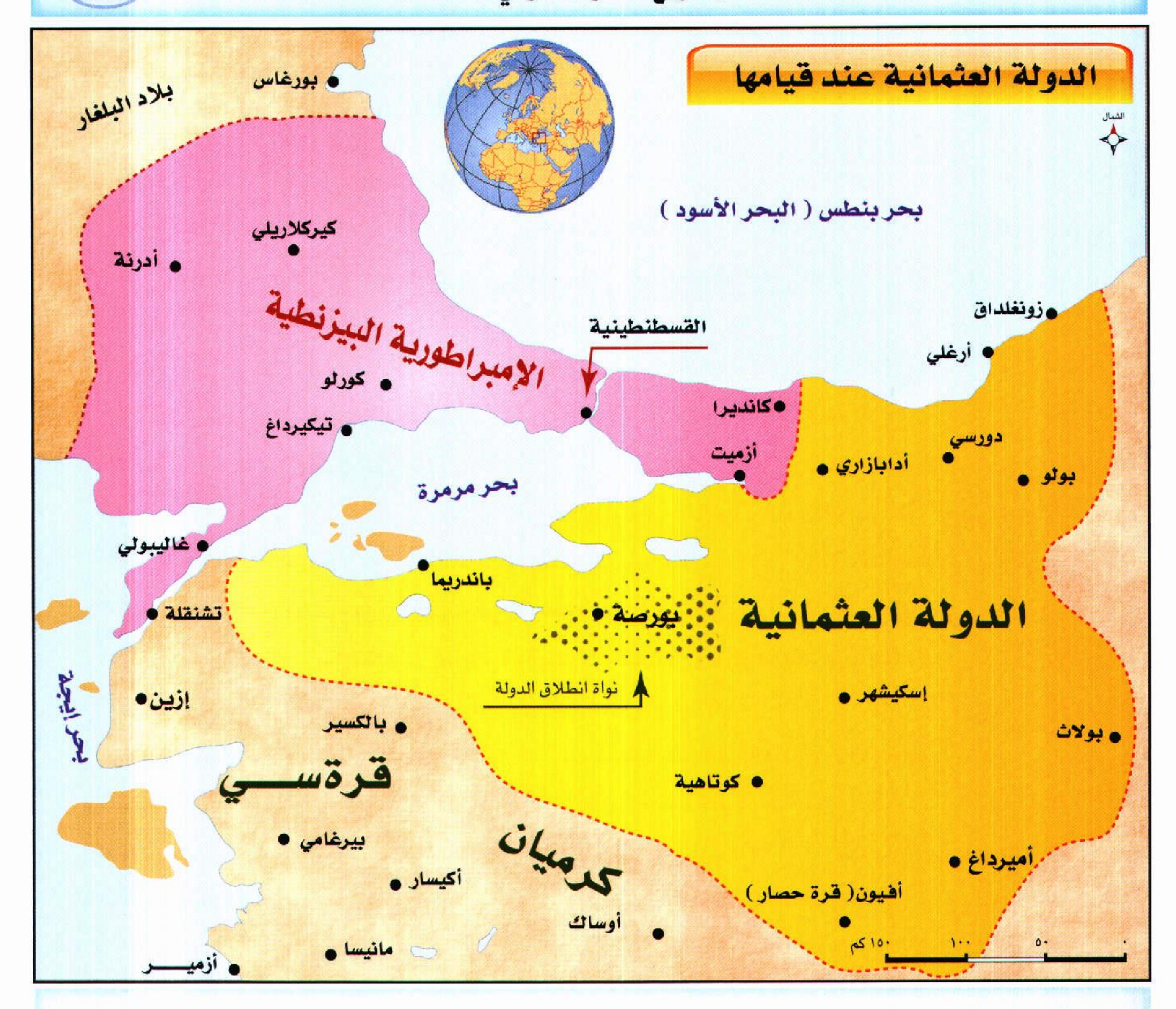
تنسب الدولة العثمانية إلى قبيلة قابي إحدى القبائل التركية، ومنشؤها بلاد تركستان. وكان سليمان أحد أبناء القبيلة يهيم بقبيلته في آسيا الصغرى بعد موقعة ملاذكرد، وقتل سليمان عند مشارف حلب، وترددت القبيلة بين العودة لموطنها الأصلي، ومواصلة المغامرة، وانقسمت القبيلة في ذلك، فاختار ابنه أرطغرل مواصلة السير، فدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الأمير السلجوقي علاء الدين الثاني الذي كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين، وساعده في هذا الكفاح، فأعطاه السلطان السلجوقي المستقعات الواقعة على الحدود البيزنطية، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين، فاتخذ شكور عاصمة له، وأصبح ابنه **عثمان** ملازماً له في حروبه وأعماله الإدارية. وفي هذه الأثناء كانت الحروب الصليبية مشتعلة فشغلت جانباً كبيراً من نشاط البيزنطيين مما أتاح فرصة الاستقرار للعثمانيين.

وعندما توفي أرطغرل تولى **عثمان الأول** مكانه بموافقة علاء الدين السلجوقي، وسار على هدي أبيه في مساعدة السلجوقيين وتأييدهم في حروبهم، فزاد علاء الدين في إكرامه ومنحه نوعاً من الاستقلال، وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي فتحها وأجاز له ضرب العملة باسمه، وذكر اسمه في خطبة الجمعة، ومنحه لقب بك. وهكذا اقترب عثمان من الاستقلال التام، وصار زعيم إمارة من أهم الإمارات، واستمر في التوسع حتى استولى من دولة الروم الشرقية على مدينة **قرة حصار**، التي جعلها **عاصمة له**.

وانتهز عثمان فرصة انشغال المغول بحروبهم مع سلاجقة قونية، فسار في فتوحاته ووسع مملكته. وبعد وفاة عثمان الأول جاء ابنه **أورخان** واستولى على عدة مدن، وتم تكوين أول فرقة من طوائف **الانكشارية (العسكر الجديد)**.

من وصية السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية إلى ولده أورخان:

"يا بني؛ إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك يا بني في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين ملجأ، يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك ولا بمالك.. إياك إياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وبالجهاد يعم نور ديننا الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله. يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم، أو سيطرة أشخاص. فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت".



الانكشارية : كلمة تطلق على مجموعة من الجنود المدربين تدريباً عالياً في عهد الإمبراطورية العثمانية. وقد اشتقت كلمة "إنكشاري" في صيغة المفرد من مصطلح تركي معناه "الجندي الجديد" (يطلق عليهم أيضاً اليكنجرية أو الينكجرية من Yen بمعنى جديد و Kerry بمعنى عسكر أي العسكر الجديد).

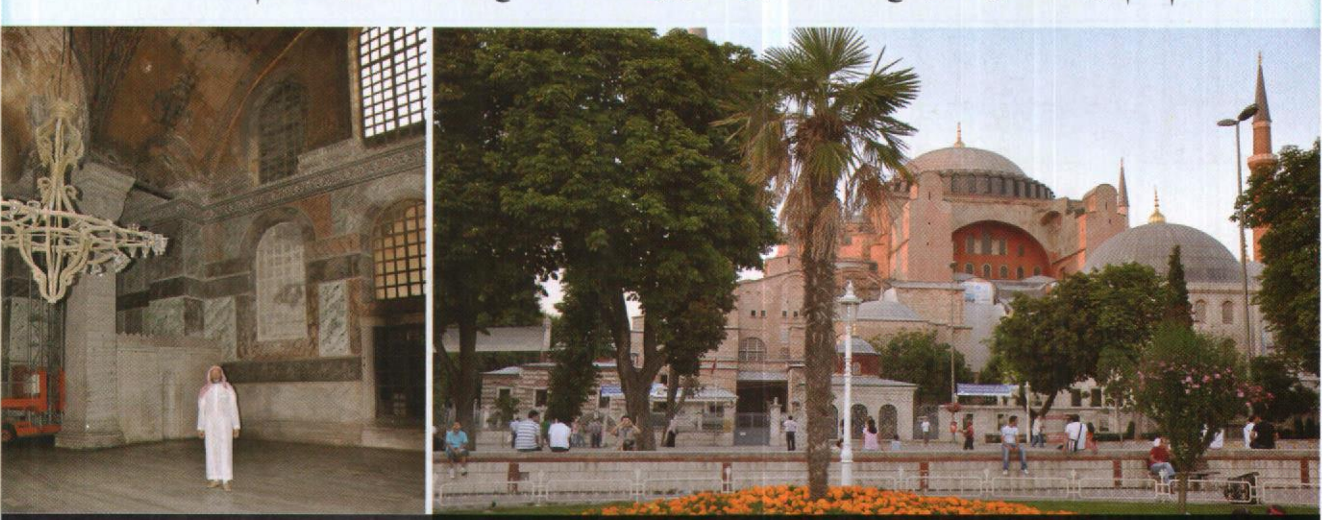
وقد قام أورخان – الذي أسس والده الدولة العثمانية – بتنظيم الإنكشارية باعتبارهم حرساً في أواخر القرن الرابع عشر ١٣٢٦م /٧٢٦ هـ. وقد تلقى الجنود دروساً في العقيدة الإسلامية، كما شُغلت الرتب بالعبيد والأهالي الذين وقع عليهم الاختيار وبعض الأسرى. ثم تطور الإنكشاريون – بحلول القرن الخامس عشر الميلادي – ليصبحوا من أقوى الوحدات العسكرية الموجودة في العالم. وقد خدموا الحكام العثمانيين حتى عام ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٦م، حيث ثاروا على السلطان محمود الثاني في الآستانة (أستنبول) فقضى عليهم.

الدولة العثمانية والفتوحات الأوروبية

لم تكد أوروبا تظهر فرحتَها بسقوط السَّلاجقة الذين أذاقوها مرارةَ الهزيمة مرَّات، وأسروا أباطرتها، وانتزعوا من الرّوم أعظمَ ممتلكاتِهم في آسيا الصغرى، حتَّى ظهر لهم الخطرُ الإسلاميّ من جديد؛ ممثلاً في الدولة العثمانيـة الفَتيَّة المجاهدة، فغلبتْهم على ما بقي لهم في آسيا، وبقي على العثمانيين أن يعبُروا البسفورَ إلى الشاطئ الأوروبي. وقد نظر الأوروبيون إلى الدولة العثمانية على أنَّها ممثلةُ الإسلام وحاملةُ رايته، ومن ثَمّ تكتّلتْ جهودُهم لوقفِ مدِّها، ثم إضعافِها والإجهاز عليها، كما جنَّدوا أقلامَ مفكريهم ومؤرِّخيهم لتشويهِ تاريخها وكيل الاتهامات لها.

خلف أورخان بن عثمان الذي توفي عام ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م، ابنه مراد الأول الذي تخطى المضيق واتجه إلى أوروبا، وهاجم شبه جزيرة البلقان، بعد أن أقرَّ النظام وتغلب على بعض العصاة في آسيا الصغرى. وكانت البلقان وقتها خاضعة لعدد من صغار الحكام. فتساقطوا واحداً بعد الآخر في قبضة العثمانيين. وفي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م، وقعت معركة عنيفة في **قوصوة** بين العثمانيين بقيادة مراد الأول وأحلاف النصارى الأوروبيين التي تكونت من القوات الصربية وقوات من البشناق والمجر والبلقان والألبانيين، وانتصر مراد الأول، غير أن صربيًّا طعنه غدراً، وتولى بايزيد الأول مكان أبيه.

وفي عام ٧٩٣هـ ،١٣٩٠م فقد البيزنطيون آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وهي مدينة آلاشهر. ونتيجة للفتوحات العثمانية، انتشر الخوف والفزع بين الأوروبيين، وقامت مظاهرات دينية للحث على حربهم، وخرج جيش أوروبي بقيادة سجسمند ملك المجر، ضم إليه كتائب من فرنسا وألمانيا، وانتصر الأوروبيون في بادئ الأمر واستردوا الكثير من المدن، ولكن بايزيد الأول أسرع بتجميع شتات جنوده وهزمهم سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م، ثم توالت الفتوحات بفتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ/ ١٣٥٤م.



كنسية آيا صوفيا في (أستنبول) من الخارج والداخل، حيث كانت (مقر الأرثوذكس العالمي)، التي تضاهي (الفاتيكان مقر الكاثوليك العالمي)، والذي فتحها المسلمون في عهد السلطان محمد الفاتح وقام بتغيير اسمها إلى إسلام بول (إستانبول) أي مدينة الإسلام، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وظلت كذلك حتى إلغاء الخلافة.


التوسع العثماني في أوروبا بعد سنة ٨٨٦ هـ
الشمال
بلاد الشركس
بلاد الكرج
طربزون
الإمارة البيزنطية
أرمينيا
ميافارقين
حصن كيفا
مملكة آل أرتوقا
حصن المنصور
ملاطية
البستان
مرعش
إمارة دلغادر (ذي القادر)
إمارة أبناء رمضان
الإسكندرونة
أضنة
طرسوس
الدولة المملوكية
مملكة قبرص
بحر بنطس (البحر الأسود)
سينوب
إمارة جاندار
أماسرة
صلمصوك
أماسيا
توقات
سيواس
جوروم
جانقيري
يوزغاد
أنقرة
بولو
قير شهر
آق سراي
نيدة
قونية
الدولة
العثمانية
أسبرطة
سيدي شهر
أنطاليا
بوردور
آق شهر
قرة حصار
أسكى شهر
سيوات
يني شهر
أزنيق
أزميت
إستانبول
بحر مرمرة
تكفورداغ
باليكسر
كوتاهية
عشاق
أزمير
دنيزلي
أيدين
موغلا
رودس
كريت
البحر الشامي (بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط)
بحر إيجة
دوقية أثينا اليونانية
إمارة المورة البيزنطية
أدرنة
فارنا
روسجق
طيرنوفا
زغرا
فيلبة
صوفيا
ديماطوقة
قولة
سيرز
سلانيك
أسكوب
أوخرى
مناستر
قره فريه
يانيا
البانيا
نيش
قوصوه
ويدين
نيبولي
بلجراد
سمندرية
مملكة الصرب
بوسنة سراي
موستار
الهرسك
مملكة البوسنة
مملكة المجر
هنغارية
إمارة البغدان
البشناق
الأفلاق
بحر الأدرياتيك
٠
١٠٠
٢٠٠
٣٠٠ كم

الدولة التيمورية سنة ٧٧١ هـ - ١٣٧٠ م / ٩١١ هـ - ١٥٠٦ م

"تيمورلنك" هو فاتح مغولي شيعي المعتقد، ينتمي إلى الأسر النبيلة في بلاد ما وراء النهر. وكان بوصفه مسلماً يرعى العلماء، وبخاصة أتباع الطريقة النقشبندية. ويُعد "تيمورلنك" أحد أعظم الفاتحين في التاريخ وأشدهم قسوة. ولد "تيمورلنك" (أي الحديد)، في مدينة "كش Kesh" في بلاد ما وراء النهر، لأمير إحدى هذه القبائل. اشتهر ببطشه وتعطشه إلى القتل. وفي عام ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩م جلس على عرش (خراسان) وقاعدته (سمرقند)، وقد اجتاح على رأس جحافله المنطقة الممتدة من (منغوليا) إلى البحر الأبيض المتوسط، واستطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة أن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الإسلامي. فقد انتشرت قواته الضخمة في آسيا من (دهلي) إلى دمشق، ومن بحر (آرال) إلى الخليج العربي، واحتل (فارس) و(أرمينيا) وأعالي (الفرات) و(دجلة) والمناطق الواقعة بين بحر (قزوين) إلى البحر الأسود، وفي (روسيا) سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار (الفولجا) و(الدون) و(الدنيبر)، وأعلن بأنه سيسيطر على الأرض المسكونة ويجعلها ملكاً له، وكان يردد: "أنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الأرض طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد في السماء" وقد اتصف "تيمورلنك" بالشجاعة والعبقرية الحربية، والمهارة السياسية، وكان قبل أن يقرر أمر يقوم بجمع المعلومات ويرسل الجواسيس ثم يصدر أوامره بعد صبر وتأنٍ بعيداً عن العجلة، وكان من الهيبة بحيث إن جنوده كانوا يطيعون أوامره أياً كانت.

استولى تيمور لنك على حلب، ودمشق و شرقي الأناضول، ودمر بغداد سنة ١٤٠١ م، ثم انتصر على العثمانيين **في معركة أنقرة وأسر السلطان العثماني بايزيد سنة ١٤٠٢ هـ .**

قام تيمورلنك ببناء **سمرقند** و حولها إلى أكبر حواضر العالم. توفي تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م في أثناء إعداده حملة لغزو الصين. لكن بعد وفاته تنازع أحفاده على مملكته إذ تمكن شاه رخ (١٤٠٥/٠٩-١٤٤٧ م) من أن يفرض نفسه ويسيطر من قاعدته في هراة على جميع أملاك جده، وتابع سيرته في تثبيت الدولة التيمورية. سقطت بعدها الأناضول ومعها إيران والعراق في أيدي الآق قويونلو (الخروف الأبيض). في أثناء العهود اللاحقة نشطت الحياة الثقافية في العديد من الحواضر في المملكة. كانت سمرقند أكبرها جميعاً، اشتهرت بمرصدها الفلكي الذي قام ببنائه الفلكي والسلطان في نفس الوقت ألغ بك (١٤٠٩-١٤٤٩ م). ثم أخذت الحروب الداخلية تدب في جسد الدولة، كانت إمارة سمرقند التي حكمها أبو سعيد (١٤٥١-١٤٦٩ م) الاستثناء الوحيد لحالة الفوضى التي عمت المملكة. أزاح الشيبانيون ابنه أحمد (١٤٦٩-١٤٩٤ م) عندما دخلوا سمرقند (على مرتين) سنة ١٤٩٧ ثم ١٥٠٠ م.

عاشت **دولة التيموريين** آخر أمجادها في هراة تحت حكم باي قرة (١٤٦٩-١٥٠٦ م)، الذي كانت عاصمته مركزاً من مراكز الثقافة آنذاك. انتهى حكمهم سنة ١٥٠٦ م عندما دخل الشيبانيون هراة. قام أحد أحفاد تيمور وهو بابر شاه بتأسيس دولة جديدة (المغول الكبار) أو إمبراطورية المغول الكبرى في الهند.

الموسوعة الحرة على الشبكة العنكبوتية

منمنمة تيمورية



أما **فن التصوير** فقد حقق رقيًا أكبر في هرات في أيام السلطان حسين بايقرا ووزيره مير علي شرنوائي. وازدهر التصوير في الوقت نفسه، في شيراز، حيث وضع فيها صور لمخطوطات دواوين الشعر العاطفي للشعراء الفرس.

ويلاحظ في صور **المدرسة التيمورية** اندماج الأساليب الفنية للمدرسة العباسية، والمدرستين الفارسية والصينية في رسم الأشخاص، والاعتناء بدقة التفصيلات مع خلفية طبيعية ملوّنة، وتمتاز هذه الصور بالواقعية والحيوية



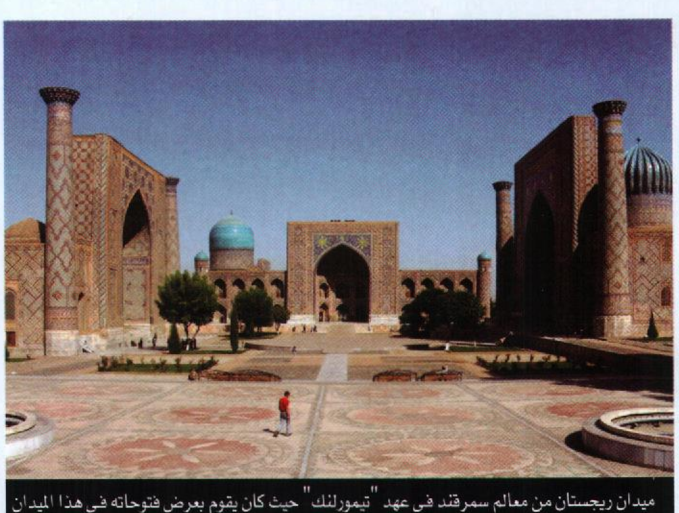
رسالة تيمور لنك إلى أحد القادة الدينيين في أوروبا

العلاقات الخارجية :

لم يُتح الصراع على السلطة للحكام التيموريين متابعة سياسة خارجية، ثابتة ولكن شاه رخ الذي حكم لمدة طويلة، عدل عن سياسة التشدد مع الصين التي انتهجها والده، وأقلع عن فكرة غزو تلك البلاد، وأوفد إلى الصين سفارتين ٨١١-٨١٢هـ/ ١٤٠٨-١٤٠٠م واستقبل عام ٨١٥هـ/١٤١٢م بعثة صينية، حملت معها قبول الإمبراطور الصيني، من أسرة مينغ Ming، إقرار شاه رخ له بالتبعية بوصفه أن أسرة مينغ الحاكمة هي وارثة أسرة يوان Yuan التي كان قد أسسها الخان « قوبيلاي » بن تولوي بن جنكيز خان، والتي كانت تدّعي الزعامة على باقي الدول المغولية وما انبثق عنها من ممالك، وكان من نتائج هذه السياسة عودة العلاقات التجارية مع الصين إلى نشاطها السابق[١].

وحاول شاه رخ أيضاً تجديد النفوذ التيموري في الدولة العثمانية الذي انبثق من معركة أنقرة. ولذلك فقد تلقى من السلطان العثماني مراد الثاني رداً بالإقرار بالتبعية له على رسالة وجهها له شاه رخ ٨٣٩ هـ/١٤٣٥م يطلب منه فيها ذلك.

وامتدت علاقات شاه رخ مع **دولة المماليك** حقبة طويلة من الزمن بين ٨٣٣- ٨٤٨هـ/ ١٤٣٠-١٤٤٤م، تبادل فيها الرسائل مع سلاطين المماليك. وبعث بوفوده إلى القاهرة، وطالب شاه رخ بأن يرسَل له كتب دينية وتاريخية معينة، ثم طمح إلى أن يرسِل كسوة للكعبة، ولما رفض السلطان «برْسباي» طلبه أرسل إليه شاه رخ يطالبه بالإقرار بالتبعية له، على نحو ما كان أقرَّ به السلطان فرج لوالده تيمور، ولكن برسباي رفض ورد المبعوث التيموري خائباً. وأخيراً انتهى الأمر بسماح السلطان جقمق عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م لشاه رخ بإرسال كسوة للكعبة، واستمر منذ ذلك الوقت قدوم الحجاج من المشرق إلى الحجاز وكان بعضهم يمر بالمدن الواقعة تحت النفوذ التركي[٢].



ميدان ريجستان من معالم سمرقند في عهد "تيمورلنك" حيث كان يقوم بعرض فتوحاته في هذا الميدان

سمرقند: مدينة في أوزبكستان، وهي عاصمة ما وراء النهر التاريخية، سكانها طاجيك (يتحدثون الفارسية لا الطاجيكية). اشتهرت بتخريج علماء الدين.

تقع المدينة في آسيا الوسطى. وأصل الاسم "شمر أبوكرب"، ثم حُرِّف الاسم إلى "شمر كنت" ثم عُربت إلى "سمرقند"، ومعناها وجه الأرض.

وقد وصفها "ابن بطوطة" بقوله:

" إنها من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادي القصّارين، وكانت تضم قصوراً عظيمة، وعمارة تُنْبئ عن هِمَم أهلها ".

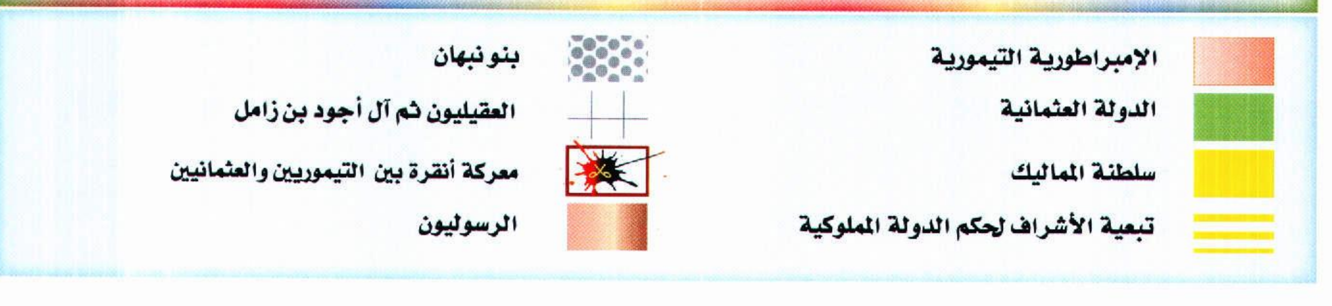
ووصفها بعض الرحالة العرب بالياقوتة الراقدة على الضفة الجنوبية لنهر زرافشان.

---

١ - ٢ ، مظهر شهاب ، الموسوعة العربية ،مج ٧، ص ٢٥٩ .

الأسرة الذهبية (مغول الشمال)
سراي بركة
١٣٩٣ م
١٣٩١ م
قبائل القراخطاي التركية
الأتراك القرخانية
أستراخان
١٣٩٥ م
بحر آرال
أطرار (أترار)
سيحون
ويغور
بحر بنطس (الأسود)
خيوه
ماوراء النهر
الشاش
جورجيا
تفليس
أستانبول
١٤٠٢ م
طرابزون
العثمانيون
شماخة
بحر الخزر (قزوين)
طشقند
خوقند
أرمينيا
باكو
بخارى
أنقرة
قونية
سمرقند
١٣٧٥ م
تبريز
١٣٩٩ م
مرو
جيحون
بلخ
حلب
الموصل
١٣٩٩ م
نيسابور
١٤٠٠ م
١٤٠١ م
همذان
الري
كابول
قبرص
الرقة
هراة
خراسان
غزنة
البحر الشامي (بحر الروم - البحر المتوسط)
الشام
أصفهان
بغداد
الجلايرية
١٣٩٦ م
دمشق
الإمبراطورية التيمورية
الإسكندرية
بيت المقدس
المماليك
العراق
الكوفة
الأهواز
القاهرة
البصرة
شيراز
فارس
مصر
كرمان
سجستان
هندوستان
المماليك
غ. البحرين (العربي)
بندر عباس
العقيليون
مكران
المدينة النبوية
البحرين
مسقط
خليج عمان
سلطنة دهلي
الحجاز
الأشراف
نجد
النوبة
بنونبهان
جزيرة العرب
عمان
ديو
مكة المكرمة
بحر القلزم (الأحمر)
سواكن
الأئمة الإباضية
دامان
المحيط الهندي
بحر العرب
الرسوليون
حضرموت
صنعاء
زبيد
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ كم
قوات المغول بقيادة تيمور لنك

غزوات تيمورلنك ما بين سنة ٧٧١ - ٨٠٧ هـ / ١٣٧٠ - ١٤٠٥ م



الزحف التيموري على بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م

بدأ تيمورلنك عملياته العسكرية في الأناضول وشمالي بلاد الشام بالإغارة على **سيواس**، التي كانت تحت حكم الأمير سليمان ابن السلطان با يزيد الأول، وتمكّن من دخولها بعد حصار دام ثمانية عشر يوماً، وذلك في (الخامس من شهر محرم سنة ٨٠٣ هـ / آب سنة ١٤٠٠م) فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وهدم أسوارها وأزال بهجتها، ثم تقدم نحو ملطية في الخامس والعشرين من الشهر المذكور فدخلها ودمرها على عادته[١].

ثم رأى أن يزحف باتجاه بلاد الشام ليستولي عليها قبل أن يصطدم بالعثمانيين ليؤمن جناح جيشه الأيسر. واتخذ من مسألة أطلمش ذريعة للاشتباك بالقوات المملوكية، فأرسل من ملطية، كتابه الأول، إلى **السلطان فرج بن برقوق**، وقد صاغه بأسلوب استعلائي، فنّد فيه تصرف السلطان برقوق الخاطئ معه من قبل، حين أقدم على قتل رسله واعتقل أطلمِش، وحذّره من مغبة انتهاجه السلوك نفسه، وتوعده بالانتقام الشديد إن لم يسارع إلى إطلاق سراحه، وإذا فعل ذلك، فإنه سيتركه وشأنه، ويعود إلى بلاده دون التعرض **للدولة المملوكية**[٢].

حين وصل رسل تيمورلنك إلى **حلب**، قبض عليهم نائبها، وأرسل يعلم السلطان بمجيئهم، إلا أن فرج، الذي اتصف وأعوانه بالحمق السياسي، تصرف تصرفاً شائناً عندما أمر بسجن الرسل، فحرك الغيظ في قلب تيمورلنك، وجعله يترك الأناضول على عجل ويتوجه إلى بلاد الشام[٣].

وصل تيمورلنك إلى **حلب** بعدما عاث في القرى المحيطة بها سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠م وحاصرها. **وجرت بينه وبين المماليك الذين أتوا من كل المدن السورية وأهل حلب مناوشات عدة**. ولكن المماليك، وبعد يومين من القتال، انسحبوا عندما تيقنوا بأن السلطان لن يأتي من القاهرة وتركوا حلب وأهلها لمصيرهم، الذي كان فعلاً فظيعاً. فقد قتل المغول سكان البلد الذين خرجوا أساساً مع المماليك ثم دخلوا المدينة وأجهزوا على من تبقى منهم، حتى أولئك الذين التجأوا إلى الجوامع والخانقاوات والمدارس، واغتصبوا النساء والفتيات والغلمان وقتلوا الأطفال أيضًا بعد أن كانوا قد قضوا على الرجال والفتيان، ثم أولعوا النار في المدينة وقعدوا يقتلون من تبقى حيًا من السكان لمدة ثلاثة أيام مروعة. وبنى تيمورلنك برجاً من الرؤوس التي قطعها جنوده، قيل إن عدته عشرين ألف رأس تنظر كلها للخارج، كمن يشهد على الفظائع التي مرت بها قبل اجتزازها ويتوعد من تبقى من السكان حيًّا بسوء المآل.

---

١ - ٢ - ٣، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٤١٨ - ٤١٩ .



قتل المغول سكان حلب وقراها الذين خرجوا أساساً مع المماليك ثم دخلوا المدينة وأجهزوا على من تبقى منهم، حتى أولئك الذين التجأوا إلى الجوامع والخانقاوات والمدارس، واغتصبوا النساء والفتيات والغلمان وقتلوا الأطفال أيضاً بعد أن كانوا قد قضوا على الرجال والفتيان، ثم أولعوا النار في المدينة وقعدوا يقتلون من تبقى حيًّا من السكان لمدة ثلاثة أيام مروعة. وبنى تيمورلنك برجاً من الرؤوس التي قطعها جنوده، قيل: إن عدته عشرين ألف رأس تنظر كلها للخارج، كمن يشهد على الفظائع التي مرت بها قبل اجتزازها ويتوعد من تبقى من السكان حيًّا بسوء المآل.
سنة ٨٠٣ هـ، ١٤٠٠ م
ملطية (ملاط)
ديار بكر
كركر
البهسنا
مرعش
سميساط
ماردين
الرُها
رانكولا
عينتاب
سروج
ديار ربيعة
راوندم
ن. الفرات
ن. الخابور
الجزيرة الفراتية
جيلان
أنطاكية
حلب
ميناء سمعان
ن. العاصي
الرقة
ن. الفرات
ديار مضر
دير الزور
اللاذقية
قيصرية
نيقوسيا
جبلة
قبرص
فالانيا
حماة
مصياف
مرقلية (المرقب)
سلمية
رحبة بن طوق
طرطوس
كفرنان
ليماسول
حصن الأكراد
بعد مجزرة حلب، فتحت حماة أبوابها لابن تيمور ميران شاه خوفاً من بطش المغول، ولكن اغتيال اثنين من جنده في الليل جعله يعود إلى المدينة ويضع السيف في أهلها ويحرقها بالكامل.
حمص
طرابلس
بحر الروم (البحر الشامي - البحر الأبيض المتوسط)
بترون
جبيل
بعلبك
بيروت
ن. الليطاني
سوريا
صيدا
دمشق
صور
صفد
عكّا
حيفا
حوران
قيسارية
أرسوف
نابلس
ن. الأردن
الأردن
يافا
فلسطين
عسقلان
بيت المقدس
غزة
الخليل
داروم
ب. لوط
أرسل تيمورلنك بعض قواته لفلسطين وحوران لجمع الأعلاف منها بعد ما حل بدمشق وغوطتها الخراب.
سيجور
سلطنة
المماليك
الشوبك
٠ ٢٥ ٥٠ كم
في كانون الثاني ١٤٠١م وصلت جيوش تيمورلنك إلى مشارف دمشق تسبقها أخبار التقتيل والتدمير. وكانت المدينة قد تحصنت وباتت تنتظر وصول السلطان فرج من مصر ليفرّج عنها. ومع أن السلطان وجيشه قدموا للدفاع عن دمشق، فإنهم كانوا متنافرين فيما بينهم، كل يتحين الفرص للانقضاض على الآخر. وكان فرج صبياً أهوج يفتقر إلى الحنكة والسياسة وإلى النصحاء الخلص على الرغم من أن بلاطه قد حوى على بعض ألمع مفكري العصر. وكان تيمورلنك على معرفة بالانشقاقات في العسكر المملوكي وبضعف السلطان وقلة حيلته، فخادعهم بعد ابتداء المناوشات بين الجيشين بأن أظهر التقهقر والاندحار، ثم عاود الكرة على دمشق بعدما علم بالانسحاب الاعتباطي للأمراء المماليك يتبعهم السلطان وبطانته خلال الليل تاركين وراءهم عتادهم وأثقالهم. ونقتبس من المقريزي وابن تغري بردي شيئاً من جرائم تيمورلنك الباطني: "فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء مالا يوصف وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوساً، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق؛ فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه، ومع هذا تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو بنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، فيصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس. ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بمثلها؛ منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلوونه حتى يغوص في رأسه، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره، ويذر في منخريه الرماد مسحوقاً، فيقر على ما عنده شيئاً بعد شيء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقب ميتاً مخافة أن يتماوت. ومنهم من كان يعلق المعذب بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانياً".
دام هذا العذاب عشرين يوماً، قتل خلالها أعداد كبيرة من الناس وفرغت المدينة من كل ثرائها. ولكن غل تيمور لم يشف بما فعله، فاستباحها لجيشه لمدة ثلاثة أيام أخر، ثم قاد منها جمع غفير من الصناع والأعيان والنساء والغلمان ليعود بهم إلى سمرقند، وطرح النار فيما تبقى من البلد لكي يكمل عليها.
الزحف المغولي بقيادة تيمورلنك على بلاد الشام

لماذا ترك تيمورلنك دمشق بعد مذبحته في سكانها؟

تتوافق أقوال المصادر التيمورية مع أقوال مؤرخي المماليك في وصف أعمال المغيرين في دمشق، وتعلل المصادر الأولى تلك الأعمال بعدالة تيمورلنك التي رأت محاسبة **سكان دمشق لوقوف أسلافهم إلى جانب معاوية بن أبي سفيان** -رضي الله عنه- وابنه يزيد ضد **علي بن أبي طالب**-رضي الله عنه- وولده **الحسين**-رضي الله عنه-. **والجدير بالذكر أن تيمور لنـــك كان متشيعاً**. ويبدو أنه كانت هناك عدة دوافع حملت تيمورلنك على الانسحاب من دمشق أهمها[١]:

١- جاء انسحاب الغازي التيموري من دمشق بعد أن حقق غاياته من الاحتلال. فقد أخضع بلاد الشام، وأحرق دمشق؛ فكان عليه أن يعود إلى بلاده.

٢- كانت المواد التموينية في طريقها إلى النفاد، كما قلّت أعلاف الدواب، لاسيما بعد ما حلَّ **بدمشق وغوطتها** من خراب بسبب الغزو. وقد لمس تيمورلنك ذلك، فأرسل قسماً من قواته إلى فلسطين لجمع الأعلاف من هناك، وشوهدت هذه القرارات في حوران تجمع العيق، وظهرت في جهات الحولة.

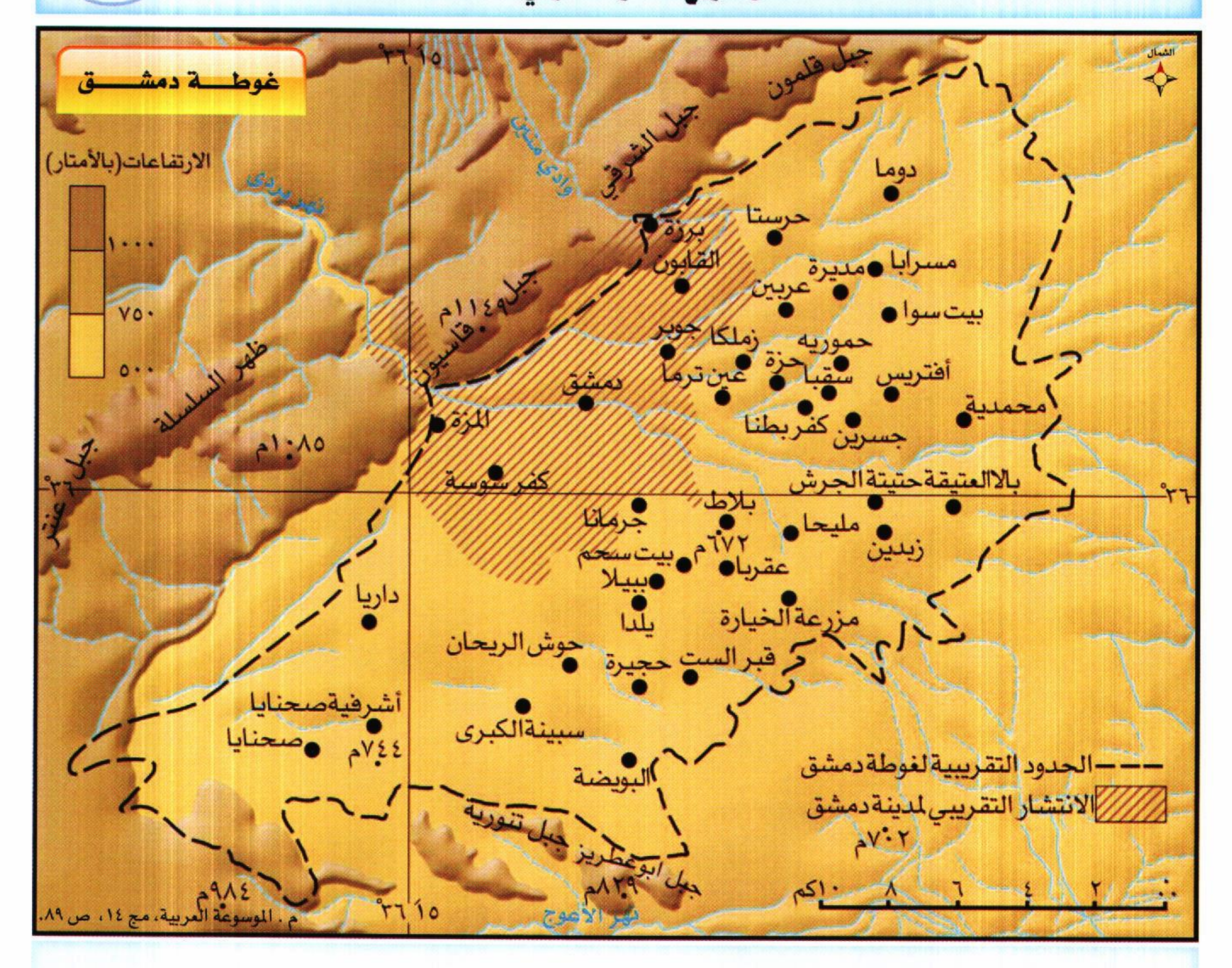
٣- كان السلطان **فرج بن برقوق** في هذه الأثناء في القاهرة، يتجهز استعداداً للعودة على رأس جيش جديد إلى بلاد الشام. ولا شك أن أخبار الاستعدادات العسكرية التي كانت تقوم بها السلطات المملوكية في القاهرة، في تلك الآونة، كانت تصل إلى مسامع تيمورلنك، وقد خشي أن يقع هو وقواته بين فكي الكماشة، بين قوات السلطان من الجنوب، وقوات حلفائه الجلائريين حكام بغداد من الشرق، لذلك فضَّل أن يسارع بالانسحاب من دمشق.

٤- كان السلطان العثماني بايزيد الأول يجري آنذاك مباحثات مع السلطات المملوكية، لإقامة حلف دفاعي بين الطرفين لمواجهة الخطر التيموري، وقد علم تيمورلنك بأنباء هذه المباحثات، فأراد ضرب العثمانيين منعاً لقيام مثل هذا التحالف، وضم الأناضول إلى إمبراطوريته.

٥- بروز بوادر حركات معادية له في النيابات الشامية. فقد تمكن الأمير دمرداش المحمدي، نائب حلب وقلعتها من التيموريين، وقتل منهم جماعة كبيرة كما تمكّن الأمير شيخ المحمودي، نائب طرابلس، من الفرار من الأسر .

لقد كان لإحلال العصبية الجركسية مكان العصبية التركية أعطى قيام دولة المماليك البرجية صيغة خاصة، فإن العامل الخارجي الذي تمثل بغزوة تيمورلنك لبلاد الدولة المملوكيةالثانية، أضاف فارقاً كبيراً بين هذه الدولة ودولة المماليك البحرية، إذ إنه على حين بدت دولة المماليك الأولى متماسكة في وقت الحروب حتى انتصرت على المغول في معارك عدة، فإن انقسام أمراء دولة المماليك الثانية أدّى إلى هزيمتها أمام تيمورلنك، وأضحى هذا الانقسام القائم على العصبية مظهراً من مظاهر هذه الدولة حتى عهد السلطانة برسباي، الذي تمكن من توحيد الصفوف مرة أخرى، لتواجه الدولة أعداءها في الخارج.

١- د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٤٣١ - ٤٣٤ .



غوطة دمشق: تحيط بمدينة دمشق من الشرق والغرب والجنوب وهي تتبع دمشق وريف دمشق، وهي سهل ممتد عبارة عن بساتين غناء من أشجار الفاكهة، تعد من أخصب بقاع العالم، وقد جاء في كتاب عجائب البلدان: (الغوطة هي الكورة التي قصبتها دمشق، وهي كثيرة المياه نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، مونقة الأزهار، ملتفة الأغصان، خضرة الجنان... استدارتها ثمانية عشر ميلاً، كلها بساتين وقصور، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها، ومياها خارجة من تلك الجبال، وتمتد في الغوطة أنهار عدة وهي أنزه بقاع الأرض وأحسنها).. وهي إحدى جنات الدنيا، والغوطة عبارة عن غابة من الأشجار المثمرة البساتين وكان القدماء يعدونها من عجائب الدنيا.

وتشتهر غوطة دمشق بخصوبة الأرض وجودة المياه، حيث تغذي بساتين الغوطة مجموعة من الأنهار الصغيرة من فروع نهر بردى وشبكة من قنوات الري، وهي عبارة عن بساتين من شتى أنواع أشجار الفاكهة، وبساط أخضر ممتد فيه كل أنواع الخضروات، ومن أشهر فواكه وثمار الغوطة المشمش بأنواعه البلدي والحموي والتوت (التوت الشامي) والخوخ والأرصية والدراق والكرز والجوز، وكذلك تشتهر بزراعة كافة أنواع الخضار والذرة الشامية الشهيرة والزهور، وربيع الغوطة له رونقه وجماله المميز، حيث الربيع بكل معانيه. هذه هي الغوطة التي دمرها تيمورلنك حقداً وكرهاً وانتقاماً من أهلها.

أهم الأحداث الخارجية في عهد المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي

قام **المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي** بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام، وذلك لإرغام الدويلات التركمانية على الحدود - وأهمها قرمان وذو القدر وأبناء رمضان - على العودة لسابق تبعيتها لدولة المماليك.

١- ففي سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م، خرج السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي إلى **طرسوس**، حيث قدم له أمراء التركمان فروض الطاعة، بل إن أمير قرمان رضى أن يسك عملته باسم السلطان المملوكي. ولكن ما كان السلطان المؤيد يعود إلى مصر، حتى نقض التركمان الشروط التي تعهدوا بها.

٢- أرسل **المؤيد ابنه إبراهيم** ضدهم سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م، فاستولى على **قيصرية وقونية**، وسك العملة في بلاد التركمان باسم أبيه السلطان المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي. ولم يعد إبراهيم إلى مصرإلا بعد أن عين حاكماً موالياً للدولة المملوكية على تلك الجهات، كما ضم إلى دولة المماليك بعض المدن المهمة مثل **أضنة وطرسوس**. وقد استقبل إبراهيم في مصر استقبالاً حماسياً، ولكنه لم يلبث أن توفي في العام اللاحق، وقيل: إن أباه حقد عليه لما ناله من تقدير، فدس له السم [١]. قلت : وهذا يتنافى مع فطرة الإنسان تجاه الولد؛ ناهيك عن خلق المسلم، وما آفة الأخبار إلا رواتها.



قناع الحصان وهو يحمل رنكاً مركّباً يعود إلى الأمير مقبل الرومي دوادار السلطان مؤيد الشيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ/ ١٤١٢ - ١٤٢١ م) الاتفاع ٥٨،٨ سم، ليون، متحف الفنون الجميلة.
مصدر الصورة : كتاب فروسية ١، الفروسية الجزء الأول (فنون الفروسية في تاريخ المشرق والمغرب) عربه وحرره وعلّق عليه د. شهاب الصرّاف، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض.

١- د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ٢٧٣ .



قامت **إمارة دلغادر (ذو القادر)** التركمانية في حوالي منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) في الركن الجنوبي الشرقي من الأناضول، وذلك نتيجة لظهور بعض الحركات السياسية التي قام بها الأرمن والمغول والتركمان في تلك المنطقة الثغرية ضد الدولة المملوكية.

وكان لإمارة دلغادر التي ولدت في أحضان الدولة المملوكية شبه استقلال داخلي، إذ كانت هذه الدولة تنظر إلى أمراء دلغادر على أنهم من رعاياها. وبالرغم من ذلك فإن هؤلاء لم يستمروا على ولائهم للمماليك، إنما دأبوا على استغلال الظروف للتمرد على السلطنة المملوكية. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد تمادى أمراء دلغادر، وأخذوا يهاجمون بعض مناطق نفوذها، مما سبب لها كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية.

والواقع أن إمارة دلغادر كانت مجرد إمارة صغيرة قياساً بالقوتين الكبيرتين اللتين تحيطان بها وهما الدولة المملوكية والدولة العثمانية ولكنها مقارنة بالإمارات التركمانية الأخرى المزامنة لها فإنها تعد من أقواها، وأشدها تأثيراً في السياسة الداخلية للمناطق المجاورة وبخاصة الشام التي كانت في العصر المملوكي مقسمة إلى ست نيابات، وأصبحت بلاد دلغادر في كثير من الأحيان ملاذاً آمناً لعدد من نواب الشام الخارجين عن طاعة السلطنة المملوكية.

استغل بنو دلغادر أهمية موقع إمارتهم من ناحية، وبعدها عن مركز السلطنة المملوكية في مصر من ناحية أخرى، فقاموا بدور سياسي مهم في بلاد الشام، وحاولوا السيطرة على عدد من النيابات المملوكية في الشام وفرض إرادتهم ليس على أمراء الشام فحسب بل حتى على سلاطين مصر أنفسهم الذين نظروا إلى بلاد الشام على أنها الجناح الأيمن لدولتهم الذي من دونه يتعذر عليهم الاحتفاظ بكيان دولتهم وتوازنها والثبات في وجه الأخطار التي كانت تهددهم من جانب جيرانهم المغول والأرمن وأمراء التركمان وأخيراً السلطنة العثمانية.

وكان المماليك ينظرون إلى بلاد دلغادر على أنها خط دفاعهم الأول ضد خصومهم في الأناضول، في حين كان العثمانيون ينظرون إلى إمارة دلغادر على أنها بمنزلة جسم غريب داخل في مناطق نفوذهم في الأناضول، لذلك قام صراع طويل بين تلك الدولتين للسيطرة على إمارة دلغادر، وسعت كل دولة إلى تعيين أمراء موالين لها في أبلستين مركز إمارة دلغادر. د. علي بن صالح المحيميد، الإمارت الحدودية شمال الشام ودورها السياسي في العصر المملوكي (إمارة دلغادر إنموذجاً ٧٣٨-٩٢٨ هـ/ ١٣٣٨-١٥٢١ م)

الملك الأشرف « برسباي »[١]

٨٢٥- ٨٤١ هـ/١٤٢١- ١٤٣٨م

هو الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر **برسباي** بن عبد الله الدقماقي الظاهري، السلطان الثاني والثلاثـون مـن سلاطين المماليك (٨٢٥ - ٨٤١ هــ/١٤٢١ - ١٤٣٨م) والثامن بين السلاطين الجراكسة (البرجية) وأولادهم.

ولد في القفقاس (بلاد الشركس)، أخذ صغيراً وبيع في القرم، وبقي فيها حتى اشتراه بعض التجار وقصد به إلى الشام، فلما وصل ملطية اشتراه نائبها الأمير دقماق المحمدي الظاهري فأقام عنده مدة، ثم أهداه الأمير دقماق في جملة مماليك آخرين إلى السلطان الملك الظاهر برقوق (٧٨٤- ٧٩١ /٧٩٢- ٨٠١ هــ)، ففرقهـم الملـك الظاهر علـى أطبـاق المماليك، وتـدرّج في الخدمـة إلى أن رقـي إلى **أمير طبلخاناه** (إمـرة أربعين مملوكاً) بعد تولي الملك المؤيد شيخ السلطنــة (٨١٥- ٨٢٣ هـ)، واستمر على ذلك بضع سنين، ثم رقي إلى «أمير مئة وتقدمة ألف» في مصر وولّي كشف الجسور بمنطقة الغربية من أعمـال القاهـرة، ثـم ولاه الملك المؤيد نيابـة طرابلس سنة ٨٢١ هــ، ولم يلبث أن عزله بعـد بضعة أشهر وسجنه في قلعة المرقب لتقصيره في تأديب بعض عصابات التركمان التي كانت تعيث فساداً في أرباض صافيتـه، ثم أطلـق سراحه سنة ٨٢٣ هـ بتوسـط الأمير **ططر**، وأنعم عليه بإمرة مئـة وتقدمة ألف في دمشق.

مكث برسباي في دمشق حتى مات الملك المؤيد، وخرج نائبها الأمير جقمق عن الطاعة وسجن برسباي في قلعتها، ولكن الأمير ططر أخرجه من السجن، وخلع عليه رتبة دوادار بعد توليه السلطنة سنة ٨٢٤ هـ وعينـه «لالا» لولـده الملك الصالح محمد، وعين جـاني بك الصوفي أتابكاً للعسكـر ومدبراً للمملكة. ولم يلبـث الخلاف أن دب بين برسباي وجاني بك الصوفي، فكانت الغلبة لبرسباي الذي تخلص من غريمه ثالث أيام عيد الأضحى سنة ٨٢٤ هـ وسجنه في الإسكندرية، واستقر برسباي مدبراً للمملكة، وصار لقبه نظـام الملك مـع الملك الصالح محمد وفوض إليه الخليفة المعتضد بالله أبـو الفتح داود العباسي (٨١٧- ٨٤٥ هــ) أمـور الدولة نيابة عن السلطان الصغـير السن. ولم تمض بضعة أشهـر حتى كان برسباي قد تخلص من أخطر مزاحميه أو استمالهم إلى جانبه حتى صفا الجوله واستبد بالملك فخلع الملك الصالح وجلس على تخت السلطنة في الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ، وتلقب بالملك الأشرف.

دامـت سلطنـة الملـك الأشرف برسباي ست عشـرة سنة وثمانية أشهر، كانت البـلاد إبانها عزيزة الجانـب، ولكـن لم تخل سنوات حكمه من بعض الفتن أو الاضطراب بسبب حوادث تمرد بعض الحكام والأمراء في مصر والشـــام والحجاز، وقد باءت جميعها بالإخفاق، وكان أكثـــر ما نغص على الملك

---

١ - وليد محمد الجلاد، الموسوعة العربية، مج ٤، ص ٨٦٠.

مستند تاريخي

سنة ست وعشرين وثمانمائة

«أهلت وسلطان مصر والشام والحجاز **الملك الأشرف برسباي الدقماقي** والأمير الكبير الأتابك بيبغا المظفري، والدوادار الكبير الأمير سودن بن عبد الرحمن، وأمير سلاح الأمير قجق، وأمير مجلس الأمير أقبغا التمرازي، وأمير أخور الأمير قصروه نوبة النوب الأمير أزبك، والوزير أستادار الأمير أرغون شاه، وكاتب السر علم الدين داود بن عبد الرحمن بن الكويز، وناظر الخاص الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله، وقاضي القضاة الشافعي علم الدين صالح بن البلقيني، ونائب الشام الأمير تنبك العلاي ميق، ونائب حلب الأمير تنبك البجاسي، ونائب طرابلس الأمير أينال النورزي، ونائب صفد الأمير مقبل الدوادار، ونائب حماة شار قطلوا.

شهر الله الحرام أوله الأربعاء: في ثالث عشرينه: **قدم الركب الأول من الحجاج**، وقدم المحمل ببقية الحاج من (الحج)، وكانت سنة مشقة إلى الغاية، توالت فيها الأمطار الخارجة عن الحد، زيادة على يوم، وأتت سيول مهولة، مع غلاء الأسعار بمكة، فبيع الحمل الدقيق بخمسة وثلاثين ديناراً، وبيعت ويبة شعير في الأزلم بخمسين مؤيدياً، فيكون الأردب الشعير على ذلك بألفين ومائة درهم من نقد القاهرة، وكثر موت الجمال، ومشت النساء والصغار عدة مراحل، ومات كثير من الناس، واشتد الحر، ثم اشتد البرد، ومع وفي ثامن عشرينه: أعيد زين قاسم بن البلقيني إلى نظر الجوالي؛ عوضاً عن صدر الدين أحمد بن العجمي على مال التزم به. وفيه أنعم على الأمير جانبك الخازندار بإمرة طبلخاناه، من جملة إقطاع الأمير فارس نائب الإسكندرية.

كان شهر صفر أوله الخميس: في ثامن عشره: جمع السلطان الأمراء، والقضاة، ومباشريه، وأحضر جماعة من التجار، وأنكر حال الفلوس، وذلك أنها كما تقدم غير مرة أنها هي النقد الرائج بأرض مصر، فينسب إليها أثمان المبيعات، وقيم الأعمال، ثم لما ضرب الملك المؤيد شيخ الدراهم المؤيدية، رسم أن تنسب قيم الأعمال وأثمان المبيعات إليها، فعمل بذلك مدة من أيامه حتى مات. فعادت قيم الأعمال وأثمان المبيعات تنسب إلى الفلوس كما كانت قبل المؤيدية، وحدث في الفلوس مع ذلك ما لم يكن يعهد منذ ضربت، وهو أنه خلط فيها قطع الحديد، وقطع النحاس، وقطع الرصاص، من أجل أنها تؤخذ وزناً لا عدداً، وتغافل الحكام عن إنكار ذلك، فتمادى الحال على هذا من بعد موت المؤيد، حتى صارت القفة من الفلوس التي وزنها مائة رطل لا يكاد يوجد فيها قدر عشرين رطلاً من الفلوس، وإنما هي - كما قدم - ذكره ما بين نحاس، وحديد، ورصاص، وانفتح للصيارفة ونحوهم من ذلك باب ربح، وهو أنهم صاروا ينقون الفلوس، ويبيعونها لمن يحملها إلى **الحجاز واليمن وبلاد المغرب** كل قنطار بسبعمائة درهم، فلما بلغ السلطان ذاك، أراد أن يضرب فلوساً فاختلفوا عليه في مقدار وزنها، فأشار بعضهم أن يكون كل ستين فلساً بدرهم أشرفي، وأشار آخرون أن تكون أوزانها مختلفة فيها ما زنته مثقال، وفيها ما زنته غير ذلك، فجمع الناس كما تقدم ليقوي عزمه على ما يمضيه، فما زالوا به حتى رجع عن تغيير المعاملة بالفلوس التي بأيدي الناس خوفاً من وقوف أحوال الأسواق لعنت العامة. فاستقر الرأي على أن نودي بأن يكون سعر الفلوس المنقاة من الحديد والرصاص والنحاس بسبعة دراهم كل رطل، ويكون سعر هذه القطع بخمسة دراهم الرطل، فامتثل الناس ذلك، وصارت الفلوس صنفين بسعرين مختلفين ومشى الحال على هذا».

تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٧، ص ٧٣، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

في حياته فرار غريمه جاني بك الصوفي من سجن الإسكندرية سنة ٨٢٦ هـ واختفاؤه مدة طويلة جدًّا مـن دون أن يعـرف مكانه حتى قتل قبل وفاة السلطان بمـدة يسيرة على يد أولاد قرة يولك زعيم **الآق قوينلو**، وقد انعكس ذلك على تصرفات الملك الأشرف، فابن تغري بردي يشير إلى البلاء والعقوبات التي حلت بالناس بعد أن سمع السلطان بهرب جاني بك، وأن هذا البلاء استمر طوال سلطنته، كذلك شهـدت البلاد فـي عهده تفشي الوباء أكثر من مرة، كان أصعبهـا وأشدها **تفشي الطاعون** - انظر المستنـد التاريخـي في الصفحة المقابلة - في أكثر البلاد سنة ٨٣٣ هـ/ ١٤٣٠م ،ذلك الطاعون الذي مات فيه الألوف يوميًّا واستمر نحو أربعة أشهر.

أما على الصعيد الخارجي، فقد كانت علاقات الدولة المملوكية بجيرانها في هذه الحقبة تتأرجح بـين المـوالاة التامة والعداء الشديد، وقد عاصر برسباي في حكمـه السلطان **شاه رخ بن تيمورلنك** والسلطان العثماني **مراد بن عثمان** في بورصة والأمير **صارم الدين القرماني** في **قونية** وعثمان ابن طر علي المعروف باسم قره يولك زعيم الآق قوينلو، وناصر الدين من أبناء دلغادر «ذو القادر» في مرعـش، وكان هـؤلاء يناصبون الدولة المملوكيـة العداء في غالب الأحيان، ويعيثـون فساداً على تخوم الدولـة ممـا اضطر الملك الأشرف إلى إرسال تجاريد أكثر من مـرة لردعهم، بل إنه قاد غزوة بنفسه لتأديـب عثمان قره يولك سنة ٨٣٦ هـ، فاستـولى على **الرُّها**، وحاصر **آمد** حاضرة قره يولك، أما قره يوسف زعيم **القره قوينلو** وأولاده فكانوا أقرب إلى الموالاة.

لقد نجح السلطان برسباي في المدة التي قضاها فـي الحكم -وهي نحو سبعة عشر عاماً- في إشاعة الأمن والاستقرار، والقضاء على الثورات والفتن، التي شبت فـي البلاد، والضرب على أيدي الخارجين علـى النظام، كما فعل مع ثورة طائفة المماليك الأجلاب، وهم الذين جاءوا إلى مصر كباراً، وكانوا قد عاثوا في الأرض فساداً لتأخر رواتبهم في عامي (٨٣٥ هـ / ١٤٣١م)، (٨٣٨ هـ / ١٤٣٤م)، وقد مكّنه ذلك الاستقرار الذي نعمت به البلاد من القيام بغزو جزيرة قبرص.

كان الأشرف برسباي جليلاً مهاباً، منقاداً للشرع، مقرباً للفقهاء، وافر العقل؛ لم يشرب الخمر قط، عارفـاً بأحوال المملكة، يتصدى للأحـكام بنفسه، وكان محبًّا للصيد ماهـراً في الرماية؛ محبًّا لجمع المال كثير المصادرات، وهو أول سلاطين مصر الذين حصلوا العشور من التجار، وكان يتاجر بالغلال، وأمـر بمنـع التعامل بالنقود الإفرنتيـة المشخصة، (التي تسك في بلاد الفـرنج وعليها صورة)، وسك نقوداً ذهبية باسمه عرفت بالأشرفية والبرسباهية، وكانت من أجود الأنواع، ودام تداولها زماناً طويلاً من بعده.

مستند تاريخي

سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة

« فيهـا كان **الطاعـون العظيم** الذي لم ندرك بمثله بمصر وقراها، بل وبغالب البلاد الشامية، حسبما ذكرناه في ترجمة الملك الأشرف هذا في وقته.

وكان هـذا الطاعـون أعظـم من هـذه الطواعين كلهـا وأفظعهـا، ولم يقع بالقاهـرة ومصر بعد الطاعـون العام الـذي كان سنة تسع وأربعين وسبعمائة نظير هـذا الطاعون، وخالف هذا الطاعون الطواعين الماضية في أمور كثيرة:

منها أنه وقع في الشتاء وارتفع في فصل الربيع، وكانت الطواعين تقع في فصل الربيع وترتفع في أوائل الصيف، وأشياء غير ذلك ذكرناها في محلها.

وفيهـا توفي القاضي شرف الدين أبو الطيب محمـد ابن القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله الغـزي الأصل، المصري، في ليلة الأربعاء سابع عشر ربيع الأول، ودفن بالصحراء، ومات بغير الطاعـون، ومولـده في ليلـة السبت حادي عشرين ذي القعـدة سنة سبع وتسعـين وسبعمائة، ونشأ بالقاهرة واشتغل يسيراً وخدم الأمير ططر موقعاً عدة سنين، فلما تسلطن رشحه لنظر الجيش فلم يتـم له ذلك، **وولي نظر الكسوة**، ونظر أوقاف الأشراف، ثم نظر دار الضرب إلى أن مات. وكان شابـاً كريمـاً وفيه محبة لأهل العلم والفضل والصـلاح، إلا أنه كان فيه حدة مزاج وبادرة مع تدين وتحشم.

وتوفـي الأمير سيف الدين أزبك بن عبد الله المحمدي الظاهري برقوق الدوادار الكبير، بالقدس بطالاً، في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الأول، وهو أحد المماليك الظاهرية برقوق وترقى إلى أن صـار أمـير مائة ومقدم ألف بدمشق، ثـم قبض عليه الملك المؤيد شيخ بعـد واقعة نوروز وحبسه سنين، إلى أن أطلقه في أواخر دولته، وأنعم عليه بإقطاع هين بدمشق أمير عشرة.

فلمـا أن صـار الأمر إلى الأمير ططر أنعم عليه بإمـرة طبلخاناة بديار مصر، ثم صار أمير مائة ومقـدم ألف، ثم رأس نوبة النوب بعـد الأمير قصروه من تمراز في أوائل الدولة الأشرفية، ثم نقل إلى الدواداريـة الكـبرى بعد سودون من عبـد الرحمن، لما نقل إلى نيابة دمشـق بعد عصيان تنبك البجاسـي، فدام في الدواداريـة إلى أن اشيع عنه أنه يريد الوثوب على السلطان، ولم يكن لذلك صحـة، فأخرجه السلطان إلى القدس بطالاً، ومسفـره الأمير قراخجا الحسني رأس نوبة، فدام بالقدس إلى أن مات.

أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الظاهري الحنفي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، النسخة الرقمية.

الحملات المملوكية لفتح قبرص

اتخـذ القبارصـة مـن جزيرتهم مركـزاً للوثوب على الموانـئ الإسلامية في شرقـي البحر المتوسط وتهديـد تجـارة المسلمـين، فقـام "بطرس الأول لوزنجـان" ملـك قبرص بحملتـه الصليبيـة علـى **الإسكندريـة** فـي سنة (٧٦٧هـ = ١٣٦٥م)، - انظر صفحة ١٥٣ من هذا الأطلس- وأحرق الحوانيت والخانات والفنادق، ودنس المساجد وعلق القبارصة عليها الصلبان، واغتصبوا النساء، وقتلوا الأطفال والشيـوخ، ومكثوا بالمدينة ثلاثة أيام يعيثون فيها فساداً، ثم غادروها إلى جزيرتهم، وتكررت مثل هذه الحملة على **طرابلس الشام** في سنة (٧٩٦هـ = ١٣٩٣م).

وظلـت غـارات القبارصة لا تنقطع على الموانئ الإسلامية، ولم تفلح محاولات سلاطين المماليك في دفـع هذا الخطر والقضاء عليه، وبلـغ استهانة القبارصة بهيبة **دولة المماليك** واغترارهم بقوتهم أن اعتـدى بعض قراصنتهم على سفينة مصرية سنة (٨٢٦ هـ = ١٤٢٣م)، وأسروا من فيها، ولم تفلح محـاولات **السلطان برسباي** في عقد معاهدة مع "جانوس" ملك قبرص، تَضّمن عدم التعدي على تجار المسلمين.

وتمـادى القبارصة في غرورهم، فاستولوا علـى سفينتين تجاريتين، قرب **ميناء دمياط**، وأسروا مـن فيهما، وكانوا يزيدون على مائة رجل، ثم تجاوزوا ذلك فاستولوا على سفينة محملة بالهدايا كان قـد أرسلها السلطان برسبـاي إلى السلطان العثماني "مراد الثاني"، عنـد ذلك لم يكن أمام برسباي سـوى التحرك لدفع هذا الخطر، والرد على هذه الإهانـات التي يواظب القبارصة على توجيهها لدولة المماليك، واشتعلت في نفسه نوازع الجهاد، والشعور بالمسئولية، **فأعد ثلاث حملات لغزو قبرص**، وذلك في ثلاث سنوات متلاحقة.

صلح قبرص في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه

اتجه الأسطول الإسلامي في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه- من سواحل بلاد الشام، بقيادة عبد الله بن قيس إلى **قبرص**، وسار إليها أيضاً أسطول إسلامي آخر من مصر؛ بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فانتزعها المسلمون عام ٢٨هـ من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني. وقد صالح أهل قبرص المسلمين على :

١- ألا يقوموا بغزو المسلمين .

٢- وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم.

٣- أن يدفع القبارصة جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة .

٤- أن يختار المسلمون بطريقاً لقبرص .



كانت **جزيرة قبرص**، من المناطق التي فتحها المسلمون منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث فتحها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٢٨ هـ، لتكون بعد ذلك خاضعة للمسلمين تدفع لهم الجزية كل عام. وظلت كذلك مدة من الزمن حتى إذا ضعف المسلمون بعد ذلك طمع فيهم الأعداء من نصارى أوروبا فغزوهم بجيوش جرارة متتابعة وسقطت بعض المناطق الإسلامية في أيديهم، ومنها جزيرة قبرص. والحقيقة أن هذه الجزيرة بموقعها الإستراتيجي شرقي البحر الأبيض المتوسط، **ظلت طيلة الحروب الصليبية قاعدة ينطلق منها الصليبيون** لمهاجمة العالم الإسلامي، وأصبح حكامها أكثر النصارى تعصباً للحروب الصليبية ورغبة في استمرارها، ولذا ظلوا يسعون لدى ملوك أوروبا ويطلبون منهم إرسال الحملات العسكرية لتحطيم العالم الإسلامي.



خرجت الحملة الأولى في سنة (٨٢٧ هـ = ١٤٢٤م)، وكانت حملة صغيرة نزلت قبرص، وهاجمت ميناء "ليماسول"، وأحرقت ثلاث سفن قبرصية كانت تستعد للقرصنة، وغنموا غنائم كثيرة، ثم عادت الحملة إلى مصر سالمة.

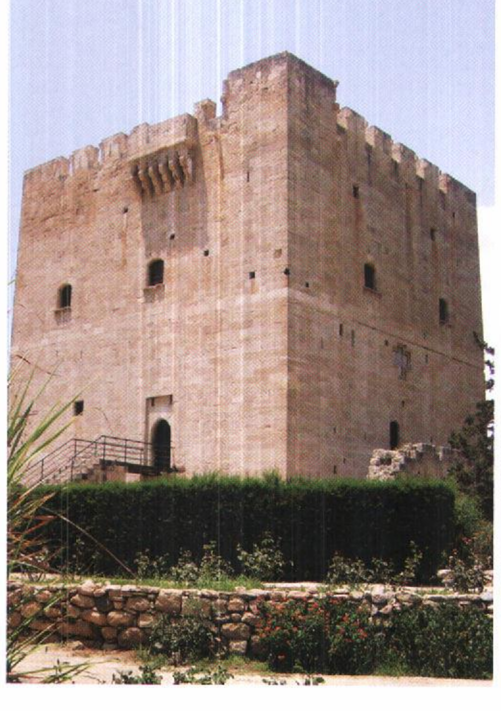


قبرص Cyprus جزيرة تقع في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، وهي ثالث أكبر جزيرة من جزر البحر المتوسط بعد صقلية وسردينيا، إذ تبلغ مساحتها نحو ٩٢٨٠كم٢، ولاتبعد جزيرة قبرص عن تركيا سوى ٧٠كم، وهي المسافة الفاصلة بين رأس كورماكيتي القبرصي الشمالي، ورأس أنامور التركي الجنوبي، ولكنها تبعد عن سورية ١١٠كم، وهي المسافة الفاصلة بين ساحل اللاذقية ورأس سانت أندرياس القبرصي الشرقي.

والجزيرة ذات شكل غير منتظم، لكثرة الخلجان (خليج مورفو ، خليج خريسوخو ، خليج إبيسكوبي ، خليج أكروتيري ، خليج لارنكا ، وخليج فاماغوستا) والرؤوس (رأس سانت أندرياس، رأس كورماكيتي، رأس بافوس ، رأس غاتا ، ورأس غريكو وغيرها). يبلغ طول الجزيرة الأعظمي من الغرب إلى الشرق نحو ٢٢٦كم، واتساعها الأعظمي من الشمال إلى الجنوب نحو ٩٦كم. وحيث يزيد معدل اتساعها على ٦٤كم في الجزء الأكبر من امتدادها إلى الغرب من خط طول ٥٠َ ٣٣ْ؛ فإنها تضيق شرقي هذا الخط مباشرة إلى أقل من ١٦كم متخذة شكل لسان بمنزلة شبه جزيرة كارباس، ممتدة باتجاه الشمال الشرقي بطول ٧٤كم تقريباً؛ لتنتهي في رأس سانت أندرياس.



خرجت **الحملة الثانية** في رجب (٨٢٨ هـ = مايو ١٤٢٥م) مكونة من أربعين سفينة، واتجهت إلى الشام، ومنها إلى قبرص، حيث نجحت في اقتحام **قلعة ليماسول** المنيعة، وقُتل نحو خمسة آلاف قبرصي، وعادت إلى القاهرة تحمل بين يديها ألف أسير، فضلاً عن الغنائم التي حُملت على الجمال والبغال.





لقطات متعددة لقلعة ليماسول القبرصية المحصنة التي اقتحمها المسلمون



استهدف السلطان المملوكي «برسباي» في **الحملة الثالثة فتح صقلية** وإخضاعها لسلطانه، فأعد حملة أعظم من سابقتيها وأكثر عدداً وعُـدة، فأبحـرت مائة وثمانون سفينة من رشيد في (٨٢٩ هـ = ١٤٢٦م)، واتجهت إلى **ليماسول**، فلم تلبث أن استسلمت للقوات المصرية في (٢٦ شعبـان ٨٢٩ هــ = ٢ يوليو ١٤٢٦م)، وتحركت الحملة شمالاً في جزيرة قبرص، وحاول ملك الجزيرة أن يدفع القوات المصرية، لكنه فشل وسقط أسيراً، واستولت القوات المصرية على العاصمة "**نيقوسيا**"، وبذا دخلت الجزيرة في طاعة دولة المماليك.

اقتحام القوات المملوكية جزيرة قبرص في الحملة الثالثة

بعد أن سيطر المماليك على الجزيرة كلها ووقع ملكها في الأسر، سيق إلى مصر حيث افتُدي بمئتي ألف دينار، على أن يقبل بالخضوع للسلطان المملوكي وأن يدفع جزية سنوية (عشرين ألف دينار)، واستمر الأمر على ذلك إلى ما بعد وفاة الأشرف برسباي. وخشي صاحب **رودس** أن يحل به ما حل بملك قبرص فبعث يقدم فروض الطاعة ويقبل أن يكون نائباً للسلطان في جزيرته.

نيقوسيا
قبرص
خيروكيتيا
ليماسول
البحر الشامي (البحر الأبيض المتوسط)

احتفلت **القاهرة** العاصمة المملوكية برجوع الحملة الظافرة التي تحمل أكاليل النصر، وشقّت الحملة شوارع القاهرة التي احتشد أهلها لاستقبال الأبطال في (٨ شوال ٨٢٩ هـ = ١٤ أغسطس ١٤٢٦م)، وكانت جموع الأسرى البالغة ٣٧٠٠ أسير تسير خلف الموكب، وكان من بينها **الملك جانوس وأمراؤه.**

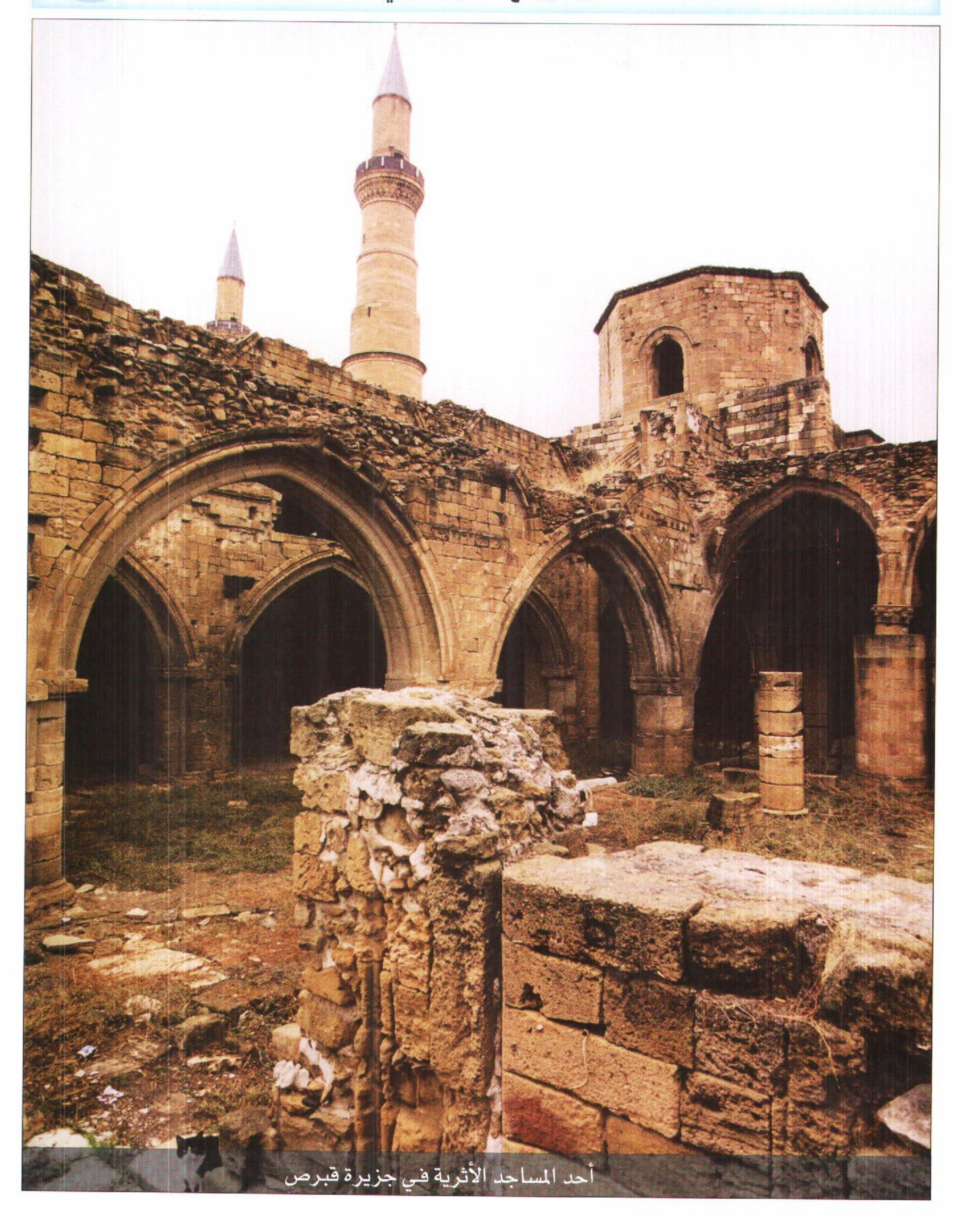
استقبل السلطان المملوكي (برسباي) بالقلعة ملك قبرص، وكان بحضرته وفود من أماكن مختلفة، مثل: شريف مكة، ورسل من آل عثمان، وملك تونس، وبعض أمراء التركمان، **فقبّل جانوس الأرض بين يدي برسباي،** واستعطفه في أن يطلق سراحه، فوافق السلطان على أن يدفع مائتي ألف دينار فدية، مع التعهد بأن تظل قبرص تابعة لسلطان المماليك، وأن يكون هو نائباً عنه في حكمها، وأن يدفع جزية سنوية، واستمرت جزيرة قبرص منذ ذلك الوقت تابعة لمصر، حتى سنة (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) التي سقطت فيها دولة المماليك على يد السلطان العثماني "سليم الأول".



دينار مملوكي يعود إلى عهد السلطان الأشرف برسباي

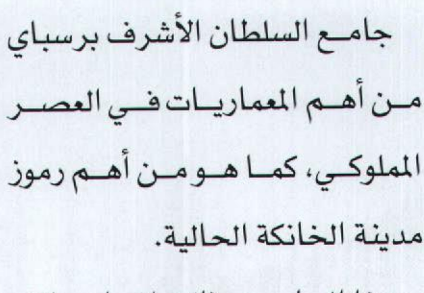
«بويوك خان» بناء يعود إلى العهد العثماني بمدينة نيقوسيا عاصمة جزيرة قبرص

كنيسة باناجيا كاناكاريا البيزنطية في قبرص



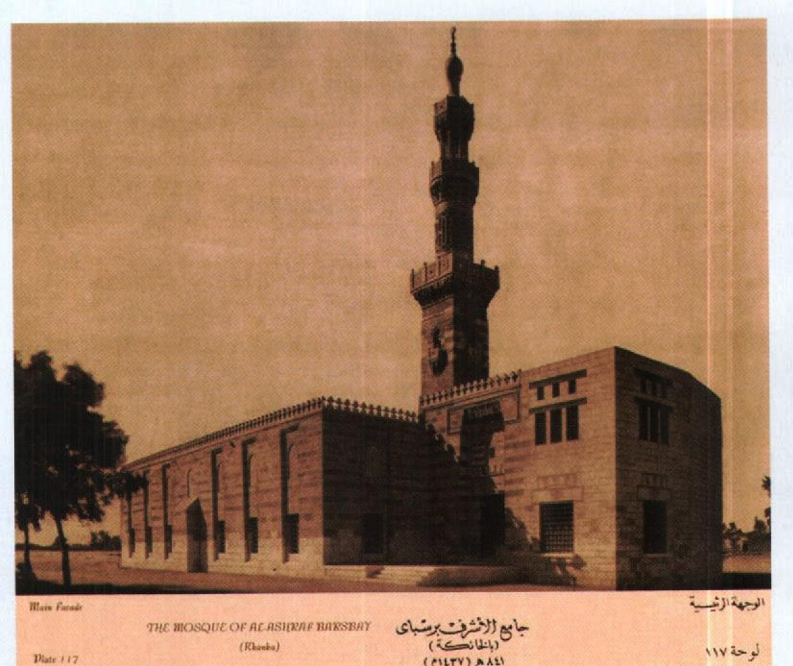
أحد المساجد الأثرية في جزيرة قبرص

جامع الأشرف برسباي بالخانكة ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧م



جامـع السلطان الأشرف برسباي مـن أهـم المعماريـات فـي العصـر المملوكـي، كمـا هـو مـن أهـم رموز مدينة الخانكة الحالية.

وهذا الجامع هو ثالث المساجد التي أنشأها السلطـان المملوكي الأشرف برسباي، شيـده ببلدة الخانكة التي تقـع شمالي القاهـرة، وعلى بعد ٢٢ كـم منهـا تقريبـاً. وكان الفراغ من بنائه سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧م.

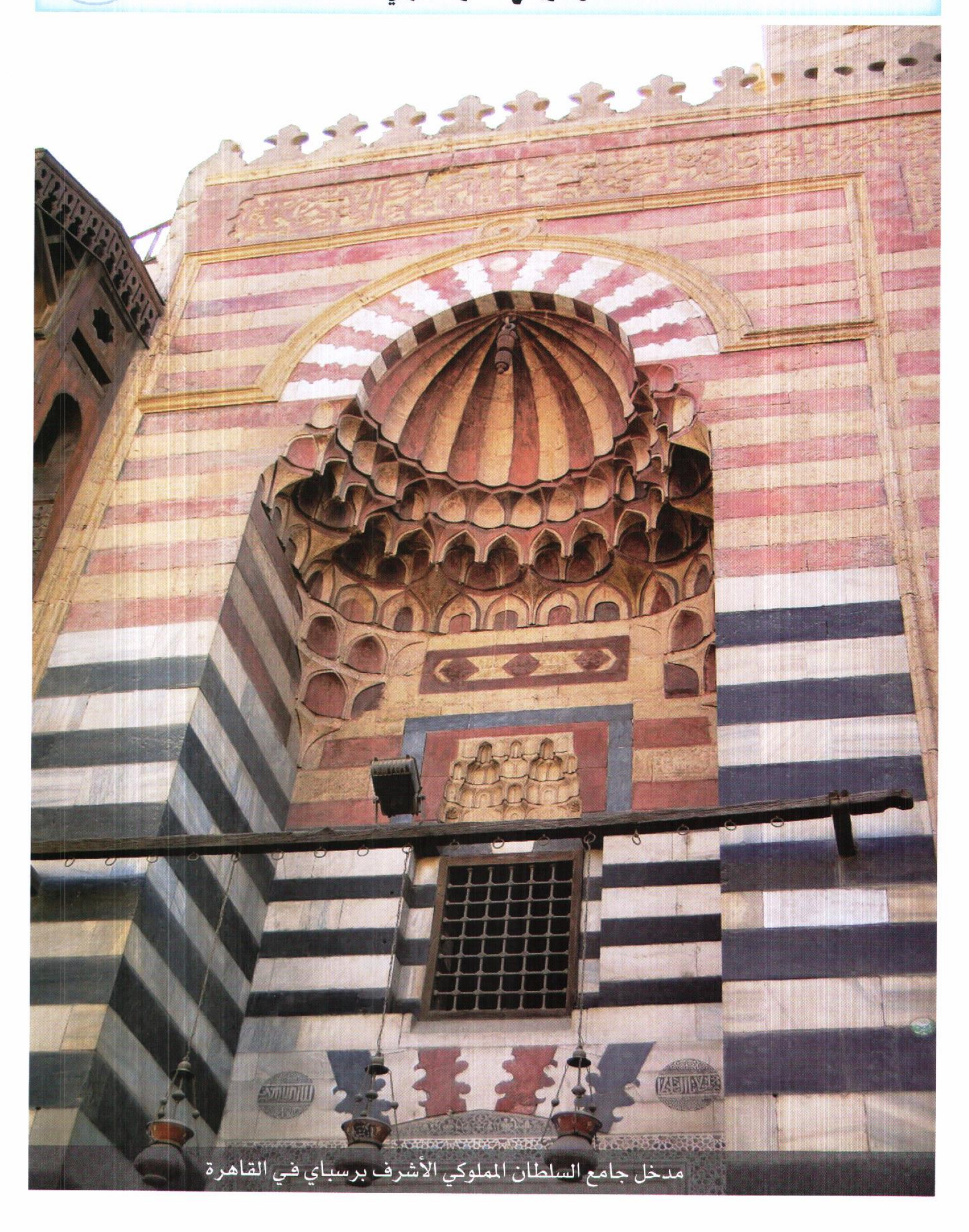


Main Facade — الوجهة الرئيسية
THE MOSQUE OF AL ASHRAF BARSBAY (Khanka) — جامع الأشرف برسباى (بالخانكة) ٨٤١ هـ (١٤٣٧م)
Plate 117 — لوحة ١١٧

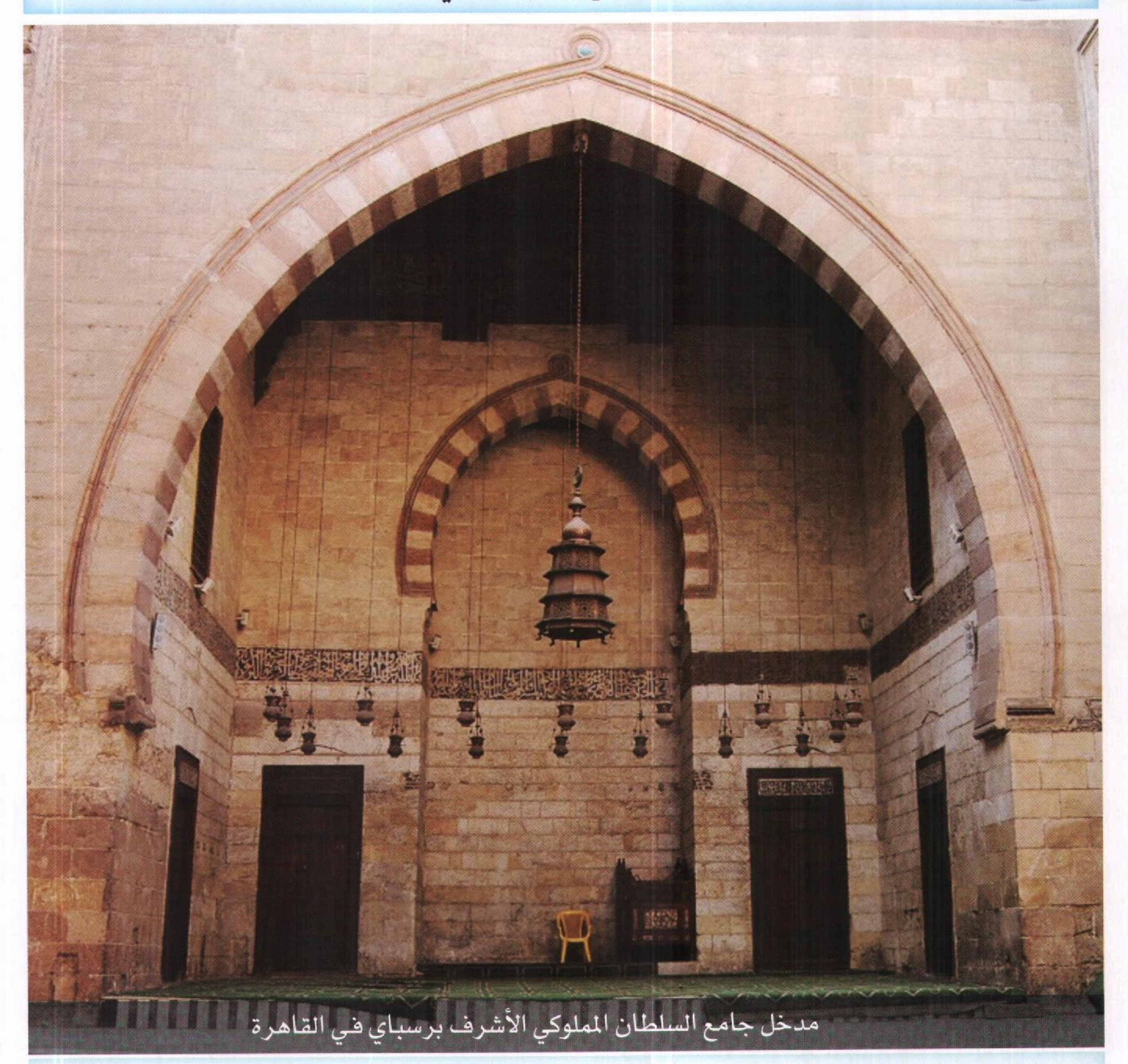
وهـو جامـع فسيح يتكون من صحن مكشوف تحيط بـه أربعة أروقة؛ أكبرها رواق القبلة الذى يشتمل على ثلاثـة صفوف من العقود المحمولـة على أعمدة رخامية، ويتكون كل من الرواقـين الجانبيين من صفين كما يتكـون رواق المؤخـرة من صف واحد، هذا ويغطي رواق القِبلـة سقف من الخشب على شكل مربعات، وطبال منقوشـة، ويكسو الجـزء السفلي من حوائطه وزرة مـن الرخام الملون، يتوسطها محـراب رخامي يقوم إلى جواره منبر من الخشب طعمت حشواته بالسن.

والوجهـة الرئيسـة تشرف على الطريق العام وبهـا المدخل الذى تغطيه مقرنصـات جميلة، ويحلى صدره أشرطة من الرخام الأبيض والأسود بأعلاها طراز مكتوب به تاريخ الفراغ من عمارة هذا الجامع سنة ٨٤١ هـ، وإلى يمـين المدخل سبيـل يعلوه كتـاب، وإلى يساره تقوم مئذنـة مكونة من ثلاث طبقـات مماثلة لمئذنة مسجده بشارع المعز لدين الله العبيدي، وللجامع ثلاث وجهات أخرى بمنتصف الوجهة الغربية، منها مدخل آخـر، وكان لهـذا الجامع دورة مياه منفصلة عنـه لازالت محتفظة بمعالم تخطيطهـا القديم. وقد تداركت إدارة حفظ الآثار العربية بجمهورية مصر العربية هذا الجامع وهو في حالة تصدع شديد، فقامت بترميمه وإصلاحه إصلاحاً شاملاً بحيث أصبح كما هو الآن (انظر الصور بعد الإصلاحات).

المصدر؛ موقع وزارة الأوقاف (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) بجمهورية مصر العربية.



مدخل جامع السلطان المملوكي الأشرف برسباي في القاهرة

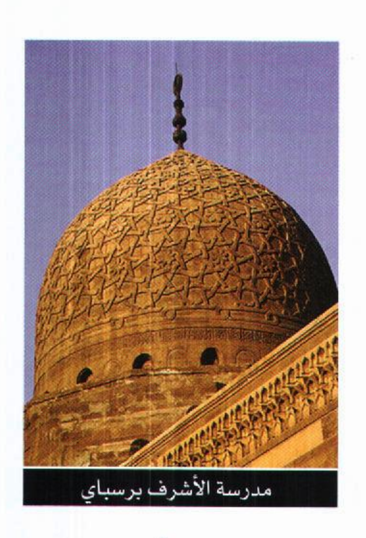


مدخل جامع السلطان المملوكي الأشرف برسباي في القاهرة

أئمة جامع الأشرف برسباي:

تـولى مشيخـة الجامـع الأشـرف العديد مـن العلماء منذ تشييده فـي عهد السلطـان المملوكي الأشرف برسباي، حيث خطب فيه العلماء الذين ذاع صيتهم خلال مدة حكم السلطان الأشرف برسباي، مثل: المؤرخ الشيـخ تقـي الدين أحمد المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)، والحافظ ابن حجر العسقـلاني (ت ٨٥٢ هـ)، فضلاً عن الإمام العلم جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) الذي تولى مشيخة الخانقاة لحقبة طويلة. بعد ذلك تعاقب العديـد من الأئمة على مشيخة هـذا المسجد. ولازال الجامع -بفضل من الله تعالى- حتى يومنا هذا يحظى برموز العلم الديني في جمهورية مصر العربية.

مجمع أو مدرسة الأشرف برسباي:


مدرسة الأشرف برسباي

اسم المُنشئ: السلطان الملك الأشرف برسباي الدقماقي الظاهري.

تاريخ الإنشاء: سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥م، وتم الانتهاء منه سنة ٨٣٥ هـ.

الموقـع : تقـع المدرسـة بقصبة شـارع المعز لديـن الله العبيـدي في قلب القاهرة، وتجاورت فيـه مع العديد من المدارس الإسلامية الأخرى، مثل: المدرسـة المنصوريـة، ومجموعة النحاسين، ومجموعـة الغوري، واتخذت مدرسة «الأشرف برسباي» موقعاً متوسطاً ومتميزاً بينها، بالإضافة لذلك فإن الموقع شاهد على شق شارع جوهر القائد ـ الموسكي ـ في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي، والذي مر على أنقاض جزء منها.

أهمية المدرسة: تعد مدرسة الأشرفية من أعظم المدارس المملوكية، فهي تعبر عن عصر من أبهى عصور الإسـلام، وهو عصر السلاطين المماليك البرجية، الذي شهد مجداً ورخاء غير مسبوقين، والمبنى عبارة عن منشأة خيرية عظيمة، فهي أنشئت لتضم العديد من الوظائف بين طياتها، فيها السبيل لسقاية المارة وابـن السبيل، يعلوها الكتّـاب لتعليم الأيتام من الأطفال ليتعلموا القراءة والكتابة وحفظ كتاب الله، هذا بالإضافـة إلى كسوتهم وإعطائهـم منحة مالية تكفيهم السؤال، وتحثهم علـى دوام الحضور، بالإضافة للمدرسـة التـي تعلم الدين الإسلامـي. وكان يؤمن للدارسـين والمدرسين الإقامة والطعـام مع إعطائهم مرتبـاً مالياً شهريـاً، وهذا كله يقع ضمن إطـار كفالة نظام الوقف الذي وفـده الواقف من خلال أراض زراعية ومنشآت خيرية للصرف على هذه المنشأة.

تاريـخ المدرسـة: للمدرسـة قيمة كبيرة، فلقـد تزامن انشاؤها مع فتـح جزيرة قبرص علـى يد منشئها «الأشرف برسباي»، وتم قراءة كتاب النصر والفتح بها. وأراد «الأشرف برسباي» وضع علامة بارزة من علامـات العمارة الإسلاميـة **تخليداً لفتح الجزيـرة**، فأقام منشأة عظيمة لم يبخـل عليها من جمع كلاسيكيات الفن المملوكي بها.

العمـارة: تم تخطيـط المدرسة علـى النظام السائد فـي العصر الذي يتكون من صحـن أوسط مكشوف تحيط به أربع إيوانات، أكبرها إيوان القبلة، كما تضم قبة ضريحية، وسبيلاً وكتاباً، وسكناً لشيخ المدرسة بالإضافـة للخدمـات والمرافق والخـلاوي. وللمدرسة مئذنة تعلـو المدخل تتكون من بـدن مربع، بنهايته حطات من المقرنصات تحمل الشرفة الأولى التي تلتف حول البدن المستدير المزخرف بميمات متقاطعة، وبنهاية هذا البدن حطات من المقرنصات تحمل الشرفة الثانية التي تلتف حول الجوسق الذي تعلوه قمة على هيئة القبة البصلية يتوجها هلال. دينا وادي، جريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٦٧٩.

بعـد أن قضى السلطان الأشـرف برسباي في الحكم نحو سبعة عشر عاماً، تُوفي في (ذي الحجة ٨٤١ هــ = مايـو ١٤٣٧م)، بعد أن ارتبط اسمـه بالجهاد ضد الصليبيين، وأضـاف إلى دولته جزيرة قبرص، وهو ما أضفى على سلطنته رونقاً وشهرة. وكانت **وفاة الملك الأشرف برسباي** بعلة المرض الـذي طال أمده وأعجـز الأطباء عن علاجه. حيث أوصى بولاية العهـد لابنه **الملك العزيز يوسف**، ودفـن بمقبرتـه إلى جانـب المدرسة التـي عمرها في صحـراء الجيـزة، وخلَّف أموالاً وتحفـاً وخيولاً وسلاحـاً، وعمَّر غالب القرى في قبلي مصر وبحريها؛ بعـد أن أصابها الخراب في أيام الناصر فرج والمؤيـد شيـخ لكثرة الفتن، كما أنشـأ المدارس في مصر، والسبيل وصهريج المـاء في الجامع الأزهر، وحفر الكثير من الآبار على طريق الحج من مصر والشام إلى الحجاز.

أبرز الدول التي عاصرت المماليك البرجية (الشراكسة)

الدولـة الجلائريـة: ٧٣٧ - ٨١٤ هــ /١٣٣٧-١٤١١م.

الجلائريون أو الجلايويون -نسبة إلى قبيلة جلائر Jalayir المغولية- وهم سلالة حاكمة بسطت سلطتها على العـراق وأذربيجـان وخوزستان، منـذ منتصف القرن الثامن الهجري / منتصف القرن الرابع عشر الميـلادي. عندما بـدأت الدولة الإيلخانيـة بالتداعي فالسقوط.

اتخـذت قبيلـة جلائر من محيط مدينـة «خُجند»، الواقعة على ساحل سيحون مستقراً لها.

كان للجلائريـين علاقـات مع أكـثر الدويلات التي نشأت في إيران بعد سقوط الدولة الإيلخانية. وكانت هـذه العلاقات فـي الغالب علاقـات عدائية تحكمت فيهـا رغبة كل دولة منها في القضاء على الأخريات أو توسيع أملاكها على حساب هذه الدويلات.

إضافـة لهذه العلاقات العدائية، كانت للجلائريين علاقـات مـع تركمان الشـاة السـوداء الذيـن كانت منازلهـم حول بحيرة وان (أقصـى الحدود الشرقية لتركيـا)، وقـد حـاول هـؤلاء بعـد سقـوط الدولـة الإيلخانيـة أن يوسعـوا مساحـة المناطـق الخاضعـة لنفوذهم باتجاه الجنوب نحو أملاك الجلائريين في أذربيجـان والعراق، فاستولوا علـى الموصل سنة ٧٦٦ هـ/١٣٦٤م. أمـا عـن علاقـة الجلائريـين بالدولة المملوكية فـإن حسن الكبير عمل علـى الاستفادة من موقـف العـداء التقليـدي الـذي كانـت تقفـه الدولة المملوكية من الإيلخانيين الذين كانوا قد استولوا على بغداد وقضوا على الخلافة العباسية.

الآق قوينلـو(دولـة الخـروف الأبيـض) ٨٧١ - ٩١٣ هـ /١٤٦٧-١٥٠٨م.

قبيلـة القطيـع الأبيض، أسـرة تركمانية وفـدت من أواسط آسيا نتيجة غزوات المغول على بلاد خـوارزم، واستقرت في ديار بكر، واتخـذت فـي بادئ الأمر مدينة آمد عاصمة لها.

مؤسـس هـذه الأسـرة هـو بهـا الدين قرا عثمان البايندري، ولقـب قرايلك. تعاون مع تيمـور لنك فـي أثناء غـزوه لمناطـق غربي آسيا، وقد منحـه أرضاً في أرمينيا ومنطقة الفـرات الأعلـى، كمـا نصَّبـه حاكمـاً على سيواس بعد أن استولى على أملاك القاضي برهان الدين أحمد.

توسعـت الإمارة بعـد ذلك على يد أميرها أوزون (حسـن الطويل) ت ٨٨٢ هـ، وبحكم موقعهـا علـى حـدود الدولتـين المملوكيـة والعثمانيـة، فقـد أقامـت علاقـات معهمـا تراوحـت بـين العدائيـة والسلميـة، إلا أن العلاقات العدائية مع الدولة المملوكية كانت الغالبة.

سميت بالخروف الأبيض لوضعها رسم خروف ذي لون أبيض على علمها.

القراقوينلو(دولة الخروف الأسـود) ٨١٣ - ٨٧١ هـ /١٤١٠-١٤٦٧م.

نشـأت هذه الإمـارة قبل ظهور إمارة الآق قوينلو بنحو نصف قرن، وجذورهما واحدة. سكن أفرادها البلاد الواقعة شمالي بحيرة وان، واستقـرت أملاكهـم فـي بعض جهات أرمينيا، وأذربيجان، واتخذوا تبريز عاصمة لهم.

أسـس هـذه الإمـارة قرا محمـد يوسف. وأشهـر أمرائها ابنه قرا يوسف. ت ٨٢٣ هـ، الـذي ضم أذربيجـان إلى أمـلاك الإمارة. وكانـت له اصطدامـات مـع الآق قوينلو في منطقـة ديار بكر، كما هزم أحمد الجلائري وضم العـراق، وتوسع في ناحية الغرب حتى قـارب حلـب. وكان لجـوء هـذا الزعيـم التركماني إلى بلاد العثمانيين أحد الأسباب التي حملت تيمورلنك على محاربة السلطان العثماني بايزيد.

كانـت علاقتها مع الدولـة المملوكية أقرب إلى الصداقـة منهـا إلى العـداء، بـل إنهم وقفـوا معهم فـي أثناء غـزو تيمولنك لبلاد الآق قوينلو.

سميت بالخروف الأسود لوضعهـا رسم خروف ذي لون أسود على علمها.


دولة المماليك البرجية في أقصى اتساع لها
الدولة العثمانية
إمارة دلغادر (ذي القادر ، القدر)
الدولة الجبرية (٧٨٥-٩٣٠هـ)
الآق قوينلو (دولة الخروف الأبيض)
القراقوينلو (دولة الخروف الأسود)
بلاد الكرج (جورجيا)
مملكة طرابزون البيزنطية
سقطت ٨٥٦هـ/١٤٢٥م
بقايا الامبراطورية البيزنطية
ممالك نصرانية إفريقية
الدولة الجلائرية
الدولة الطاهرية
السلطنة المملوكية
الدولة التيمورية
السلطنة المملوكية
مصر
الصعيد
النوبة
القاهرة
بلاد الشام
دمشق
القدس
الحجاز
الأشراف
مكة
المدينة النبوية
جزيرة العرب
نجد
اليمن
صنعاء
حضرموت
إيران
فارس
التيموريون
الجلائريون
بغداد
البصرة
أذربيجان
تبريز
أرمينيا
كرجستان
مملكة طرابزون
إمارة الخروف الأبيض
إمارة الخروف الأسود
بلاد الأكراد
ديار بكر
مرعش
طرسوس
إمارة أبناء رمضان
قرمان
أنقرة
قونية
إستنبول
مملكة قبرص
البلميون (البجه)
دنقله
أسوان
قوص
المنيا
أبو سمبل
البحرين
الدولة الجبرية (١٣٨٣-١٥٢٤م)
الدولة الطاهرية
السلطنة المملوكية
إلى برقة الليبية
البحر الشامي (بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط)
بحر بنطس (البحر الأسود)
بحر قزوين (بحر الخزر)
خليج البحرين (الخليج العربي)
بحر القلزم (البحر الأحمر)
بحر العرب

الظاهر سيف الدين جقمق العلائي ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ/ ١٤٣٧- ١٤٥٣ م

هو الظاهر سيف الدين جقمق [١] الرابع والثلاثون من ملوك الترك، والعاشر من ملوك الشراكسة. اشتراه (الأشرف سيف الدين إينال العلائي)، وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق، فأعتقه واستخدمه.

حبس في أيام الملك الناصر فرج، ثم أطلق وولي أعمال في دولتي الملك المؤيد شيخ، والظاهر ططر، إلى أن كان (أتابك) العساكر في دولة الأشرف برسباي. ولما مات الأشرف وولي ابنه العزيز يوسف استمر جقمق أتابكاً ومدبراً للدولة. وقام بعض المماليك فخلعوا العزيز، وولوه السلطنة، فانتظم له الأمر إلى أن توفي بالقاهرة.

كان وقتئذ أتابكاً للسلطنة وعمره ٦٩ عاماً. استهل حكمه بالقضاء على الثورات الداخلية في السلطنة **كثورة حلب** وثورة الأمير قرقميش، فاستتب له الأمر في الحكم دون اضطرابات داخلية.

حسّن **علاقاته مع الممالك الإسلامية المجاورة**، فسمح **لشاه رخ بكسوة الكعبة المشرفة** من الداخل مما سبّب غضباً شعبيًّا عامًّا، جعله يتراجع عن ذلك فيما بعد. كما تزوج إحدى أميرات آل عثمان، واحتفل بفتحهم لمدينة القسطنطينية (الفتح العظيم) سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م.

حاول إخضاع و**فتح جزيرة** رودس التي أصبحت قاعدة **للفرسان الأسبتاريين الصليبيين** بعد إخضاع جزيرة قبرص في عهد السلطان برسباي سنة ١٤٢٦م. وقد سيّر إلى الجزيرة **ثلاث حملات بحرية، حيث فشلت الحملة الأولى عام ١٤٤٠م، وفشلت الحملة الثانية في عام ١٤٤٣ م، ونجحت الحملة الثالثة بدخول الجزيرة وتدمير مدنها وإيقاع الخسائر الفادحة بين الفرسان الأسبتاريين؛ مما أرغمهم على اللجوء لطلب عقد الصلح، فقبل السلطان جقمق ذلك وعادت جيوشه إلى مصر.**

كان الظاهر جقمق ملكاً عظيماً جليلاً، ديناً متواضعاً، كريماً هدأت البلاد في أيامه من الفتن، وكان فصيحاً بالعربية، متفقهاً، له مسائل في الفقه يرجع إليه فيها، وكانت فيه حدة وآذى بعض العلماء.

قيل: إنه توفي ولم يقتل. وقيل: قتل في القلعة عام ٨٢٤ هـ ودفن بتربته في المدرسة الجقمقية إلى جوار باب الجامع الأموي الشمالي. وقيل: اشتد المرض على السلطان جقمق سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م، فتنازل عن العرش لابنه فخر الدين عثمان، وتوفي في ليلة الثلاثاء ٣ صفر ٨٥٧ هـ بعد حكم دام ١٤ عاماً وعشرة أشهر.

١- مخطوطة كتاب (أعلام الشراكسة - الجزء الثاني)، فيصل حبطوش خوت أبزاخ، عمان - الأردن- ٢٠٠٨م.

رودس : هي جزيرة يونانية. تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسة وقبرص. وهي من أبعد الجزر الشرقية بالنسبة لليونان وبحر إيجة. تبعد عن غربي تركيا بحوالي ١٨ كم. في سنة ٢٠٠١ بلغ عدد سكانها ١١٧,٧٩٢ نسمة، منهم ٥٥ إلى ٦٠ ألف يعيشون في مدينة رودس. يقدر عدد المسلمين ب ٣٥٠٠ مسلم.



قال ابن كثير عن فتح رودس: "ثم دخلت سنة ثلاث - أي ٥٣ هـ - وفيها افتتح المسلمون -وعليهم جنادة بن أبي أمية- جزيرة رودس، فأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شيء على الكفار، يعترضون لهم في البحر ويقطعون سبيلهم، وكان معاوية يدر عليهم الأرزاق والأعطيات الجزيلة، وكانوا على حذر شديد من الفرنج، يبيتون في حصن عظيم عنده فيه حوائجهم ودوابهم وحواصلهم، ولهم نواطير على البحر ينذرونهم إن قدم عدو أو كادهم أحد، وما زالوا كذلك حتى كانت إمرة يزيد بن معاوية بعد أبيه، فحوّلهم من تلك الجزيرة، وقد كانت للمسلمين بها أموال كثيرة وزراعات غزيرة". يقول البلاذري عن جنادة بن أبي أمية: "وجنادة أحد من روي عنه الحديث، ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل، ومات في سنة ثمانين".

جزيرة رودس اليونانية من الفضاء الخارجي

فرســان الأسبتارية

فرسـان الأسبتاريـة (أو فرسـان القديـس يوحنا) فرقة عسكريـة صليبية أو جماعـة دينية صليبية محاربة ساهمت بشكل بارز في الحروب الصليبية، **أقامت بجزيرة رودس.**

نشأت في جزيرة مالطة، وعرفت باسم فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، وقد انبثقت عن الجماعة الأم الكبيرة والمشهورة باسم فرسان المعبد التي كان لها شهرة أيام الحروب الصليبية وهي غير منظمة مالطـة. ذات سيـادة التي تأسست كهيئة خيريـة من قبل بعض التجار الإيطاليـين عام ١٠٥٠م لرعاية النصـارى فـي الأراضي المقدسة[١]. فتم في تلك الحقبة إنشـاء مستشفى القديس يوحنا في القدس لهـذه الغايـة إضافـة إلى دير ومدرسـة. وكان الفرسان دائمـي الإغارة على سواحـل المسلمين؛ خاصة سواحـل ليبيا وتونس لقربهما من مالطة، ولقد احتـل فرسان مالطة منطقة برقة سنة ٩١٦هـ، **غير أن المماليك لم يلبثوا أن أخرجوهم منها**، وفي نفس السنة احتلت قوة إسبانية مدينة طرابلس الليبية بقيادة ترونافار وقتل خمسة آلاف مسلم، وأسر ستة آلاف، وفر باقي سكان المدينة، وظلت طرابلس من سنة ٩١٦هـ حتى سنة ٩٣٦هـ تحت أسر الاحتلال الأسباني.

وبـدأ ظهـور فرسـان مالطة عـام ١٠٧٠م، كهيئة داعمة، أسسهـا بعض الإيطاليـين، لرعاية مرضى النصارى، في مستشفى (قديس القدس يوحنا) قرب كنيسة القيامة ببيت المقدس في فلسطين، وظل هـؤلاء يمارسون عملهم في ظل سيطرة الدولة الإسلاميـة، وقد أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى أو الأسبتاريـة باللغـة الإيطالية Hospitaliers تمييزاً لهم عن هيئـات الفرسان التي كانت موجودة في القدسـ آنذاك، مثل: فرسان المعبد، و"الفرسان التيوتون" وغيرهـم، إلا أنهم ساعدوا الغزو الصليبي فيما بعد.

وكان التزايد الكبير في أعداد الوافدين النصارى إلى مدينة القدس قد زاد في بداية القرن الحادي عشـر لاتجاه بعض الإيطاليين للحصـول على حق إدارة الكنيسة اللاتينية من حـكام المدينة المسلمين، وكان يلحـق بهذه الكنيسة مستشفى للمرضـى والحجاج يسمى مستشفى "قديس القدس يوحنا" كذلك استطاع تجار مدينة "أما لفي" ١٠٧٠ م تأسيس جمعية داعمة في بيمارستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس للعناية بالأجانب.

---

١ - تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للزاوي.



خريطة **جزيرة (رودس)** وهي من ضمن مجموعة رسومات خرائط العالم المثيرة للدهشة تعود لعامي ١٥١٣ و ١٥١٧م، قام برسمها العالم ورسام الخرائط والأدميرال العثماني (ضابط الأسطول البحري) أحمد محيي الدين بيري، الذي عرف عالمياً باسمه الذي قام بتوقيع عدد من أعماله التي أدهشت العديد من حول العالم بها، وهو (بيري ريس Piri Reis)، أو كما تترجم في بعض المراجع "الرئيس بيري" وقد كان بيري مكلفاً من قبل السلطان العثماني سليم الأول الذي كان قائداً ومرافقاً للفتوحات العثمانية آنذاك.

ومن اسم المستشفى أطلق عليهم اسم **فرسان الأسبتارية في اللغة العربية**، ولم يلبث أولئك الأسبتاريـين أن دخلـوا تحت لواء النظام الديري البندكتي المعروف فـي غربي أوروبا، وصاروا يتبعون بابا روما مباشرة بعد أن اعترف البابا باسكال الثاني بتنظيمهم رسميًا في ١٥ فبراير ١١١٣ م، وهكذا أصبح نظامهم يلقى مساندة من جهتين: تجار أمالفي، وحكام البروفانس في فرنسا.

وعندمـا قامت الحـروب الصليبية الأولى ١٠٩٧ م، وتم الاستيلاء على القدس أنشأ رئيس المستشفى (جـيرارد دي مارتيز) تنظيماً منفصلاً أسماه "رهبان مستشفـى قديس القدس يوحنا" وهؤلاء بحكم درايتهـم بأحوال البـلاد قدموا مساعدات قيمـة للصليبيين؛ وخاصة بعد أن تحولـوا إلى نظام فرسان عسكريـين بفضل ريموند دي بوي (خليفـة مارتينز)، الذي أعاد تشكيل التنظيـم على أساس عسكري مسلـح باركـه البابا (نوسـت الثاني) ١١٣٠م، حتـى قيل: "إن الفضـل في بقاء مدينـة القدس في يد الصليبيـين واستمـرار الحيوية فـي الجيوش الصليبية يعـود بالأساس إلى فرسـان الأسبتارية بجانب فرسان المعبد، وقد كان تشكيل تنظيم الأسبتاريين ينقسم إلى ثلاث فئات:

فرسان العدل الذين هم من أصل نبيل (نبلاء)، وأصبحوا فرساناً.

القساوسة الذين يقومون على تلبية الاحتياجات الروحية للتنظيم.

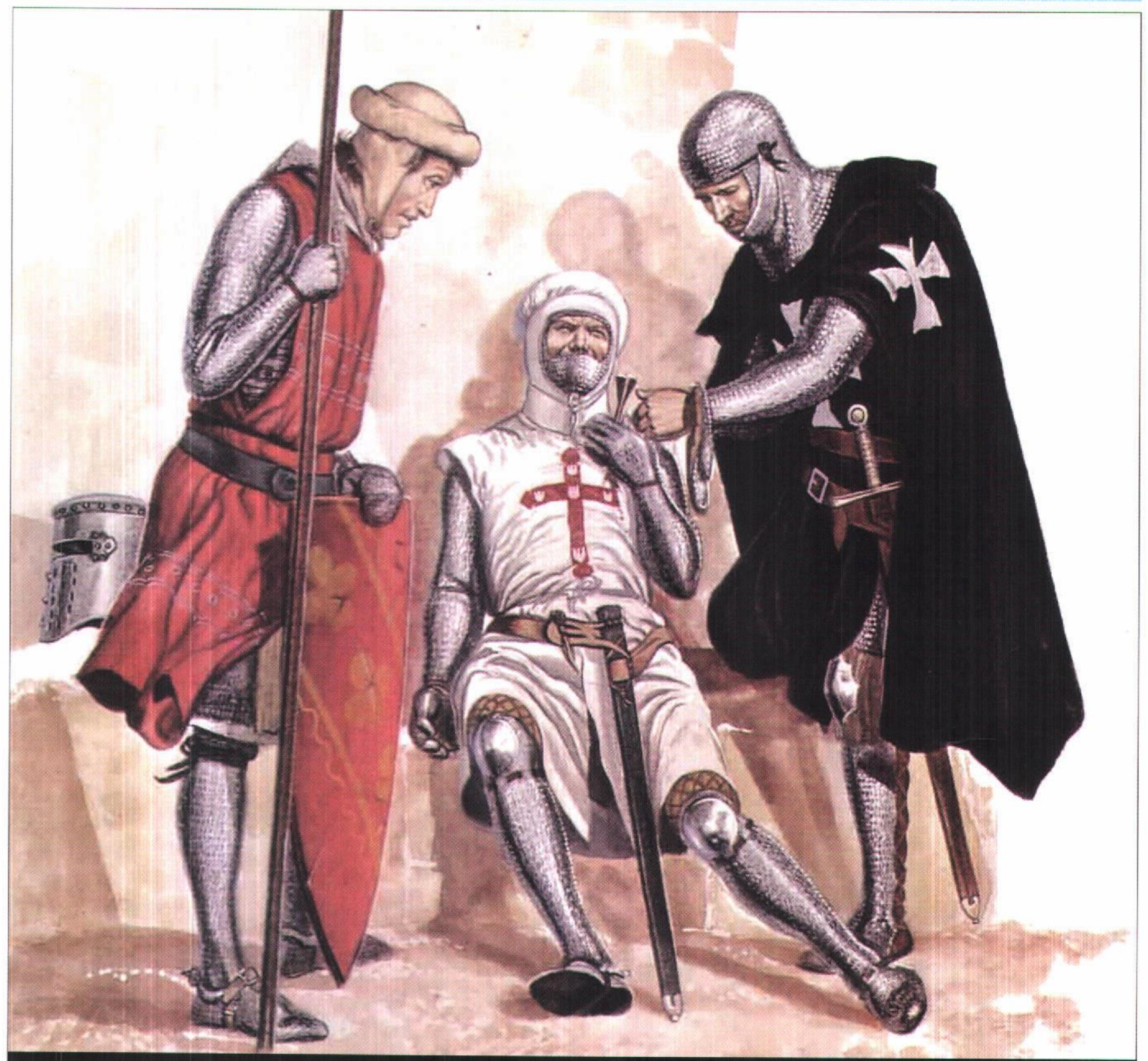
إخوان الخدمة، وهم الذين ينفذون الأوامر الصادرة إليهم.

وهـذا فضلاً عـن الأعضاء الشرفيين ويسمون الجوادين الذين يساهمـون بتقديم الأموال والأملاك للتنظيـم، وبفضل عوائد هذه الأملاك وكذلك الهبات والإعانـات (عُشر دخل كنائس بيت المقدس كان مخصصـاً لمساعـدة فرسان القديسـ يوحنا)، أخذ نفـوذ الفرسان ينمو ويتطور، حتـى أصبحوا أشبه بكنيسة داخل الكنيسة.

بعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م على يد صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - هـرب الفرسـان الصليبيون إلى البـلاد الأوروبية. وبسقـوط عكًا سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م، طُرِدَ الصليبيون نهائيًا من الشام، واتجهت هيئات الفرسان إلى نقل نشاطها إلى ميادين أخرى:

السيد الأكبر وكبار فرسان المستشفى في القرن ١٤م. اتجه الفرسان التيوتون نحو شمالي أوروبا، حيث ركزوا نشاطهم الديني والسياسي قرب شواطئ البحر البلطيكي.

نـزح (الداويـة) أو فرسان المعبـد إلى بلدان جنوبي أوروبـا وخاصة فرنسا، حيث قضـى عليهم فيليب الرابع فيما بعد ١٣٠٧- ١٣١٤م.



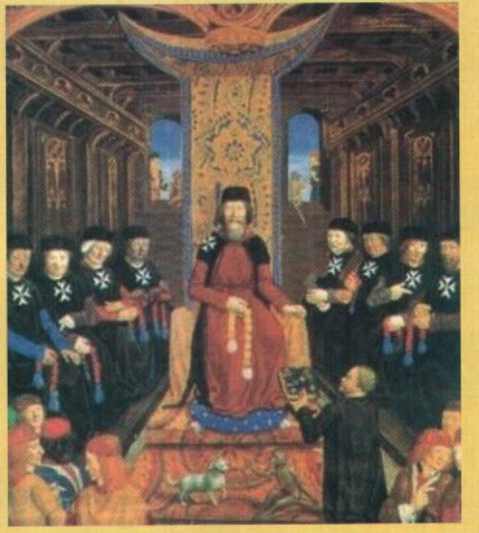
مرتسم لجنود الأسبتارية في العصور الوسطى

استهـدف السلطـان المملوكـي (جقمـق) **جزيـرة رودس**، وحينمـا علم (لاستيـك)، رئيـس الفرسان بالمحادثـات التـي جرت العاهلين المملوكي والعثمـاني الخاصة بالجزيرة، فقام ليدفع هـذا التحالف. فأجرى اتصالات عاجلة مع السلطان مراد الثاني، وعرض عليه تجديد المعاهدة القديمة بين العثمانيين والأسبتارية، فرفض السلطان العثماني ذلك، فتحول عندئذ إلى السلطان المملوكي (جقمق)، فأراد أن يستوثق من جانبه، فأرسـل مندوبـاً عنـه إلى القاهرة ليقـف على استعداداتـه. وفعلاً علم هـذا المندوب باستعـدادات المماليك العسكريـة، فأخذ يحصن الجزيرة، واستعد للمجابهة العسكرية. نقولا زيـادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص ١٩٧ - ١٩٨.

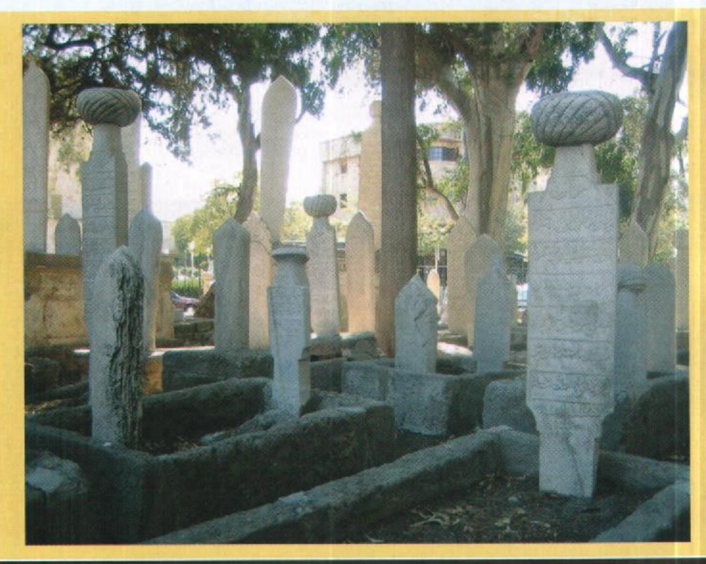
فرسـان الأسبتاريـة (المستشفى) الذين ظل وجودهـم حتى اليوم، فقد اتجهوا فـي البداية إلى مدينة صور، ثم إلى المرج (في ليبيا حالياً)، ومنها إلى عكَّا ثم **ليماسول** في **قبرص** ١٢٩١م.

ومـن قبرصـ استمر فرسان الأسبتارية في مناوشة المسلمين عن طريق الرحلات البحرية ومارسوا أعمال القرصنة ضد سفن المسلمين، إلا أن المقام لم يطب لهم هناك، فعمد رئيسهم (وليم دي فاليت) للتخطيط **لاحتلال رودس وأخذها من العرب المسلمين** وهو ماقام به أخوه وخليفته (توك دي فاليـت) في حـرب صليبية خاصة (١٣٠٨ - ١٣١٠م) ليصبح اسم نظـام الفرسان الجديد يسمى (النظام السيادي لرودس) أو (النظام السامي لفرسان رودس). وفي رودس أنشأ تنظيم الأسبتاريين مراكـزه الرئيسة، وازدادت قوته ونفوذه خاصــة بعد أن تم حل تنظيم فرسان المعبد، وآلت بعض ثرواته للأسبتاريين.

ولأن **أرض رودس** كانـت بمثابة نقطـة إستراتيجية مهمة، فقـد عمد الأتـراك المسلمون بدورهم للاستيلاء عليها، خصوصاً مع تزايد قرصنة الصليبيين لسفنهم، وذلك بعد حصار وضغط متواصلين (أهـم حصارين ١٣١٠، ١٤٨٠م) مما أجـبر رئيسهم فيليب ري ليل آدام على الاستسلام في ١٥٢٢م، والهجـرة عن الجزيرة في أول يناير م١٥٢٣ بين عدة مدن منها: (سيفليل إسبانيا) و(كاندي سيلان) و(رومـا إيطاليـا)، إلى أن منح الملك (شارك كنـت) للأسبتاريين السيادة علـى جزيرة مالطا في ٢٤ مارسـ ١٥٣٠م، وبجانب سيادتهم على مالطا (بوثيقة شارك كنت) كانت لهم السيادة كذلك على عدة جزر صغيرة تابعة لمالطا مثل (دي جوزوا وكومين).



السيد الأكبر وكبار فرسان الأسبتارية في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي



شواهد قبرية مكتوبة باللغة العربية لمقبرة قديمة في جزيرة رودس



② وصلـت الحملـة الأولى إلى **جزيرة رودس**، وهناك وجد المسلمون أن الفرسـات الأسبتاريـة علـى أتم الاستعـداد لمواجهـة الهجـوم. ودارت بين الطرفـين معـارك بحريـة وبرية عـدة انتهت بفشل الحملة فـي اقتحام الجزيـرة، فانسحبوا في أثناء الليل عائدين إلى مصر، حيث كانت الحملة صغيرة، لم تستطع أن تقوم بعمل يسترعي الانتباه ومنيت ببعض الخسائر، مما دفع السلطان جقمق لإعداد حملة ثانية كبرى عهد بقيادتها إلى الأمير إينال العلائي.

① تكونت الحملة الأولى من خمس عشرة سفينة حربية على متنها ١٠٠٠ محارب، بقيادة الأمير تغري برمش السـلاح دار، ويونس المحمودي أمير آخور. خرجـت الحملة من **دمياط**، واتجهت إلى **قبرص** للتموين بوصفها قاعدة مملوكية حيث قدّم لها الملك حنا الثاني المؤن والذخائر. ثم توجه الأسطول إلى **جزيرة رودس**.



(٢) عنـد وصـول الحملـة إلى مينـاء العلايا، حدث أن جزيرة صغيرة هناك تسمى الحصن الأحمر كانت تابعة لفرسان الأسبتارية، أطلقت مدافعها على الحملة، على سبيل السخرية، فأثار هذا العمل القادة المسلمين، فهاجموها واستولوا عليها. أدت هذه المجابهة إلى تغيير في وجهة سير الحملة بفعل نفاد المؤن والذخيرة واقتراب فصل الشتاء، مما حمل قائدها على العودة إلى مصر.

(١) اتجهت **الحملة الثانية** نحو **بيروت وطرابلس** لتنضم إليها القوات الشامية، ثم توجهت إلى **ليماسول** في قبرص للتزود بالمؤن، ومن هناك تحركت إلى ساحل آسيا الصغرى الجنوبي عند **ميناء العلايا** لتنقض على الجزيرة.

الحملة المملوكية الثالثة على رودس سنة ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤م



٢ بعد حصار عنيف من المماليك **لجزيرة رودس**، استمر أكثر من ٤٠ يوماً، صمدت العاصمة أمامهم، ولاسيما بعد دخول قوات أوروبية على خط المعركة. مما أدى إلى هجوم عكسي رأى من خلاله المماليك الانسحاب إلى دمياط، فقام الأسبتارية بمهاجمة شواطئ الأسكندرية، ودمياط، وصور، وانتهت هذه الحملات بتوقيع هدنة بين الطرفين، كثيراً ما قام الأسبتارية بخرقها، حيث لم يستطع المماليك القضاء على الأسبتارية، بفعل ظهور قوى أخرى جديدة معادية لها في الميدان البحري، كقوة الأتراك العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط، وقوة البرتغاليين النامية في المحيط الهندي والبحر الأحمر.

١ اتجهت **الحملة الثالثة** نحو **رودس** مباشرة بقيادة إينال العلائي للقوات البرية، والأمير تمر باي قائداً للأسطول، وانضمت إليها قوات نيابات بلاد الشام حتى أضحى عدد أفرادها ١٥٠٠ رجل، دون أن تمر بقبرص وآسيا الصغرى، وتمكن المسلمون من إنزال قواتهم إلى البر، حيث جرى قتال عنيف، وحاصروا العاصمة.

الملك الأشرف قايتباي ٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م

هو السلطان **قايتباي الأشرفي** المحمودي الظاهري أبو النصر سيف الدين، جركسي الأصل، جلبه إلى مصر التاجر محمود بن رستم سنة ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥م، فاشتراه الأشرف برسباي، ثم انتقل ملكه إلى الظاهر جقمق، ولذلك يُنسب إلى الأشرف برسباي وإلى تاجره محمود وإلى الظاهر جقمق؛ فيقال: الأشرفي المحمودي الظاهري، ثم أعتقه الظاهر جقمق، واستخدمه في جيشه، فأخذ يترقى في المناصب حتى وصل إلى العرش، وصار سلطاناً لمصر عام ٨٧٢ هـ/١٤٦٧م، ومن ثمّ فهو الحادي والأربعون من سلاطين المماليك في الديار المصرية، والخامس عشر من سلاطين دولة المماليك البرجية أو الجركسية[١].

كانت مدّة حكمه عامرة بالأمور العظام والحروب، وقد واجه في بداية حكمه جملة من الصعوبات والعقبات، منها فرار السلطان السابق «تمر بغا» من سجنه بدمياط إلى بلاد الشام، ومنها إلى حلب، فعمل قايتباي على القبض عليه وإعادته إلى سجنه، ومنها خلو الخزائن من الأموال التي كان يحتاجها لإعداد جيشه لمواجهة الأخطار الخارجية، فتجاوز هذه المشكلة حتى وصل ما أنفقه على جيوشه ما يقارب سبعة ملايين وخمسمئة وستين ألف دينار، عدا ما كان ينفقه على الأمراء والجند عند عودتهم من جبهات القتال.

ومن الأخطار التي واجهها قايتباي استيلاء سوار بن سليمان بن الناصر التركماني على أملاك الدولة في شمالي بلاد الشام والبلاد الحلبية، واستيلاؤه على قلعة إياس، فوجه إليه قايتباي جيوشاً عدة باءت بالإخفاق، إلى أن وجّه إليه حملة كبيرة عام ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠م، فهزمت سواراً وجنوده، واستعادت شمال البلاد الشامية والحلبية، وحُوصر سوار وجنوده في قلاعهم حتى استسلموا، فسيقوا إلى مصر، وهناك تمّ شنق سوار[٢].

ومن تلك الأخطار إغارة ملك العراقيين حسن الطويل على أملاك الدولة في الشام، فساق إليه جيشاً قوياً بقيادة الأمير يشبك الدوادار، فهزمه، وتابع يشبك مسيره، وأخمد فتنة حدثت في حماة سنة ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م، ثم سار إلى شرقي الفرات، ولكنه أصيب بهزيمة كبرى عند حصاره مدينة الرُّها، وقُتل أمامها هو وكثير من جنوده، وكادت البلاد الشامية والحلبية أن تفلت من يد مصر لولا أن تدارك قايتباي الخطر، وبعث بحملة جديدة بقيادة أزبك بن ططخ، فأعادت الأمن في تلك البلاد.

ولم يلبث قايتباي بعد ذلك أن واجه عدوّاً جديداً أخذ يطغى على أملاك الدولة، ويغير على أطرافها، وهذا العدوّ هو العثمانيون الذين لم يكتفوا بالعدوان على البلاد، بل قاموا بتحريض عليّ دولات أخي سوار على الثورة على السلطان، وعاونوه على ذلك، فحاربه السلطان، وسيّر إليه جنداً من مصر وحلب فهزموه

---

١ - ٢، عمار النهار، الموسوعة العربية، سوريا.



بعد موت "الظاهـر جقمق" ازدادت تصرفات جنود المماليك سوءًا، وكثرت ثوراتهـم ممـا أدى إلى ظهور نـزاع اكتسب في هذه الفـترة صفة جديدة غـدا فيها السلطان أضعـف من أن يحافظ علـى سلطتـه أو أن يمر عهده دون ميزة تميـزه ، فحكم على هذا المنوال "المنصورعثمـان بن جقمق" لمدة (٤٣يوماً)،ثم تم عزله وتـولى عرش السلطنة "أحمد بن إينـال" (١٤٦١م) حيث حكم لعدة أشهر، ثم استـولى على الحكم " خشقدم" (٨٦٥-٨٧٢ هـ / ١٤٦١ – ١٤٦٧ م)،ثـم حكـم " بلبـاي" عـدة أشهـر، ثـم "الظاهر تمربغـا" (الثور الحديدي) لعدة أشهر، ثم " خاير بـك" الـذي تسلم الحكـم فقط ليلـة واحـدة، إلى أن وصل إلى الحكم " قايتباي" (٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م).

قـال ابن تغـري بـردي واصفاً حـال بعض سلاطـين المماليـك:« وهـؤلاء آسـت في الماء وأنـف في السمـاء، لا يهتـدي أحدهـم لمسك لجام الفرس، وإن تكلم تكلم بنفس، ليس لهم صناعـة، إلا نهـب البضاعـة، يتقـوون علـى الضعيـف، ويشرهـون حتـى في الرغيـف، جهادهـم الإخـراق بالرئيس، وغزوهـم في التـبن والدريس، وحظهم منقـام، ولا مروءة لهـم والسـلام. انتهى». النجـوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، ص ٢٤٨ .

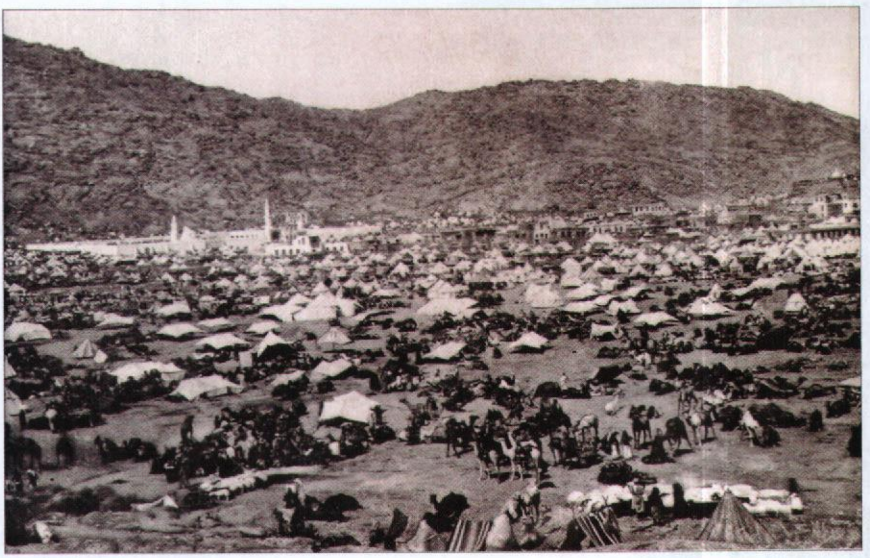
مرتسـم لجنـدي مصـري مـن القـرن الخامس عشـر الميلادي بلباسـه العسكـري وهـو مدجـج بكامل أسلحته التقليدية.

شـر هزيمة، وكانت هذه الحادثـة هي بدء النزاع الذي وقع بين المماليك والعثمانيين، والذي نما في المستقبل حتى أفضى إلى السيطرة العثمانية[١].

حارب السلطان قايتباي العثمانيين أكثر من مرة، وانتصر عليهم مرات عدّة، فمثلاً خرجت إليهم جيوشه عـام ٨٩٣ هـ/١٤٨٧م، بقيادة أزبك بك، وألحقت بهم هزيمة منكرة، وخرجت إليهم حملة أخرى عام ٨٩٥ هـ/١٤٨٩م، فوصلت في زحفها إلى بلاد العثمانيين نفسها في آسيا الصغرى[٢].

كان لقايتباي محاسن كثيرة، منها أعماله العمرانية في مختلف بقاع الدولة المملوكية، فقام ببناء المساجد والمدارس والربط والزوايا، وقام بتجديـد كثير من هذه المؤسسات الدينية والعلمية وإصلاحها، واهتم أكثر ما اهتم بالأراضي المقدسة في الحجاز، فشيّد جامع الخيف في مِنى، وقام بإعمار مسجد نمرة في عرفة من جديد، وأعاد بناء الحرم النبوي الشريف عام ٨٨٦ هـ/١٤٨١م، بعد أن شبّت فيه النار، وأنشأ بمكة المكرمة مدرسـة جليلة بجانـب المسجد الحرام عند باب السلام، وبنى بجانبها رباطـاً لطلبة العلم والفقراء، وأنشأ مدرسـة بديعـة في المدينة المنورة، وعمّـر درجاً للمزدلفة، وأنشأ العديد من بـرك المياه هناك، وأعاد الحياة لعين عرفة بعد انقطاعها أكثر من قرن، وأجرى إليها المياه، كما قام بإصلاح بئر زمزم.

وبنـى بمصـر - وبالقاهـرة تحديداً - عدداً من المساجـد والمدارس والزوايا، وشيّـد مدرسة بدمياط، وقام بإصـلاح الجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص وجامـع قايتباي وتجديدها، وبنى في بيت المقدس مدرسة، ومثلها في غزة، إضافـة إلى رباط للمتصوفة. تُوفِّي قايتباي، بعد أن اشتد عليه المرض، وبعد أن حكم البلاد تسعاً وعشرين سنة تقريباً[٣].



منظـــر عـــام لمنـــى أيـــام الحـــج، ويظهـــر مسجد الخيـف والـذي أمــــر بتشييده السلطان المملوكي قايتبـاي في عهده، مصدر الصـورة (أنجلوبيشـي) ص ٤٤.

١ - عمار النهار، الموسوعة العربية، سوريا.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

٣ - عمار النهار، الموسوعة العربية، سوريا.



مرتسم لجندي مملوكي من حلب يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي

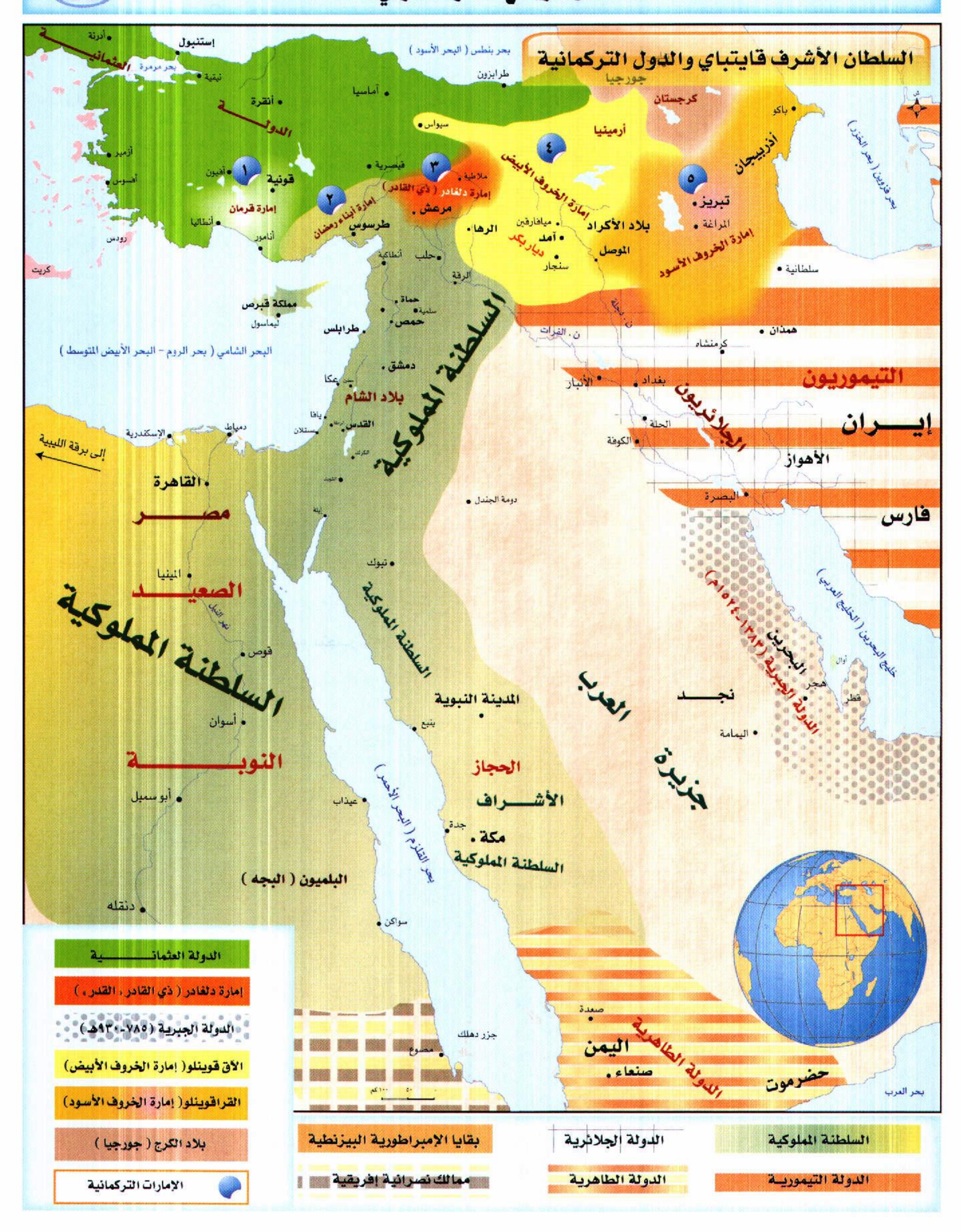
السلطان الأشرف قايتباي والدول التركمانية

بدأت علاقة المماليك بالتركمان منذ عهد السلطان المؤيد شيخ حينما أغار على **تركمان تلك المناطق** ١٤١٨ – ١٤١٩ م، لكن زعيم إمارة الآق قوينلو (دولة الخروف الأبيض) أوزون حسن، أغار هو الآخر على حدود الدولة المملوكيـة، ممـا جعل برسبـاي يرسل حملـة لتخريب الرهـا التابعة لحكـم أوزون حسن سنـة ١٤٣٠ م، وأدبت التركمان دون أن يكون لها الأمر الحاسم في المنطقة.

ومع ازدياد تدخل العثمانيين في هذه الدويلات التركمانية جعل بعضها تعاود التحرش بالحدود الشمالية لدولة المماليك. وحينما تولى **قايتباي** السلطنة، أعد حملة (٨٧٦-٨٧٧ هـ/ ١٤٧٢ م) ووضع على رأسها الأمير يشبك الـدوادار الـذي اصطـدم مع تركمان إمـارة **دلغـادر (ذو القادر)**، وتمكن مـن إنزال الهزيمة بـ شاه سوار، والاستيـلاء علـى قلعة عينتاب و أضنـه وطرسوس. والقبض على شاه سوار وإرسالـه إلى القاهرة، في حين أخذ الأمـير يشبـك الدوادار يعمل على تنظيم شؤون هذه الإمارة، فعين على مرعش و البستان أخاه شاه بداق، الذي كان هـواه في الأصـل مـع المماليك، بينمـا كان هوى شاه سـوار مع العثمانيـين، ثم قفل راجعـاً إلى مصر. حيث استقبلـت هذه الحملة في مصر استقبالاً حافلاً. في حـين أمر السلطان قايتباي بشنق شاه سوار على باب زويلة. ثـم مـا لبث حسن الطويل أوزون زعيـم دولة الآق قوينلو (دولة الخروف الأبيض) أن هاجم أعمال حلب، فجرد السلطان حملة أخرى بقيادة يشبك الدوادار سنة ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٢م اصطدمت بجيش زعيم إمارة الآق قوينلو عند منطقة البيرة على نهر الفرات وانتصرت عليه.

بعـد هـذا الانتصار حصل خـلاف بين حسن الطويل و ابنه محمد أغورلو. واستجارت زوجة حسن الطويل وأم أغورلـو بالسلطـان قايتباي في القاهرة. ليحل الخلاف بين ابنها وزوجها فوعدها خيراً، كما انتشر وباء الطاعون في هذه الفترة في العراق ومات فيه الألوف، حسب ما ذكر ابن آجا الحلبي قاصد السلطان إلى حسن الطويل فهدأ النزاع بين الطرفين.

وفي (سنـة٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م) جـاءت الأخبار بوقوع فتنة كبـيرة في حماة، قتل فيها نائب حماة الأمير أزدمر ابـن أزبـك وذلك في معركة بينه وبين سيف أمير عـرب آل فضل الذي خرج عن الطاعـة، فعين السلطان الأمير يشبك على رأس حملة للخروج إلى حماة، وكان يشبك طلب الخروج لخلاف بينه و بين جلبان السلطان و لتزيين بعضهم له فكرة السيطرة على العراق، ولما استقرت الحملة بقيادة يشبك في حلب علم بأن سيف أمير آل فضل الذي خرج بسببه قد هرب إلى الرها فقوي عزمه على ملاحقته وبالتالي تحقيق الهدف الذي خرج من أجله وهو إخضـاع إمارة الآق قوينلو مستغلاً فرصة الفوضـى التي عمت تلك الإمارة عقب وفاة حسن بك الطويل سنة ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠م، ولكـن حاكـم الرها بايندر نائب يعقوب بك بـن حسن الطويل تصدى للجيش المملوكي، و أنزل به الهزيمـة، وأسر قائد الحملة الأمير يشبك الدوادار وقتله. كما قتل الكثير من الأمراء المماليك مما دعا السلطان قايتباي أن يوقع **الصلح** مع يعقوب بك بن حسن الطويل.



السلطان الأشرف قايتباي والدول التركمانية
الدولة العثمانية
إمارة دلغادر (ذي القادر ، القدر ،)
الدولة الجبرية (٧٨٥-٩٣٠هـ)
الآق قوينلو(إمارة الخروف الأبيض)
القراقوينلو(إمارة الخروف الأسود)
بلاد الكرج (جورجيا)
الإمارات التركمانية
بقايا الإمبراطورية البيزنطية
ممالك نصرانية افريقية
الدولة الجلائرية
الدولة الطاهرية
السلطنة المملوكية
الدولة التيمورية
إستنبول
أنقرة
قونية
إمارة قرمان
طرسوس
مرعش
الرها
آمد
ديار بكر
بلاد الأكراد
الموصل
تبريز
أذربيجان
أرمينيا
كرجستان
إمارة الخروف الأبيض
إمارة الخروف الأسود
إمارة دلغادر (ذي القادر)
إمارة أبناء رمضان
التيموريون
إيران
الأهواز
فارس
الجلائريون
مملكة قبرص
طرابلس
حمص
دمشق
بلاد الشام
القدس
السلطنة المملوكية
القاهرة
مصر
الصعيد
السلطنة المملوكية
النوبة
البلميون (البجه)
المدينة النبوية
الحجاز
الأشراف
مكة
السلطنة المملوكية
جزيرة العرب
نجد
البحرين
الدولة الجبرية (١٣٨٢-١٥٢٤م)
اليمن
صنعاء
حضرموت
الدولة الطاهرية
البحر الشامي (بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط)
بحر بنطس (البحر الأسود)
بحر القلزم (البحر الأحمر)
خليج البحرين (الخليج العربي)
بحر قزوين (بحر الخزر)
بحر العرب
إلى برقة الليبية

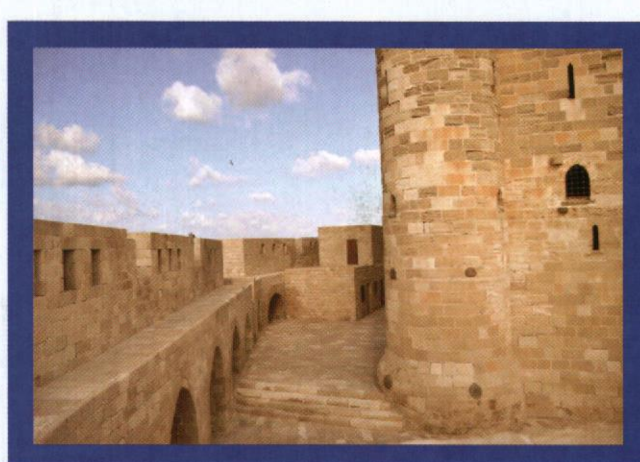
قلعة السلطان قايتباي بالإسكندرية

تقـع هـذه القلعة في نهاية جزيرة فاروس بأقصى غربي الإسكندرية. وشيدت في مكان فنار الإسكندرية القديم الذي تهدم سنة ٧٠٢هـ أثر الزلزال المدمر الذي حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وقـد بدأ السلطان الأشرف أبو النصر قايتبـاي بناء هذه القلعة في سنة ٨٨٢هـ وانتهى من بنائها سنة ٨٨٤ هـ. وكان سبب اهتمامه بالإسكندرية كثرة التهديدات المباشرة لمصر من قبل خصومها .

وتأخذ هذه القلعة شكل المربع تبلغ مساحته ١٥٠م×١٣٠م، يحيط به البحر من ثلاث جهات. وتحتوي هذه القلعة على الأسوار والبرج الرئيس. وتنقسم الأسوار إلى سور داخلي وآخر خارجي. فالسور الداخلي يشمل ثكنـات الجند ومخازن السلاح. أما السور الخارجي للقلعة فيضم في الجهات الأربعة أبراجاً دفاعية ترتفع إلى مستوى السور باستثناء الجدار الشرقي،الذي يشتمل على فتحات دفاعية للجنود.

ويتخذ البرج الرئيس في الفناء الداخلي شكل قلعة كبيرة مربعة الشكل طول ضلعها ٣٠م وأرتفاعها ١٧م وتتكـون القلعـة من ثلاث طوابـق، وتوجـد في أركان الأبراج الأربعة أبـراج نصف دائرية تنتهـي من أعلى بشرفـات بارزة تضم فتحات لرمي السهام على مستويين، ويشغـل الطابق الأول مسجد القلعة الذي يتكون من صحن وأربعة إيوانات وممرات دفاعية،تسمح للجنود بالمرور بسهولة خلال عمليات الدفاع عن القلعة. وكان لهذا المسجد مئذنة ولكنها انهارت مؤخراً.

أمـا الطابـق الثاني فيحتوي على ممرات وقاعات وحجـرات داخلية. ويضم الطابق الثالث حجرة كبيرة (مقعد السلطان قايتباي) يجلس فيه لرؤية السفن على مسيرة يوم من الإسكندرية،يغطيه قبو متقاطع،كما يوجـد في هذا الطابق فـرن لإعداد الخبز البُر المصنوع من القمح، وكذلـك طاحونة لطحن الغلال للجنود المقيمـين في القلعـة. وقد جدد السلطان قانصوة الغوري القلعة،وزاد من حاميتها،وقد أهملت هذه القلعة في فترة الحكم العثماني لمصر.



بنيـت أسـوار القلعة من الحجـر، وتحيط بالبرج الرئيس مـن جميع جهته ما عدا الجهـة الشمالية، ويتخلـل هـذا السـور مـن الداخـل مجموعـة مـن الحجـرات المتجاورة أعـدت كثكنـات للجند، وهي خاليـة مـن أي فتحـات، ما عـدا فتحـات الأبواب وفتحـات مزاغـل خصصت لتكون فتحـات للتهوية من ناحية، وكفتحات للدفاع من ناحية أخرى.

قلعة قايتباي بالإسكندرية والتي تأخذ شكل المربع تبلغ مساحتها ١٥٠م×١٣٠م، يحيط بها البحر من ثلاث جهات

مسجد القلعة الذي يتكون من صحن وأربعة إيوانات وممرات دفاعية

حركة النهضة الأوربية في أواخر العصور الوسطى

حركـة النهضـة : هي حركة إحياء التراث القديم، أما بمعناهـا الواسع؛ فهي عبارة عن ذلك التطور القديم في كل من الفنون والآداب والعلوم، وطرق التعبير، و الدراسات، وما صاحب ذلك من تغير في أسس الحياة الاجتماعية، و الاقتصادية، والدينية، و السياسية.

أمـا عصر النهضـة : فهو مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون ١٤ - ١٦،ويؤرخ لها بفتح العثمانيين للقسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م حيث نزح العلماء إلى إيطاليـا حاملـين معهم تراث الإغريق و الرومان. كما يدل هذا المصطلح علـى التيارات الثقافية و الفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن الرابع عشر م ، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين الخامس عشر و السادس عشر الميلاديين، ومن إيطاليا انتشـرت النهضة إلى فرنسا و إسبانيا و ألمانيا و هولندا و انكلترا وإلى سائـر أوروبا. وقد ازدهرت النهضة الإيطالية إذ وجدت لها أنصاراً يصرفون عليها المال الوفير، مثل أسـرة ميديشـي في فلورنسا، و سفـورا في ميلانو، والبابـاوات في روما. وقد بلغت البندقيـة ذروة عظمتها الثقافية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي .

ومـن أعظـم شخصيـات النهضـة في المجال الفنـي ليوناردو دافينشـي، و مايكل أنجلـو، و مكيافيلي، وغيرهـم، وقد كان لهذه الحقبـة تأثير واسع في الفـن والعمارة وتكوين العقـل الأوروبي الحديث، وعودة واعية للأنماط الكلاسيكية، واتسمت هذه الفترة باكتشاف أراضي وشعوب جديدة من خلال ظهور طائفة كبـيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين، منهم الأمير هنري الملاح، و كرستوفر كولومبوس، و فاسكو دا غاما.

من نتائج النهضة الأوروبية :

١- انحـلال الإقطـاع: سار نظام الإقطاع في عصر النهضة على طريـق التلاشي و الزوال نتيجة موت عدد كبـير من أمراء الإقطاعيـين في الحروب الصليبيـة، وانصراف بعض الإقطاعيـين إلى ممارسة التجارة، فتحـرر الفلاحـون والأقنان ولم يتمكن من بقي مـن الإقطاعيين من مقاومة التغـيرات التي حصلت نتيجة النهضة.

٢- ظهـور الدول الحديثة: عبر تطوير أساليب الحكم، وقـد ساعدتهم في ذلك الأفكار الجديدة،مثل أفكار المفكريـن مكيافيلـي الايطـالي وجـون رودان الفرنسـي والانجليـزي هوبـس،وتدفق الـثروات الناتجة عن الكشوفات الجغـــرافية الكبرى، واســتغلال مناجم الذهب والفضة للقارة الأمريكية، خاصة من طرف إسبانيا والبرتغال في البداية. فساندت الطبقة المتوسطة الملوك على استتباب الأمن والنظام، والقضاء على

الإقطـاع فضـلاً عن تكون الرأي العام ونمو اللغـات المحلية وظهور الروح القومية، ولقـد كان لهذه العوامل أثرها الفعال في قيام الدول الأوروبية الحديثة.

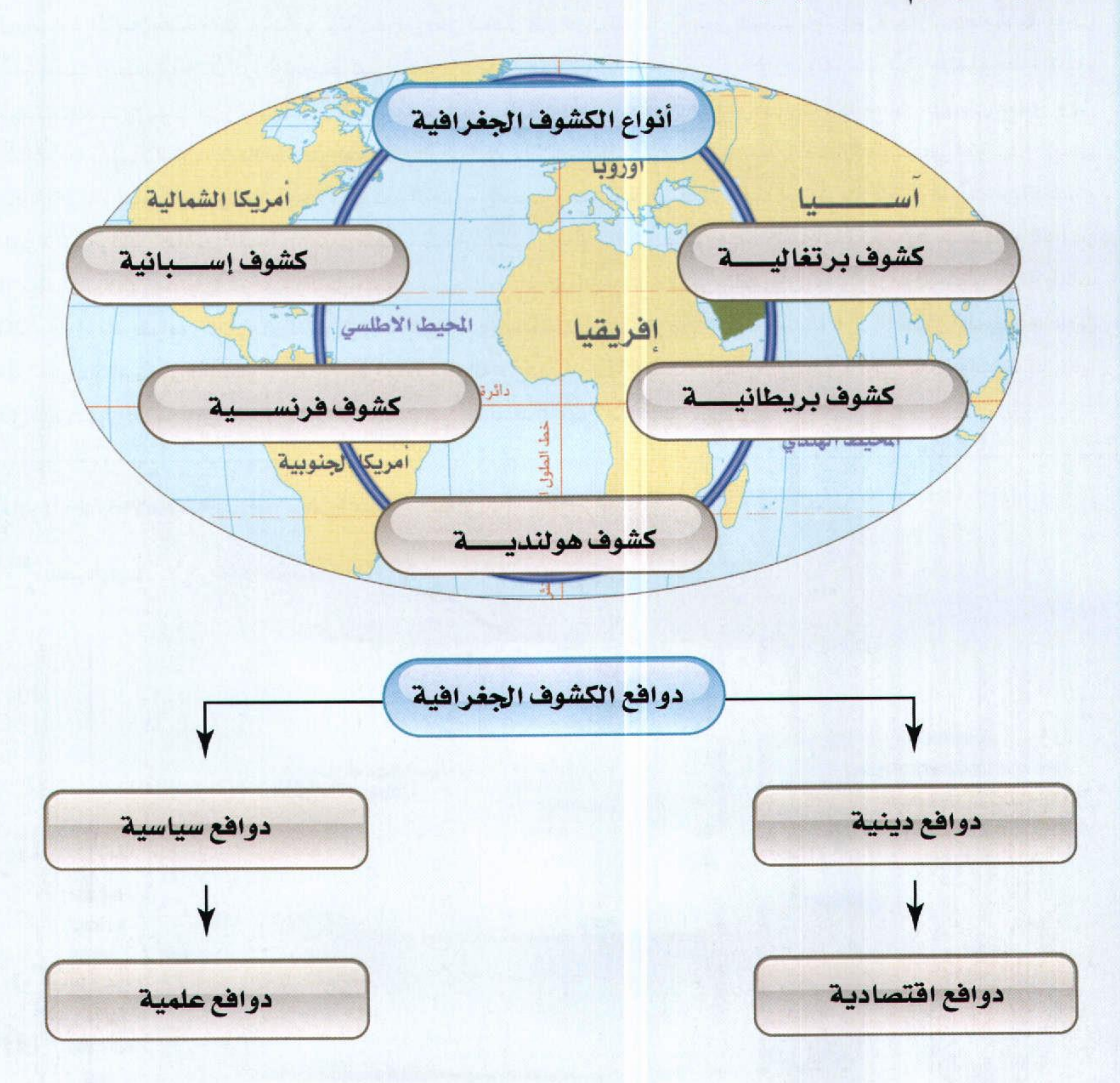
٣- إحيـاء الدراسات القديمة: استهوت الدراسات الإغريقية واللاتينية عقول الكثيرين من الأوروبيين وقد وجدوا معظم مجلداتهم في الكنائس والأديرة، فعكفوا على دراستها، وترجمتها إلى اللغات المحلية مما فتح نوافذ المعرفة أما غالبية الشعب للمرة الأولى.

الحضارة الإسلامية: نشـأت في بيئة عذراء، ومن قبائل هي أقرب للفطـرة مـن الشعـوب المجاورة لها، ثـم صـاغها الوحي فأخرجـت زرعـاً «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» الفتح ٢٩، هذه النبتـة الأصيلة، زاد عطاؤها ونما خيرهـا، حينما وجدت الأبناء الأوفيـاء الذيـن رعوها حق رعايتها، حتى تفيأ العالم بأسره ظلها الوارف، وخيرهـا المتدفق. فقد كانت العصور الوسطى عصور جهل وظـلام، باستثنـاء البلاد الإسلامية التي نعمـت بهذه الحضارة الزاهية؛ فالحضارة الإسلامية؛ حضـارة قامت على التوحيد والإيمان بـالله وكتبـه واليوم الآخر، وتتمثل الأخلاق وتنتهج الوضوح والصدق وهـي أمور انسلخت منها الحضارات الأخرى فتعرّت من الفضائل التـي لا تقـوم بغـير هاتيك المقومات وغدت منهـا مفلسة. لذلـك رأت أوروبا في عصورهـا المظلمة الخروج من هـذا الظلام الدامس بالتعرف على هذه الحضارة الزاهية والنهل منها، فأصبحت بغداد ودمشق وبيت المقدس والقيروان وفاس وقرطبة وصقلية؛ قبلة طلاب العلـم ورواد المعرفـة من كل أرجاء الدنيا. إن هذا النور الذي استمر شعاعـه أكثر من ألف سنة، يدعونا إلى التساؤل المنطقي: ما الذي تغير حتى عاد المسلمون فانتكسوا؟ وكيف حط التخلف رحاله في ديارنا بعد أن ظلت الحضارة الإسلامية أولى الحضارات تقدماً ورقياً على مدى قرون عديدة؟ إن الإجابة على ذلك يكمن في "البعد عن منهج الله تعالى".



حركة الكشوف الجغرافية

الكشـوف الجغرافية :هـي استكشاف الأوروبيين لمناطق جديدة في العالم لم تكن معروفة لهم من قبل في القرنـين الخامسـ عشر والسادس عشر الميلاديين عبر مجموعة من الرحلات البحرية التي قام بها بحارة مهـرة توافرت لديهم الجرأة وحـب المغامرة والرغبـة في الاستكشـاف ، وساعدهم علـى تحقيقها الدعم والتشجيـع من قبـل الحكومات الأوربيـة آنذاك، و الاستفادة مـن علوم من سبقهم مـن الأمم في مجالات الجغرافيا وعلوم الملاحة البحرية.



أطلـس تاريــخ العصر المملوكي



ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧م)

ابن بطوطة ١٣٢٤-١٣٥٥م

طريق الحرير



ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م)

(١٢٧١-١٢٩٥)

مكتشفون فرنسيون

(١٦٧٨-١٨٠٦م)



كروستوفر كولومبس (١٤٥١-١٥٠٦م)

الرحلة الأولى (١٤٩٢-١٤٩٣)

الرحلة الثانية (١٤٩٣-١٤٩٦)

الرحلة الثالثة (١٤٩٨-١٥٠٠)

الرحلة الرابعة (١٥٠٠-١٥٠٤)



فاسكو داجاما (١٤٦٠-١٥٢٤م)

المكتشفون البرتغاليون

ديوغو كاو (١٤٨٥-١٤٨٦)

بارتولوجونياز (١٤٨٧-١٤٨٨)

فاسكو داجاما (١٤٩٧-١٤٩٨)



فردناند ماجلان (١٤٨٠-١٥٢١م)

ماجلان (١٥١٩-١٩٢١)

بدرو فرنانديز (١٦٠٥-١٦٠٦)

سبستيان دي الكانو (١٥٢١-١٥٢٢)

فرانسيس دريك (١٥٧٧-١٥٨٠)

الشمال

المحيط المتجمد الشمالي

جرينلاند

أمريكا الشمالية

المحيط الأطلسي

أوروبا

آسيا

بحر بيرينج

مدار السرطان

المحيط الهادي

خط الاستواء

إفريقيا

المحيط الهندي

أمريكا الجنوبية

أستراليا

مدار الجدي

المحيط الأطلسي

كم ١٨٠٠ ١٢٠٠ ٦٠٠ ٠

القارة المتجمدة الجنوبية

جون كيوت (١٤٩٧)

مارتن فروبيشر (١٥٧٦)

هنري هدسن (١٦١٠-١٦١١)

جون فرانكلين (١٨٤٥-١٨٤٧)

رود أموندسين (١٩٠٣-١٩٠٦)

المكتشفون الإنجليز : جيمس كوك

الرحلة الأولى (١٧٦٨-١٨٧١)

الرحلة الثانية (١٧٧٢-١٧٧٥)

الرحلة الثالثة (١٧٧٦-١٧٧٩)

بارنتز (١٥٥٠-١٥٩٧)

وليم بارنتز (١٥٩٦-١٥٩٨م)

سيمون درنيف (١٦٤٨)

نلزنورد نسكجولر (١٨٧٨-١٨٧٩)

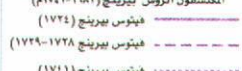
تسمان (١٦٠٣-١٦٥٩م)

كويروس توريس (١٦٠٥-١٦٠٦)

لويس توريس (١٦٠٦-١٦٠٧)

أبل تسمان (١٦٤٢-١٦٤٣)

المكتشفون الروس بيرينج (١٦٨١-١٧٤١م)



فيتوس بيرينج (١٧٢٤)

فيتوس بيرينج ١٧٢٨-١٧٢٩)

فيتوس بيرينج (١٧٤١)



هنري هدسن



جيمس كوك



بارنتز

تسمان



بيرينج

دوافع الكشوف الجغرافية :

١) رغبــة الأوروبيين في البحث عــن طرق تجارية لا تمر بأراضي المسلمــين بهدف حرمانهم من مصادر القوة الاقتصادية المتمثلة في العائدات التجارية الأمر الذي يؤدي إلى ضعفهم اقتصادياً وعسكرياً.

٢) محاولــة الأوروبيين للالتفــاف حول العالم الإسلامــي، ومن ثم سهولة القضــاء عليه؛ وذلك لفشــل أوروبا في الغــزو المباشر؛ نظــراً لوجود الدولة المملوكيــة والعثمانية اللتــان وقفتا ولقرون عديدة سدّاً حائلاً بين الصليبيين والعالم الإسلامي، فكانت رحلة كريستوفر كولمبوس التي ادّعى فيهــا اكتشافــه للعالم الجديــد، كان يتحدث آنذاك عــن نوايا لاحتلال بيت المقدس؟ ثم ساهم الصــراع الديني بــين الكاثوليك والبروتستانت في الهجرة والاستيطــان في الأرض الجديدة التي اغتصبوها من سكانها الأصليين.

٣) رغبــة دول أوروبــا في السيطــرة على بلاد جديــدة، وتوسيع ممتلكاتهم فيهــا والسيطرة على مقوماتها الاقتصادية خاصة بعد الزيادة الكبيرة في أعداد السكان في البلدان الأوروبية.

٤) رغبــة البرتغاليــين في الوصــول إلى مملكة الحبشــة والتحالف معها ضــد المسلمين من أجل حصارهم اقتصادياً وعسكرياً.

٥) دعــم الكنيسة الأوروبية والبابا على وجــه التحديد لحركة الكشوف الجغرافية حيث أصدرت البابويــة مراسيــم حــق ملكية الأقاليــم المكتشفة لملــوك البرتغــال والأسبان ووعــدت المغامرين بالغفران.

٦) الرغبــة في الحصــول على منتجات الشرق مــن المعادن النفيسة والعطــور والبخور والأقمشة الحريرية والمسك والتوابل مباشرة دون المرور بأراضي المسلمين.

٧) حــب المعرفــة الجغرافية والاستفادة من كل تراث المسلمين سواء على صعيد الكتب الجغرافية والخرائط. والرغبة في تأكيد نظرية كروية الأرض التي اقتنع بها مجموعة من البحارة المغامرين نتيجة تقدم البحث العلمي في أوروبا واطلاعهم على علوم من سبقهم .

من الجغرافيين المسلمين

الشريف الإدريسي : هو محمد بن عبد الله بن إدريس، عاصر ملك صقلية وألف له كتابه المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ثم قام برسم خريطة العالم بطريقة علمية غير مسبوقة، توفي عام ٥٦٠هـ .



كان طريق **رأس الرجاء الصالح** معروفاً للمسلمين قبل فاسكو دا غاما، ولكنهم لم يكونوا بحاجة للمرور منه، حيث كانت دولهم تطل على البحر المتوسط والبحر الأحمر، ويسيطرون على طرق التجارة العالمية؛ بفضل موقعهم الجغرافي المميز دون الحاجة إلى الالتفاف من طريق رأس الرجاء الصالح.

مرتسم للبحار البرتغالي فاسكو دا غاما

أثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح على الملاحة في موانئ الدولة المملوكية*

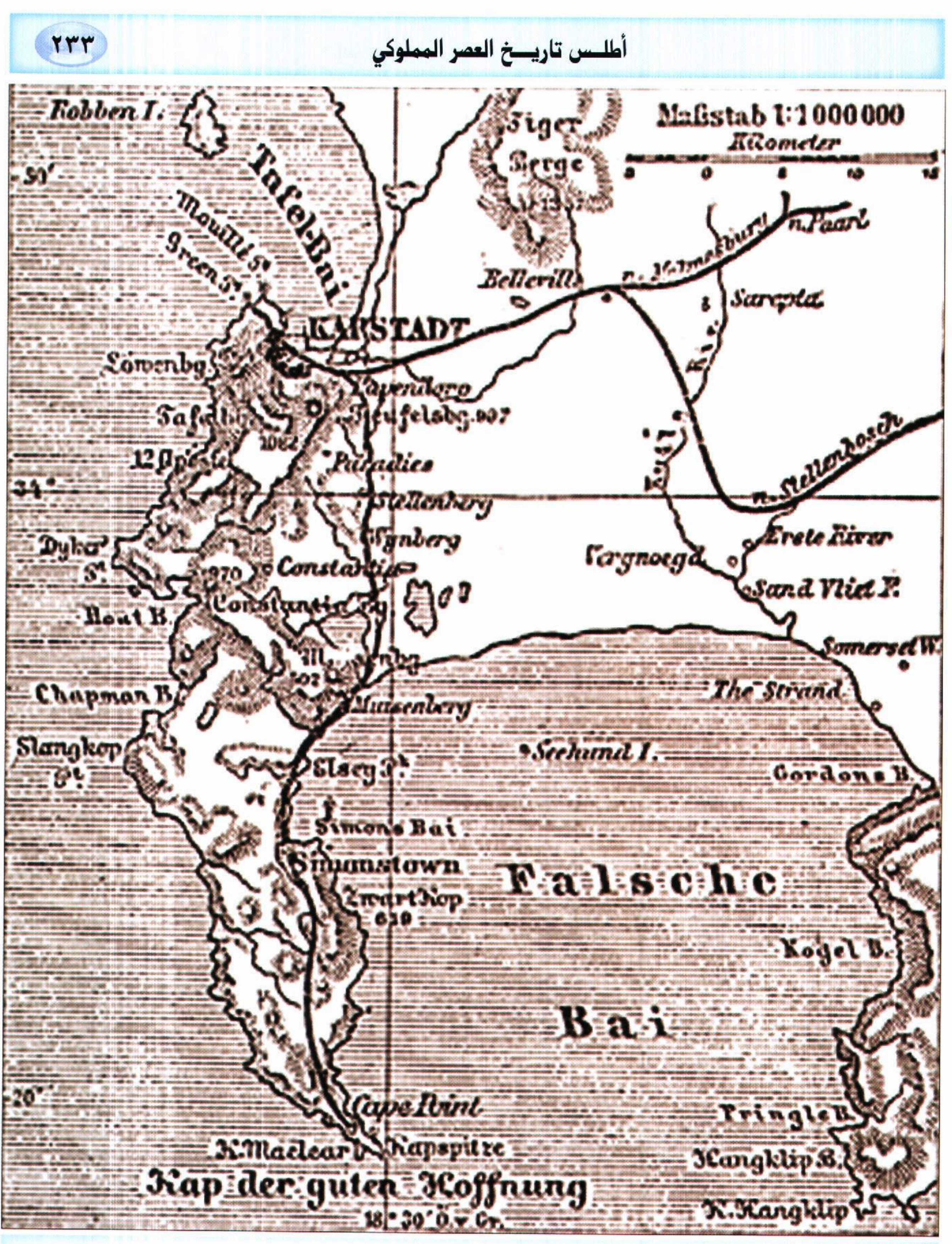
بعـد أن **تمكـن البرتغاليون** من الوصول إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ م. فقـد أخـذت التجارة الشرقية التي كانت تصل من المحيط الهنـدي. الذي كان أشبه بوعاء العسل، بمـا فيـه من خـيرات. تتحول إلى طريـق رأس الرجاء الصالـح، بحيث لم تعـد الإسكندرية في أواخر العصر المملوكي المركز الرئيس الذي تتجمع فيه السلع الشرقية، فيشتريها البنادقة وغيرهم.

ولما أصبح البرتغاليون يتحكمون في منابع هذه السلع من أرجاء المحيط الهندي بعد حركة الكشوف الجغرافيـة، لم تعـد هناك حاجـة إلى وساطة الإسكندريـة أو البندقية. تلك الوساطـة التي أدت إلى ارتفـاع أثمانها في الأسواق الأوربيـة. إذ كان ثمن **قنطار الفلفل** على سبيل المثال يتراوح بين ٢،٥ و٣ بندقيـات في قاليوقـوط (كلكتا)، ويصبح ثمنه بعد وصولـه إلى الإسكندرية ٨٠ بندقياً، في حين صار يبـاع في لشبونـه البرتغاليـة بعد الكشوف الجغرافية بسعـر يتراوح بين ٢٠ و٤٠ بندقيّـاً، أي أن أسعار السلـع انخفضت بواقع نصف قيمتها على أكـثر تقدير. كما أن السفن البرتغالية وفرت على المستهلك الأوربـي مشقة الوصول على السلع الشرقية حتى من لشبونـه التي أصبحت مركزاً لتجميع هذه السلع وتسويقهـا، إذ صـارت السفن البرتغاليـة تنقل السلع الشرقيـة مباشرة إلى مناطـق الاستهلاك مثل إنجلترا والأراضي المنخفضة وغيرها من الدول الأوربية.

وهكذا ذبلت مدينة الإسكندرية وغيرها من ثغور الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز وأقفرت أسواقهـا بعد أن انصرف عنها التجار الأوربيون نتيجة لتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالـح في نهايـة القرن الخامس عشر وبداية القرن السادسـ عشر الميلاديين. ويقول ابن إياس عن مدينة الإسكندرية في حوادث سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م، عندما زارها السلطان الغوري، إنها أصبحت: في غايـة الخراب بسبب ظلم النائب وجـور القباض. فإنهم صاروا يأخذون مـن التجار العشر عشرة أمثـال. فامتنـع تجار الفـرنج والمغاربة من الدخـول إلى الثغر، فتلاشـى أمر المدينـة، وآل أمرُها إلى الخـراب، حتـى قيل طُلب الخبـز، فلم يوجد بهـا، ولا الأكل، ووجد بعض الدكاكـين مفتحة والبقية لم تفتح. وواضح من كل ما تقدم أن تدهور الأحوال الاقتصادية في مدينة الإسكندرية وفي مصر كلها عدة تضافرت لتهز قواعد الدولة هزّاً عنيفاً، حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها.

وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط عقب **وصول البرتغاليين** إلى الهند

* الدكتور فاروق عثمان أباظه، تحول التجارة العالمية عن عالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح وأثره في العلاقات التجارية بين الإسكندرية والبندقية في مطلع العصر العثماني (٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م).



خارطة قديمة لرأس الرجاء الصالح تعود إلى عام ١٨٨٨م

طريـق رأس الرجاء الصالـح في سنة ١٤٩٨م، من أبرز عوامل التدهور الاقتصادي وفي نهايتها من ناحية التوقيت الزمني، مما جعل هذا الحدث الهام أشبه بالقشة التي قصمت ظهر البعير.

ولا شك في أن البنادقة بوجه خاص قد أحسوا بمدى خطورة تحول التجارة عن مصر وعالم البحر المتوسـط إلى رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين في سنـة ١٤٩٨ م، والذي أدى إلى فقدانهم لمصـدر هام من مصـادر ثروتهم الناتجة عن اشتغالهم بالتجارة العالمية آنـذاك. لهذا، فإن البنادقة أخـذوا يراقبـون مشروعات البرتغاليين وتحركات سفنهم، ويحاولون مـن جانبهم إقناع سفراء ملوك الهنـد في لشبونه بعدم مقدرة البرتغاليين على نقل السلـع الشرقية دون مساعدة مالية من البندقية. كمـا حرص البنادقة على تكوين تحالف مـع المماليك لمواجهة النشاط التجاري البرتغالي الذي سيطر علـى طريـق رأس الرجـاء الصالح وحـوّل التجـارة العالمية إليـه. ولهذا جـاءت سفـارات البندقية الدبلوماسية المتكررة إلى بلاط السلطان المملوكي قونصوه الغوري، وأشهرها سفارة "باندتو سانوتو" (Benedotto Sanuto) إلى الغـوري في سنـة ١٥٠٣ م. وأشار هذا السفير على السلطان الغوري بأن يبعث برسله إلى أمراء الهند لحملهم على قطع علاقاتهم بالبرتغاليين وإقفال موانئهم في وجه السفن البرتغالية. كذلك طلب السفير من الغوري أن يعمل على تخفيض الأثمان الباهظة التي تباع بها التوابل في الإسكندرية حتى يستطيع البنادقة منافسة خصومهم في الأسواق الأوربية.

غير أن السلطان الغوري رأى أن يبعث برسالة إلى بعض الدول الأوربية، لتعمل هذه الدول على وقف حمـلات البرتغـال على الهنـد، وهدد باتخـاذ إجـراءات عنيفة ضـد المسيحيين في بـلاده، ولا سيما بالقدس. بـل إنه هدد كذلـك بإغـلاق الأماكن المقدسـة، وقام بحمل هـذه الرسالة راهـب إسباني فرانسسـكاني في بيت المقدس اسمه الأخ مورو (Moro)، وكلفـه الغوري بالمرور في طريقه بالبندقية. فقصـد هـذا الراهب إلى روما حيث التقـى بالبابا يوليوس الثاني في ربيع عـام ١٥٠٤م وأحسن البابا لقـاءه ووعـده بالكتابـة إلى ملك البرتغال لوقـف إرسال الحمـلات الحربية إلى الهنـد. وقد أتم هذا الراهب جولته في بلاط كل من إسبانيا والبرتغال دون أن يكون لمهمته الدبلوماسية أي جدوى. وعندما زاد إحساس البندقية بخطورة الموقف، أرسلت سفارة دبلوماسية أخرى إلى الغوري في سنة ١٥٠٤ م، وتركـزت مهمتها حول تقديم عروض أحسن وأقوى للسلطـان نظراً لاطراد عجز البنادقة عن مقاومة البرتغاليـين الذيـن غمروا أسواق أوروبا بالمنتجات الشرقية. مما سبب في أزمة اقتصادية خانقة عند المماليك والبنادقة.

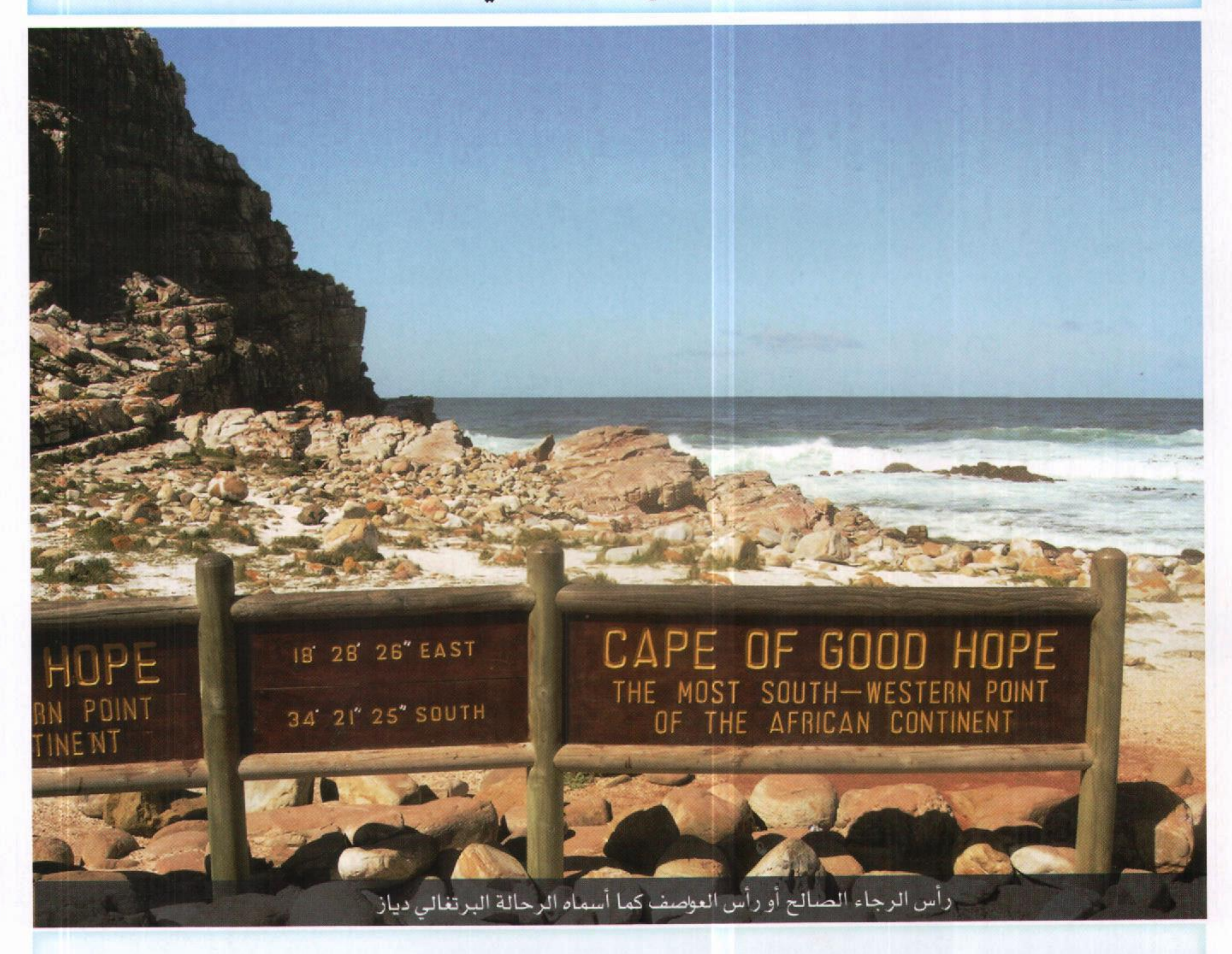
بتسوانا
ناميبيا
موزمبيق
سوازي لاند
جنوب إفريقيا
ليسوتو
المحيط الأطلسي
المحيط الأطلسي
كيب تاون
رأس الرجاء الصالح
٩٠٣ هـ ١٤٩٧ م
رأس أقولاس
الشمال
٠ ١٥٠ ٣٠٠ ٤٥٠ ٧٠٠ ٨٥٠ كم

رأس الرجاء الصالح (Kaap die Goeie Hoop، كاب دي جوي هوب) هـو رأس من اليابسة في القارة الإفريقيـة بالقـرب من كيـب تاون يمتـد في المحيط الأطلسي، ويشبه في شكله الرأس المحدب. كانت تمر منها السفن التجارية المتوجهة من وإلى آسيا.

وهنـاك أعتقاد خاطئ بأن رأسـ الرجاء الصالح يقع في أقصـى جنوب القارة الأفريقيـة وأنه يفصل بـين المحيـط الأطلسـي والمحيط الهنـدي، ولكنه في الحقيقـة يقع على بعـد ١٥٠ كم (٩٠ ميـل) شرق عن هذه النقطة والتي تسمى برأس أقولاس.



طابع بريدي من رأس الرجاء الصالح يعود لعام ١٨٥٥م



رأس الرجاء الصالح أو رأس العواصف كما أسماه الرحالة البرتغالي دياز

يُعد رأس الرجاء الصالح معبراً معروفاً لدى الكثير من البحارة العرب والصينيين والهنود في العصور الوسطى، ولكن أول من سمَّى هذا الرأس بهذا المسمى، ووصف جغرافيته، كان المستكشف البرتغالي بارثولوميو دياز عام ١٤٨٨م. حينما أطلق على هذا المكان (برأس العواصف) لكثرة العواصف التي واجهته هناك. أما الذي أطلق اسم رأس الرجاء الصالح هو ملك البرتغال جون الثاني وذلك للتعبير عن ابتهاجه باكتشاف طريق بحري إلى الهند يغني أوروبا عن سلوك طريق القوافل البرية المعرض للخطر.

هذا الطريق اكتشافه من أهم أسباب أنهيار الدولة المموكية لأنه حول حركة التجارة العالمية إليه بدلاً من مرورها بدول الخلافة، وهكذا قال الرحالة ماجلان عندما اكتشف هذا الطريق : "اليوم لففنا الحبل حول عنق المسلمين ولم يبق إلا جذبة ليختنقوا "والغريب أن من ساعده هو عربى مسلم وهو الرحالة ابن ماجد وساعدة بالخرائط التي كانت عند المسلمين من أيام الفتوحات الإسلامية وماجلان هو مبشر مسيحي وقد قتل في الفلبين في أحد المعارك على يد القائد المسلم الرافض للتنصير "لابو لابو".

نقطة رأس الرجاء الصالح في جنوب القارة الإفريقية

من ضمن دوافع البرتغاليين في السفر إلى شواطئ إفريقيا السوداء هو البحث عن التوابل من فلفل أسود، وزعفران، وزنجبيل، وكبش القرنفل، والقرفة، وجوزة الطيب، ... إلخ. وكذلك الأمر بالنسبة لكريستوفر كولومبوس الذي أنطلق منذ عام ١٤٩٢م في سفينته بحثاً عن الذهب والتوابل والبهارات. وكان يأمل بذلك أن يصل إلى شواطئ الهند للحصول عليها. وكان الإسبانيون والبرتغاليون يريدون السيطرة على الطرق التجارية للتوابل والبهارات. وبالتالي كسر احتكار التجار العرب في العصر المملوكي لهذه المواد الثمينة والمرغوبة في أوروبا.



كانت التوابل والبهارات في العصور الوسطى في أوروبا تساوي وزنها ذهباً

قنصوه الغوري (٩٠٦هـ - ١٥٠١ م/ ٩٢٢هـ - ١٥١٦م)

هو أبو النصر، سيف الدين قنصوه الغوري، سلطان مصر، جركسي الأصل من مماليك السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢ ـ٩٠١هـ) أعتقه وجعله من جملة مماليكه الجمدارية (المماليك الذين يعاونون السلطان على لبس ملابسه)، ثم رقّاه، فجعله في حرسه الخاص، فأمير عشرة، ورقّي زمن السلطان محمد بن قايتباي (٩٠١ـ٩٠٤هـ) إلى أمير مئة، فمقدم ألف، وولي حجابة الحجاب بحلب، ثم بويع بالسلطنة بقلعة الجبل سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م بعد اختفاء السلطان العادل طومان باي عن الأنظار لانفضاض أمرائه وأجناده من حوله، ولقّب قنصوه بالملك الأشرف.

كان أوّل عمل قام به بعد تولّيه السلطنة العثور على السلطان العادل طومان باي (الأول) وقتله حتى لا يثير عليه الفتن، ثم وقعت **فتنة المماليك** سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م لعجز قنصوه الغوري عن دفع نفقة البيعة التي اعتاد المماليك أن يتقاضوها لدى ولاية كل سلطان جديد، ولخلو الخزانة من المال؛ فقد استمهلهم بعض الوقت، فلما فقدوا الأمل نزلوا إلى الشوارع، ونهبوا البيوت والمتاجر، ولم يتوقفوا حتى وعدهم بالدفع، وقد تكررت هذه الفتنة ثانية سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م عندما رشق المماليك الجلبان (المماليك الذين جلبوا حديثاً) الناس بالحجارة وطالبوا بمئة دينار لكل واحد، وعندما رُفض مطلبهم نهبوا الدكاكين، ولم تهدأ فتنتهم إلا عندما بلغهم أن الأمراء قد تجمعوا ليمسكوا بهم.

وفي سنة ٩٠٧ خرج الجازاني أحد أمراء مكة عن الطاعة، وتحالف مع يحيى بن سبع أمير ينبع، وهاجموا الحجاج، واستولوا على مكة، ونهبوا سكانها؛ فأرسل الغوري حملة بقيادة قيت الرجبي أسرت الجازاني، وقتلته، ولكن يحيى استمر على تمرده حتى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م عندما أرسل الغوري حملة قضت عليه، كما بعث بحملة إلى بلاد الشام للقضاء على فتنة أهاجها العرب.



السلطان قنصوه الغوري

على الرغم من الفتن والأخطار الخارجية؛ فإن الغوري أبدى اهتماماً بالبناء وتحديث الجيش، فقد أمر بإعادة تخطيط ميدان القلعة، وأنشأ قصراً وبحيرة في الغرب منه، واهتمّ بقصور القلعة ومبانيها، وأمر ببناء مدرسة وجامع بالشرابيشية، وعمل لنفسه مدفناً وفوقه قبّة لاتزال قائمة حتى اليوم، وأنشأ بستاناً عظيماً حمل إليه من الشام أنواعاً عدة من الأزهار والرياحين وأشجاراً من مختلف الثمار، وأمر ببناء مستودع للماء وفندق لنزول الحجاج في مدينة العقبة ومخازن للودائع ورصيف لرسوّ السفن، وأصلح طريق العقبة إلى المدينة، وحفر آباراً؛ ليشرب الحجاج، وأمر بصنع مكاحل ثقيلة ومتوسطة وخفيفة للدفاع عن مصر، (والمكحلة أقرب الأشياء إلى المدافع في العصر الحديث)، وحشد الصناع المختصّين حيث تمكّنوا من عمل سبعين مكحلة، جربت عام ١٥١٢م في حضرة الغوري بمنطقة الريدانية خارج القاهرة، ولم يخطئ منها سوى واحدة أو اثنتين.

غطاس نعمة، الموسوعة العربية، مج ١٥، ص ١٥٠.

الوضع السياسي عند بداية حكم السلطان قانصوه الغوري

سراي بركة
خانات القرم
أستراخان
قبائل القراخطاي التركية
بحر آرال
أطرار (أترار)
ويغور
بحر بنطس (الأسود)
جورجيا
تفليس
شماخة
خيوه
خانات القبيلة الذهبية
الشاش
طشقند
أستانبول
طرابزون
العثمانيون
أرمينيا
باكو
بحر الخزر (قزوين)
بخاري
خوقند
أنقرة
قونية
تبريز
سمرقند
جرجان
مرو
بلخ
خانات الأوزبك
حلب
الموصل
نيسابور
قبرص
همذان
الري
هراة
كابول
الرقة
أصفهان
خراسان
غزنة
الشام
البحر الشامي (بحر الروم - البحر المتوسط)
دمشق
بغداد
الدولة الصفوية
الإسكندرية
بيت المقدس
المماليك
الكوفة
العراق
الأهواز
البصرة
شيراز
القاهرة
فارس
كرمان
سجستان
مصر
هندوستان
المماليك
بندر عباس
خ. البحرين (العربي)
الجبريون
سلطنة مغول الهند
مكران
المدينة النبوية
البحرين
مسقط
خليج عمان
نجد
الحجاز الأشراف
النوبة
بنونبهان
جزيرة العرب
عمان
مكة المكرمة
ديو
سواكن
بحر القلزم (الأحمر)
الأئمة الإباضية
دامان
المحيط الهندي
بحر العرب
الطاهريون
صنعاء
حضرموت
زبيد
٦٠٠ كم ٤٠٠ ٢٠٠ ٠



الصراع المملوكي البرتغالي

إضافة إلى الفتن الداخلية السابقة كان على السلطان قنصوه الغوري مواجهة أخطار خارجية، فمنذ بداية القرن السادس عشر الميلادي **وصلت سفن البرتغاليين إلى الهند**، كما ذكرنا في الصفحات السابقة:

حيث أعلنَ البرتغاليون أنهم سيدمّرون **الأماكنَ المقدسةَ في مكةَ والمدينة**، ويزيلون معالمَ الإسلام! وكان هذا أحد الدوافعِ التي جعلتِ العثمانيين يتجهون إلى الشرقِ الإسلامي لحمَايةِ هذه المقدسات. **وعقد البرتغاليون محالفات مع ملكة الحبشة النصرانية "إليني"** التي كتبتْ إلى ملكِ البرتغال "عمانويل" تقولُ: "السلامُ على **نويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة**، لقد بلغ مسامعنا أن سلطان مصر - يقصدُ السلطانَ الغوري - جهز جيشاً ضخماً ليثأرَ من الهزائم التي ألحقها به قوادُكم في الهند، ونحن على استعداد لمواجهة هجماتِ الكفرة...". واحتلَ البرتغاليون كلكتا سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) بعد استكمالِ اكتشافهم لطريقِ رأس الرجاءِ بثلاث سنوات، ثم احتلوا بعضَ الموانئ العربية؛ مثل: عدن وجزيرة هرمز، كما احتلوا ميناءَ مصوع على المدخلِ الإفريقي للبحر الأحمر، وبذلك تحكموا في مضيقي هرمز وباب المندب، ومنعوا سفنَ المسلمين وتجارتهم من المرور. وتكدستِ السِّلعُ والحاصلات في موانئ مصر كالإسكندرية ودمياط، لا تجدُ أحداً من التجارِ الغربيين لينقلَها إلى أوروبا أو يشتريها منهم، واستنجدَ التجارُ المسلمون وأمراءُ المسلمين في الهندِ وسواحل بلادِ الغرب بالسلطان المملوكي قانصوة الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م) لينقذَهم من هذا البلاءِ، وأرسلَ الغوري تحذيراً إلى البابا في روما موجهاً عن طريقه إلى جميع القوى الأوروبية، ليمنعوا ملاّحيهم وقراصنتِهم من التعرضِ للمسلمين وتجارتهم، ولكن تحذيرَه لم يلقَ استجابةً لديهم، فاتخذ عدةَ خطوات عملية منها: تقوية أسطولِه في البحرِ الأحمر، ومكاتبة ملوك الهند ليتحالفوا معه ضد هذا الخطر. د .محمد عبد الحميد الرفاعي، صراع المماليك الجراكسة مع القوى الخارجية، موقع الألوكة .



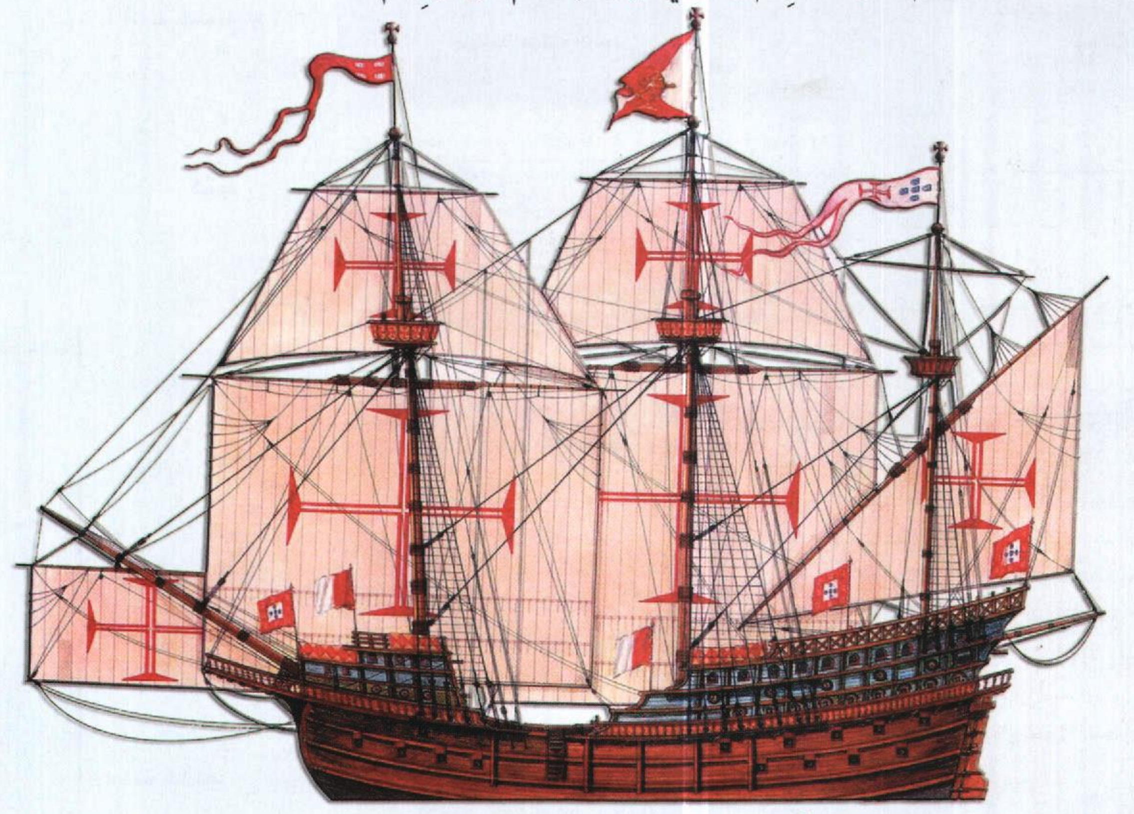
يقول الأستاذ محمود شاكر موضحاً هدفَ الكشوف الجغرافية: "تدعي أوروبا أن الحافز لها في هذه الاكتشافاتِ هو تجارةُ التوابل والحصول على المال، لكن هذا الادعاء لا يستندُ إلى حقيقة علمية، ولا يقبلُه تحليلٌ صحيح، إن حقيقةَ الدوافع التي تكمنُ وراء ذلك إنما كانت هي الحروب الصليبية التي كانت ولا تزالُ يحملُ التاريخُ صوراً منها".

وكان البرتغاليون يسعون إلى تطويقِ المسلمين منذ عهدِ ملكِهم "حنا" الأول الذي احتل "سبته" على الساحلِ المغربي، ووصلَ رجالُه إلى سواحلِ إفريقية الغربية وبلغ أحدُهم وهو "بارثلمي دياز" الطرفَ الجنوبي من القارة، وأسماه: رأس العواصف، ولكن ملكَ البرتغال أسماه رأسَ الرجاءِ الصالح تعبيراً عن أملِه في تطويقِ المسلمين.

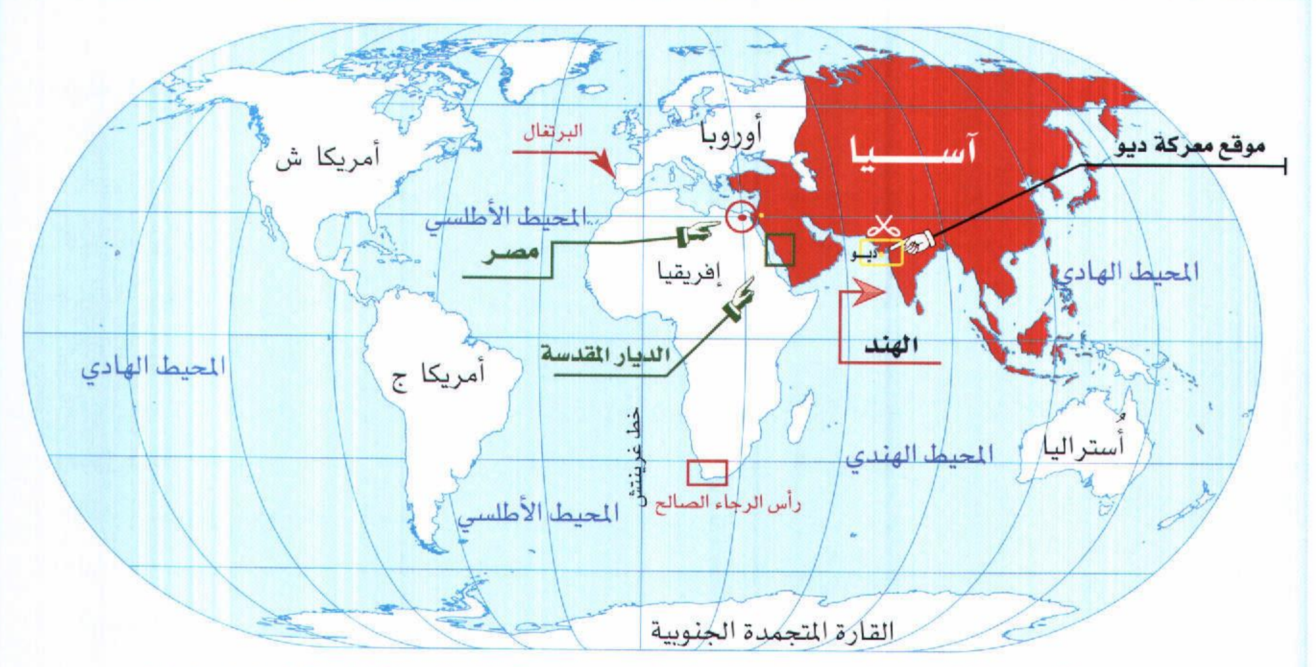
استعد السلطان الغوري لجولة حاسمة مع البرتغاليين، فأعد عدتَه لمعركةٍ بحرية ضدّ البرتغاليين، وجهز لذلك خمسين غراباً؛ أي: سفينة، وولّى عليها أميرَ البحرِ حسين الكردي، **ووجهه إلى الهند**، فالتحمَ مع سفنِ البرتغاليين غربي الهند سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) فهزمهم، لكنهم ما لبثوا أنْ حشدوا له قواهم وأساطيلَهم، وخاضوا ضده جولةً أخرى فانتصروا عليه وحطموا الأسطولَ المصري في موقعة **"ديو"** البحرية قرب جزيرةٍ صغيرة في مياه الهندِ، تحمل هذا الاسمَ وتقعُ شمالي بومباي.

وكانت هذه الموقعةُ فصلَ الخطابِ في الصِّراع المملوكي البرتغالي، ونتج عنها ضياعُ مركزِ مصر التجاري، **وتحقيقُ المآربِ الصليبية في إضعافِ دولة المماليك الإسلامية** من الناحية الاقتصادية تمهيداً للقضاءِ عليها، وازدادتْ بعدَها جرأةُ القراصنةِ الفرنج، وتعددتْ غاراتُهم على الموانئ المصرية، والسفن المملوكية عند دمياط والطينة (بين الفرماوتنيس) وغيرهما، ولم يكن في مقدورِ الغوري أن يرد عليهم، فلجأ إلى تهديدِ الرهبانِ والقساوسة الموجودين في القدسِ إذا لم يتوقفْ الفرنج عن اعتداءاتِهم.

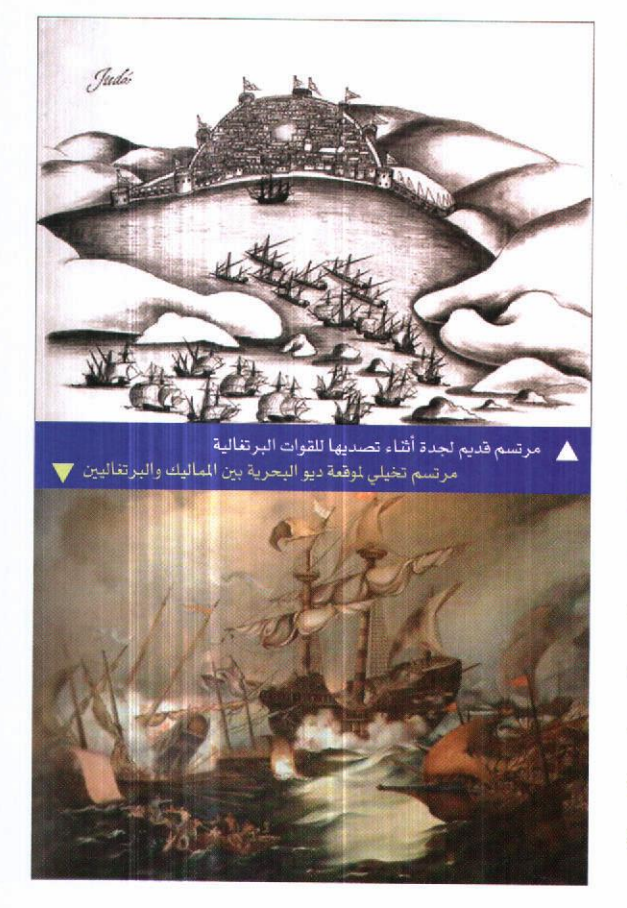
وتفاقم خطرُ البرتغاليين في البحارِ الإسلامية، حتى قيض الله لهم القوةَ الإسلامية الفتية؛ الممثلة في العثمانيين لتردهم على أعقابِهم وتحمي ديارَ الإسلام من كيدِهم.



سفينة برتغالية تعود إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلاديين



موقع معركة ديو البحرية بين المماليك والبرتغاليين سنة ٩١٤هـ /١٥٠٨م



▲ مرتسم قديم لجدة أثناء تصديها للقوات البرتغالية

مرتسم تخيلي لموقعة ديو البحرية بين المماليك والبرتغاليين ▼

لم ينس المماليك واجبهم الديني تجاه الأماكن المقدسة، فانتقل حسين الكردي بعد هزيمة «ديو» إلى مدينة وميناء «جدة» ،حيث بدأ في تحصينها حتى لا يستولي عليها الصليبيون البرتغاليون، ومنها يغيرون على مكة والمدينة، وبالفعل نجحت خطة الكردي في ردع البرتغاليين عن الإغارة على الأماكن المقدسة. ومع الفشل المتكرر للبرتغاليين في اقتحام عدن تشجع السلطان قنصوة سنة ٩١٩هـ وأرسل أسطولاً جديداً إلى جنوبي البحر الأحمر تحت قيادة الريس سليمان الذي انطلق إلى جدة، وهناك انضم إليه القائد حسين الكردي، وانطلقت الحملة نحو الجنوب وطردت البرتغاليين من مدينة زيلع الصومالية، ثم استقرت الحملة في جزر «قمران» بعد طرد البرتغاليين منها سنة ٩٢١هـ، بعد أن دخل المماليك في حربهم الطويلة ضد العثمانيين، والتي انتهت بسقوط الدولة المملوكية سنة ٩٢٣هـ.

الدولة الصفوية في إيران: ٩٠٧-١١٤٨هـ/١٥٠١-١٧٢٢م

يعود نسب الصفويين إلى صفي الدين الأردبيلي الذي يقال: بأن نسبه ينتهي إلى موسى الكاظم الإمام التاسع عند الاثنا عشرية، والتزمت الأسرة الصفوية في بداياتها طريق التصوف في موطنها **أردبيل**. ومع ازدياد عدد أتباعهم ومريديهم اختلفوا مع حاكم المنطقة، فلجأوا إلى منطقة ديار بكر في تركيا الآن، وصاروا من رعايا حسن أوزون، وصاهر زعيمهم أوزون بالزواج من ابنته، وصار قائداً لجيوشه، وأثمر هذا الزواج على إسماعيل الصفوي، الذي صار الشاه إسماعيل فيما بعد. تمكن إسماعيل من أن يعيد جمع أفراد أسرته وأتباعه، ويقيم في **تبريز** التي باتت عاصمته، وانطلق يوسع دولته، حتى وصلت حدودها ما بين نهر جيحون إلى خليج البحرين (الخليج العربي) ومن أفغانستان إلى الفرات، واحتل بغداد عام ١٥٠٨م، وبذلك صارت العراق جزءاً من مملكة الصفويين فيما بعد.

كانت الدولة الصفوية سنية تتبنى المذهب الحنفي كأغلب المسلمين في تلك المنطقة وقيل الشافعي؛ ولكن مع توسع الصراع مع الدولة العثمانية اتخذ الشاه إسماعيل الصفوي المذهب الجعفري الشيعي مذهباً لدولته، و اللغة الفارسية لغة رسمية، وقاد حملات تشييع للناس، وعندما دخل العراق زار كربلاء والنجف، وهناك زار مراقد الأئمة وأمر بهدم أضرحة الأولياء من أهل السنة، وأيقظ الصراع المذهبي الطائفي بين السنة والشيعة، وطور في طقوس التشيع.

توسع الصراع أكثر بين الصفويين والعثمانيين، حيث زحف السلطان سليم الأول نحو الدولة الصفوية عام ١٥١٤م واندلعت معركة جالديران (تشالديران) التي انتصر فيها العثمانيون وجرح الشاه إسماعيل، وفر من تبريز وأعاد العثمانيون سيطرتهم على **بغداد**، ولكن ما لبث أن عاد الصفويون بقيادة الشاه طهماسب الأول ليحتلوا بغداد عام ١٥٢٤م، فجهز السلطان سليمان القانوني حملة ضد الصفويين انتهت بعودة بغداد إلى سلطان العثمانيين عام ١٥٣٤م.

يعد الشاه عباس الأول المتوفى عام ١٦٢٨م من أهم حكام الصفويين وقد قام بنقل عاصمته إلى أصبهان واهتم بالفنون والعمران والآداب. وبعد وفاته بدأ اضمحلال الدولة الصفوية حتى سقطت في عهد الشاه نادر شاه عام ١٧٣٦م.

أسس الشيخ صفي الدين الأردبيلي (١٢٥٢-١٣٣٤م) طريقته الصوفية في أردبيل (أذربيجان) سنة ١٣٠٠م.

أصبحت أردبيل عاصمة دينية ثم سياسية لأتباعه (مع تحولها إلى حركة سياسية). تحول أبناء هذه الطائفة منذ منتصف القرن الـ١٥ م إلى المذهب الشيعي. نجح الصفويون في الوصول إلى الحكم (على بعض المناطق) في أثناء زعامة جنيد (١٤٤٧-١٤٥٠ م) ثم حيدر (١٤٦٠-١٤٨٨ م)، والذين استطاعا إنشاء تنظيم سياسي وتكوين وحدات خاصة من الجيش، أو القزلباش (القزل باش أو الرؤوس الحمراء نسبة إلى التاج أو العمامة الحمراء، التي يرتديها أتباع الطريقة الصفوية، وتربط العمامة باثني عشرة لفة تلميحاً للأئمة الاثنى عشر).

الدولـة الصفويـة

الشمال

خانات القرم
أستراخان
بحر آرال
أطرار (أترار)
سيحون
بحر بنطس (الأسود)
خيوه
ماوراء النهر
جورجيا
تفليس
شماخة
بحر الخزر (قزوين)
خانات القبيلة الذهبية
أستانبول
العثمانيون
طرابزون
أرمينيا
أنقرة
باكو
معركة تشالديران سنة ١٤١٥ م
بخارى
قونية
تبريز
جيحون
جرجان
مرو
حلب
الموصل
نيسابور
بلخ
همذان
الري
قبرص
هراة
الرقة
أصفهان
غزنة
الشام
خراسان
البحر الشامي (بحر الروم - البحر المتوسط)
بغداد
دمشق
الدولة الصفوية
بيت المقدس
الإسكندرية
المماليك
العراق
الأهواز
الكوفة
شيراز
البصرة
القاهرة
فارس
سجستان
مصر
كرمان
المماليك
بندر عباس
خ. البحرين (العربي)
الجبريون
مكران
المدينة النبوية
البحرين
نجد
مسقط
خليج عمان
الحجاز
الأشراف
النوبة
بنونبهان
بحر القلزم (الأحمر)
جزيرة العرب
عمان
مكة المكرمة
سواكن
الأئمة الإباضية
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ كم



علاقات المماليك المصريين بالدولتين الصفوية والعثمانية في مطلع القرن ١٦ م

في الوقت الذي كانت فيه **الدولة المملوكية** في مصر تسير في طريق الزوال والاضمحلال بسبب انتقال طرق التجارة الدولية عن موانئها الرئيسة في بلاد الشام ومصر، كانت الدولتان **الصفوية والعثمانية** تنموان وتتوسعان بصورة سريعة، وعلى حساب الدولة المملوكية بالذات. وفي الوقت نفسه تعرضت الدولة المملوكية لخطر آخر من قبل البرتغاليين الذين لم يهددوا موارد الدولة الأساسية المتأتية من التجارة الدولية وبالانقطاع، بل هددوا سيادة هذه الدولة في عقر دارها.

لقد كان على الدولة المملوكية أن تواجه جميع هذه القوى مستخدمة في ذلك جميع وسائلها المتاحة سواء أكانت حربية أم دبلوماسية، وهذا ما عملته بالذات تجاه الدولتين الصفوية والعثمانية من جهة، ودولة البرتغال من جهة أخرى. فعندما كانت الدولة الصفوية تتوسع على حساب الدولة المملوكية في بلاد الشام، وقفت الدولة المملوكية منها موقفاً مناوئاً، **وازداد هذا الموقف المناوئ بعد أن علمت مصر بوجود حلف عدائي بين الصفويين والقوى الأوروبية للقضاء على الدولة المملوكية**. وقد أدى هذا الأمر إلى توقف الاتصالات الدبلوماسية بين هاتين الدولتين عام ٩١٧ هـ / ١٥١١م، ولم تتجاوز إلا في عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م، وذلك عندما خسر الصفويون في نزاعهم مع العثمانيين، فأرادوا أن يحسنوا في علاقاتهم مع المماليك.

وعلى النقيض في العلاقات المملوكية – الصفوية التي بدأت عدائية وانتهت ودية، فإن العلاقات المملوكية – العثمانية بدأت ودية وانتهت عدائية. وليس أدل على ذلك من قيام العثمانيين بتقديم المعونات البحرية المختلفة زمن السلطان بايزيد الثاني للسلطان المملوكي قنصوه الغوري، لمساعدته في الوقوف في وجه الخطر البرتغالي في البحار العربية الجنوبية.

إلا أن هذه العلاقات الحسنة سرعان ما تحولت إلى علاقات عدائية، وذلك لما ساد في الأوساط العثمانية من الشكوك بوجود تعاون (صفوي – مملوكي) ضد الدولة العثمانية، الذي كان من نتيجته غزو العثمانيين لبلاد الشام ومصر والقضاء على الدولة المملوكية.

فخلاصة الأمر فإن الدولة المملوكية كانت في موضع حرج إزاء قوى عديدة فما كان عليها إلا أن تجابهها جميعها، وهذا ما حدث بالفعل[١]:

١) إن الدولة المملوكية بعد أن أحست بحراجة موقفها إزاء الدولتين الطامعتين، حاولت أن تتلمس مختلف الأساليب لتجنب خطرهما، مستخدمة في ذلك الوسائل الدبلوماسية قدر الإمكان، ولم تلجأ إلى الأساليب الأخرى إلا حينما تكون مضطرة لذلك، وذلك في حربها مع العثمانيين عام ١٥١٦م.

٢) إن الدولة العثمانية في توسعها على حساب الدولة المملوكية لم تكن مدفوعة بالعلاقات العدائية الآتية التي حدثت بين الدولتين، بل يبدو أنها كانت جزءاً من الخطة العثمانية في التوسع على حساب مناطق الوطن العربي في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ومن بينها بلاد الشام ومصر.

١- طارق نافع الحمداني، المجلة العربية للعلوم الإنسانية.



اشتهرت الفنون في العصر الصفوي في القرن ١٦ م، وبرز منها فن المُنَمْنَمَات: وهي الصورة المزخرفة في مخطوط. وقد سبقتها المخطوطات البيزنطية وأعقبتها العثمانية والهندية و في هذه اللوحة جزء من سجادة الصيد الفارسية الشهيرة. متحف الفن التطبيقي - فينا - النمسا.

الدوله الطاهرية في اليمن ٨٥٥- ٩٢٣هـ/ ١٤٥١- ١٥١٧م

ورثـت **الدولة الطاهرية** مناطق نفوذ الدولة الرسـولية، وهي معظم اليمن باسـتثناء مناطق الجبال الشـمالية، التـي تنافس عليها الأئمة الزيديون. والموطن الأصـلي لبني طاهر هـو **منطقة جُبَن** من **بلاد رداع**، حيث كانت لهم الرياسة فيها، وقد توطدت العلاقة بين بني طاهر ودولة بني رسول في أواخر الدولة الرسـولية بمصـاهرة تمت عام ٨٣٦ هـ/ ١٤٣٢م بين الملك الظاهر الرسـولي وابنة كبير آل طاهر الشـيخ طاهر بن معوضـة، ثم صـار آل طاهر ولاة لآل رسول في جهاتهم ، بل وامتد حكمهم إلى **عدن** في أحقاب لاحقـة، وعندمـا أيقـن آل طاهر من أن أمر الرسـوليين إلى زوال لا محالة، أعدّ الشـيخ علي بن طاهر بن معوضة الملقب بالمجاهد الذي سيقدر له مع أخيه عامر الملقب بالظافر أن يكون أول ملوك دولة الطاهريين - حملةً لحرب الملك الرسـولي المسـعود في عدن، ولكنه عاد من حملته خائباً، ولم يتمكن من القضاء على خصـمه المسعود ، ثم أعد نفسـه إعداداً أفضل، فكرر حملته على عدن في العام ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٣م، وتمكن هذه المرة من طرد المسعود منها، فتوجه إلى بلاد موزع، ومنها إلى مدينة حيس **بصحبة المماليك**، الذين أرادوا دخول عدن ثانية معه، لكنه خلع نفسه هناك كملك، ليبقى في الساحة الملك المؤيد، الذي دخل عدن إثر انسـحاب الطاهريـين الطوعي منها إلى **المقرانة** مقر حكمهم لمزيد من الاسـتعداد، ثم أعادوا الكرة الأخيرة في شـهر رجب من العام نفسـه، وتمكنوا من دخول عدن، وأسـر المؤيد هناك آخر ملوك دولة بني رسول، وكان الأخوان المجاهد، والظافر من آل طاهر ،يحكمان معاً دون تقدم أحدهما على الآخر[١].

وقـد أمضـى الطاهريون سـني حكمهم كغيرهم من الدول التي سـبقتهم في تثبيـت حكمهم في **تعز وعدن** وجهات تهامة، **حيث المماليك يفرضون إرادتهم هناك** بالتعاون مع بعض القبائل كالمعازبة، كما مد الطاهريون سلطتهم إلى **الشحر** في حضرموت بعد أن حاول ملك الشحر غزو عدن، فردوه على أعقابه، ووليها بالنيابة عن الطاهريين أسـعد بن إسـماعيل النهمي، بل وتمكن من السيطرة على صنعاء وثبت فيها نائباً له، في وقت كان **الأئمة الزيديون** فيه في حالة كمون إثر صـراعاتهم الدامية فيما بينهم. ولم يلبث أن نشطوا ثانية فسيطروا على جهات متفرقة، وكانت صنعاء خاضعة لنفوذ الإمام المؤيد، وهـو مـا دعى الملك الطاهري الظافر إلى التحرك صـوب صـنعاء لاسـتعادتها، وفـي المجابهة بين قوات الظافر والأمير الزيدي على صنعاء سقط الملك الظافر قتيلاً في الميدان عام ٨٧٠ هـ / ١٤٦٦م ، وهو ما أقنع أخوه الملك المجاهد بالتخلي عن طموحه للاستيلاء على صنعاء، فتركها وما حولها للأئمة الزيديين، الذين رغبوا هم أيضاً عن مد نفوذهم إلى الجهات السفلى من اليمن.

---

١ - الموقع الرسمي لرئاسة الجمهورية اليمنية .



لعبت رسـالة الإمام الزيدي شـرف الدين، لقائد **قوات المماليك** حسـين الكردي المرابط في **جزيرة كمران** دوراً فـي التعجيـل بنهاية الطاهريين، فقد طلب القائد المملوكي من الطاهريـين أن يجهزوا معه قوة **لمحاربة البرتغاليين** الغازين للسواحل الإسلامية، إلا أن الطاهريين رأوا عدم إجابة هذا الطلب، وعلى إثر ذلك قرر المماليك النزول بقواتهم إلى السواحل اليمنية لمقاتلة الطاهرية، وهو بالضبط ما أراده الإمام شرف الدين، وقد نزل المماليك إلى السـاحل اليمني بأسـلحتهم الجديدة، مثل المدافع والبنادق، والتي لا عهد للناس بها، وهي البنادق التي وصـفها ابن الديبع ووصـف فزع الناس منها، ودارت الحرب بين الطاهريين من جهة، والمماليك ومن تعاون معهم مثل الإمام شرف الدين وبعض القبائل من جهة أخرى، وقد كانت المعارك مع ما يرافقها من سـلب ونهب سـجالاً تخللتها حالات مفاوضات وصلح قصير الأمد، مع خلافات بين أفراد القوة الغازية، وكانت ساحات القتال بلاد **تهامة وتعز ورداع والمقرانة وصنعاء**.

وبعد الملك المجاهد الذي وافته منيته عام ٨٨٣ هـ/ ١٤٧٨ م بعد حكم دام خمسة وعشرين عاماً قضاها فـي توطيـد الحكـم ومقاتلة المتمردين- سـلم الحكم لابن أخيه عبـد الوهاب بـن داود الطاهري الملقب بالمنصور، وفي عهده انتقلت عاصمة الطاهريين من **جُبَن برداع** إلى عدن حيناً وتعز حيناً آخر. أمضى الملك المنصـور أحد عشـر عاماً في الحكم، صـرف معظمها في تثبيت حكمه في جهات تهامة بالذات، حيث قام بتصـميم نظام لتوزيع مياه وادي زبيد بالعدل، كما بنى عدداً من المدارس والمسـاجد وأصلح ما تخرب منها .

وخلف الملك المنصور عبد الوهاب ابنه عامر الذي لقب بالظافر، وقد لقي معارضة من أسرته فجرت حروب كثيرة بينهما، سـيطر خصـومه خلالها على حصـن جُبَن، وأخذ عامر بن عبد الوهاب يجيش من مقـره في **تعز** ضـد خصـومه، وكانت الغلبة لـه في كل المعارك التي اسـتنزفت الجانبين رجـالاً ومالاً ، وتمكنت خلال هذه الحرب القبائل التهامية من اسـتغلال الضـعف والتمرد ثانية على الدولة الطاهرية، لكنها اضـطرت للخضـوع ثانية بعد أن وجه إليها الملك عامر بن عبد الوهاب جيشـاً قضـى على كل تمرد فيها، فأمنت السـبل وعم السـلام، **وأخذ الملك عامر بن عبد الوهاب يطمح في السيطرة على صنعـاء وتوحيـد اليمـن تحت حكمه**، فتقـدم إلى ذمار التي صـارت مدخلاً للسـيطرة على البلاد الواقعـة تحت حكـم الأئمة الزيديين، وتمكن من الاسـتيلاء عليها عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩١ م. وبعد أن وطدّ أقدامـه فـي **ذمـار** والجهات السـاحلية تحرك الملك عامر بن عبـد الوهاب عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م نحو صـنعاء بجيش ضـخم جداً، تمكن به من حصـار صـنعاء ودخولها بعدئذٍ دخول الفاتحـين، ووقع الإمام الوشلي، الذي يسميه مؤرخ الرسوليين ابن الديبع، رئيس أهل البدعة ومؤسس الفتنة، وقع مع أمراء حربه أسـرى ونقلـوا إلى تعز، حيث حـددت إقامتهم، **أمـا الملك الطاهـري فقد أقام فـي صنعاء يسير أمورها، ويخضع ما تبقى من حصونها وقلاعها، ليسيطر على معظم اليمن**، وعاد إلى تعز في العـام اللاحـق، في الوقت الـذي أعلن فيه طامح جديد **مـن الأئمة هو الإمام شـرف الدين نفسه إمامـاً جديداً**، وأخذ يدعو لنفسـه في منطقة الجبال **بحجة**، ويبحث عـن الأعوان لحرب الطاهريين الذيـن أعدهـم أعـداء جائريـن لله، **بـل إنه أخـذ بمراسلة مـن سماهم الغـزاة الكرمـاء، وهم المماليـك الشراكسـة، الذين أخذوا يجوبـون البحر الأحمر وسواحـل اليمن لمجابهة قوة البرتغاليـين النشطة هي الأخرى في سواحل البحر الأحمر والعربي، والتي أخذت تهدد عدن وجزيرة كمران**[1].

---

١ - الموقع الرسمي لرئاسة الجمهورية اليمنية .

مدينة (جُبَن) العاصمة الأولى للدولة الطاهرية، قال ياقوت: جُبَن: بالضم، بوزن جُرَد: حصن باليمن.



تقع **جزيرة كمران** اليمنية قبالة الساحل الغربي للصليف بمسافة ٦ كم، تبلغ، مساحة الجزيرة حوالي ١٠٠كم٢، وهي بمثابة حزام أمني لميناء الصليف وكذالك أمن دخول وخروج السفن وتأتي الإستراتيجية من أهميتها؛ كونها تشرف على خطوط الملاحة الدولية المارة من جهتها الغربية.

تعد جزيرة كمران من الجزر التي احتلها البرتغاليون سنة ١٥١٣ م، ثم حررها المماليك سنة ١٥١٥ م، ثم عاد البرتغاليون مرة ثانية وقاموا باحتلالها سنة ١٥١٧ م، بقيادة لوب سوليز، ثم احتلتها بريطانيا سنة ١٨٦٧ م، وطردهم منها العثمانيون سنة ١٨٨٢ م، وأسسوا فيها محجراً صحياً للحجاج. وتعد كمران لؤلؤة جزر البحر الأحمر، ويطلق عليها (سقطرى البحر الأحمر) جزيرة سياحية جميلة تمتاز بثراء وتنوع حيوي، وشواطئ رائعة ومواقع مثيرة للاهتمام تجعلها من إحدى أكثر المناطق جذباً للسياح،

معركة مرج دابق ٩٢٢هـ / ١٥١٦م

كان السـلطان العثماني **سليم الأول** اتجه لتوحيد الأمصـار الإسلامية لتكون تابعة للدولة العثمانية، وخاصـة بعـد أن تنامـى الوجـود الصـليبي في المنطقـة و**سقـوط الأندلـس**، التي لم تحـاول الدول الإسـلامية الموجودة في ذلك الوقت إنقاذها، وأيضـاً **ظهور البرتغاليين** الذين احتلوا بعض القواعد فـي **اليمن وعمان** بعد اكتشـافهم لطريـق رأس الرجاء الصـالح، وعملوا على أن تكـون هذه القواعد لمواصلة زحفهم إلى المدينة النبوية؛ حتى ينبشوا قبر الرسول- صلى الله عليه وسلم- ويساوموا المسلمين على القدس الشريف بالجثمان الطاهر[١].

وكذلك ظهور **الصفويين الشيعية** في إيران الذين بدؤوا يتحرشـون بالعثمانيين من جهة الشـرق، ويحاولـون التوسـع، كما يعملون على **نشر المذهـب الشيعي** القائم على معاداة الصـحابة، والطعن في رموزهم (الذين أثنى الله عليهم في كتابه الحكيم)، فقد دخل الشاه إسماعيل الصفوي ديار بكر، وجعل عاصـمته **تبريز** القريبة، وطلب من المماليك التحالف معهم ضـد العثمانيين للوقوف في وجه توسعهم. كما سـاعد الأمير أحمد ضـد والده السـلطان بايزيد الثاني، ثم ضـد أخيه السلطان سـليم، فلما تمكن السـلطان من أخيه كان لا بد من ضـرب من كان يعاونه. ومحاولتها مهاجمة الدولة العثمانية من ناحية الشـرق، وقيامهم بعقد حلف مع البرتغاليين أعداء الإسلام على المسلمين السُّنَّة عموماً وعلى العثمانيين خصوصاً، لذا اتجه السلطان سليم من أدرنة على رأس جيش عظيم باتجاه الصفويين، وحيد الشيعة في شـرقي الدولة، لأنهم سيكونون أنصـاراً للصـفويين، ثم تقدم **نحو تبريز عاصمة الصفويين** الذين أرادوا خديعتـه بالتراجـع المخطط، حتـى إذا أنهك الجيش العثماني انقضـوا عليه، وبقي السـلطان في تقدمه حتى التقى بالجيش الصفوي في **(جالديران)** جنوب مدينة قارص في شرقي الأناضول، وكانت معركـة عنيفـة بين الطرفين في الثاني من رجب عام ٩٢٠هـ، انتصـر فيهـا العثمانيون، وفر من الميدان الشـاه إسـماعيل الصـفوي، وبعد عشرة أيام دخل السـلطان تبريز، واسـتولى على الخزائن، ونقلها إلى أسـتانبول، وتتبع الشـاه، ولكن لم يتمكن من القبض عليه، وأقبل فصـل الشـتاء ببرده في تلك المرتفعات فاشـتد الأمر على الجنود العثمانيين، وبدا تذمرهم، فترك السـلطان المنطقة، وسـار نحو مدينة أماسيا حتى انتهى فصـل الشـتاء، رجع السـلطان إلى أذربيجان ففتح بعض القلاع، **ودخل إمارة ذي القادر**، وترك الجيوش العثمانية تنفذ المهمة التي أعطاها لها، وعاد إلى أسـتانبول، وكانت الجيوش العثمانية قد دخلت أورفة (الرها)، والرقة، وماردين، والموصل.

---

١ - د. عثمان علي عطا، معركة مرج دابق.


دولة المماليك البرجية قبل معركة مرج دابق
أستنبول
أدرنة
نيقية
أنقرة
آماسيا
طرابزون
سيواس
أرمينيا
كرجستان
باكو
أذربيجان
تبريز
المراغة
جالديران
قيصرية
ملاطية
مرعش
إمارة دلغادر (ذي القادر)
إمارة أبناء رمضان
طرسوس
مرج دابق
أنطاكية
حلب
الرها
ميافارقين
ديار بكر
بلاد الأكراد
الموصل
سنجار
سلطانية
قونية
قرمان
أفيون
أزمير
أفسوس
أنطاليا
رودس
كريت
الدولة العثمانية
مملكة قبرص
ليماسول
البحر الشامي (بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط)
حماة
حمص
طرابلس
دمشق
عكا
بلاد الشام
يافا
القدس
عسقلان
الرقة
ن. الفرات
ن. دجلة
الأنبار
بغداد
الحلة
الكوفة
العراق
همذان
كرمنشاه
الدولة الصفوية
إيران
الأهواز
البصرة
فارس
الإسكندرية
دمياط
إلى برقة الليبية
الريدانية
القاهرة
مصر
إيلة
دومة الجندل
المنيا
الصعيد
تبوك
السلطنة المملوكية
قوص
أسوان
النوبة
أبو سمبل
عيذاب
ينبع
المدينة النبوية
الحجاز
الأشراف
جدة
مكة
بحر القلزم (البحر الأحمر)
البلميون (البجه)
دنقله
سواكن
مروي
نجد
اليمامة
البحرين
هجر
الدولة الجبرية
خليج البحرين (الخليج العربي)
أوال
قطر
العرب
جزيرة
صعدة
اليمن
صنعاء
الدولة الطاهرية
حضرموت
جزر دهلك
مصوع
بحر العرب
بحر بنطس (البحر الأسود)
بحر مرمرة
بحر قزوين (بحر الخزر)
السلطنة المملوكية
الدولة العثمانية
إمارة دلغادر (ذي القادر، القدر،)
بلاد الكرج (جورجيا)
الدولة الصفوية
الدولة الطاهرية
ممالك نصرانية إفريقية
الدولة الجبرية (٧٨٥-٩٣٠هـ)

وأيضـاً بسـبب **الضعف الشديد الذي أصاب دولة المماليك** في مصـر والشام بحيث أصبحت غير قادرة على صد هجمات البرتغاليين من الجنوب، وهجمات الأسبان من ناحية الغرب.

كما كان السلطان سليم الأول شديد الغضب على السلطان الغوري ودولته في مصر؛ بسبب مساعدتها للصـفويين في أثناء قتالهم مع العثمانيين، وأيضاً لضـعف المماليك في التصدي لتهديدات البرتغاليين للأمة الإسلامية.

ونظـراً لوجـود نزاعـات بـين العثمانيين والمماليك علـى إمارة دلغـادر (**ذي القـادر**) التي قاعدتها مرعش، (انظر موقعها على الخارطة في الصفحة المقابلة) على الحدود الفاصلة بين الدولتين. فقد قرر السـلطان **سليم الأول** شـن الحرب على المماليك الذين تحالفوا مع الصفويين ضد العثمانيين، والذين يختلف معهم بشأن إمارة ذي القادر على الحدود بين الطرفين، كما أن المماليك وقفوا مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم الأول، فقد كان لهذا الموقف السلبي من الدولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه إسماعيل الصفوي، الأثر الأكبر الذي شجعه على هذه الحرب.

ومـن أجـل تهدئة الوضـع بين الطرفين حاول السـلطان المملوكي قنصـوه الغوري اسـتخدام وسـائله الدبلوماسية، فأرسل إليه سفيراً ليمتص غضبه، ولكن سليم الأول طرد السفير، وتوجه بجيوشه سريعاً إلى الشـام، وعندما علم السـلطان الغوري بذلك لم يجد مفراً من إعداد العدة لمواجهته، فأعد جيوشـه وتوجه للقاء العثمانيين.

وقد نجح السلطان سليم الأول في استمالة ولاة بلاد الشام المماليك إلى جانبه، ووعدهم ببقائهم في إماراتهم إذا ما تم له النصـر على السـلطان الغوري، ثم سار بجيشه لملاقاة المماليك عند "مرج دابق" بالقـرب من حلب في (٢٥ رجب ٩٢٢هـ/ ٢٤ أغسـطس ١٥١٦م)، واحتدم القتال العنيف بينهم، وأبدى المماليك في بداية هذه المعركة ضـروباً من الشـجاعة والبسالة، وقاموا بهجوم خاطف زلزل العثمانيين، وأنزل بهم خسائر فادحة.

ولكن سرعان ما دبّ الخلاف بين فرق المماليك المحاربة، وانحاز بعضها إلى الجيش العثماني بقيادة الأمير المملوكي **"خايربك"**؛ فتسـلل ولاة الشـام بجيوشهم وانضـموا للعثمانيين، فضعف أمر المماليك وهزموا هزيمة منكرة وتمزقت قواتهم، وسرت إشاعة في جيش المماليك أن الغوري سقط قتيلاً، فخارت عزائمهم ووهنت قواتهم، وفرّوا لا يلوون على شيء، ولم تفلح محاولات الغوري في تجميع جيشه بندائاته وصـيحته فـي جنـوده بالثبات والصـمود، وسـقط عن فرسـه جثة هامدة مـن هول الهزيمـة، وتحقق للعثمانيين النصـر الذي كان بداية لأنْ يسـتكمل سـليم الأول فتوحاته في الشام، وأن يستولي على مدنه واحدة بعد أخرى، بعدها سلّم معظمها له بالأمان دون قتال.


معركة مرج دابق في ٢٥ رجب ٩٢٢هـ/ ٢٤ أغسطس ١٥١٦م
بحر بنطس (الأسود)
أستنبول
مسار السلطان سليم الأول من القسطنطينية إلى بلاد الشام
١
سار السلطان سليم بجيشه نحو بلاد الشام، واستعد للسلطان الأشرف قنصوه الغوري، واتجه نحو الأناضول، والتقى الطرفان في مرج دابق شمال غربي مدينة حلب، وكان السلطان العثماني قد اتصل بولاة الشام ومناهم، أو التقوا به، وتقربوا إليه، وعندما التحم الجيشان يوم ٢٥ رجب عام ٩٢٢ هـ، انفصل ولاة الشام بمن معهم وانضموا إلى العثمانيين فانتصروا، وهزم المماليك رغم شجاعة السلطان الأشرف والجهد الذي قدمه، وثباته في المعركة حتى قتل.
٢
دخل السلطان سليم حلب، وحماه، وحمص، ودمشق دون مقاومة، بل بالترحيب في أغلب الأحيان، وأبقى ولاة الشام على ولاياتهم حسبما وعدهم، بل زاد في مناطق نفوذ بعضهم حسبما بذلوا في ميدان مرج دابق، واتجه إلى مصر، بعد أن قابل العلماء وأكرمهم، وأمر بترميم مسجد بني أمية بدمشق، وقد عين جانبرد الغزالي على دمشق، وفخر الدين المعني على جبل لبنان، وهو من الدروز، وقد ساعد السلطان سليم، ووقف إلى جانبه بعد أن ترك المماليك ليحصل على الولاية، وهو من ألد أعداء العثمانيين.
مرج دابق
حلب
حماه
حمص
قبرص
البحر الشامي (البحر المتوسط)
جبال لبنان
بلاد الشام
بيروت
دمشق
بيت المقدس
غزة
الإسكندرية
الريدانية
القاهرة
مصر
نهر النيل
بحر القلزم (البحر الأحمر)
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ كم
٤ مسار الجيش المملوكي
٢ نطاق فتوحات السلطان العثماني سليم الأول في بلاد الشام.
٣ كان المماليك في مصر
قد اختاروا سلطاناً جديداً هو خليفة قنصوه الغوري، ويدعى (طومان باي)، وقد أرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح مقابل الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر، غير أن طومان باي رفض ذلك، واستعد للقتال، وكان السلطان سليم يبكي في مسجد الصخرة ببيت المقدس بكاء حاراً، وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر، وتحرك نحو مصر وقطع صحراء فلسطين، والتقى الطرفان عند حدود بلاد الشام فهزم المماليك، ودخل العثمانيون غزة.

معركة الريدانية سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧ م

بعد الانتصـارات التي حققها السـلطان العثماني **سليم الأول** على أرض الشـام، وقبل التوجه لمصر أرسـل رسـولاً إلى الزعيـم الجديد للمماليـك **طومان بـاي** يطلب منه الخضـوع له، والطاعـة للدولة العثمانية، وذكر اسمه بالخطبة، وعرض عليه أن تكون مصر له بدءاً من غزة، ويكون هو والياً عليها من قبل السـلطان العثماني، على أن يرسـل له الخراج السنوي لمصر، وحذره من الوقوع فيما وقع فيه سلفه قنصـوه الغوري. لكن طومـان باي رفض العرض، وقتل الرسـل بتأثير من أتباعه الجراكسـة مما يعني إعلان الحرب على العثمانيين؟!

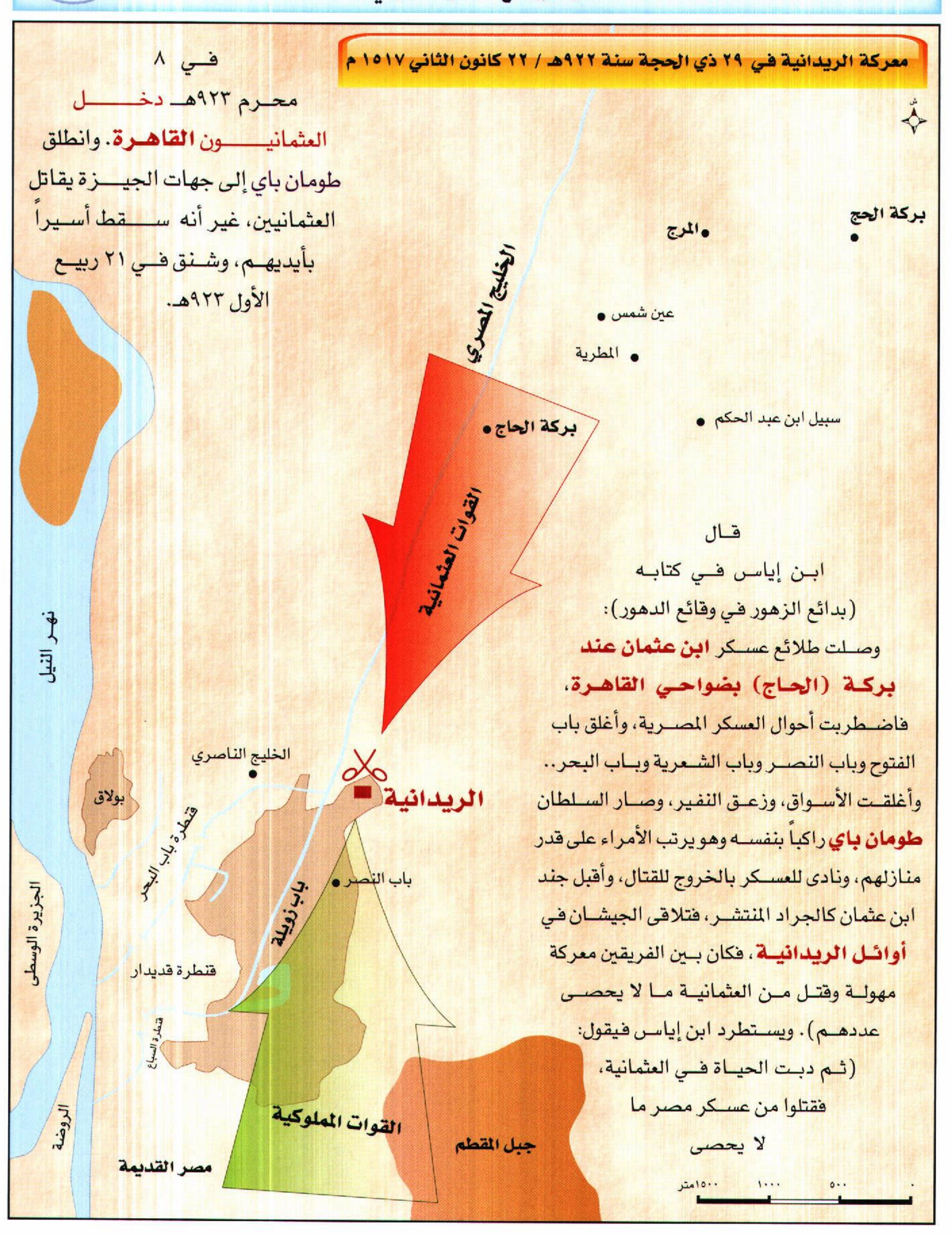
بعد مقتل رسـل السـلطان سليم الأول، قرر التوجه بجيشه صـوب مصر بجيش مقداره مئة وخمسون ألف مقاتل، وصـحبه كثير من المدافع، واجتاز الصحراء مع جيشه ووصل العريش بتاريخ ١٧ ذي الحجة ٩٢٢هـ الموافق ١١ يناير ١٥١٧م، فقطع صـحراء فلسـطين، وقد نزلت الأمطار على أماكن سـير الحملة مما يسرت على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال، وذلك بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسـكة مما يسـهل اجتيازها، ووصـل الصالحية مع جيشـه بتاريخ ٩٢٢هـ بعد أن عبر الصحراء في خمسـة أيـام وفي أثناء عبـور الجيش العثماني للصـحراء تعرض إلى **غارات البدو**، وكان السـلطان المملوكـي يحث البدو على القيـام بهذا العمل، وكان يدفع مقابل كل رأس تركي وزنه ذهباً، وقد اشـتدت غارات البدو لدرجة خاف الوزير الأعظم من حدوث معركة كبيرة، وقد كادت أن تكلف حياته هو الآخر.

بدايـة المعركـة: جمع طومان باي ٤٠ ألف جندي نصـفهم من أهالي مصـر، والنصـف الآخر من العسكر المماليك، وفي قول آخر كان عدد جيشه ٣٠ ألف مقاتل. وقد استقدم ٢٠٠ مدفع مع مدفعيين من الفرنجة، ووضـعها فـي **الريدانية** والهـدف منها هو مباغتـة العثمانيين عند مرورهم والانقضـاض عليهـم، وحفرت الخنـادق، وأقيمت الدشـم (الأماكن الخاصـة للآليات) لمئة مدفـع، وكذلك الحواجز المضادة للخيول على غرار ما فعله سليم الأول في معركة مرج دابق، ولكن استخبارات العثمانيين تمكنت من اكتشاف خطة الجيش المصري [١].

تمكـن والي **حلـب المملوكـي (خاير بك)** الذي دخل بخدمـة العثمانيين من تأمين خيانة صـديقه القديم جانبردي والذي كان على خلاف مع السـلطان طومان باي، وهو الذي أشـار على السلطان سليم بالالتفاف على جيش المماليك. وقد علم طومان باي بالخيانة بعد فوات الأوان، وتردد بمعاقبته خوفاً من أن يدب الخلل في صفوف الجند.

---

١ - د. فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية.


معركة الريدانية في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ / ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧ م
في ٨ محرم ٩٢٣هـ دخل العثمانيون القاهرة. وانطلق طومان باي إلى جهات الجيزة يقاتل العثمانيين، غير أنه سقط أسيراً بأيديهم، وشنق في ٢١ ربيع الأول ٩٢٣هـ.
بركة الحج
المرج
عين شمس
المطرية
سبيل ابن عبد الحكم
الخليج المصري
بركة الحاج
القوات العثمانية
قال ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور): وصلت طلائع عسكر ابن عثمان عند بركة (الحاج) بضواحي القاهرة، فاضطربت أحوال العسكر المصرية، وأغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر.. وأغلقت الأسواق، وزعق النفير، وصار السلطان طومان باي راكباً بنفسه وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم، ونادى للعسكر بالخروج للقتال، وأقبل جند ابن عثمان كالجراد المنتشر، فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكان بين الفريقين معركة مهولة وقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم). ويستطرد ابن إياس فيقول: (ثم دبت الحياة في العثمانية، فقتلوا من عسكر مصر ما لا يحصى
نهر النيل
الخليج الناصري
بولاق
الريدانية
قنطرة باب البحر
باب النصر
باب زويلة
الجزيرة الوسطى
قنطرة قديدار
قنطرة السباع
القوات المملوكية
جبل المقطم
الروضة
مصر القديمة
٠ ٥٠٠ ١٠٠٠ ١٥٠٠متر

قام السـلطان العثماني بعملية تمويهية بعيد اكتشـافه للخطة المصـرية، بأن أظهر نفسـه سـائراً نحو العادليـة، ولكنه التف وبسـرعة حول **جبل المقطم**، ورمى بكل ثقله علـى المماليك **بالريدانية**، وكانت تلـك حيلـة جانبردي الغزالي الذي أبلـغ خاير بك بذلك، فوقعت المواجهة بتاريـخ ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢هـ الموافق٢٢ يناير ١٥١٧م.

قال ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور): وصلت طلائع عسكر ابن عثمان عند بركة (الحاج) بضـواحي القاهرة، فاضطربت أحوال العسكر المصرية، وأغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشـعرية وباب البحر.. وأغلقت الأسـواق، وزعق النفير، وصار السـلطان طومان باي راكباً بنفسه، وهو يرتـب الأمـراء على قـدر منازلهم، ونادى للعسـكر بالخـروج للقتـال، وأقبل جند ابن عثمـان كالجراد المنتشر، فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكان بين الفريقين معركة مهولة وقتل من العثمانية ما لا يحصـى عددهم). ويسـتطرد ابن إياس فيقول: (ثم دبت الحياة في العثمانية، فقتلوا من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم).

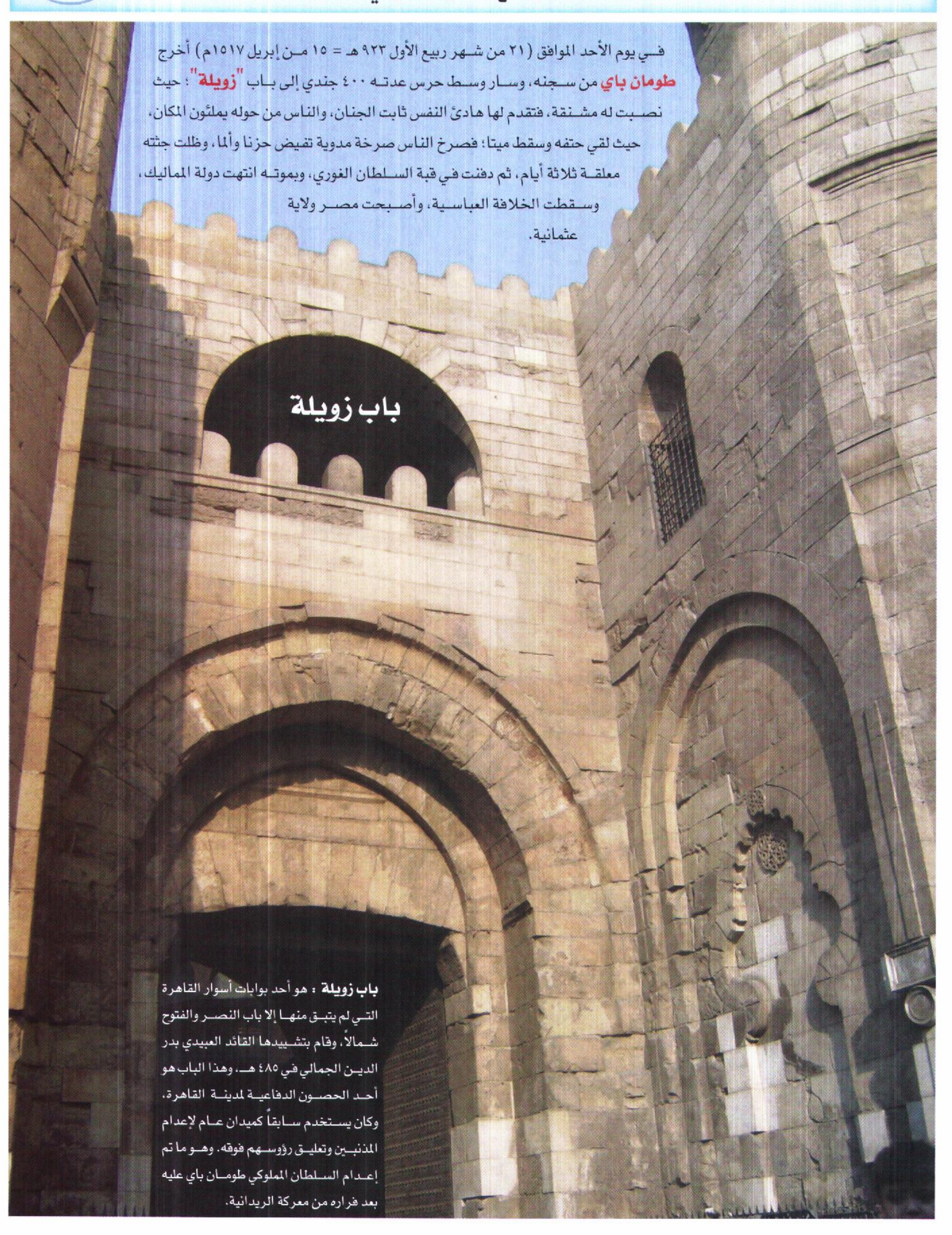
اسـتمرت **المعركـة الضاريـة بـين العثمانيـين والمماليك** ما بـين ٧-٨ سـاعات، وانتهت بهزيمة المماليك، وفقد العثمانيون خيرة الرجال منهم سـنان باشـا الخادم، وقد قتل بيد طومان باي الذي قاد مجموعة فدائية بنفسـه، واقتحم معسـكر سـليم الأول، وقبض على وزيره وقتله بيده، ظنًّا منه أنه سليم الأول.

وأيضـاً فقـد من القادة العثمانيين وأمراء الجيش بسـبب الشـجاعة المنقطعـة للمماليك، ولكنهم لم يسـتطيعوا مواجهة الجيش العثماني لمدة طويلة؛ فقد خسـر المماليك حوالي ٢٥ ألف قتيل، **وفر طومان بـاي مـن المعركة، ودخـل العثمانيـون العاصمة المصرية** وقد اسـتغرق منهـم الكثير من الوقت والرجال، حتى استكملوا سيطرتهم بالكامل على القاهرة[١].

بعـد هذا النصـر المؤزر بقي السـلطان العثماني سـليم فـي القاهرة ما يقرب من شـهر وزع خلالها الأعطيـات، وحضـر الاحتفالات ، ويقال: إنه قد تنازل له الخليفة العباسـي محمـد المتوكل على الله عن الخلافـة ، وسـلمه مفاتيـح الحرمين الشـريفين، فأصبـح السـلطان العثمـاني منذ ذلك اليـوم خليفة للمسلمين ، وصارت مصر نيابة عثمانية بعد أن كانت سلطنة مملوكية، ولكن الواقع التاريخي يقول : إن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب (خليفة الله في طول الأرض وعرضها) منذ عام ٩٢٠هـ ١٥١٤م، أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان.

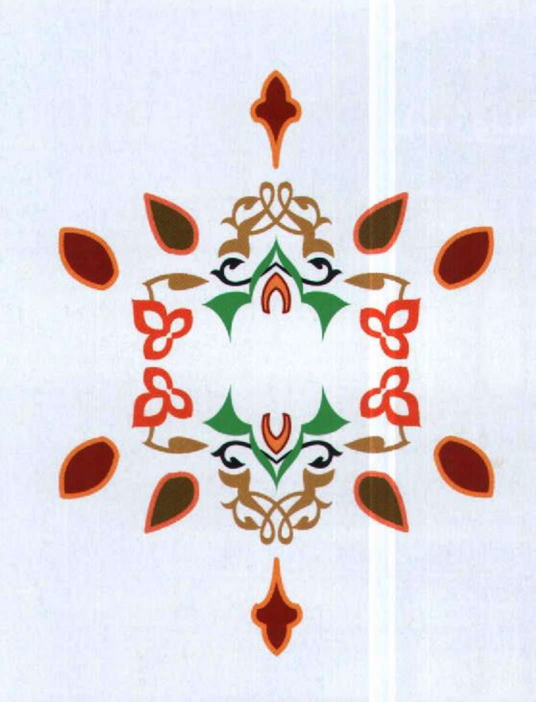
---

١ - د. عثمان علي عطا، معركة الريدانية.



فـي يوم الأحد الموافق (٢١ من شـهر ربيع الأول ٩٢٣هـ = ١٥ مـن إبريل ١٥١٧م) أخرج **طومان باي** من سـجنه، وسـار وسـط حرس عدتـه ٤٠٠ جندي إلى بـاب **"زويلة"**؛ حيث نصـبت له مشـنقة، فتقدم لها هادئ النفس ثابت الجنان، والناس من حوله يملئون المكان، حيث لقي حتفه وسقط ميتاً؛ فصرخ الناس صرخة مدوية تفيض حزناً وألماً، وظلت جثته معلقـة ثلاثة أيام، ثم دفنت في قبة السـلطان الغوري، وبموتـه انتهت دولة المماليك، وسـقطت الخلافة العباسـية، وأصـبحت مصـر ولاية عثمانية.

باب زويلة : هو أحد بوابات أسوار القاهرة التي لم يتبق منها إلا باب النصر والفتوح شمالاً، وقام بتشييدها القائد العبيدي بدر الدين الجمالي في ٤٨٥ هـ، وهذا الباب هو أحد الحصون الدفاعية لمدينة القاهرة، وكان يستخدم سابقاً كميدان عام لإعدام المذنبين وتعليق رؤوسهم فوقه. وهو ما تم إعدام السلطان المملوكي طومان باي عليه بعد فراره من معركة الريدانية.



الباب الثالث



النظم والمنجزات الحضارية

٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م

برهن حكم سـلاطين المماليك في مصـر وبلاد الشـام والحجاز، على أن الإسلام دين مفتوح للجميع، والأكرم عند الله هو الأتقى، وليس حكراً على جنس، أو عرق، أو طبقة، أو جغرافية، أو لون، وأن الحضارة الإسـلامية جاءت نسـيجاً من جميع العـروق، والأجناس، والطبقـات، والمواقع الجغرافيـة. **فالحضارة الإسلامية** متحصنة بالوحدة والتوحيد لله، ومتسمة بالكمال والشمول والذوق والعفة، ومستعلية بالألفة والخيـر، وتسـمو بمـا يقودهـا إلى الله - سـبحانه وتعـالى - التـزام بطاعته وأخـذ بشـريعته، ذلك أن الإشـكاليات التاريخية المسـتهدِفة لإنسـانية الإنسـان وحقوقه؛ إنما تركزت حول التمييز بشـتى أشكاله، وتسـلط الإنسـان على الإنسـان، وإكراه الإنسـان على ما لم يقتنع به. فالقيم التي معيارها وشعارها: « لا إكراه »، مرشـحة لوراثة الحضارة والإنسانية، واسترداد إنسـانية الإنسان في كل مواقعها، وهذا ما أكده المماليك إبّان حكمهم فسحبوا الأضواء من معاصريهم.

لقد واجهت الحضارة الإسلامية في أواخر العصر العباسي وبدايات العصر المملوكي؛ هجمات موجعة وتخريبيـة علـى **أيدي المغـول والصليبيـين**؛ (الذين مكثوا زهـاء قرنين من الزمن يسـرقون ويقتلون وينهبون باسم النصرانية)، قاموا خـلالها بسلب حضارة الشرق المجيدة، ونهب خيراته، وهذا ما يفسر نشاط الترجمة لدى الأوروبيين النصارى في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين. وقد كان لهجماتهم الغاشـمة أبلغ التدمير في المجتمع الإسلامي وحضارته وعواصمه الثقافية، لكن المماليك برغم الظروف العصيبة التي ألمت بهم فقد جاهدوا وكافحوا ونافحوا للذب عنها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

لقد قامت مجموعة النظم الحضـارية الإسـلامية في العصر المملوكي على آصرة العقيدة القائمة على الإرادة الحرة والاختيار الحر للإنسـان، وبذلك أصـبح المجتمع المسـلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس البشـرية وكفاءاتها وطاقاتها بحيث أخرجت حضـارة إنسانية رائعة تحوي خلاصة الطاقات البشرية في زمانها مجتمعة، ولم تكن هذه الحضـارة الإسـلامية الضـخمة يوماً ما عربية وإنما كانت دائماً إسلامية، ولم تكن قومية ولكنها كانت عقيدية صـرفة. فجاءت هذه النظرة الإسـلامية الواسعة التي تقبل الحق من أي مصـدر كان حينمـا انتصـرت أخيـراً علـى النغمة الشـعوبية الحاقدة الضـيقة، وغلب تيـار الفقهاء والمحدثـين، وأخذوا بالنظرة الواقعية برغم أنهم مقتنعون بأن (الأئمة من قريش)، كما جاء في الحديث الصـحيح، فتـولى قيادة المسـلمين رجـال من أمثال: عمـاد الدين ونور الدين وصـلاح الدين وسـلاطين المماليـك كالظاهر بيبرس، ومحمـد بن قلاوون، وبرسـباي، وقايتباي؛ الذين تصـدوا للهجمات المغولية والصـليبية، ورجال قادوا الفتوحات لنشـر الإسـلام، من أمثال: محمود الغزنوي ومحمد الفاتح، وهؤلاء كلهم يمثلون الحضـارة الإسـلامية في أوسع معانيها دون تعصـب وانغلاق، ومثلهم الأعلى في ذلك سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم وآله، وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

نظام الحكم والإدارة

أولاً: منصب السلطنة ... ســـار المماليك في تعيين ســلاطينهم على مبدأ الاختيار بين الأمراء الأقوياء، لا على مبدأ الوراثة، فلم يكن للابن الأكبر للسلطان حق في التولية بعد أبيه، فهناك مجالس الشورى السياسية، مثـل: مجالـس تولية الخلفاء العباسـيين في مصـر، وكيفية اختيار الخليفـة، والمجالس التـي قامت باختيار السلاطين وتوليتهم، والمجالس التي قامت بعزل بعض السلاطين، وأسباب ذلك، وكيفية اختيار السلاطين.

و(مجالـس الشـورى الإدارية والاقتصـادية)، والمجالس الإدارية التي تنحصـر في مجالـس اختيار الولاة والموظفـين، ومجالـس اختيار قضـاة المذاهـب الأربعة وتعيينهم، ومجالس محاسـبة الموظفـين، الذين ثارت حولهـم الشـكوك، وتورطوا في اختلاس الأموال. ثم (مجالس الشـورى الدينية)، مثـل: مجالس الدعاوى، والمجالس التي كانت تعقد لمناقشة المنازعات بين الأفراد حول العقارات أو الأوقاف، ومجالس الفتاوى الدينية التي عقدها سلاطين المماليك للاسترشاد بها في بعض الموضوعات المهمة، ومنها - أيضاً - مجالس استئناف أحكام القضـاة، ومجالس شـورى المظالم التي كان **يعقدها السلاطين** لمناقشـة الشكاوى التي يرفعها إليهم أفراد الشـعب ضـد الأمـراء والموظفـين. وكذلك مجالس الشـورى الخاصـة، ومجالس المناظـرات الدينية، ومجالس تعيين مدرسي المدارس الدينية، ومناقشة مدى صلاحيتهم لهذه الوظيفة.

وتعود قصـة اختيار أول حاكم لهذه الدولة عند وفاة السـلطان الصـالح أيوب في المنصورة، وكانت الحرب قائمة ضد الصليبيين بقيادة لويس التاسع ملك، فرنسا عند غزوهم دمياط وكانوا متجهين إلى القاهرة، فجلب المماليك ابنه توران شاه من حصن «كيفا» كي يقود الحرب ويستلم الحكم، وبعد انتهاء معركة المنصورة وأسر لويس التاسـع ارتقت شـجر الدر سـدة الحكـم -بعد أن أخفت وفـاة زوجها أول الأمرحتـى لا يرتبك الناس- وبرغـم ذلك لم تعترف الخلافة العباسـية بها، وكذلك الأيوبيون في دمشـق فقد أربك المماليك في مصـر، وأقلقهم فراحوا يفكرون في وسـائل توفيقية ترضـي الأيوبيين والخليفة العباسـي وتمنحهم شـرعية لحكم البلاد، فقرر المماليك تزويج شجر الدر من أيبك، ثم تتنازل له عن العرش، فيرضى الخليفة العباسي بجلوس رجل على تخت السلطنة، ثم البحث عن رمز أيوبي يشارك أيبك الحكم أسمياً فيهدأ خاطر الأيوبيين ويرضوا عن الوضع الجديد.

تزوجت شـجر الدر من أيبك، وتنازلت له عن العرش بعد أن حكمت مصـر ثمانين يوماً بإرادة صلبة وحذق متنـاه في ظروف عسـكرية وسياسـية غايـة في التعقيد والخطورة، بسـبب غزو العدو الصـليبي للأراضـي المصـرية وموت زوجها سـلطان البلاد الصالح أيوب، بينما الحرب ضد الصليبيين دائرة على الأرض الواقعة بين دمياط والمنصورة. نصب أيبك سلطاناً، واتخذ لقب الملك المعـز.

ثانياً: الجهاز الإداري☆.. ويتكون من عدد من المناصب أهمها:

١ - الوزارة: تجيء في المرتبة الثانية بعد مرتبة السلطان، إلا إذا وجدت وظيفة (النائب) أو (نائب السلطنة)، فعندئذ يكون الوزير في المرتبة الثالثة بعد السلطان ونائبه.

وعند تعيين الوزير يقام حفل كبير، يقرأ فيه التقليد للرتبة، وترسل الأخبار إلى جميع أنحاء البلاد بتولية الوزير.

ويباشر الوزير عمله في مكان يعرف بـ (المجلس العالي) ويسمى أيضاً (دار الوزارة) ومقرها القلعة، حيث يقيم السلطان، فيكون الوزير قريباً فيستشيره في تعيين أمراء المماليك في المناصب، وفي تعيين الوظائف الديوانية والدينية، وتوزيع الإقطاعات، وتدبير الشؤون المالية. لكن الملاحظ أن رتبة الوزير في العصر المملوكي قد تضاءل شأنها كثيراً عما كانت عليه من قبل، حتى إن بعض الوزراء اقتصرت مهامهم على الحضور الشرفي في المواكب الرسمية وحفلات القصر، أو عند النظر في المظالم، بل إن بعض السلاطين المماليك سعوا إلى السلطة المطلقة، فألغوا رتبة الوزارة نهائياً، واكتفوا بكبار الكتاب دون تعيين وزير.

٢ - ديوان الكتاب: ويتم تعيين كبار الكتاب بمراسيم سلطانية، ويتصل بهم السلطان عن طريق موظف يدعى (مقدم الخاص).

ويقوم كبار الكتاب بدورهم بتعيين طبقة من الكتاب الصغار. ويراعى في اختيار الكتاب أن يكونوا من بين الأسر التي عمل أفرادها من قبل في دواوين الدولة، وأن يكون الكاتب متمكناً من ناصية اللغة العربية وله إلمام باللغة التركية؛ لأجل التفاهم مع الأمراء المماليك الذين كان معظمهم يتكلم التركية. ويُجرَى على الكتاب أرزاق شهرية (مالية وعينية)، وتمتاز طبقة الكتاب بملابس خاصة تميزها عن غيرها من موظفين الدولة، إذ كان لكل طبقة من الموظفين أزياء خاصة بهم.

٣ - ديوان الإنشاء: يشرف على الديوان أحد رجال القلم، ويتلقب بـ (صاحب ديوان الإنشاء)، ويسمى أحياناً بـ (كاتب السر) لأنه يكتب أسرار الدولة، وخصص لهذا الديوان مكان في القلعة عرف بـ (قاعة الإنشاء)، ويقع تحت نظره عدد من الكتاب الذين يرافقون السلطان مع رئيسهم، ولاسيما عند النظر في المظالم.

ويعد ديوان الإنشاء من أهم الأعمال الديوانية عند المماليك، لأنه يُعنى بعدد من الأعمال المهمة، مثل: المكاتبات التي تصدر من السلطان (وهي المراسيم السلطانية أو المناشير).

☆ التاريخ، وزارة التربية والتعليم بالمملكة العربية السعودية، ص ٩٧ - ١٠٢.

ويدخل في اختصـاص رئيس ديوان الإنشـاء؛ البريد. لأنه يحمل مكاتبات السـلطان ورسائله إلى الأمراء والقـادة، وتنقـل هذه الرسـائل عبر (خيل البريـد) أو **(حمام الرسـائل)** حيث أنشـأ المماليك للخيل، ووسـمت خيل البريد بعلامة مميزة، فلا يسـمح لأحد بركوبها إلا بأذن من السلطان، كما أوجدت مراكز عبر الطرق لاستراحة الخيل، وهي مزودة بخيول جديدة وجميع ما يحتاج إليه المسافرون من زاد وعلف.

وأنشـأ المماليـك **أبراجـاً للحمام** تشـبه مراكز بريد الخيـل، ويراعى أن تكون الرسـائل التي يحملها الحمام من ورق خفيف، وأن توضع تحت جناح الحمام لحفظها من المطر، وأن لا يقتصر فيها على كتابة المضـمون فقط، وحرصـاً على وصـول الرسـالة فإنها تكتب من صورتين وترسـلان مع حمامتين. ويصبغ الحمام بلون أزرق كلون السماء لئلا يرى في النهار، أو يطلى بالسواد لكي لا يراه العدو ليلاً.

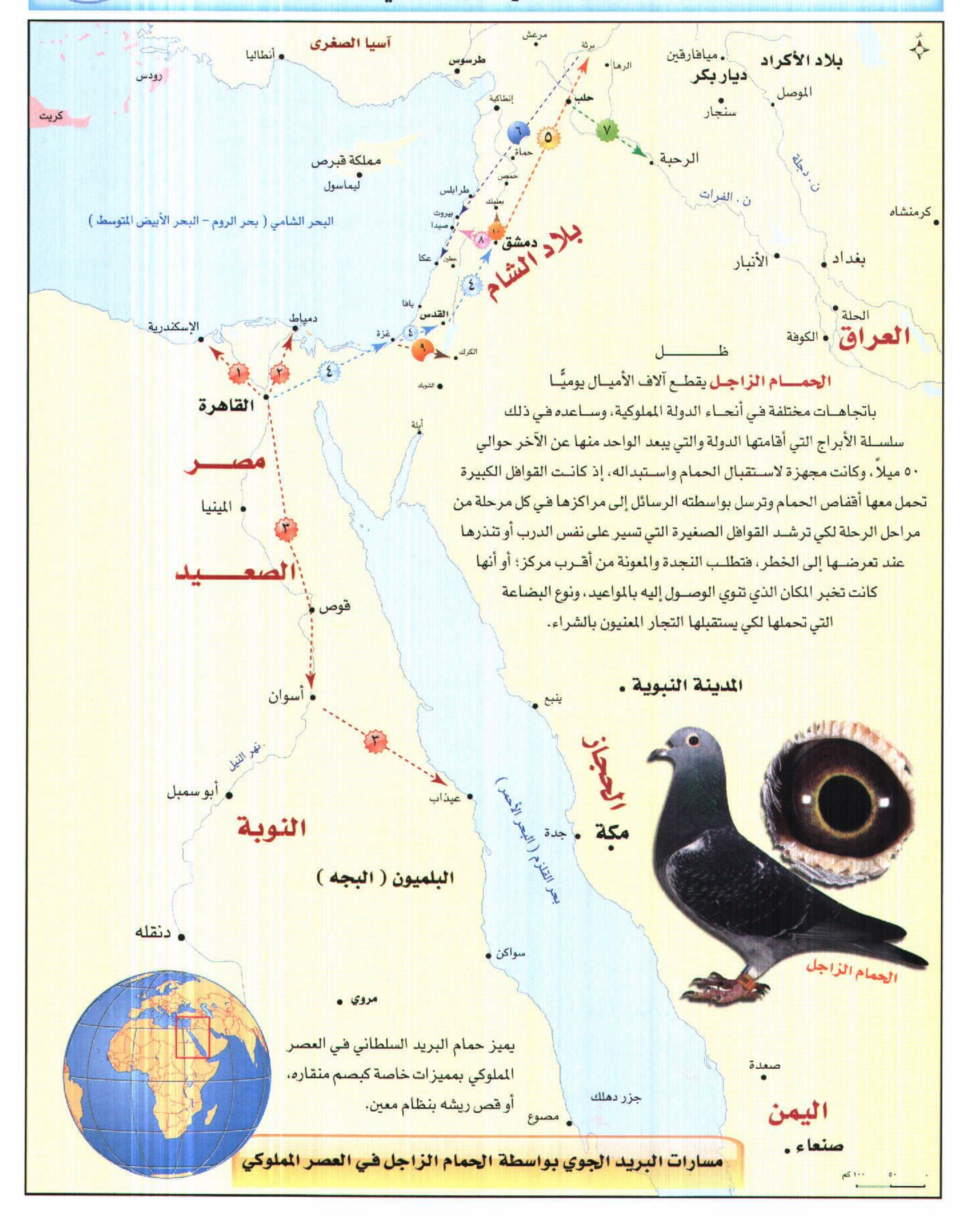
٤ - ناظر المال: ويسمى أيضاً (صاحب المال) و (ناظر المال) ويطلق على وظيفته (ديوان النظر)، وهو يشارك الوزير في تدبير الشؤون المالية للدولة، وعندما لا يكون هناك وزير؛ يصبح منصب ناظر المال من أهم المناصب، ويطلق عليه مثل ألقاب الوزير كـ (الصاحب) وعلى منصبه (الصحبة الشريفة).

ويليه في الأهمية موظفان ماليان كبيران، يسمى أحدهما (مستوفي الصحبة) ويسمى الآخـر (مستوفي الدولة)، ومهامهما ضبط الموارد المالية في كافة أنحاء البلاد.

٥ - دار السكـة (دار الضـرب): هـي الـدار التي تصـنع فيها العملـة النقدية، ويعمـل فيها عدد من الموظفين، يسـمون (معلمي دار الضـرب) ويسمى رئيسهم (ناظر دار الضرب). وتتكون العملة في العصر المملوكي من الدينار الذهبي، والدرهم الفضي، والفلوس النحاسية، وينقش على أحد جانبي العملة عبارات دينية تبدأ بالبسملة فالشهادتين، وينقش على وجهها الآخر اسم السلطان وسنة سك العملة ومكانها.

٦ - نظام الولايات: قسـم المماليك أرض مصـر إلى أربع عشـرة ولاية، يشرف على كل منها (والي)، وجميع الولاة من الأمراء المماليك، ويتم تعيينهم بمرسـوم من السـلطان، ويسـاعد الوالي في عمله نواب للقضـاء، يتبعون في عملهم قاضـي القضـاة المقيم في القاهرة، كما يسـاعده ناظر للمال وناظرٌ للبريد وخفراء.

وقسـم المماليك بلاد الشـام إلى ست نيابات، يرأسـها جميعاً نائب الشام، ومقره في دمشق، وأحياناً في حلب، وتحت نظره هيئة إدارية كاملة من قضـاة ووزراء وحجاب وكتاب إنشـاء وموظفين للمال. ونائب الشام يشرف على (نواب السلطنة) وهم من كبار الأمراء المماليك الذين جرى تعيينهم في نيابات الشام السـت، وهناك نواب أقل درجة من هؤلاء، يعينون في قلاع الشـام العديدة، ويسـمى الواحد منهم (نائب القلعة).



ظـــــــــل

الحمـــام الزاجـل يقطـع آلاف الأميـال يوميًّـا باتجاهـات مختلفة في أنحـاء الدولة المملوكية، وسـاعده في ذلك سلسـلة الأبراج التي أقامتها الدولة والتي يبعد الواحد منها عن الآخر حوالي ٥٠ ميلاً، وكانت مجهزة لاسـتقبال الحمام واسـتبداله، إذ كانـت القوافل الكبيرة تحمل معها أقفاص الحمام وترسل بواسطته الرسائل إلى مراكزها في كل مرحلة من مراحل الرحلة لكي ترشـد القوافل الصغيرة التي تسير على نفس الدرب أو تنذرها عند تعرضـها إلى الخطر، فتطلـب النجدة والمعونة من أقـرب مركز؛ أو أنها كانت تخبر المكان الذي تنوي الوصـول إليه بالمواعيد، ونوع البضاعة التي تحملها لكي يستقبلها التجار المعنيون بالشراء.

يميز حمام البريد السلطاني في العصر المملوكي بمميزات خاصة كبصم منقاره، أو قص ريشه بنظام معين.

مسارات البريد الجوي بواسطة الحمام الزاجل في العصر المملوكي

٧ - القضاء: اعتاد المماليك على تعيين أربعة قضاة في القاهرة وفق المذاهب الإسلامية الأربعة، ويسمى كل واحد منهم (قاضي القضاة)، حيث يجري تعيينه في احتفال مهيب، وقد اتسعت سلطة قاضي القضاة فكان يعيِّن قضـاة في الأقاليم، ويتولى الخطابة في الجامع الأعظم، ويجلس لتعليم العلوم الشـرعية، إلى جانب كونه حلقة وصـل بين السـلطان والرعية؛ إذ يستشيره السلطان في بعض مهامه العليا. ولكل قاضي قضاة أعوان ينوبون عنه يطلق عليهم (النواب من الحكام).

ويجلس القاضي للفصل بين المتخاصمين في المسجد، أو في موضع واسع وسط البلد يعرف بـ (مجلس الحكم)، ويسـاعده في أداء مهامه حاجب يقف على الباب، وكاتب يسجل الأحكام، و(جلواز) يحمل بيده سوطاً لحفظ النظام، وترجمان بسبب كثرة المماليك من الترك إضافة إلى وجود التجار الأجانب. ويستلم مرتبات مالية ثابتة تسمى (معلوم) إضافة إلى بعض المخصصات من المؤن الغذائية.

٨ - النظر في المظالم: هو الفصـل في المشـكلات المستعصـية على القضـاة العاديين، فحينئذ ترفع مباشـرة إلى صـاحب السـلطة العليا فينظر فيها، ويعقد النظر في المظالم في دار العدل بالقلعة (مقر السـلطان)، ويباشر السلطان المملوكي النظر فيه بنفسـه يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويحضر معه الوزير وناظر المال وناظر الجيش والقضاة الأربعة وكتاب الإنشاء.

٩ - الحسبة: توسـع المماليك في تعيين المحتسـبين مثلما توسعوا في تعيين القضاة، وكان لكل محتسب نواب لمساعدته في عمله، وقد أدى المحتسبون دورًا أخلاقيًّا في المجتمع؛ فيمنعون التزاحم في الطرقات، ويشـرفون على نظافة الماء، وسـقاية المارة، ويبادرون إلى مكافحة الغش في الأسـواق، ويراقبون الآداب العامة.

١٠ - الشرطـة: ومهمتهـا حفظ الأمن في المدينة ليلاً ونهاراً، وتنفيذ العقوبات الشـرعية على الجناة، ويساعد والي الشرطة في عمله عدد من الموظفين هم: الأعوان والخفراء والعسس والسجانون والمشاعلية.

١١ - الجيش: خصص المماليك ديواناً للإشراف على الجيش يسمى (نظارة الجيش)، ويُعنى بتسجيل أسماء الجنود وأعدادهم ونفقاتهم وأسماء قادتهم.

ويقوم السـلطان بتوزيع الإقطاعات على الجيش، ويشـرف ناظر الجيش على عدد من الكتاب العاملين معه ويسمى (كاتب الجيش)، ويتكون نظر الجيش من قسمين: أولهما؛ يعرف بـ (ديوان الجيش المصري) وهو خاص بجيش مصر، والثاني يعرف بـ (ديوان الجيش الشامي) لجيش الشام، ويشرف على كل منهما موظف كبير في الديوان يدعى بـ (مستوفي الجيش) ويختص بمصادر الإنفاق على الجيش. ويسمى قائد الجيش عند المماليك (أتابك العسكر)، ويليه في الرتبة (الأمراء)، أما الأمراء العاملون فهم على درجات

الجيش زمن السلاطين المماليك:

توصـف دولة سـلاطين المماليك بأنها دولة إقطاعية حربية، يبدأ الفرد فيها مملوكاً يشتريه أحد الأمراء ويدربه على فنون القتال، ليصبـح فيما بعد مع كفاءة ما في مرتبة الأمراء، ثم ما يلبث هذا الأمير أن يقتني مماليك آخرين ويعمل على تنشئتهم عسكرياً وهكذا دواليك.

وكانـت العـادة أن يتقاضـى المملوك في بداية عهده راتباً يطلق عليه لفظ " جامكيه" ، ثم ينتقل حين يصـبح فارسـاً ليحصـل على إقطاع، ثم يتدرج في المراتب ليصـبح "أمير خمسة" ومن أمير خمسـة إلى "أميرعشرة" ومن أميرعشرة إلى "أمير طبلخانه" –أمير طبلخانه هو الأمير الذي ترافقه النوبة أي مجموعة من العسكر معهم طبل ومزمار يعزفون – ومن أمير طبلخانه إلى "أمير مئة" ، ويسمى أيضاً "أمير مقدم ألف".

وكلما ازدادت مرتبته ازداد إقطاعه، وكان السـلطان يمنح الإقطاع بنفسـه مهما قلّ أو كثر ، ويأخذ المملوك بذلك ورقة كان يطلق عليها اسم " المثال".

وكان ديوان الجيش هو المعني بسـجلات الإقطاع و المتولي أمور الجيش، ويقف على رأسـه " ناظر" يسـاعده مجموعة من كبار الموظفـين، أبرزهم " صاحب الديوان" ويسمى أيضاً " نائب الناظر" ثم يليه " مستوف الجيش" – وهو المسؤول المالي في الديوان – مع مجموعة كبيرة من الكتّاب و الشهود .

- فرق الجيش المملوكي:

يتألف الجيش المملوكي من ثلاث فرق رئيسة هي :

١- **الفرقـة الأولى:** هي طائفة المماليك السـلطانية، وهم مماليك السـلاطين الحاكمـين، ويكونون في العادة أكثر المماليك إقطاعاً ونفوذاً وجاهاً ومن هذه الفرقة يؤمّر الأمراء.

٢- **الفرقـة الثانيـة:** هي طائفة مماليـك الأمراء إذ كان لكل أمير مجموعة من المماليـك ترافقه في حله وترحاله وتكون معه في ميادين القتال.

٣- **الفرقة الثالثة:** هي فرقة أجناد الحلقة، وهم مماليك السلاطين و الأمراء السابقين، وهم جند الدولة الثابتين، ويشرف على كل ألف منهم " أمير مئة".

- ولقد توافر في الجيش المملوكي إمكانات ضـخمة، وتميزهذا الجيش بحسـن نظامه وانضباطه ودقة تدريبه، وهذا ما ساعده على الوقوف بوجه الصليبيين و المغول، علاوة على ذلك قام هذا الجيش بغزو البلاد في شرقي دولته و غربها.

- وكانـت العـادة أن يعود السـلطان إلى مجلس الجيش قبـل أن يقوم بأي حـرب، وكان هذا المجلس يضـم كبار الأمراء والخليفة و القضـاة الأربعة، وإذا ما تقررت حملة أو حرب يجمع الجيش ويقسـم على الولاء و الطاعة فتفتح " السـلاح خانه" (دار السلاح) وتوزع الأسلحة.

- وكان الجيش في العادة يقسـم في الحرب إلى مجموعـات عدة تتألف من مقدمة ومؤخـرة وميمنة وميسـرة وقلب (تطبيق نظام الكراديس).

- وكانت الطبول تدق وكذلك المزامير (الزمور)، وكان لكل فرقة من فرق الجيش أعلام و رايات.

- ومما يجدر التنويه به أن جيش المماليك كان يهتم اهتماماً بالغاً بالفرسان و خيولهم إلى حدٍ فاق الوصف .

أ. أحمد حردان: الشامل للتاريخ والفن الإسلامي (الجيش و البحرية زمن السلاطين المماليك).

فمنهم (الأمراء المقدمون أو مقدمو ألوف) أي تحت قيادتهم ألوف من الجنود، ومنهم (أمراء الطبلخاناه)، وهم من يتولى دق الطبول وغيرها من الآلات في المواكب الرسمية أو حين التوجه في أمر مهم.

١٢ - الأسطول: خصص المماليك جزءاً من ميزانيتهم للنفقة على إعداد قوة بحرية مجهزة بما تحتاجه من المقاتلين وآلات الحرب، فشكلوا أسطولاً من السفن المختلفة الأحجام، وقد نجح الأسطول المملوكي في طرد الصليبيين من ثغور الشام البحرية، وامتدت سيطرتهم إلى جزيرة قبرص. لكن الاهتمام بتطوير الأسطول تضاءل في أواخر عصر المماليك، حتى تفوق البرتغاليون عليهم في معركة ديو البحرية.

مستند تاريخي

ذكر غرق **البطسة** الإسلامية

قال ابن شداد: «وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد ولما كان السادس عشر، وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمسير والرجال والأبطال المقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً فأغرقها الأنكتار في عدة شوان قيل كان فيها أربعون قلعاً، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالاً عظيماً، وقتل من العدو عليها خلق عظيم، وأحرقوا للعدو شانياً كبيراً فيه خلق عظيم؛ فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب؛ فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، وأنهم لا بد وأن يقتلوا، قال: والله لا نقتل إلا عن عزم، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها، ولم يزاولوا كذلك حتى فتحوها عن جانب أبواباً؛ فامتلأت ماء فغرق جميع ما فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو منها بشيء، وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب، وتلقف العدو بعض من كان فيها، فأخذوه إلى الشواني من البحر وخلصوه من الغرق، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً، والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله، والصبر على بلائه، والله لا يضيع أجر المحسنين». النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

البحرية زمن السلاطين المماليك:

وصـفت دولة سـلاطين المماليك بأنها دولة البرين (البر المصري و البر الشامي) والبحرين (البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر)، ولما قامت دولة السلاطين المماليك بعيد حملة "لويس التاسع" وهي حملة بحرية إلا أن المماليك حققوا انتصارات رائعة على الجيش الصليبي وملكه.

فكان من الطبيعي أن يهتموا بالبحرية أهمية بالغة، فبدأ "بيبرس" ببناء السفن التي كانت تعرف يومها بـ"الشواني" وذلك في ميناء الاسكندرية و"دمياط"، وكان "الظاهر بيبرس" ينزل بنفسه كلما سنحت له الفرصة لزيارة "دار الصناعة" – مكان صناعة السفن و مستلزماتها من مدافع وتسمى (ترسانة) في اللغات الأجنبية – ولقد بلغ عدد السفن في عهد "بيبرس" (٤٠) من نوع "الشواني" عدا "الحراريق" (جمع حراقة) و"الطرائد" (جمع طرادة). وفي الحملة البحرية التي أرسلت إلى "قبرص" خسرت البحرية المملوكية (١١مركباً) من نوع "الشواني" في ريح عاتية أجبرت الأسطول المملوكي إلى الرجوع دون أن يكمل مهمته، وليبني بدلاً عن السفن التي غرقت ضعف عددها، وقد استمر السلاطين المماليك يهتمون بالبحرية حتى استطاع "برسباي" غزو جزيرة "قبرص" وضمها إلى دولته، وكذلك "رودس" مرات عدة لمحاربة بقايا الصليبيين.

أما أبرز ما يميز الأسطول المملوكي في نهاية القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر الميلادي ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية جنوب الجزيرة العربية وعلى شواطئ الهند وتهديدهم للبلاد الإسلامية وتجارتها، مما جعل السلطان "قنصوه الغوري" يجدّ في إعادة بناء بحرية متطورة ومزودة بالمدافع وقادرة على المناورة. وقد تمّ للبحرية المملوكية الانتصار على البرتغاليين في "جاول" على شواطئ الهند، لكنها منيت بهزيمة منكرة في "ديو" (عام ١٥٠٩ م) على سواحل الهند، وهذه الهزيمة كانت عاملاً من عوامل سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين.

- أما أهم أنواع السفن الحربية التي عرفت زمن السلاطين المماليك:

١- الشواني: مفردها "شيني"، وهي كبيرة الحجم ذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم و بحارتها بحدود (١٥٠) ومزودة (١٠٠) مجداف.

٢- الحراريق (الحراقات): مفردها "حراقة"، وهي أصغر من الشيني، وكانت تتميز برشاقتها ورميها النيران.

٣- الطرادات: مفردها طراد أو طرادة، وهي سفينة سريعة الكر و الفر، وتستخدم لحمل الخيول، حيث تحمل ما يتراوح بين أربعين وثمانين فرساً.

٤- الأغربة: مفردها غراب، وسميت بذلك لأن رأسها يشبه الغراب، وهي سفينة كبيرة عدد المجاديف فيها يبلغ (١٨٠ مجدافاً) وتستعمل لنقل الجند، والغراب إجمالاً مزوداً بجسر من خشب يستعمل للهبوط إلى سفينة أخرى ويتم القتال فيه كما في البر.

٥- البطس: جمع بطسة، وهي سفينة كبيرة ذات أشرعة كثيرة (٤٠ شراعاً) تستعمل لحمل الجند، وتصل حمولتها إلى (٧٠٠ مقاتل) فضلاً عن بحارتها و الأسلحة و الذخيرة و الغلال والميرة التي تحملها، ولها أسطح عالية وطبقات متعددة.

٦- المسطحات: ومفردها مسطح، وهي من أكبر سفن الأسطول العربي الإسلامي، وهي ضخمة الحجم تشبه البطسة، وكانتا تسير خلف السفن، ومهمتها الإبحار خلف السفن الأخرى خشية أن تصادف منطقة ضحلة أو قليلة العمق فعندئذ تتدارك المسطحات ذلك الأمر؛ لأن غاطسها قليل العمق في الماء. أ. أحمد حردان: المرجع السابق.

أ. أحمد حردان: الشامل للتاريخ والفن الإسلامي (الجيش و البحرية زمن السلاطين المماليك).

الأوقاف في العصر المملوكي[١]

في عصر الدولة المملوكية انتشرت الأوقاف انتشاراً عظيماً، حتى شملت أراضـي كثيرة في مصـر والشـام، وقد اعتنى المماليك بالأوقاف وأكثروا منهـا، ونتيجـة لذلك خففت الأوقـاف على الدولة عبئاً كبـيراً من مرتبات أئمة المسـاجد، والمصالح الخاصة بتلك المسـاجد، والعناية بها، وأصبحت الأوقاف رافداً يمد بيت المال في الدولة المملوكية عند الحاجة إليه، حتى إن الدولـة أخذت أموال الأوقاف على سـبيل القرض في عام (٦٤٩ هـ) نظراً للحاجة اليها.

كذلـك اهتم **سلاطين المماليك بالوقف على الحرمين الشريفين** اهتماماً كبيراً، ويدل على ذلك ما أنفقوه وأوقفوه على هذه البقاع المقدسة، أو ما يتصـل بهما من خدمات، أو أماكن، وكذلك تسـهيل الطرق الموصـلة إليهما، وما يحتاجانه من خدمات وحماية.

وتتمثـل تلـك الأوقـاف في قرى ومنشـآت في كلٍ من مصـر والشـام، خصصت للصرف والإنفاق على الحرمين، وما له صلة بهما.

وقد ذُكر هذا في بعض المصـادر التاريخية المعاصـرة للدولة المملوكية، وقد دلت على تلك الأماكن الموقوفة وثائق وقفية مهمة، يُحتفظ بها في دور المخطوطات المهتمة بذلك، وتشـتمل تلـك الوثائق في مجموعة من الحجج الشـرعية التـي أوقفها السـلاطين والأمـراء وغيرهم للصـرف على تلك الأماكن المقدسة.

ويحدثنا التاريخ كذلك أن الأوقاف فـي العصـر المملوكي في مصـر قد ازدهرت وتنوعت وعمت كل شـيء تقريباً، وعظم ريعها، مما جعلها مطمعاً للحـكام فـي ذلك الوقت، وسـاعد الحـكام على الاسـتيلاء عليهـا وحلها ضعاف النفوس من بعض العلماء والقضاة، حيث أفتوا الحكام بحل أوقاف السـلاطين السـابقين، وأحياناً كان الحكام ينفـذّون رغباتهم دون الرجوع إلى الفقهاء والقضاة.

تأملات في الوقف

الوقف(لغة): يعنـي الحبس أو المنـع. و(اصـطلاحاً): حبـس العـين عـن تمليكهـا لأحد من العباد، والتصدق بالمنفعة على مصرف مباح.

ويشـمل الوقـف (الأصـول الثابتـة) كالعقـارات والمـزارع وغيرهـا، ويشـمل (الأصـول المنقولـة) التي تبقى عينها بعد الاســـتفادة منها كالآلات الصـناعية والأسلحة، أما التي تذهب عينها بالاسـتفادة منها فتعد صـدقة كالنقود والطعام وغيرها.

ويختلف الوقف عن الصـدقة في أن الصدقة ينتهي عطاؤها بانفاقهـا، أما الوقف فيسـتمر العين المحبوس في الإنفاق في أوجه الخير حتى بعد الوفاة.

والوقف في عصـر المماليك اتسع مداه وكثر كثرة ملحوظة، واتسـع نطاقه وأنشئ له ثلاثة دواوين للإدارة والإشراف عليه مثل:

١. ديوان لأحباس المساجد.
٢. ديـوان لأحباسـ الحرمـين الشـــــريفين وجهـات البر المختلفة.
٣. ديوان للأوقاف الأهلية.

---

١ - د. أحمد بن صالح العبد السلام، تاريخ الوقف عند المسلمين وغيرهم، ص ٥٩٩ - ٦٠٤ .

وقد ذكر المقريزي في خططه: أن الناصر محمد بن قلاوون حاول أن يستولي على النصف من أحباس المساجد التي بلغت (١٣٠) ألف فدان، ولكنه قُبض قبل أن يتم له شيء مما أراد. يقول أبو زهرة: كان هذا يجري في القرن السابع والثامن وما يليه، وبذلك صارت الأوقاف نهباً مقسوماً.

ومـع ذلـك فقد وجد من العلماء الربانيين من أنكروا هذا الفعل، وسـجل لهم التاريخ بماء من الذهب، مواقف مشـهورة للتصـدي لهذا العدوان، ومن أمثال هؤلاء شـيخ الإسـلام العز بن عبد السلام، والإمام النووي رحمهما الله تعالى.

ومـن هـذه المواقف: أن الظاهر بيبرس اضـطر إلى فرض ضـرائب كثيرة في مصـر والشـام بسـبب الحـروب مع التتار، وقد سـلك طرقاً في الإسـتيلاء على الأراضـي كلها والأوقاف مـن بينها، وقد جرت مسـاجلات بينه وبين العلماء، وذلك أنه جاء إلى كل مالك لعقار، وطلب منه أن يُقدم المسـتند الدال على ملكيته، فإن كان المستند مثبتاً تركه، وإن لم يجد مستنداً، وذلك هو السائد، قام الملك بالاستيلاء عليه. ولكن الإمام النووي تصـدى له وخاطبه بقوله: إن ذلك هو غاية الجهل والعناد، وأنه لا يحل عند أحد من علماء المسـلمين، ومن في يده شـيء فهو ملكه، لا يحل لأحد الاعتراض عليه، ولا يكلف إثباته، فاليد دليل الملك ظاهراً. ومازال النووي يعظه حتى كف الظاهر عن رغبته في امتلاك أراضـي مصـر. وقد سـجل السـيوطي في كتابه حسـن المحاضـرة طائفة كبيرة من المكاتبات التي جرت في هذا المقام بين العلماء وبين الظاهر بيبرس.

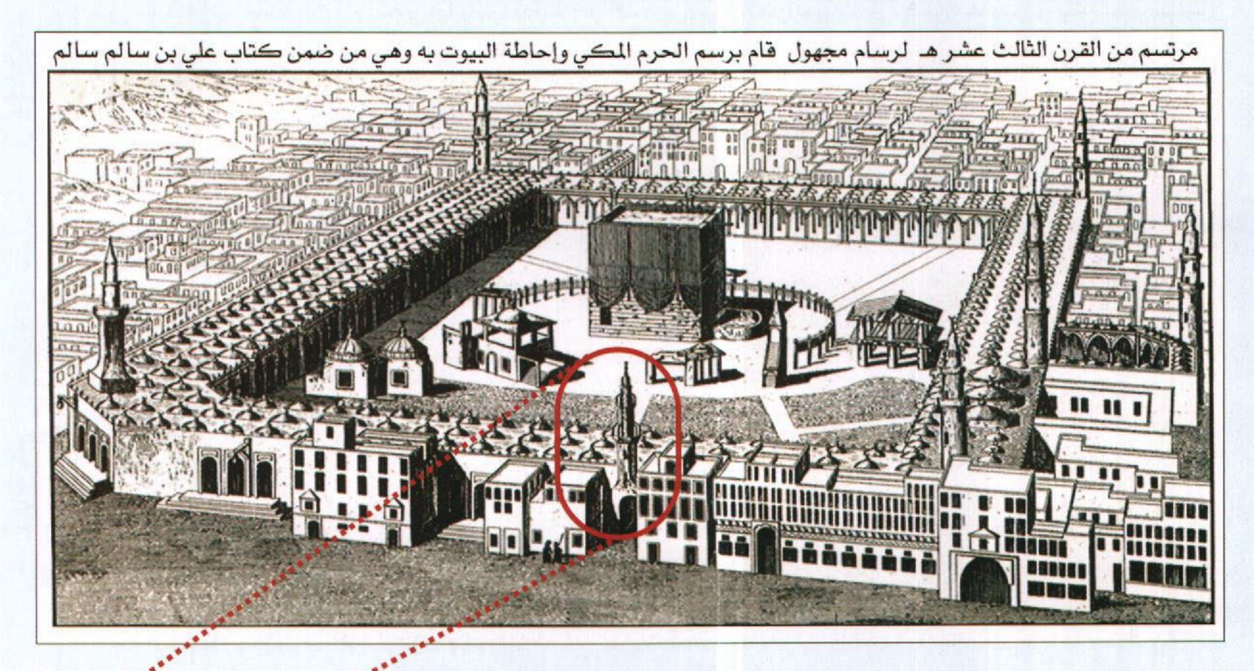
وشهد القرن الثامن الهجري أنواعاً متنوعة من ظلم الحكام وتعديهم على الأوقاف وغصبها، حتى ما كان منها على الحرمين الشريفين، ويتم ذلك عن طريق بعض القضاة الجشعين.

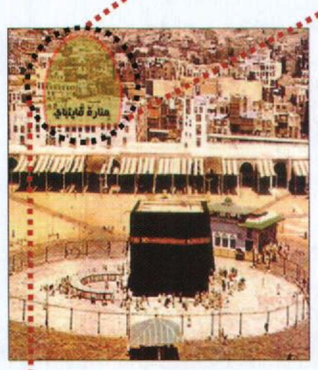
وكما سجل التاريخ المواقف الحميدة للعلماء الذين تصدوا للحكام، سجل كذلك المواقف السيئة لبعض قضاة ذلك العصر، فقد سجل على قاضي القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفي ظلمه في الحكم بما يرضـي شـره الأمير جمال الدين، في اغتصـاب الأوقاف. وكذلك سـجل على قاضي القضاة شرف الدين الحراني ظلمه في إصدار حكمه إرضاء لشره الملك الناصر محمد بن قلاوون.

يقول المقريزي: وكان هذا الحكم مما شنع عليه فيه، ثم اختلفت الأيدي في الاستيلاء على هذه الدار، واقتدى القضاة بعضهم ببعض في الحكم باستبدالها، وكان الاستبدال هو طريق التحايل على الأوقاف، بأن يشـهد الشـهود بأن هذا القصـر يضـر بالجار والمار، وأنه مسـتحق للإزالة والهدم، فيحكم قاضي القضـاة باسـتبداله، وأكثر من تولي كبر ذلك من الولاة: جمال الدين يوسـف، والذي عاونه في تحقيق شـرهه قاضي القضـاة: كمال الدين عمر بن العديم الحنفـي، فتظاهرا معاً على نهب الأوقاف، وصار كل من يريد بيع وقف، أو شـراء وقف، سـعى بهذه الطريقة عند القاضـي المذكور بجاه أو مال فيحكم له بما يريد.

وبذلك صـارت الأوقاف نهباً مقسـوماً باسم الاسـتبدال للحكام، يعينهم في ذلك فسقة بعض القضاة والشـهود، جرى ذلك في القرن السابع والثامن، وكان لهذا الجور، أثره في الفقهاء الذين عاصروا ذلك الأمر وأشـباهه، فلا عجب أن رأينا بعض الفقهاء يتشـدد في موضوع الاسـتبدال أيما تشدد، حتى إنهم اشترطوا أن يكون القاضي الذي يحكم بالاستبدال عالماً عادلاً، وهو الذي يعبر عنه بقاضي الجنة وحاول العلمـاء الاحتيـاط، ولكـن ذهب احتياطهم صـرخة فـي واد؛ لأن الأوقاف كغيرها مـن الأموال لا تحمى بالشروط وإنما تحمى بالعدالة، والعلم في القضاة، والنزاهة في الولاة.أ . هـ .

مرتسم من القرن الثالث عشر هـ لرسام مجهول قام برسم الحرم المكي وإحاطة البيوت به وهي من ضمن كتاب علي بن سالم سالم





منارة قايتباي

فـي عـام ٨٨٢ هـ قـام السـلطان المملوكي قايتباي، ببنـاء منارة من الجهة الشـرقية بين باب النبي صـلى الله عليه وسلم وباب السلام، كما أنشـأ باباً سماه باسمه، وهو نافذ من المسـجد الحرام إلى شارع المسعى وكتـب عليه **اسم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي**، كما قام بعمل ٧٢ غرفة صـغيرة، ومجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام، ومكتباً ومنارة، وصـير المجمع المذكور مدرسـة، وقرر فيه أربعة مدرسين على المذاهب الإسـلامية الأربعة، وأرسـل خزانة كتـب وقفها على طلبة العلـم، وجعـل مقرها المدرسـة، وبنى دورًا عدة في جهة شـارع المسـعى تجني كل عام ٢٠٠٠ ذهبية.

أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي

« ونسج على منوال من سبق السلطان الأشرف برسباي الذي أكثر من أوقافه على الحرمين الشريفين، إلى حد أنه وقف بلاداً بأكملها في هذا الصدد، وجاء في حجة وقف برسباي، المؤرخة في ١٦ من جمادى الآخرة سـنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م، أن الأعيان الموقوفة هي: " مجموعة أراض ناحية الحمرا بالأعمال الجيزية، وأراض ناحية أبو رجوان بالجيزة" ومن حيث أوجه الصرف نصّت هذه الوثيقة على أن : " يصرف لقارئ بالحرم المكي ٢٤ ديناراً أشرفيّاً سنويّاً، و٢٤ ديناراً أشرفيّاً سنويّاً لقارئ بالحرم النبوي" .

كما اهتم الواقفون بشؤون الحرمين الشـريفين، ويدل على ذلك حجج وقفهم التي عينت قراء لتلاوة المصحف الشـريف في رحابهما، لما للقرآن الكريم من فضـل عظيم على الواقف والقارئ، كما اشـترط الواقفون في المقرئين شـروطاً منها أن يكونوا " ذوي أصـوات حسـنة، ونغمات مستحسـنة، وطريقة في التلاوة جيدة، جاهرين بالأصوات، عارفين بالقراءة مع الجماعات" .

وكان القراء في الغالب ينقسمون إلى قسمين: قراء المصحف، وكانوا عادة بين الاثنين والثلاثة يقرأون القـرآن في المصـحف بالتنـاوب فيما بينهم، بحيث يقـرأ القرآن في كل يوم من قبيل الظهر إلى صـلاة الظهر، ومن قبيل العصـر إلى صـلاة العصـر، أمـا القارئ الثالـث فيقرأ في نهار الجمعـة، وفي بعض الأحيـان يكتفي الواقـف بقارئين، أحدهما يتولى القراءة في أيام الأسـبوع ماعدا الجمعة، والثاني يتولى القراءة يوم الجمعة، ويدل على ذلك ما جاء في وثيقة السلطان الأشرف قنصوه الغوري، المؤرخة في ٢٦ من محرم سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، والأعيان الموقوفة بها هي أماكن بجهات متعددة بمصر المحروسة.

وأوجه الصـرف فيها هي: " تعيين من يتولى وظيفة قراءة مصـحف شـريف على أن يقرأ تجاه البيت الشريف في الحرم الشريف في كل يوم ما تيسر له قراءته من القرآن العظيم في أي وقت تيسر من الليل والنهـار، ويختم قراءته بسـورة الإخلاص، والمعوذتين، وفاتحة الكتـاب العزيز، وفواتيح سـورة البقرة، وخواتيمهـا، ويذكر الله تعالى، ويصـلي على النبي - صـلى الله عليه وسـلم - ويدعـو بذلك ويهدي ثواب قراءته وأذكاره وصـلواته لسـيد المرسـلين، وإمام المتقين، ورسـول رب العالمين محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه أجمعين، ثم إلى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ثم إلى الآل، والصحابة، والتابعين، والعلماء، والصـالحين، ثم لمولانا المقام الشـريف السـلطان المالك الملك الأشـرف أبي النصر قنصـوه الغوري وأولاده وذريته والمسلمين ويصرف ما جملته من الذهب الموصوف عشرة دنانير على ذلك وعلـى أن يقـرأ فـي كل يوم في مصـحف شـريف ما تيسـرت له قراءته مـن القرآن العظيـم في الحرم الشـريف، والروضة الشريفة تجاه الحجرة الشريفة، ويصرف لذلك عشرة دنانير" . أحمد هاشم بدرشيني،أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، ص١٥٦-١٥٨، ط١/١٤٢٦.

الأسبلة في العصر المملوكي[١]

أصبح إنشاء الأسبلة ظاهرة معمارية واضحة في العصر المملوكي بشكل عام، وفي مدينة القاهرة بشكل خاص، حيث ارتبطت بحاجة تزويد المارة في شوارعها بماء النيل العذب. وقد أنشئت هذه الأسبلة إما ملحقة بالمنشآت الأخرى كالمساجد والمدارس والخنقاوات وغيرها أو مستقلة بذاتها، وتوزعت على جميع أنحاء المدينة وشوارعها الرئيسة والثانوية، وارتبط تخطيطها بهذه الشوارع إلى حد كبير، وكانت مصدراً مهماً يرد إليه الناس للشرب.

وأكثر سلاطين وأمراء المماليك من إنشاء هذه الأسبلة في المدينة ابتغاء وجه الله الكريم، ورغبة في تطبيق سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم، فقد روي عن عثمان أنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة؛ فيجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة "فاشتريتها من صلب مالي وجعلتها للمسلمين".

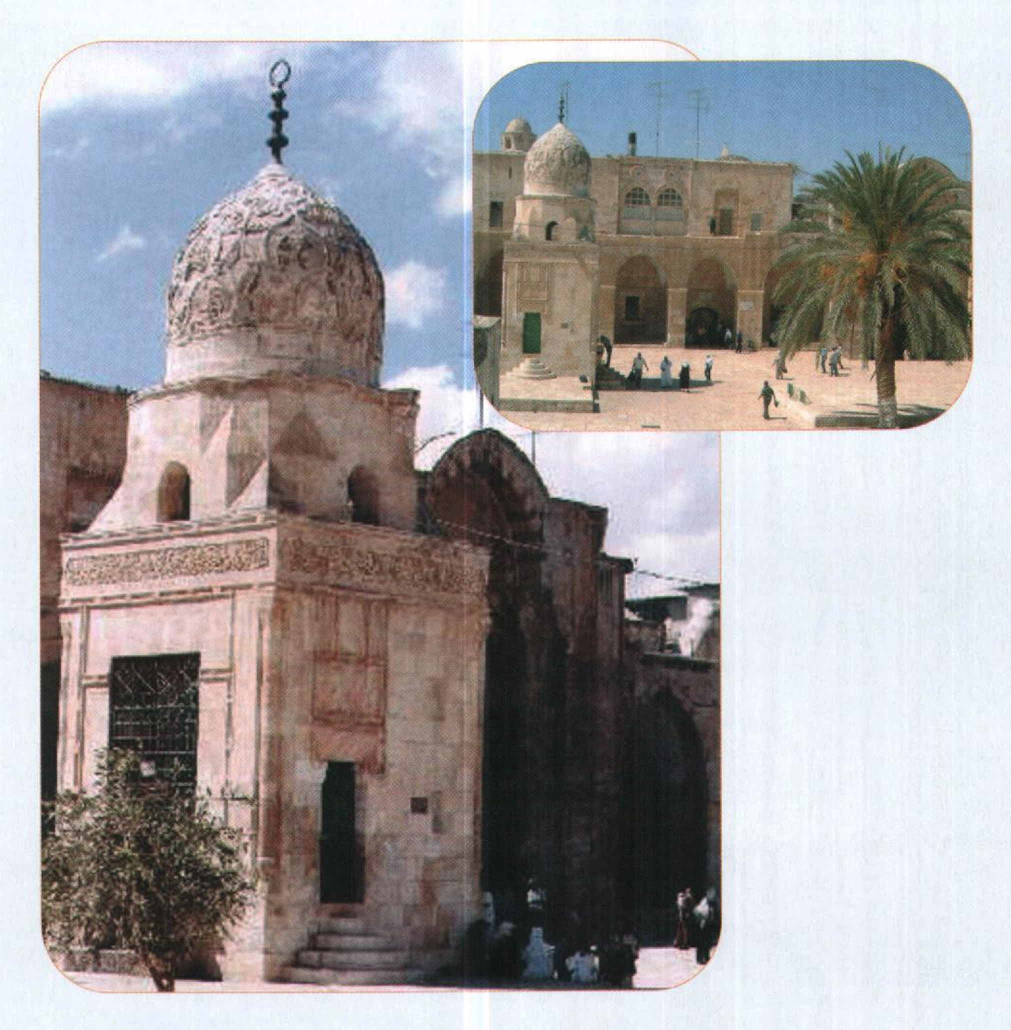
وربما ارتبطت هذه الرغبة وتأكيدها في إنشاء هذه الأسبلة بطبيعة المماليك، الذين طالما رغبوا في أن يظهروا أمام الأمة بأنهم أهل خير ومعروف، وأنهم يعملون على خدمة الدين وأهله، وربما كان ذلك لإضفاء نوع من الشرعية على حكمهم، وهو أمر جعلهم يحاولون بشتى الوسائل إثبات ذلك، ومكنتهم الظروف من ذلك بعدما سقطت بغداد وحملوا لواء الجهاد الإسلامي، وهدفوا بعد أن استقرت الأمور إلى تأكيد اهتمامهم بالدين وتعاليمه، فأنشئوا الكثير من المنشآت الدينية كالمساجد والمدارس والخنقاوات ومكاتب الأيتام "الكتاتيب" التي وفرت نوعاً من الحياة الراغدة لطبقة مثقفة، فاحتوتهم في صالحها، وكانت الأسبلة وحدات معمارية من بين هذه المنشآت الخيرية، التي أكثروا من بنائها تحقيقاً لهذا الهدف، وإن كان الدافع الحقيقي وراء إنشاء هذه المنشآت دافع آخر ارتبط بنظام الإدارة في العصر المملوكي ذلك النظام الذي يحرم الأمير من إقطاعه فور خروجه من الوظيفة التي يشغلها ليستغله من يشغل الوظيفة. فالإقطاع بمثابة "الراتب" لهذه الوظيفة أو تلك، ومن ثم وجد المماليك في نظام الوقف سبيلاً لتأمين مستقبلهم، فأنشئوا الكثير من المنشآت الدينية والخيرية، وأوقفوا عليها الكثير من الأوقاف، التي يفوق ريعها المصارف المخصصة لهذه المنشآت الموقوفة وليوقفوا الفائض وهو كثير- كما أثبتت دراسة وثائق الوقف- على أبنائهم وذريتهم من بعدهم تأميناً لمستقبلهم. وأياًّ كان السبب وراء كثرة هذه المنشآت الموقوفة التي فاقت الحد، فإن الأسبلة كانت إحدى نوعيات هذه المنشآت الموقوفة.

١- د محمد عبد الستار عثمان، أسبلة القاهرة المملوكية، النسخة الرقمية.



جدارية تحمل اسم السلطان المملوكي قايتباي، الصورة من داخل متحف القاهرة

أول بناء للأسبلة في مصر في **العصر المملوكي** كان ابتداء من القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي-، وكان معظمها من أعمال الأمراء والسلاطين ونسائهم؛ كأنها كفارة عن الذنوب والآثام، كما بنى الأغنياء تلك الأسبلة صدقة جارية لأنفسهم، أو لأبنائهم، أو لأحد أقاربهم المتوفين، وتحتها صهريج ملئ بالماء تستخدم للشرب، وكان يسمح للمارة من كل الجنسيات والملل من النصارى واليهود والأجانب كذلك باستعمالها ولا ينقطع الماء عنها أبداً.



يقع **سبيل قايتباي** مقابل باب المطهرة في الجزء الغربي من المسجد الأقصى، وله قبة جميلة مزخرفة بزخارف نباتية، وقد بُني فوق مسطبة واسعة هي مسطبة قايتباي في طرفها الشماليّ الغربيّ وتحته بئر كبيرة عامرة بالمياه. والسبيل بناء عظيم، مرتفع وجميل، دخلت فيه فنون العمارة، وزانته زخرفتها، وجملته الحجارة الملونة الداخلة في بنائه، فأتى بقدر عليّ وأهمية بالغة، حتى قيل إنه النموذج الوحيد والفريد من نوعه في فلسطين مما يعرف بالأسبلة القايتبائية (المملوكية). بناه الملك الأشرف أبو النصر إينال (٨٦٠ هـ)، وجدده بعد تهدمه الملك الأشرف قايتباي (٨٨٧ هـ) وعرف باسمه، وأعاد تجديده السلطان العثماني عبد المجيد الثاني (١٣٣٠هـ). والسبيل عامر في أيامنا، يستفاد من مياهه المثلجة، عن طريق ثلاجة وضعت داخله، تعمل طيلة ساعات النهار في فصول السنة الثلاثة عدا الشتاء. وقد وصلت حفريات الصهاينة المغتصبين تحت ساحات المسجد الأقصى المبارك؛ إلى البئر الواقعة تحت هذا السبيل عبر نفق يمتد ما بين بابي السلسلة والقطانين القريبين منه.

مبنى قلعة المعظم

جزء من البركة

قلعـة وبركـة المعظم الأيوبي التي تقـع جنوبي مدينة تبوك على بعـد ١٣٠ كم، على درب الحـاج الشامي، تم تجديدهـا في العهد المملوكي سنة ٧٦٧ هـ أيام السلطان الأشرف شعبان بن حسن بن قلاوون، وعلى يد **يلبغا الملكي الأشرفي**.

المسلة المكتشفة

يلبغا الملكي الأشرفي

إحدى الواجهات لنقش مسلة بركة المعظم والتي جاءت بالعبارات (الموجودة أسفل صورة المسلة)

الجانب الأول على المسلة:

لعمـار الحرمين..بسـم الله الرحمـن الرحيم..جدد هـذا المـكان المبارك فـي أيـام مولانا المقـر الأشرف العالي المولي الأميري الكريمي السيفي الاتابكي نظام الملك الشريف.

الجانب الثاني:

وأتابـك العسـاكـر المنصـورة الاسلامية يلبغـا الملكي الاشرفي أعز الله أنصاره.

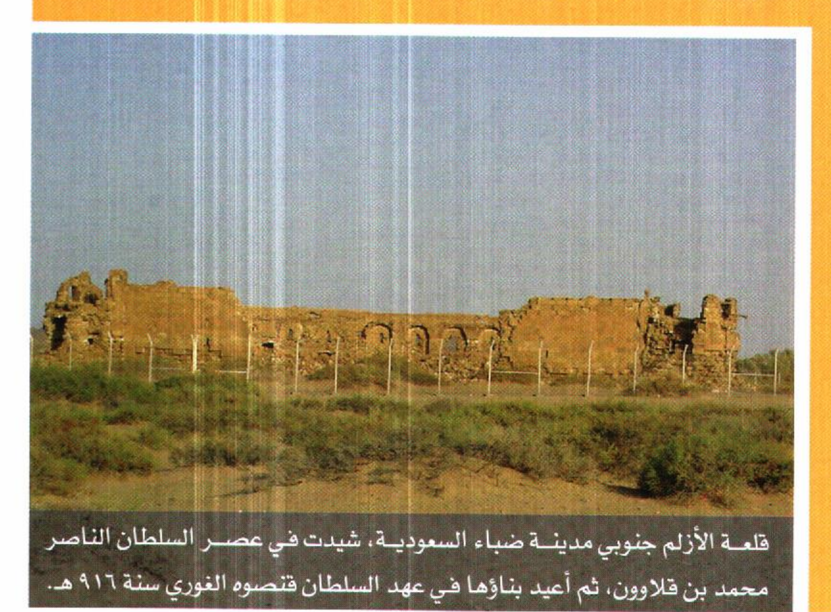
الجانب الثالث:

وكان العمل فيه من ماله أبتغاء لوجه الله تعالى بتاريخ نهـار الحد (الخير) سابـع من شهر ربيـع الآخر سنة سبع وستين وسبعمئة كتبه محمد ابن العباس الكركي.

وفي مسلة مجاورة جاء فيها:

أنـه مـن عمـل المعلـم أبوبكر بـن عيسى بـن عبد الله وأحمد ابن محمد عمرو الصفد(؟) النحاس.

تنويه: نقلت الأخطاء الكتابية كماهي على النقش



قلعـة الأزلم جنوبي مدينـة ضباء السعوديـة، شيدت في عصـر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ثم أعيد بناؤها في عهد السلطان قنصوه الغوري سنة ٩١٦ هـ.

العمارة في العصر المملوكي

العمارة الإسلامية : هي الخصائص البنائية التي استعملها المسلمون لتكون هوية لهم، وقد نشأت تلك العمارة بفضل الإسلام، وذلك في المناطق التي دخلها كشبه الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام ومصر والمغـرب العربي وتركيا وإيران والسند وبلاد ما وراء النهر وأرض السودان وغيرها، بالإضافة إلى المناطق التـي حكمها لمـدد طويلة مثل الأندلـس (أسبانيا حاليـاً) والهند. وتأثـرت خصائص العمـارة الإسلامية وصفاتهـا بشـكل كبير بالدين الإسلامـي والنهضة العلمية التي تبعته. وتختلف مـن منطقة إلى أخرى تبعاً للطقس وللإرث المعماري والحضاري السابق في المنطقة، حيث ينتشر الصحن المفتوح في الشام والعراق والجزيرة العربية، بينما يختفى في تركيا نتيجة للأجواء الباردة وفي اليمن بسبب الإرث المعماري. وكذلك نرى تطور الشكل والوظيفة عبر الزمن وبتغير الظروف السياسية والمعيشية والثقافية للسكان[١] .

وفـي هـذا **العصر المملوكي** الـذي طال عهده، تنافس سلاطين المماليك فـي إنشاء الجوامع والمدارس، وإقامـة الأضرحة والأسبلة وبناء القصور والـوكالات وتجلت عظمة العصر المملوكى فيما أبدعوه من روائع المنشـأت التـي تبدو للناظر شامخة في غـير تبرج، وتزهو بنفسها في غير خيـلاء، في جمال غير متكلف يستثـير إعجاب كل من يراه وينتزع ثنـاءه انتزاعاً. وفي هذا العصر استقر فن العمارة المملوكي وأصبح ذا طابـع خاص بـه. له مقوماته وتقاليده، يتوارثها المعماريون والفنيـون، تظهر واضحة في تخطيط المساجد وتصميـم الوجهات، وفي المداخل الشاهقة بمقرنصاتها الجميلة. وتمشي مع هذا الاستقرار رقي دائم في صناعـة الجص، وتنـوع في زخارفه، يثبت ذلـك ما نشاهده في أبنيـة النصف الثانى مـن القرن السابع الهجـري - القـرن الثالـث عشر الميـلادي - إلا أن الرخـام انتزع من الجصـ مركز الصـدارة، فصارت المحاريب وأسفـال الجدران الداخلية مكتسية بالرخام المتعدد الألوان، متفرد بتصميمات بديعة، يزيد في بهائهـا دقة الصناعة وتجانـس الألوان، وتبع كل ذلك تطور في أشغال النجارة وإبداع في تكوين زخارفها، فسايـرت أعمال التطعيم بالسن والآبنوس والزرنشان جنبـاً لجنب مع الأويمة الدقيقة في المنابر والأبواب والشبابيـك، وخطـت أعمال الخراطة خطوات واسعة، كما تنوعت تصميمـات الأسقف الخشبية، وزاد في روعتهـا ما حوته من نقوش جميلة مموهة بالذهب. هذا وتتجلى دقة صناعة التعدين في الأبواب المصفحة بالنحاس، فتظهـر فيها براعة الحفر والتفريغ فـي النحاس إلى دقة التكفيت فيـه. وللعصر المملوكى أن يزهـو علـى غيره من العصور بقبابه ومآذنه، فقد أخذت القبـاب تبنى بالحجر بدلاً من الطوب، وأصبحت قواعدهـا تأخـذ أشـكالاً مختلفة، كما ظهر القاشـاني مغلفاً ببعضـ رقابها. أما أسطحهـا الخارجية فقد تدرجـت زخرفتها من تضليع إلى خطوط متعرجة ودالات متداخلة، ثم بلغت في عصر المماليك الجراكسة

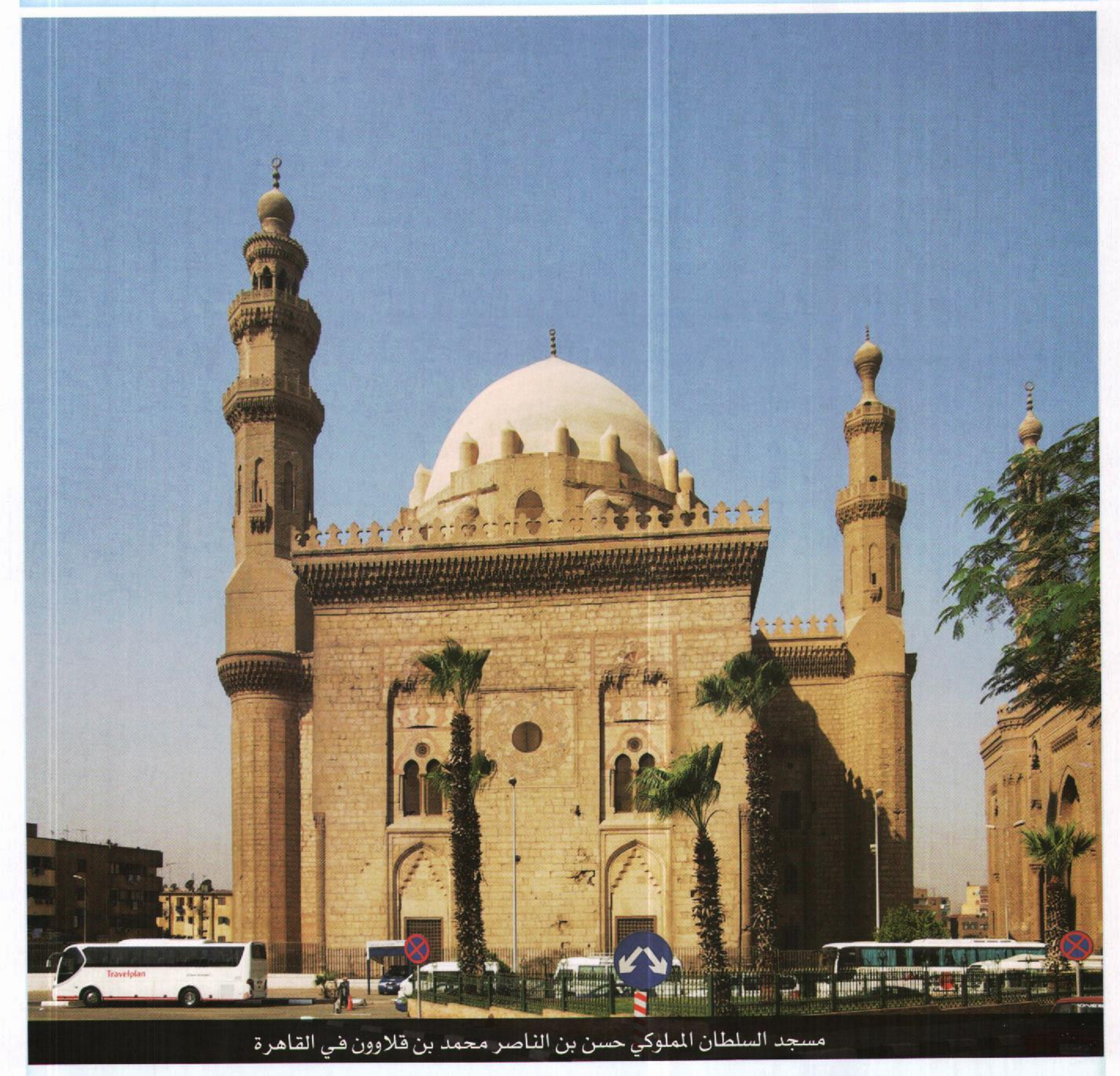
١ - العمارة الإسلامية ، ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الشبكة.

شأواً عظيماً، فازدانت بأشكال هندسية وأخرى زخرفية.وسايرت المنارات القباب فنراها تعلو في الفضاء في تيه وإعجاب، تطل على ما حولها في رشاقة ودلال، يسترعي الانتباه طابعها الخاص - وإن كان بعضها قـد خرج عنـه - ويبهر الرائي رونقها وزخرفهـا، فالبعض كسيت خوذته العليـا بالقاشاني كما في خانقاه بيبرس الجاشنكير وجامـع الناصر محمد بالقلعـة، والبعض الآخـر حليت دورته الوسطـى بتلابيس من الرخام كما يشاهد في منارة مسجد برقوق ومنارة مسجد القاضي يحيى، هذا وقد تنوعت زخرفها وكثرت فـي أواخر عصر المماليك الجراكسة. وأنشئت في العصر المملوكي المدارس ذات التخطيط المتعامد، التي تتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة إيوانات متقابلة، وألحق بها أضرحة لمنشئيها، كما ألحق ببعضها الأسبلـة والكتاتيـب وفي أواخـر عصر المماليـك الجراكسة، أخذت هـذه المدارس تبنـى بأحجام صغيرة بالنسبـة لمثيلاتهـا المنشأة في عصر المماليـك البحرية، وصارت أصحنها تغطـى بأسقف خشبية بولغ في نقشهـا وزخرفتها. وقد أنشـئت هذه المدارس في الأصــل لتكون أماكن تدرس فيها المذاهب الإســلامية الأربعــة (الحنفي - المالكي - الشافعـي - الحنبلي) إلى جانب إقامة الشعائر الدينية فكانت بذلك تجمع بين الغرضين[1].

اختصت الفنون فـي العصـر المملوكـي بفن العمارة المتميز، حيث بلغ هذا الفن شأواً عظيمـاً؛ حيث أضحت بعض المساجد الشهيرة تخلد ذكرى السلاطين في مصر وبلاد الشام، ولاتزال هذه المساجد شاهـدة على ذلك حتى يومنا هـذا؛ لتعبر بكل قوة واجتدار عـن براعة المماليك وحذاقتهـم في فـن العمـارة الهندسية، ومن أشهـر المساجد مسجـد السلطان حسـن، والسلطـان قايتباي ....، حيث تبرز هـذه المساجد ما حفلت به من نقوش وزخـارف، وما اشتملت عليه مـن تحف فنية، وتصاميم إبداعيـة، والواقع أن ما أدركـه فـن البناء من تقـدم، امتد أيضـاً إلى بقيـة الفنون الإسلاميـة في هـذا العصـر، فازدهـرت وارتقـت أيمـا ارتقـاء، وغصت قصـور المماليـك وبيوتهم بالتحـف الثمينـة، من خشبيـة وخزفيـة وزجاجية وبلوريـة وعاجية ونحاسيـة، وفرشـت بالطنافـس والأبسطـة والرياشـ الثمينة، ولعل ما تزخر به متاحف مصر وبلاد الشام خير شاهد على ذلك.

---

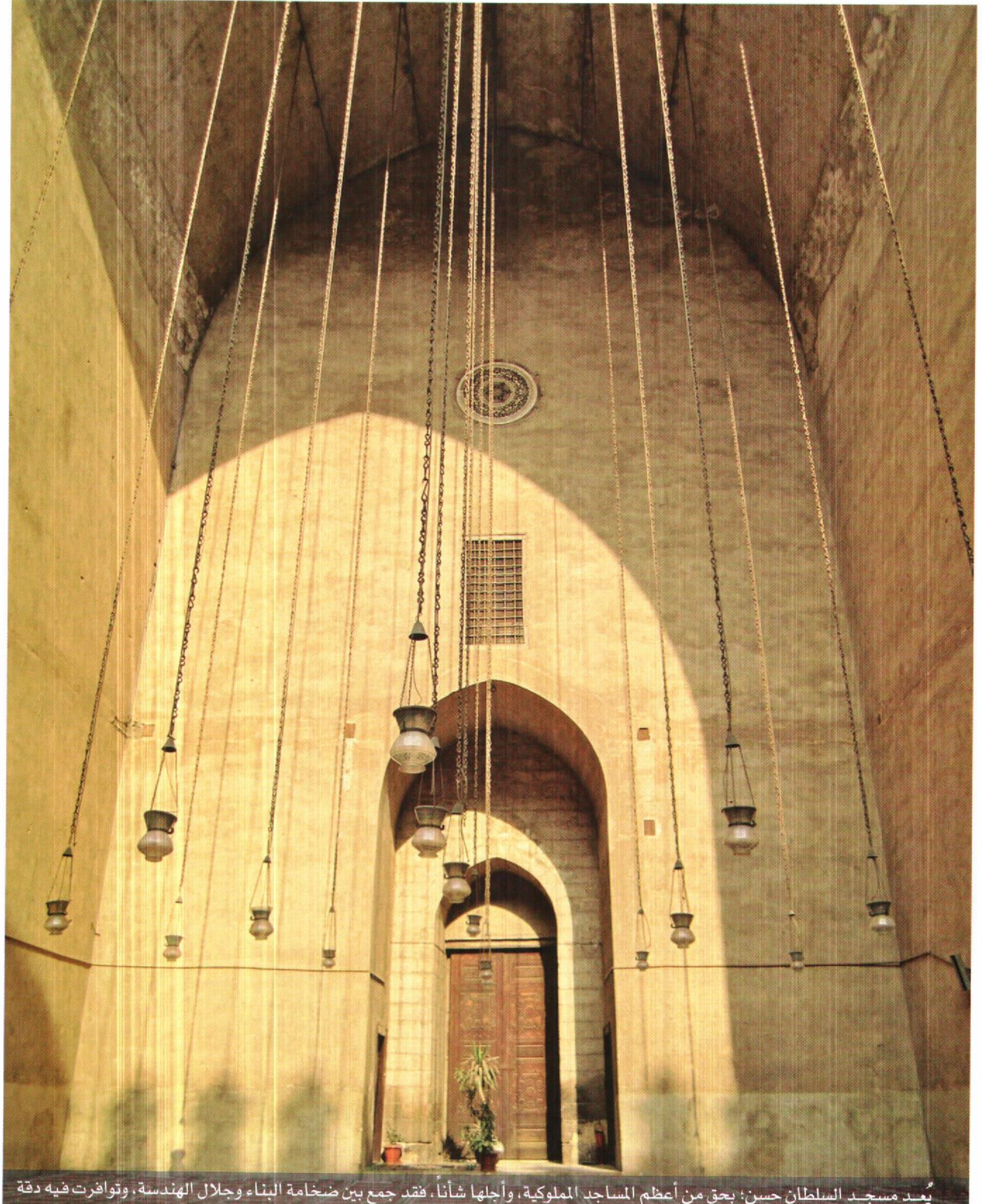
١ - العمارة الإسلامية بمصر وتطورها، ملتقى المهندسين العرب.



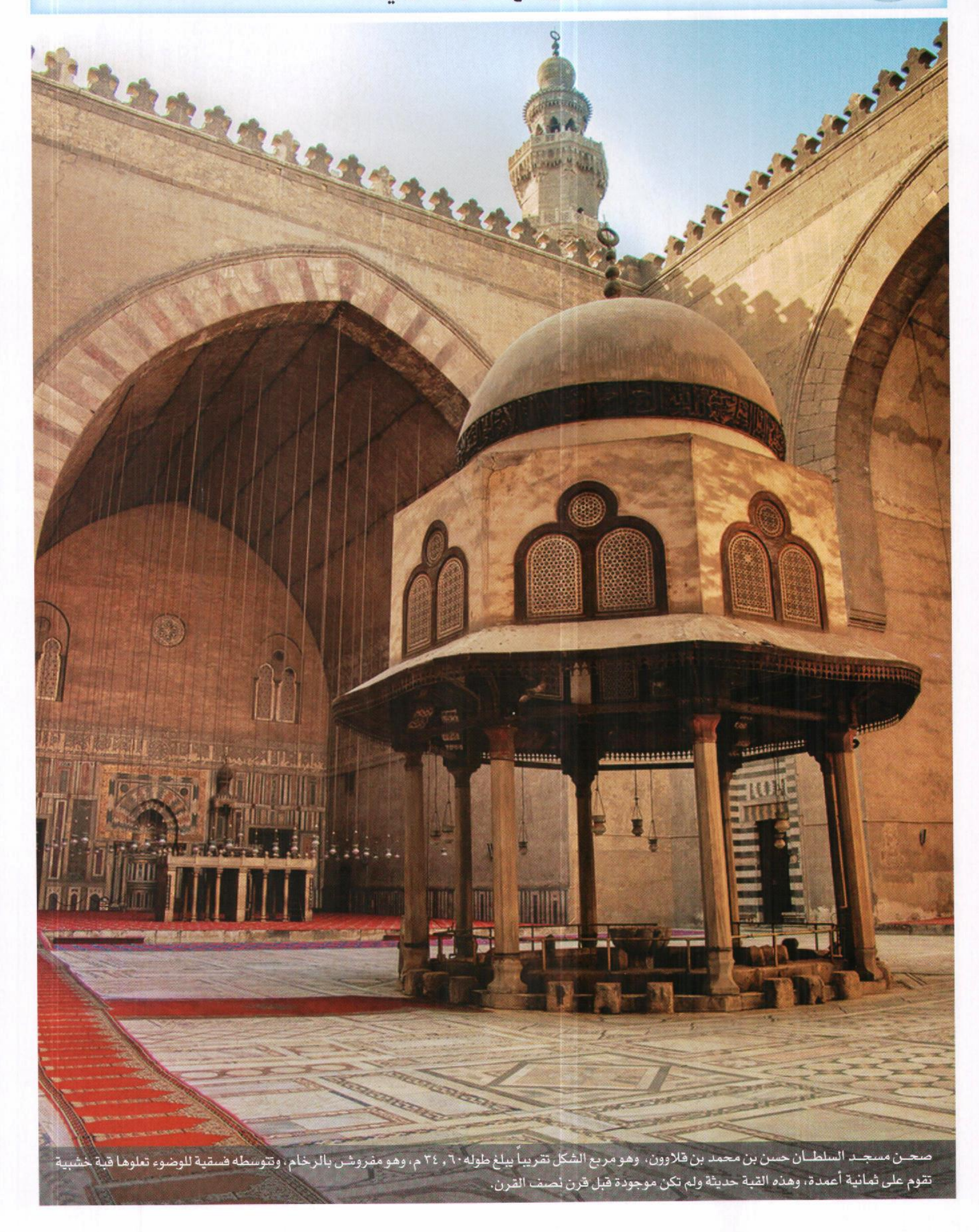
مسجد السلطان المملوكي حسن بن الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة

يعد مسجد ومدرسة السلطان من روائع البناء في العصر المملوكي، وقد تم إنشاء هذا المسجد العظيم للسلطان حسن ابـن الناصـر محمد بن قلاوون الذي ولي الحكم سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧م)، بعد أخيه الملك المظفر حاجي وعمره ثلاث عشرة سنة، ولم يكن له في أمر الملك شيئاً لصغر سنه؛ بل كان الأمر بيد أمرائه، وما لبث أن بلغ رشده، فصفت له الدنيا، واستبد بالملـك إلى أن اعتقـل سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١م)، وظل في معتقله مشتغلاً بالعلـم حتى أعيد إلى السلطنة مرة أخرى في سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤م)، وظل متربعاً في دست الحكم إلى أن قتل سنة ٧٦٢ هجـ(١٣٦١م).

وكان البـدء فـي بنـاء مسجـده العظيم سنة ٧٥٧ هـــ (١٣٥٦م)، واستمر العمـل فيه ثلاث سنوات بغـير انقطاع، ومات السلطان قبل أن يتم بناءه؛ فأكمله من بعده أحد أمرائه - بشير الجمدار- سنة ٧٦٤ هجرية (١٣٦٣م).

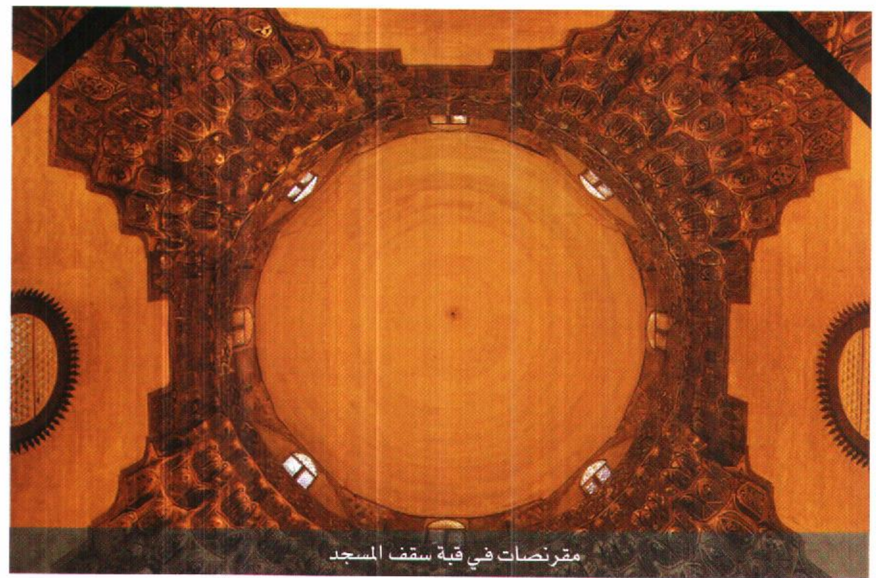


يُعد مسجد السلطان حسن: بحق من أعظم المساجد المملوكية، وأجلها شأناً، فقد جمع بين ضخامة البناء وجلال الهندسة، وتوافرت فيه دقة الصناعة وتنوع الزخارف، كما تجمعت فيه شتى الفنون والصناعات. فنرى دقة الحفر في الحجر ممثلة في زخارف المدخل ومقرنصاته

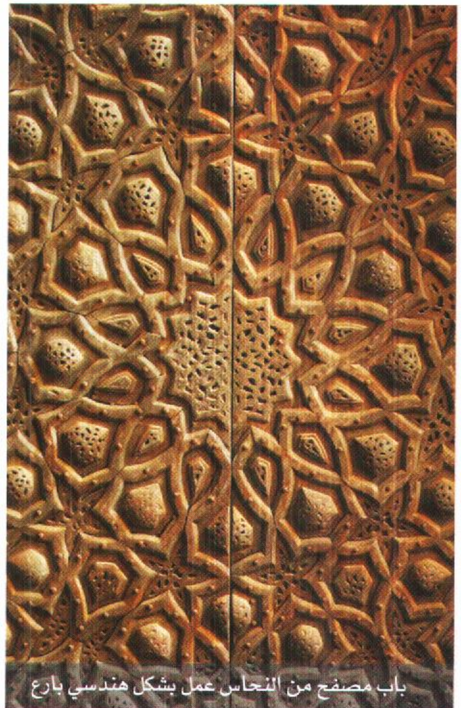


صحن مسجد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، وهو مربع الشكل تقريباً يبلغ طوله ٣٤,٦٠ م، وهو مفروش بالرخام، وتتوسطه فسقية للوضوء تعلوها قبة خشبية تقوم على ثمانية أعمدة، وهذه القبة حديثة ولم تكن موجودة قبل قرن نصف القرن.

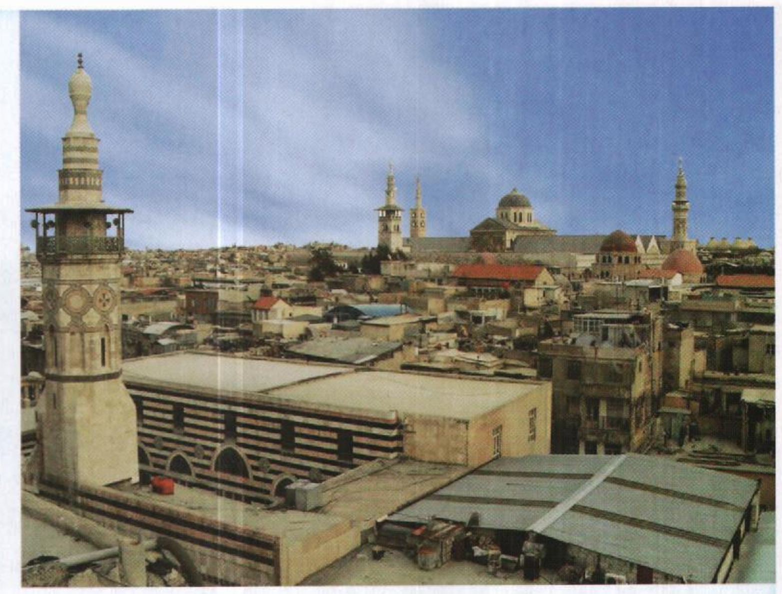
▲ من خلال الصورة تتضح براعة صناعة الرخام ممثلة في وزرتي القبة، وإيوان القبلة، ومحرابيهما الرخاميين، والمنبر ودكة المبلغ، وكسوة مداخل المدارس الأربعة المشرفة على الصحن، ومزررات أعتاب أبوابها، كما نشاهد دقة صناعة النجارة العربية وتطعيمها مجسمة في سورة الكرسي الموجود بالقبة.



مقرنصات في قبة سقف المسجد



باب مصفح من النحاس عمل بشكل هندسي بارع

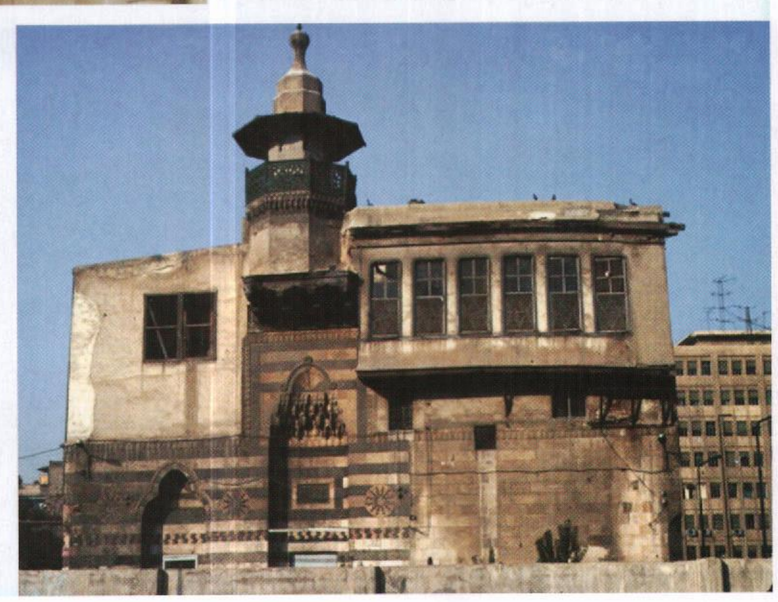


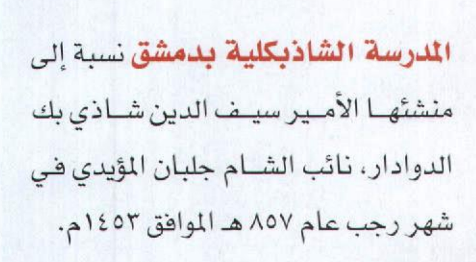
الجامع المعلّق بدمشق: نموذج من الأوابد المملوكيـة بنـي سنة ٨٦٢ هــ / ١٤٥٨ م، وهو معبّر أيضاً عن الطريقة التي كان يستخدمها المماليك في هندسة البناء.

يقع الجامع بين باب الفرج والفراديس في منطقـة العمارة خـارج سور دمشـق. وسمي بالمعلّـق لأنه مرتفـع عن الأرض قليـلاً، ولأنه معلق بشكل أو بآخر إذ يقع على نهر بردى.

فـن المقرنصات: عنصر مهم مـن عناصر الفـن المعمـاري والزخرفـي الإسلامـي، تأتي أهميتـه مـن الجماليـة الخاصّة فـي هندسته وتشكيلاته الفراغيّة ثلاثيّة الأبعاد، كمنحوتات تجريديّـة تحاكـي الطبيعـة بمنهجيّـة فكريّـة إسلاميّـة جمالية، وتـؤدّي أيضـاً دوراً إنشائياً فـي الانتقال والتحـوّل من شـكل هندسي إلى آخـر، ومن سطـح إلى آخر أيضـاً، وهو حرفٌ بالغ الأهمية في أبجديّة الفن الإسلامي.



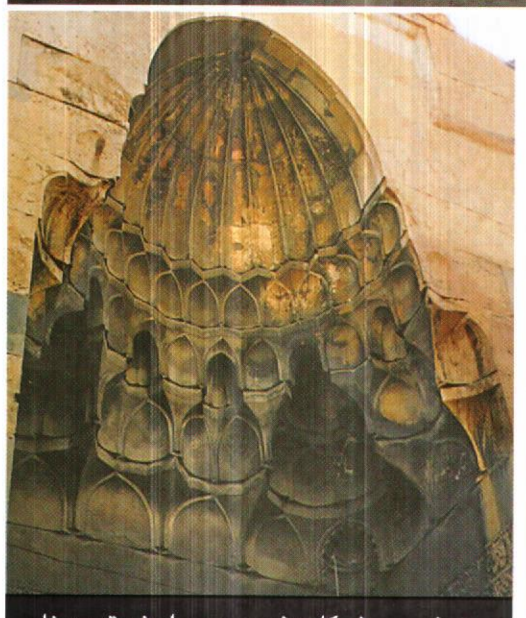




المدرسة الشاذبكلية بدمشق نسبة إلى منشئهـا الأمـير سيـف الدين شـاذي بك الدوادار، نائب الشـام جلبان المؤيدي في شهر رجب عام ٨٥٧ هـ الموافق ١٤٥٣م.

مدرسة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بدمشق، بنيت سنة ٦٧٦ هـ

تقـع **المدرسة الظاهرية** في حي العمارة بدمشق القديمة بين بابي الفـرج والفراديس، في موقع متوسط بـين الجامع الأموي وقلعة دمشق وسوق الحميدية وبيوت المعيشة، فضلاً عن الحمام الملاصق لها من جهتهـا الشمالية، الذي يعرف بحمام السلطان الظاهـر، ولعـل هـذا الموقـع ساهـم الى حـد كبير فـي تحديد أهميتهـا، حيث تتفـرع منها وإليهـا كل الأزقة المؤديـة إلى كافة نواحـي الحياة الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسيـة والدينية، وممـا يؤكد هـذه المكانة أيضاً هـو فخامة البنـاء واحتوائه على الكثـير من عناصـر الفن العربي المعمـاري، المستوحاة بمجملها مـن ذات المكانـة التـي يحتلها المسجـد الجامع بصفتـه الدليل الموضوعي على قوة العصر ونفوذه.

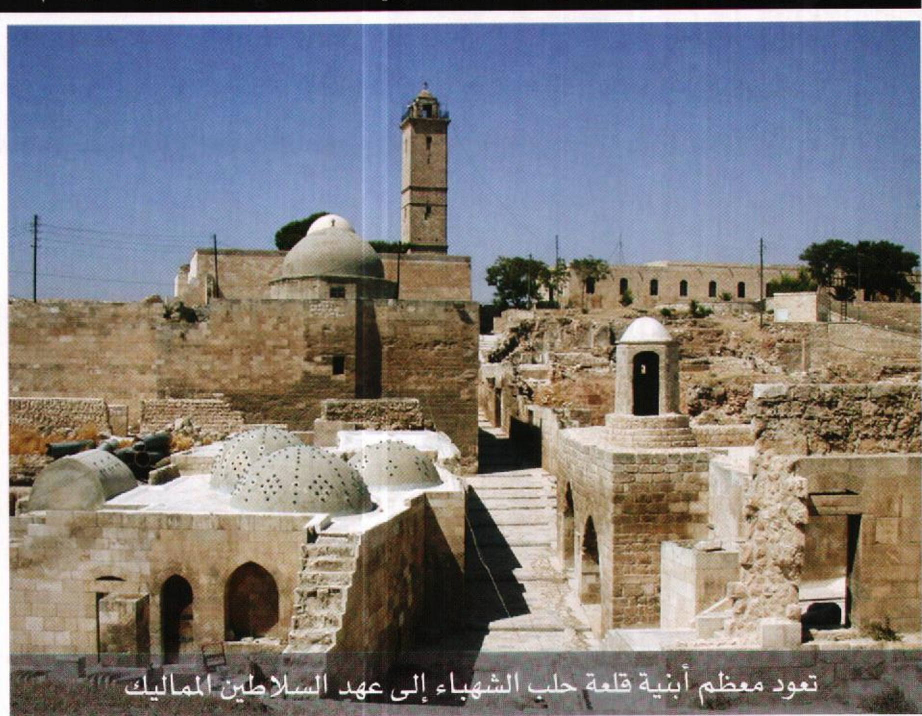


مقرنصـ بشـكل هندسي جميل فـوق مدخل المدرسة الظاهرية بدمشق.

يعـود بنـاء هذا الجامـع إلى العصر المملوكي، حيث تذكر كتـب التاريخ: أن عمودين داخـل الجامع من عجائب الدنيا، سـواء مـن ناحية بنائهما أم مـن نوعية الرخام؟ وفـي الجامع منبر مصنـوع من الرخـام الأبيض ومحرابه من الرخـام الأصفر، والشبابيك مصنوعـة من النحاس الأصفر، أما جـدار الجامع الخارجي الغربي فهو فائـق الصنع، والباب الموجود فيه مؤرخ في عام (٨١١ هـ / ١٤٠٨م) بينما يعود الباب الشمالي إلى عام (٨١٢ هـ/١٤٠٩م) وترتفع المئذنة المثمنة الشكل إلى يسار الباب الرئيس.

جامع الأطروش في حلب بناء قام بتشييده نائب حلب المملوكي، الشهير (آقبغا الأطروش). ومات قبل تمام هذا البناء فأكمله نائبه (دمرداش الناصري).

حظيـت قلعـة حلب فـي العهد المملوكـي، بتجديـد عمارتهـا، علـى يـد الأشـرف خليـل بـن قلاوون، ثم جدّد بعض أجزائها السلطـان الملـك الناصـر بـن برقـوق. وكانت آخر الترميمات المملوكيـة قـد حدثـت أيـام السلطـان قنصوه الغـوري آخر السلاطين المماليـك. والجدير بالذكر أنّ الترميمات المملوكية أبقـت على شـيءٍ مـن مظاهر القلعة الجميلة.



تعود معظم أبنية قلعة حلب الشهباء إلى عهد السلاطين المماليك



صندوق خشبي أمر بصنعه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس - رحمه الله - سنة ٦٦١ هـ. لضريح سيف الله المسلول (خالد بن الوليد) رضي الله عنه. متحف دمشق

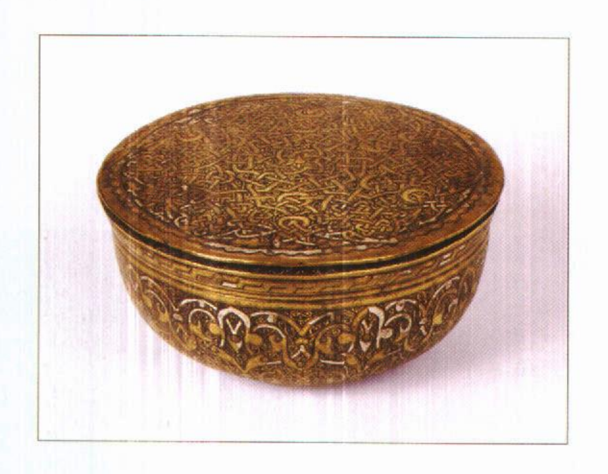
آنية مزجحة مزينة بالذهب والمينا، عليها كتابات عربية، المصدر مصر أو بلاد الشام (القرن الرابع عشر الميلادي)



قطعة من الفخار الأزرق والأبيض تحت تأثير الخزف الصيني على شكل كمثرى، سوريا بدايات القرن الخامس عشر الميلادي.

جرة مقعرة الشكل من الجانبين عليها رسومات حيوانية من القرن الرابع عشر الميلادي، سوريا.

صنــع الفنانــون المبدعون فـي عصــر المماليك من الزجــاج (القواريــــر، والأباريـق، والكـــــؤوس، والمصابيح، والزجاجـات)، وكانت صناعته منتشرة في مصر وبلاد الشام؛ خصوصاً في حلب ودمشق، ولكن أجمل ماصنع منه في ذلك العصر المشكاوات، وتعد بحق فخر عصر المماليك في صناعة الزجاج، وبفضـل مـن -الله تعالى- هنــاك العديـد من هذه المصنوعات محفوظة بالمتاحف الإسلامية والعالمية.



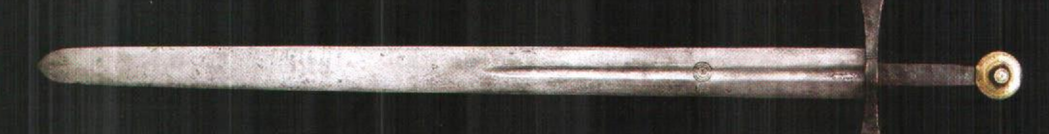


حظيت المشكاة التي مُوِّهتْ بالمينا والذهب بمنزلة رفيعة لدى سلاطين المماليك وأمرائهم الذين سجلوا على بدنها، بطريقة الرسم وعناصر الزخرفة الإسلامية ، المعلومات والأحداث التاريخية والاجتماعية، بالإضافة إلى اسم الصانع وصاحبها، والتوقيع ، واسم المكان. وكان أكثر أسماء السلاطين وروداً على المشكاوات اسم السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، ثم والده السلطان محمد بن قلاوون... .

تتوزع المشكاوات على العديد من متاحف العالم ، نذكر منها: قاعة الفن المملوكي في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ومعظم معروضات هذه القاعة، التي يتجاوز عددها الخمسين، موجودة في داخل خزائن، وفي المتحف الوطني بدمشق مشكاة تعود إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ويحتوي متحف المتروبوليتان على أربع مشكاوات. ولعل الذي يسترعي الانتباه، من هذا العرض التاريخي، أنه. باستثناء نيف وثلاثين مشكاة وصلتنا من عصر المماليك الجراكسة. نجد أن جميع المشكاوات الأخرى التي وصلتنا ترجع إلى عصر المماليك البحرية، بخاصة عهد آل قلاوون، ما يبرز لنا مدى عنايتهم الفائقة، واهتمامهم البالغ في هذه الصناعة. غازي انعيم، جريدة الدستور، المشكاوات أكسبت المساجد شخصية فريدة.

مصباح النحاس الأصفر السداسي الشكل مع زخرفة مخرمة، محفور ومطعم بالفضة؛ مصر - القرن الرابع عشر الميلادي.

علبـة نحاسيـة أسطوانية الشكل، لحفظ المواد العطرية، عليها نقوش جميلة وكتابات (منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) مصر وبلاد الشام.



سيف السلطان المملوكي الأشرف شعبان

حركة التأليف والتصنيف في عصر المماليك

لقد اتسم هذا العصر بعصر الإبداع الإنتاجي، حيث تجلت إبداعات العلماء في أسمى معانيها في شتى العلوم، ومختلف الفنون.

ففي ميدان العلوم الشرعية: كثرت المؤلفات والمصنفات في علوم القرآن، والحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، وغيرها، وفي مقدمة هؤلاء الأعلام: المصلح الكبير الإمام أحمد بن تيمية الحراني ت (٦٥٢ هـ)، التي تَربو مؤلفاته على الثلاثمائة مؤلف، فقد ترك الشيخ للأمة تراثاً ضخماً ثميناً، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معيناً صافياً. وقد توافرت لدى الأمة منه الآن المجلدات الكثيرة، من المؤلفات والرسائل والفتاوى والمسائل وغير ذلك من المطبوع، مثل: الإكليل في المتشابه والتأويل، والتبيان في نزول القرآن، والرسالة الاكملية، والرسالة العرشية، والقاعدة المراكشية، ورسالة إلى أهل البحرين في رؤية الكفار ربهم، ورسالة إيضاح الدلالة في عموم الرسالة، ورسالة في أمراض القلوب وشفاؤها، وما بقي من مؤلفاته مجهولاً ومكنوزاً في عالم المخطوطات فكثير.

كذلك من أعلام هذه الساحة تلميذه الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية ت (٧٢٨ هـ)، حيث ذكر الشيخ د. بكر أبو زيد له ٩٨ مؤلفاً، منها: الصواعق المرسلة، وزاد المعاد في هدي خير العباد، ومفتاح دار السعادة، ومنثور ولاية العلم والإرادة، ومدارج السالكين. ومن الأعلام أيضاً الإمام شمس الدين الذهبي ت(٧٤٨ هـ)، ومن أبرز مصنفاته: سير أعلام النبلاء ٢٥ مجلداً، وتذكرة الحفاظ، وطبقات القراء، وطبقات الحفاظ « مجلدان »، وميزان الاعتدال في نقد الرجال « ثلاث مجلدات »، والمثبت في الأسماء والأنساب، ونبأ الرجال، واختصار سنن البيهقي. و من أعلام العلوم الشرعية أيضاً ابن حجر العسقلاني ت (٨٥٢ هـ)، فله مؤلفات وتصانيف كثيرة زادت على مئة وخمسين مصنفاً في مجموعة من العلوم المهمة، أشهرها وأهمها:

ظهور الموسوعات العلمية

ازدهرت الحركة العلمية في العصر المملوكي، وأصبحت مصر - قاعدة حكم المماليك - مركزاً لهذه الحركة المزدهرة، وذلك نتيجة لما أصاب العراق من خراب وتدمير على يد المغول، وسقوط مدن الأندلس - في القرن السابع الهجري- بأيدي الممالك النصرانية الأسبانية، فضلاً عما لحق بالشام من أضرار فادحة على يد الصليبيين والمغول معاً.

ومن ملامح الازدهار العلمي؛ عظم الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر في معظم ألوان المعرفة كالعلوم الشرعية والأدب والتاريخ والجغرافيا والمعارف العامة.

وأبرز ما يميز الحياة العلمية في عصر المماليك هو الإقبال على تأليف الموسوعات العلمية في شتى فنون المعرفة الشائعة في العصر.

التاريخ: وزارة التربية والتعليم، ص ١٠٩.

فتح الباري شرح صحيح البخاري (أربعة عشر مجلداً)، حيث مكث ابن حجر في تأليفه خمساً عشرين سنة، ولما أتم التأليف عمل مأدبة ودعا إليها أهل قلعة دمشق وكان يوماً عظيماً. ويعد هذا الكتاب أفضل شرح وأعمّه نفعاً لصحيح البخاري، وتأتي أهمية كتاب ابن حجر من كونه شرحاً لأصح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث، وقد تضمن ذلك الشرح ذكر أحاديث أخرى وعلق ابن حجر على أسانيدها، وناقشها، حتى كان بحق (ديوان السنة النبوية)، وكذلك لما تضمنه من فقه وأصول ولغة ومناقشة للمذاهب والآراء في شتى المعارف الإسلامية. وقد اشتهر هذا الكتاب في عهد صاحبه حتى قبل أن يتمه، وبلغ شهرته أن الملك شاه رخ بن تيمور ملك الشرق (الدولة التيمورية) بعث بكتاب إلى السلطان المملوكي برسباي يطلب منه هدايا من جملتها (فتح الباري)، فجهز له ابن حجر ثلاث مجلدات من أوائله ومن مؤلفاته: الإصابة في تمييز الصحابة، وهو كتاب تراجم، ترجم فيه ابن حجر للصحابة؛ فكان من أهم المصادر في معرفة الصحابة، وتهذيب التهذيب، ومختصره كتاب تقريب التهذيب، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ذكر فيه أحاديث لم يخرجها أصحاب المسانيد الثمانية، والدراية في تخريج أحاديث الهداية، ويعد من كتب التخريج البديعة، وقد خرج فيه الأحاديث الواردة في كتاب الهداية وهو مرجع فقهي، وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة. والحقيقة أن ما ألفه هؤلاء العلماء في مجال العلوم الشرعية ظل نبراساً استفادت منه الأجيال اللاحقة حتى يومنا هذا.

وفي ميدان اللغة وعلومها: ظهرت مؤلفات وموسوعات كثيرة، من أبرز هذه المؤلفات والموسوعات في كتب النحو والصرف مثل: (ألفية ابن مالك) ت (٦٧٢هـ)، وهذه الألفية هي أشهر مؤلفات ابن مالك حتى كادت تطغى بشهرتها على سائر مؤلفاته، وقد كتب الله لها القبول والانتشار، وهي منظومة شعرية من بحر "الرجز"، تقع في نحو ألف بيت، وتتناول قواعد النحو والصرف ومسائلهما من خلال النظم بقصد تقريبهما، وتذليل مباحثهما، وقد بدأها بذكر الكلام وما يتألف منه، ثم المعرب والمبني من الكلام، ثم المبتدأ والخبر، ثم تتابعت أبواب النحو بعد ذلك، ثم تناول أبواب الصرف، وختم الألفية بفصل في الإعلال بالحذف، وفصل في الإدغام. ولابن مالك إلى جانب الألفية (التسهيل) و(الكافية الشافية). ومن الموسوعات أيضاً (لسان العرب) لابن منظور ت (٧١١ هـ)، ويقع هذا المؤلف الضخم في عشرين مجلداً، جمع فيها أمهات كتب اللغة، فكاد يغني عنها جميعاً. وتميز ابن منظور باختصار وتلخيص عدد هائل من كتب الأدب المطولة، قال عنه ابن حجر: «كان مغرم باختصار كتب الأدب المطوّلة»، ويقول الصفدي: «لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولاً إلا وقد اختصره، وأخبرني ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمسمائة مجلد». ومن أشهر الكتب الموسوعية في ميدان اللغة وعلومها في عصر المماليك أيضاً (القاموس المحيط) للفيروزآبادي ت (٨١٧ هـ).

ومـن المؤلفـات الضخمة فـي ساحة اللغة و علومها (المزهر في اللغة) ؛ لجلال الدين السيوطي ت (٩١١ هـ) ، ذكر ابن إياس في "تاريخ مصر" أن مصنفات السيوطي بلغت ست مائة مصنف. وقد ألف فـي طيف واسـع من المواضيـع تشمل التفسـير والفقه والحديث والأصـول والنحو والبلاغـة والتاريخ والتصـوف والأدب وغيرهـا . ومـن هذه المصنفـات: الإتقان في علـوم القرآن، شرح سـنن ابن ماجه، وإسعـاف المبطـأ برجال الموطأ، الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء، والأشباه والنظائر (في النحو)، وغيرهـا من المصنفات العديدة. وكذلك من المؤلفات الرائعة فـي ميدان النحو و الصرف في العصر المملوكي (مغني اللبيب) و(قطر الندى) و (شذور الذهب) لابن هشام ت (٧٦١ هـ).

أما في ميدان البلاغة: فمن أشهر المؤلفات في علوم البلاغة يأتي (تلخيص المفتاح) للخطيب أبي عبـد الله القزوينـي ت (٧٣٩ هـ) ، و(الإيضاح) للمؤلف نفسـه. و يأتي كذلك كتاب (حسن التوسل في صناعة الترسل) لشهاب الدين محمود الحلبي ت (٧٢٥هـ) ، وقد كان أديباً كبيراً ، استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاماً ، وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره، و(عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) للبهاء السبكي. ثم تأتي البديعيات، و يأتي أشهر هذه البديعيات (بديعية صفي الدين الحلي) ، وبديعة ابن حجة الحموي.

أمـا فـي مجال التاريخ والتراجم والسير: فلقد اتسع التأليف فيه اتساعاً كبيراً ؛ خصوصاً في التراجـم، ويتجلـى لنا هذا في كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبنـاء الزمان) لابن خلكان ت(٦٨١ هـ) ، ويأتـي كذلك كتاب (البدايـة والنهاية) للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ت (٧٧٤ هـ) وهو الفقيـه، والمفتـي، والمحدث، والمفسـر (صاحب التفسير الشهـير للقرآن الكريم). و يأتـي في ميدان التاريـخ أيضـاً كتـاب (العبر و ديـوان المبتدأ و الخـبر) لابن خلـدون ت(٨٠٨ هـ) ، وهـو مؤسس علم الاجتمـاع. ومـن العلماء في هذا الميدان شيخ المؤرخين المصريـين " أحمد بن علي المقريزي " المعروف باسم " تقي الدين المقريزي" ت (٨٤٥ هـ) . صاحب كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، وكتـاب (السلـوك لمعرفة دول الملوك) ، وأبو المحاسن جمال الديـن يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري ت (٨٧٤ هـ) ، مؤرخ مصري، كان أبوه من كبار أمراء المماليك في عهـد السلطـان الظاهـر سيف الدين برقـوق، وابنـه الناصر فرج بن برقـوق، اشتهر كتابـه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) . وكتاب السخاوي ت (٩٠٢ هـ)هو مؤرخ كبير وعالم حديث وتفسير وأدب شهير من أعلام مؤرخي عصر المماليك. ولد وعاش في القاهرة، ومات بالمدينة النبوية سافر في البلدان سفراً طويلاً ، وصنف أكثر من مائتي كتاب؛ أشهرها (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع) ترجم لنفسه فيه في ثلاثين صفحة.

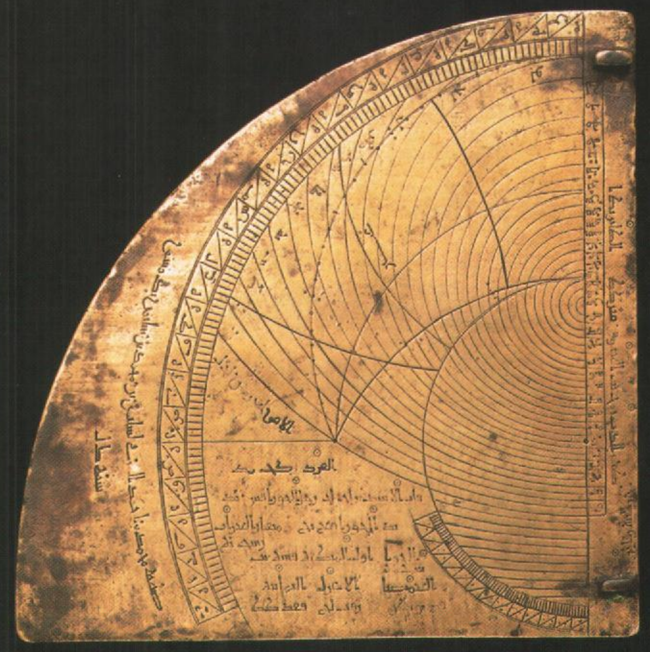
أمـا فــي ميـدان الجغرافيا والرحلات: فقـد كان له نصيبه من المؤلفـات أيضاً، فهناك كتاب (عجائـب المخلوقات) لأبي عبد الله بـن زكريا القزويني ت (٦٨٢ هـ)، و (تقويم البلدان) لأبي الفداء إسماعيـل بـن علي بن محمـود بن محمد بن عمر بـن شاهنشاه بن أيـوب، والذي يطلـق عليه ملك أو صاحـب حماة في سوريا، عمـاد الدين، الملك العالم، الملك المؤيد، مـؤرخ جغرافي ت (٧٣٢ هـ)، وأبو العباس شهـاب الدين أحمد بـن فضل الله بن يحيى بـن أحمد العمري ت (٧٤٩ هــ)، صاحب كتاب (مسالـك الأبصار فـي ممالك الأمصار)، وقد عنـي العمري بدراسة الجغرافيـة السياسية، ودرس تواريخ الأمم وعجائبها، ودرس الفلك، وتجول في البلاد من الشام إلى الحجاز والأناضول وغيرها من بلاد الأرض، و(رحلة ابن بطوطة)، ذائعة الصيت لمحمد بن عبد الله بن محمد الطنجي المعروف بابن بطوطة ت (٧٧٩ هـ)وهو رحالة ومؤرخ وقاضٍ وفقيه مغربي، لقب بأمير الرحالين المسلمين.

وفي الجملة فقد كثرت الموسوعات خلال هذا العصر المملوكي، إذ كان يغلب على التأليف في الأدب الخلـط بـين الأدب والأخـلاق، وبـين الأدب والعلـوم المختلفة، كالتاريـخ، والنبات، و لهـذا عُرفت هذه المؤلفـات فــي الأدب بالموسوعات، ومـن أشهرها كتاب (نهاية الأرب في فنـون الأدب) للمؤرخ الكبير شهـاب الدين أحمد بن عبـد الوهاب بن محمد النويري، و تشتمل موسوعته على خمسة فنون : السماء والأثار العلوية والأرض والأثار السفلية وهو قسم جغرافي فلكي عام. والإنسان وما يتعلق به. والحيوان النبات،والتاريخ، هذه الأقسام الأربعة تشغل عشرة مجلدات. أما القسم الخامس وهو التاريخ، فيشغل واحـداً وعشريـن مجلداً، حيث سرد فيه تاريخ الإنسانية بدءاً من أبـى البشر آدم مروراً بالأنبياء حتى سيـد الرسل محمد ومراحـل التاريخ الإسلامى المتعددة. و يأتي في هـذه الساحة (صبح الأعشى في صناعـة الإنشـا) لأحمـد القلقشندي ت (٨٢١ هــ)، وهي أضخـم موسوعة وصلتنا فــي أدب الإنشاء ومراسلات الملوك. تقع مطبوعتها في زهاء سبعة آلاف صفحة وفي (١٤) مجلداً. و كتاب (المستطرف فــي كل فنّ مستظرف) للإبشيهي ت (٨٥٠ هـ)، وكتاب (خزانة الأدب) لابن حجة الحموي،أضف إلى ذلـك ما شـاع في العصر المملوكي من قصص؛ لشغل الجمهور بما يخفـف عنهم أعباء الحياة، و أهم هـذه القصص، تكملـة ألف ليلة وليلة، وسيرة عنترة، وسيف بن ذي يـزن، وأبو زيدٍ الهلالي، والظاهر بيبرس، وهي في معظمها تدور حول قَصص البطولة وأخبار المغامرات. و لم يقف مد التأليف و نشاطه عنـد هـذه العلوم، و إنما امتد إلى الكيمياء، و الطب، والصناعـات، وعلم الحيوان ككتاب (المختار من الأغذيـة) لابن النفيس، و(حيـاة الحيوان) للدمـيري، و(كشف الكروب في معرفـة الحروب) لعماد الدين اليوسفي. خلاصة القول: لقد زهت حركة التأليف في عصر المماليك زهواً رائعاً.

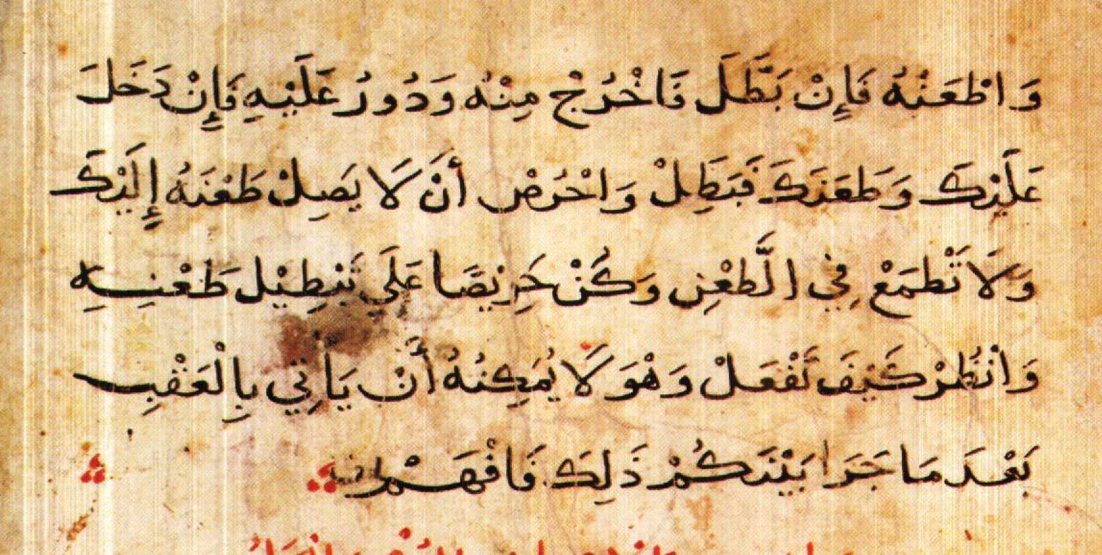


مصحـف نادر، كل صفحة تحمـل خمسة أسطر من الآيات الحكيمـة، محفوظ داخل غلاف من الجلـد لحفظـه من التلـف، وهذا المصحـف بحجم أصغر مـن المتعارف عليه، مصـر - العصر المملوكي - القرن الثالث عشر الميلادي.

إسطرلاب رباعي من النحاس الصافي، صنع بواسطة محمد ابن أحمـد بن سليمان مليتـا، لسليمان بن محمد في دمشق سنة ٧٣٠ هـ، وكان يستخـدم هذا الأسطـرلاب؛ لقياس أرتفاع النجوم عند خط معين، وكذلـك لتحـديـد الوقت الخـاص بالصلاة.







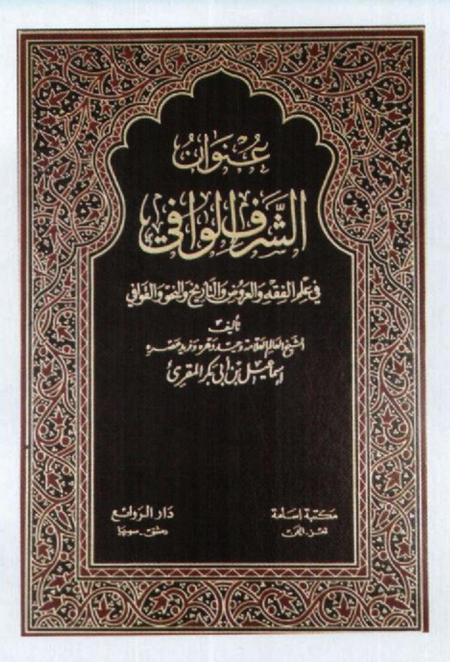
واطعنه فإن بطل فاخرج منه ودور عليه فإن دخل
عليك وطعنك فبطل واحرص أن لا يصل طعنه إليك
ولا تطمع في الطعن وكن حريصا على تبطيل طعنه
وانظر كيف تفعل وهو لا يمكنه أن يأتي بالعقب
بعد ما جرا بينكم ذلك فافهم



باب الإدمان بالرمح والعمل به

وهو أنك تشد من دفه غليظه من سنط أو غيره حتى
يحوزه الطعن ويكون طولها قامة الرجل وتعمل فيها

مخطوط لتدريب عسكري على فنون القتال في العصر المملوكي، باستخدام الوسائل الخاصة بذلك



ألّـف ابن المقرئ كتابه علـى غير مثال سابق، حيث سلك: "هذه الطريق التي أخذ منهـا البكارة، وشرع لأهل العلـم والفضل منهاجاً يقتفون منـاره"، جمع فيه خمسة علـوم، إذا قرئ علـى سياق السطور فهو **علم الفقـه**، وإذا قرئ على أول سطر منه قـراءة عمودية كان **علم العروض**، وإذا قرئ ثـاني سطر عمودي منـه كان **علم التاريـخ**، وإذا قرئ ثالث سطر عمودي منه فهو **علـم النحو**، وإذا قرئ رابع سطر عمودي منه كان **علم القوافي!**

فجعل ثلاثة علوم منه تتقاطع فلا يختل معنى كل علم بهذا التقاطع، وهي الفقه، والتاريـخ، والنحو، وأما علم العروض فقد بدأ بـكل سطر منه بالحرف الذي يبدأ به السطر في علم الفقه، والتزم في علم القوافي بأن يبدأ كل سطر منه بالحرف الذي ينتهي به السطر في علم الفقه

لقـد شحـذ هذا التأليف أذهان العلماء بعد ابن المقرئ، فذكر الحنبلي في تاريخه در الحبـب في ترجمة أحمد الشغري (ت ٨٨١ هـ) أنـه وضع تأليفاً جمع فيه خمسة علوم على مثال "عنوان الشرف"، وذكر حاجي خليفة في "كشف الظنون" ١١٧٦/٢: بأن ابن كميل الدمياطي المتوفى سنة ٨٧٨ هـ صنف كتاباً على نحو "عنوان الشرف" بزيادة علمين.. مقدمة "عنوان الشرف".

إبـداع آخـر لابـن المقرئ، وهي عبارة عـن قصيدة شعرية عجيبة، نظمها إسماعيـل بن أبي بكر المقرئ. رحمـه الله. والعجيب فيها: أنك عندما تقرأها من اليمين إلى اليسار تكون مدحاً، وعندما تقرأها من اليسار إلى اليمين تكون ذماً:

المدح

طلبوا الذي نالوا فما حُرموا .... رُفعتْ فما حُطتْ لهم رُتـبُ
وهَبوا وما تمّتْ لـهم خُلُـقُ .... سلموا فما أودى بهم عطَـبُ
جلبوا الذي نرضى فما كَسَدوا ....حُمدتْ لهم شيمٌ فـما كَسَبوا

الذم

رُتب لهم حُطتْ فما رُفعتْ .... حُرموا فما نالوا الذي طـلبُوا
عَطَب بهم أودى فما سلموا .... خُلقٌ لهم تمّتْ وما وهـبُوا
كَسَبوا فما شيمٌ لهم حُمدتْ .... كَسَدوا فما نرضى الذي جَلبُوا

أصل الكتاب وهو مخطوط

الصفحة الأولى من كتاب عنوان الشرف الوافي بعد طباعته



قراءة الكتاب بالطريقة العرضية تعطي المادة الفقهية

قراءة العمود الأول (الأخضر) علم العروض

قراءة هذا العمود (الرابع) والأخير يتناول علم القوافي

انظر الصفحة بحجمها الطبيعي في الصفحة المقابلة

قراءة هذا العمود (الثالث) يتناول علم النحو بأصوله المعروفة.

قراءة هـذا العمـود (الثاني) يتـناول تاريخ دولـة بني رسول فـي اليمـن والتـي عاصـرت أواخر العصر العباسي وجزءاً كبيراً من العصر المملوكي.

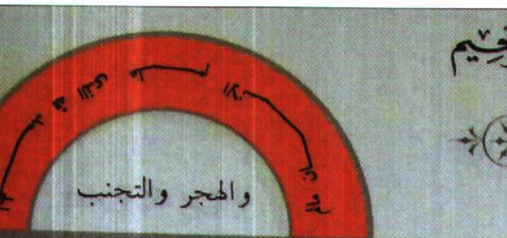
هـو **شرف الدين إسماعيل بـن أبي بكر** بن عبد الله الشاوري الشرجي اليماني المعروف بابن المقرئ. ولـد ابن المقـرئ سنة ٧٥٤هـ فـي أبيـات حسين في منطقـة الشرجـة من سواحـل اليمن، ثـم هاجر إلى الأبـواب الأشرفية عام ٧٨٢هـ فـي حداثة السن بعد أن أخـذ شيئاً من العلم في الشـرع والأدب، ثم أقبل على العلم فقـرأ عدة فنون وبرز فيهـا جميعها وفاق أهـل عصـره وطـار صيتـه وصـار إماماً فـي الفقه والعربية، قال الخزرجي: "وقد قرأ علي ديوان المتنبي فاستفـدت بفهمـه وذكائه أكثر ممـا استفاد مني.." ومـا زال يتـدرج ويترقى حتـى أدناه الملـك الأشرف إسماعيـل، ثم أصبح مكرمـاً عند ولده من بعده، إلى أن توفاه الله سنة ٨٣٧ هـ رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٧

أمر بتأليف هـذا الكتـاب وجمعه مولانا السلـ

يامولعاً بالغضب



والهجر والتجنب

ا	الحمـــد لله ولي	الحمد	ومستحقه الذى لايقـــــوم	محمد	ه أحد من خلقه واشهد أن لا	ا
م	معبـــود للخلق الا ا	لله	ولا اله لهم ســـواه وصـــلى	الله	على سيد البشر رسول	ل
رب	ربنـــا مارفع منـــار	حق	فلمع واضاء نور علم وســـطع	ا	علم أن العلم مصباح	ح
ت	تستضيء به الامة قد	حمده	الله واثنى عليـــه واشرف مـــا ا	ستفتح	من العلوم علـــم	م
ا	الفقـــه فمن صـــام	وصلى	فضرورته اليه ومن عامل ونكـــح	و	طلق فهو كل عليه فلابد	د
ل	للعباد ممـــا حفظ	الله	به عليهم اركان الاسلام كالحج و	الصلاة	والصيام ومنقول ومعقول	ل
ى	يعسر تحصـــيله	على	الانام الا بعلماء أعلام يدلـــونهم	على	الحـــلال والحرام وكل	ل
ف	فضـــل يروى عن سنة	محمد	نبيه المختـــــار من البرية و	رسوله	المبعوث باكرم سـجيه	ه
هذا	هذا نعته وصفتــــه	وآله	أهل الله وخاصته بهم تحفظ شريعـــة	محمد	وسنته اللهـــم اجعلنـــا	ا
ال	اليك هـــادين لا ضالين	و	لامضلين وادخلنا في رحمتك أجمعـــين	وبعد	فهـــذا كتاب جليل	ل
كت	كتبته لم أســـبق	بعد	اليه ألفته مختصرا في الفقـــــه	فا	ن اعان الله وتم حينئذ	ذ
ا	امره على هـــــذا	فهذه	نعمة من الله لايوفي شـــــكرها	قول	ولا عمل رصعته بمعانى	ى
ب	بديعة بليغة منهـــــا	نبذة	من تاريخ الدولة الرسولية وشيء مـــن	الكلام	في معانى العربية بديع	ع
و	واحـــرف معدودة اذا	جمعتها	من اوائل سطوره انتظمت عروضا فهذه	ثلاثة أشيا	ء وعلم رابع يحصـــل	ل
جمعه	جمعه من اخر كل سطر	وطرفه	في علم القوافي فاتفقت هـــــذه	وهي	خمسة علـــــوم	م
م	من تأملهـــا عجب	اخترعتها	لاعلى منوال ورسمت لهـــا مر	اسم	على غير مثال فجاء مفقها	ا
و	وجـــاء مؤدبا وجاء	مؤرخا	(كتاب الطهارة) الماء طهور وطاهر	و	نجس فاسم الطهـــور حاصل	ل
ل	لكل ماء باق على صفته	دو	ن غيره ونعنى بالطاهر ما استعمل في	فعل	الطهارة أو خالط طاهرا	ا
ا	افحش تغيره وليـــس	له	اليه حاجة فان تغير بالنجاسة تنجس	وحر	م استعماله ولو كثروان	ن
نا	ناله ولم يغيره فعنـــد	أئمة	العلماء نجس مادون القلتين والمعـــرو	ف	ن المشمس يكره للانسان	سان
ال	الاستعمال له في جميـــع	الزمن	وقيل في الصيف خاصة (باب الآنيـــة)	والا	ستعمال للطاهر منها ليس محرماً	ما
س	سواء كانت خشبـــا أ	وعظما	الامن النقدين ويكره التضبيب بهما الا بر	اسم	الحـــاجة اذا قـــل	ل
ل	لكنـــه وان كـــان	ملو	ثا فطهارته تصح وان تنجس بعضها ولم	يعرف	توضأ بما قـــدم	م

المصطلحات التركية الدارجة في العصر المملوكي ومعانيها باللغة العربية

أجناد الحلقة	جنود من الدرجة الثانية. كان عددهم غفير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم. بلغ عددهم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ١١ ألفاً. ربما سموا بذلك لأنهم كانوا يحيطون بالسلطان أو بالأعداء. تألفوا من القرانيص والسيفية والمتعممين والعربان والعامة.
أمير	مقدم الفرسان. ولكل أمير طبقة تبعاً لعدد فرسانه.
أمير آخور	رئيس الإصطبل السلطاني والمشرف على خيله.
أمير خمسة	أمير تحت إمرته خمسة فرسان. أمير من الطبقة الرابعة وهي أقل درجات الإمارة وتوازي درجة كبار الأجناد.
أمير عشيرة	أمير تحت إمرته عشرة فرسان وأحياناً عشرين. أمير من الطبقة الثالثة. منهم يكون صغار الولاة، وأرباب الوظائف.
أمير طبلخاناه	أي أمير تدق الطبول والأبواق على أبوابه. وهو أمير تحت إمرته غالباً أربعون فارساً. أمير من الطبقة الثانية. منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة.
أمير مئين	مقدمو الألوف. أمير تحت إمرته مائة أو ألف فارس، ممن دونه من الأمراء. وهو أمير من الطبقة الأولى وهي أعلى مراتب الإمارة. منهم يكون النواب وأكابر أرباب الوظائف.

أمير مجلس	مشرف وحارس على كرسي وسرير السلطان.
أمير علم	أمير من أمراء العشرات كان يشرف على الطبلخاناه.
أمير سلاح	حامل سلاح السلطان. وهو مقدم السلاح دارية من المماليك السلطانية، والمشرف على السلاح خاناه السلطانية.
أمير شكار	مشرف على الجوارح السلطانية من الطيور والصيود. كان من أمراء العشرات.
أمير العربان	رؤساء بيوت القبائل من أصول عربية التي وردت على مصر وأقامت بها، ومنها بنو شداد وبنو عجيل وكانوا يسكنون بالقصر الخراب بقوص، وأولاد بني جحيش، وكانت منازلهم في دروة سرمام، وأولاد زعازع، وأولاد قريش (ليست قريش مكة المعروفة)، وبنو عمر بجرجا، وأولاد غريب بدهروط وغيرها. من أشهر أمراء العربان خثعم بن نمي بالوجه البحري.
أتابك	تعني الأب الأمير، وهو أمير الجيوش أي القائد العام للجيش. وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة. ويدعى أيضاً أتابك العساكر لما تكن له من صلاحيات أمر ونهي.
استدار	وتكتب كثيراً أستادر بضم الألف وهو خطأ. الأستدار كان يشرف على كل بيوت السلطان من مطابخ وحاشية وجاشنكرية ونفقات وكسوة.
استدار الصحبة	أيضاً أستادار الصحبة وهو خطأ، والصواب هو المشرف على المطبخ السلطاني والطعام وخدمة السماط. عادة أمير عشرة.

إسكندر الزمان	من ألقاب السلطان.
أهوار	جمع هُري، مخازن للغلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطاً للطوارئ الاقتصادية، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة.
سكرجة	صحن صغير يوضع على المائدة، وفيه فاتحات الشهية من الطعام.
الصاحب	من ألقاب الوزراء. و" الصاحبي " نسبة إليه للمبالغة.
الكافل	من ألقاب نائب السلطنة.
إقطاع	دخل الأمير أو المملوك من خراج أرض أو بلدة.
أعلام	عدة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب الملك واسمه وتسمى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق.
بابا	اسم كان يطلق على غلمان الطشت خاناه، وكانت من ضمن وظائفه الأشراف على قباض اللحم.
البحرية	طائفة من الجنود يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر لحراسة السلطان. أول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم هو السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب.

بنكان الرمل	الساعـة الرملية. بنكان معرب إما من الكلمة الفارسيـة قالب: نسعليق أو من أصل يوناني.
بيمارستان	أيضاً مارستان. مستشفى وكان الطب يدرَّس به كذلك.
بريد جوي	بريـد يرسل عن طريق الحمام الزاجل. نظمه وتوسع فـي استخدامه السلطان الظاهر بيبرس.
بيت المال	الخزانة العامة.
تجار الكارمية	فئة من التجار كانت بيدها تجارة البهار الوارد من الهند.
التخت	عرش السلطان.
الجتر	بجيم معطشة ومكسورة.
جامكية	أجر المملوك أو منحته الشهرية، كانت تعطى من غلة الوقف.
جاشنكير	متذوق مأكل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم.
جاليش	راية عظيمة فـي رأسها خصلة من الشعر.
جاويش	راية عظيمة فـي رأسها خصلة من الشعر أيضاً.

جنائب	جمع جنب، الخيول التي كانت تتبع السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها.
حافظ الأسرار	من ألقاب كاتب السر.
حراقة	نوع من السفن الحربية الخفيفة كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية.
خان	مخزن تجاري يبيع نوع معين من البضائع.
خادم الحرمين الشريفين	من ألقاب السلطان المملوكي التي يعتز بها، وتضفي عليه الطابع الشرعي في الحكم.
خزندار	تكتب كثيراً «خازندار» وهو خطأ (القلقشندي). وخزندار هو مشرف على خزائن أموال السلطان من نقد وقماش وغير ذلك.
خاصكية	أقرب المماليك السلطانية إلى السلطان. وهم الحرس الشخصي للسلطان. وكانوا يسوقون المحمل الشريف أيام الحج، أو مماليك ينتمون إلى فئة واحدة من مماليك السلطان الخاصة؛ تلتف حول أحد كبار الأمراء.
خليل أمير المؤمنين	من ألقاب أولاد السلطان الناصر قلاوون.

خند	زوجة السلطان.
خشداشية	مماليك ينتمون إلى نفس الأمير أو السلطان.
خواجا	من ألقاب أكابـر التجـار الأعاجـم، وهو لفـظ فارســي معناه " الســيد ". و" الخواجكي " نسبة إليه للمبالغة.
العصابة	راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه.
علامة سلطانية	رسم توقيع السلطان الذي يضعه على مستندات السلطنة ورسائله.
الغاشية	غاشيـة سرج من أديم مخروزة بالذهـب. كانت يحملها " الركاب دارية " بين يدي السلطان في المواكب.
الملاذي	من ألقاب الوزراء.
التقدير	حالـة الطوارئ العامـة في البلاد، وتعلن عند نشوب حـرب، أو حدوث هجوم خارجي.
رأس البلغاء	من ألقاب أكابر كتاب الإنشاء مثل: كاتب الســر.
رأس نوبة	المشـرف على المماليـك السلطانية. وجـرت العادة أن يقـوم بالوظيفة أربعـة أمراء : مقدم ألف، وثلاثـة طبلخاناه، ممن تحت إمرة كل منهم على الأقل أربعون فارساً.

راختوان	جمعها رختوانية. خادم منوط بحفظ الأثاث والعناية به في قصـر السلطان. كان من الرختوانية من يخدم في الطشت خاناه.
ركاب دار	حامل الغاشية بين يدي السلطان في المواكب وقت الاحتفالات.
زردخاناه	بيـت الـزرد لما فيهـا مـن دروع وزرد. كان يحفظ فيها السـلاح. وهي أيضـاً السلاح خاناه.
دبندار	ضارب الطبول.
الدهليز	خيمة السـلطان التي كان يقيم بها وقت السـفر والمعـارك. كانت مركز قيادة الجيش في المعارك.
داوادر	حامل دواة السلطان. من وظائفه إبلاغ الرسائل عن السلطان.
فندق	مكان للإقامة نظير أجر. من أشـهر فنادق القاهرة في العصر المملوكي: دار التفاح، وفندق بلال، وفندق الصالح.
قابض اللحم	كانت وظيفته توزيع اللحم على المماليك السلطانية.
كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري.	لقب نائب السلطنة المقيم بمصر.

كُشاف	يشرف على الأراضي والجسور، ويسمى أيضاً كاشف التراب وكاشف الجسور. وهو أيضاً جابي الضرائب.
كوسات	صنوجات من نحاس، كانت يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. كان يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة، ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء، ومرة قبل الفجر. وكان أيضاً يدار بها حول خيام السلطان في سفره.
كوسي	ضارب الكوسات (الصنوج النحاس).
لسان السلطنة	من ألقاب كاتب السر.
مقدم المماليك	المشرف على المماليك السلطانية. عادة يكون أمير طبلخاناه، وله نائب أمير عشرة.
مماليك كتابية	مماليك تحت التدريب يعيشون في الطباق.
مماليك سلطانية	جنود من الطبقة الأولى. أشد مماليك السلطان قرباً، وأعظم الأجناد شأناً، وأرفعهم قدراً، وأوفرهم إقطاعاً. كانوا فرقة واحدة مؤلفة من عدة فئات، هي: الخاصكية، والأجلاب، والقرانيص، والسيفية.
المقصورة	راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر.
مُنفر	ضارب البوق.

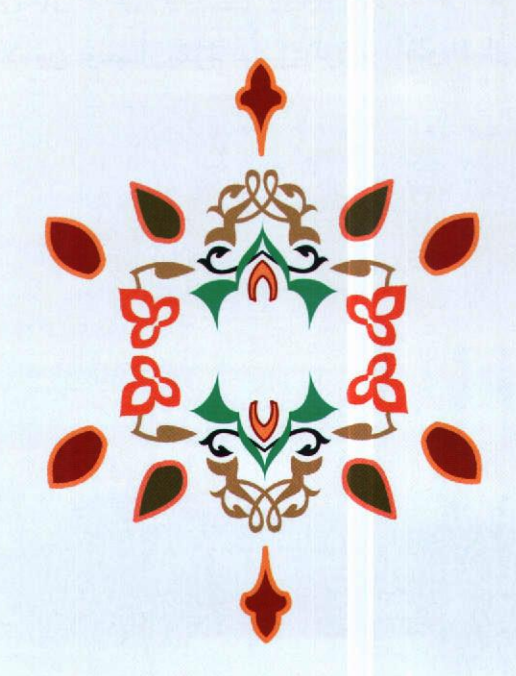
حافظ الأسرار	من ألقاب كاتب السـر.
مدورة السلطان	خيمة السلطان التي كان يقيم بها في أثناء أسفاره.
المظلة السلطانية	وتسمى "الچتر"، قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب؛ على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، كانت تحمل على رأس السلطان في العيدين.
مرقدار	خادم بالمطابخ السلطانية.
مهمندار	مستقبل الرسل الواردين وشيوخ العربان وغيرهم. (مهمن بالفارسية تعني الضيف).
مهتار	مشرف على بيت من البيوت السلطانية، كبير على طائفة من غلمان الحواصل؛ كالطشت خاناه، والفراش خاناه. وكان يلقب بالحاج وحتى إن لم يكن قد حج البيت.
نائب السلطنة	نائب السلطان المباشر المقيم بالقاهرة، يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم التقاليد والتواقيع والمناشير، ويستخدم الجند من غير مشاورة السلطان. ويحمل لقب كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري تميزاً له عن نواب السلطان في توابع السلطنة بالشام وغيرها.
نائب الإسكندرية	نائب عن السلطان بالإسكندرية وكان بها كرسي سلطنة. وهو من الأمراء المقدمين يركب في المواكب ومعه أجناد الحلقة.

نائب الوجه القبلي	أعلى من نائب الوجه البحري. مقر نيابته كانت في أسيوط. ويحكم على جميع بلاد الوجه القبلي.
نائب الوجه البحري	من الأمراء المقدمين في رتبة مقدم العسكر بغزة. مقر نيابته كانت في دمنهور.
ناظر البيمارستان	يشرف على البيمارستان المنصوري (المستشفى). وكانت مرتبته عالية. عادة يكون من أكابر أمراء مصر.
نقيب الجيوش	المشرف على تزيين الجنود في عروضهم، ومعه يمشي النقباء. وهو الذي يحضر الأمير أو الجندي إلى السلطان أو النائب أو الحاجب في حالة طلبه.
السناجق	رايات صفر صغار.
شاد الدواوين	مساعد الوزير والمشرف على استخلاص الأموال. عادة يكون أمير عشرة.
شاد العمائر	المشرف على العمائر السلطانية من قصور ومنازل وأسوار وغيرها؛ مما يطلب السلطان. عادة يكون أمير عشرة.
شاد الشراب خاناه	المشرف على الشراب خاناه السلطانية وما بها من مشروبات وفواكه.
شعار السلطنة	تنظيم معين لموكب السلطان، كسير مماليكه وأمراءه معه، ورفع رايات وسناجق سلطانية و نحو ذلك.

طبلخاناه	بيـت الطبل. مخزن الطبول والأبـواق وتوابعها من الآلات. كان يشـرف عليها أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم. وهي عبارة عن طبول متعددة معها أبواق وزمر كانت تدق كل ليلة في قلعة الجبل بعد صلاة المغرب. وتصحب في أسفار السلطان والحروب.
قلعة الجبل	محل إقامة السلطان وكانت فوق جبل المقطم بالقاهرة.
قراصنة	مماليك تحولـــوا إلى خدمة أمير آخــــــر أو سلطان جديد.
طباق	محل إقامة المماليك المستجدين بقلعة الجبل.
الطشت خاناه	بيت الطشـت. فيها يكون الطشـت الذي تغسـل فيه الأيدي، والطشـت الذي يغسـل فيـه القماشـ. وفيها يكون ملبـس السـلطان، ونعل البيـت، ومقاعده والسجادات التي يُصلَّى عليها.
وآلي القاهرة	يحكم في القاهرة وضـواحيها، وهو أكبر ولاة مصر. ويدعى أيضاً باسم والي الشرطة ووالي الحرب. عادة ما يكون أمير طبلخاناه.
وآلي الفسطاط	يحكم في مصر (المدينة). وهو أمير عشـــرة.
وآلي القرافة	يحكـم فـي القرافـة، وهـي مدافـن القاهـرة والفسـطاط، بمراجعـة والي مصـر (المدينة) وهو أمير عشـرة. في مدة لاحقة أضيفت القرافة إلى مصر (المدينة) وصارت ولاية واحدة.

والي القلعة	يشرف على أكبر أبواب قلعة الجبل بالقاهرة (باب المدرج). أمير طبلخاناه.
والي باب القلعة	يشـرف علـى باب القلعـة (كانت هناك قلعـة بناها الظاهـر بيبرس وهدمها المنصور قلاوون).
وزيـــر	من أجـلّ أرباب الدولـة وأرفعهم رتبة. ولكن اختصاصـاتـه لا تتجـاوز الأمور المالية وبعض الأمور الإدارية. أبطلت الوزارة في عهد السلطان الناصر محمد ابـن قلاوون. وصـار يقوم بعمـل الوزير ناظر المـال، وشـاد الدواوين، وناظر الخاص.



المصادر



المراجع

المصـــادر والمراجـــــــع .. أولاً: المصـــــادر

١. القرآن الكريم.

٢. كتب السنة النبوية.

٣. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم: تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، النسخة الرقمية.

٤. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

٥. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ت ٧٤٨ هـ: - سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان، ط . الرابعة ١٤٠٦ هـ .
- كتاب العبر في خبر من غبر، القاهرة ١٩٨٤م.

٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر).

٧. إسماعيل بن أبي بكر المقرئ: عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي، مكتبة أسامة - تعز - اليمن.

٨. ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٣٠٦م): "المقدمة"، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٩. أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مكتبة مشكاة الإسلام .

١٠. محمد بن عبد المنعم الحِميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - مطابع دار السراج، ط . ٢ - ١٩٨٠م .

١١. ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م).

١٢. شمس الدين أبي عبدالله محمد المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، دار صادر، ط٢ ، ١٩٠٩م.

١٣. أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي بيروت — لبنان.

١٤. أبو عبيد عبد الله البكري الأندلسي: معجم ما استعجم، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

١٥. الحسن بن عمر الحلبي: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (دار الكتب، القاهرة ١٩٧٦م).

١٦. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد: نهاية الأرب في فنون الأدب. النسخة الرقمية، المرجع الأكبر ، مكتبة العريس، بيروت - لبنان.

١٧. محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي الداراني الدمشقي: فوات الوفيات.

١٨. أبو الفدا، عماد الدين أيوب الشافعي: المختصر في أخبار البشر.

١٩.محمد بن مكرم بن منظور، ت ٧١١ هـ: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٠. الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ت - ٧٧٤ هـ:البداية والنهاية، مكتبة الرياض الحديثة.

٢١. شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت — ٧٢٨ هـ: منهاج السنة النبوية.

٢٢. أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥ هـ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٧٥م.

٢٣. أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥ هـ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف باسم خطط المقريزي أو الخطط المقريزية).

٢٤. العمري، ابن فضل الله ت ٧٣٤ هـ : مسالك الأبصار في مسالك الأمصار.

٢٥. ابن أيبك، أبي بكر بن عبد الله الدوادار: كنز الدرر وجامع الغرر، مكتبة الخانجي. القاهرة ١٩٦٠ م.

٢٦ . الخزرجي، علي بن حسن (القرن الثامن الهجري): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، جزءان.

٢٧ . ابن بطوطة، شمس الدين أبوعبدالله محمد اللواتي الطنجي ت ٧٧٩ هـ: رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) .

٢٨ . عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٩٧٧ م.

٢٩ . السيوطي: عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق الدين الخضيري الأسيوطي ، ت ٩١١ هـ: تاريخ الخلفاء،

٣٠ . اليونيني، موسى بن محمد اليونيني (المتوفى: ٧٢٦هـ): ذيل مرآة الزمان.

٣١ . شهاب الدين أبو القاسم، المقدسي المعروف بأبي شامة: الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية.

٣٢ . ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض ط ٢، ١٩٧٦م.

٣٣ . ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مجمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. دار الثقافة، بيروت ١٩٨٦م.

٣٤ . أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة: المسالك والممالك. ط. المثنى ، بغداد.

٣٥ . ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد الدمشقي: عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦ م.

٣٦ . القلقشندي، أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. النسخة الرقمية، المرجع الأكبر، مكتبة العريس، بيروت - لبنان.

٣٧ . القرماني، أبو العباس أحمد جلبي القرماني: أخبار الدول وآثار الأول. دار الكتب العلمية. بيروت . لبنان.

المصـــادر والمراجـــــــــع .. ثانياً: المراجـــــــع (أ)

١. د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين. دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

٢. د. محمد سهيل طقّوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

٣. د. محمد سهيل طقّوش، تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

٤. الشيخ محمود شاكر، سلسلة التاريخ الإسلامي، (العهد المملوكي)، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤١١ هـ، بيروت - لبنان .

٥. د. محمد عبدالحميد الرفاعي، حكم السلطانة شجرة الدر. موقع الألوكة.

٦. د . راغب السرجاني (موقع قصة الإسلام).

٧. د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر و الشام (دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٦).

٨. د . شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة.

٩. سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة العبيكان، الرياض.

١٠. سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس تاريخ الدولة العباسية، مكتبة العبيكان، الرياض.

١١. د. أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، د . ت . الطباعة.

١٢. د. أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف بمصر، ط١ (١٨٣٩).

١٣. د. طارق السويدان، الأندلس « التاريخ المصور »، ط ١، ١٤٢٦ هـ، مؤسسة الإبداع الفكري - الكويت.

١٤. د. فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ٣، جدة - المملكة العربية السعودية .

١٥. د . عماد الدين خليل، مجلة الأمة، العدد التاسع، رمضان ١٤٠١ هـ .

١٦. د . جاد محمد رمضان، كيف نجا المسلمون من عاصفة المغول والتتار المدمِّرة؟ مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦.

١٨. موسوعة المعرفة (مجموعة باحثين ورد ذكرهم تحت مواضيعهم المختارة)، دمشق - سوريا.

١٩. مؤسسة أعمال الموسوعة، (الموسوعة العربية العالمية)، ط ٢، ١٤١٩ هـ.

٢٠. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

٢١. أحمد تمام، مجموعة من المقالات الإسلامية التاريخية، موقع إسلام أون لاين .

٢٢ . د.أحمد حطيط، تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي - الصليبي.

٢٣ . د. محمد بن عبد الله الشويعر، تأثيرات الهدن بين المسلمين والصليبيين (٤٩٠ - ٦٩٠ هـ)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة.

٢٤ . د. السيد الباز العريني. المغول. دار النهضة العربية. بيروت، ١٩٦٩م.

٢٥ . د. السيد الباز العريني. قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.

٢٦ . أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية.

٢٧ . د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية .

٢٨ . منذر الحايك. العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية.دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع.

٢٩ . د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والاجتماعي)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة. ١٤٢٧ هـ.

٣٠ . د. شفيق جاسر أحمد محمود، محاولات التحالف بين المغول والصليبيين ضد المسلمين في القرنين السابع والثامن الهجريين وآثارها - مجلة الجامعة الإسلامية، العددان ٧٥-٧٦.

٣١ . الفروسية الجزء الأول (فنون الفروسية في تاريخ المشرق والمغرب) عربه وحـــرره وعلّق عليه د. شهاب الصرّاف، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض.

٣٢ . الشيخ/ أبو بكر الجزائري، نماذج من الدعاة الصالحين، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٥٧.

٣٣ . د. علي بن صالح المحيميد، الإمارت الحدودية شمال الشام ودورها السياسي في العصر المملوكي (إمارة دلغادر إنموذجاً ٧٣٨-٩٢٨ هـ/ ١٣٣٨-١٥٢١ م). المواقع الإسلامية الإلكترونية (موقع الألوكة، موقع التاريخ الإسلامي، موقع الأسرة، موقع موسوعة المعرفة).

٢٤ . يوسف عطا الطريفي، العصر العباسي ، الأهلية للنشر والتوزيع، ط٢ (٢٠٠٩).

٢٥ . د.حسن احمد محمود، تاريخ المغرب والأندلس ، دار الفكر العربي، ط١ (١٩٩٩).

المصـــادر والمراجـــــع .. ثانياً: المراجـــــع (ب)

٢٦. مخطوطة كتاب (أعلام الشراكسة – الجزء الثاني)، فيصل حبطوش خوت أبزاخ، عمان – الأردن- ٢٠٠٨م.

٢٧. .

٢٨. نقولا زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، - بيروت - لبنان.

٢٩. د. فاروق عثمان أباظة، تحول طرق التجارة العالمية عن عالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح وأثره في العلاقات التجارية بين الإسكندرية والبندقية في مطلع العصر العثماني (٩٢٦ – ١٥١٧ م).

٣٠. د. محمد عبدالحميد الرفاعي، حكم السلطانة شجرة الدر. موقع الألوكة.

٣١. طارق نافع الحمداني، المجلة العربية للعلوم الإنسانية.

٣٢. د. عثمان علي عطا، معركة مرج دابق .

٣٣. العمارة الإسلامية بمصر وتطورها، ملتقى المهندسين العرب .

٣٤. أحمد هاشم بدرشيني، أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي.

٣٥. د. أحمد بن صالح العبد السلام، تاريخ الوقف عند المسلمين وغيرهم.

٣٦. د. أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، د . ت . الطباعة.

٣٧. د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، دولة المماليك، المكتب الجامعي الحديث.

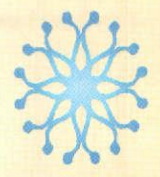
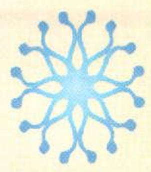
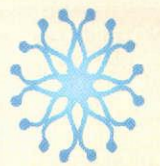
٣٨. د. فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية.

٣٩ . جوزيف نسيم جوزيف، العدوان الصليبي على مصر، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١م.

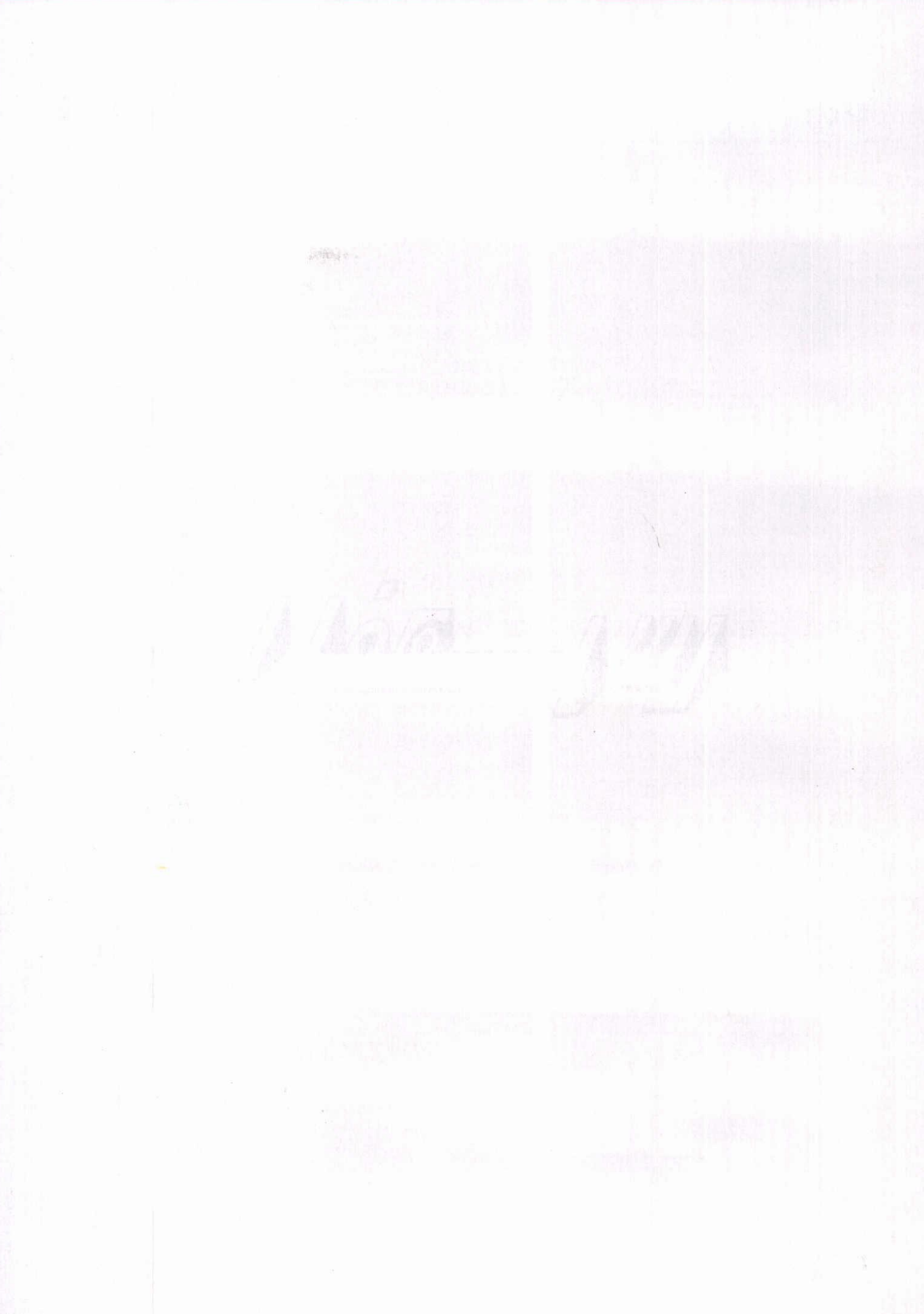
٤٠. د. محمد عبد العظيم الخولي، الأزهر الشريف والسودانيون في العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

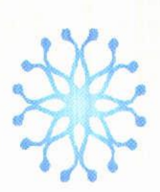
٤١ . د. محمد بن أحمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها، مكتبة الأقصى، عمان – الأردن، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ .

٤٢ . د. مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي) ،دار أسامة للنشر والتوزيع، عمَّان . الأردن.

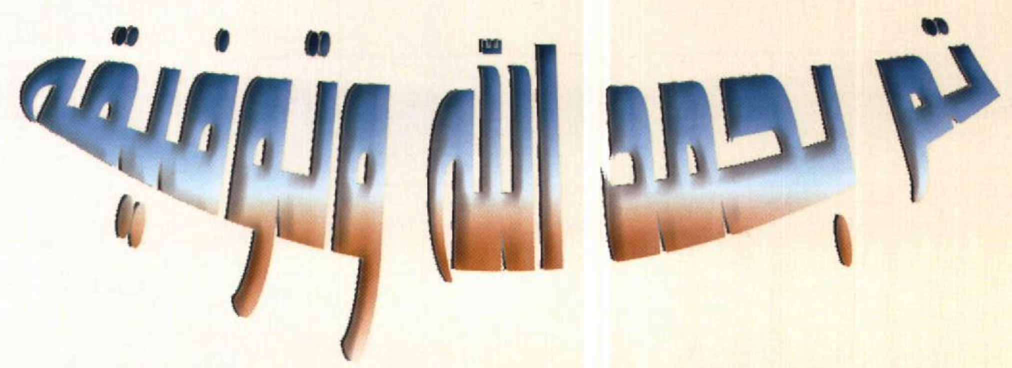




الفهرس



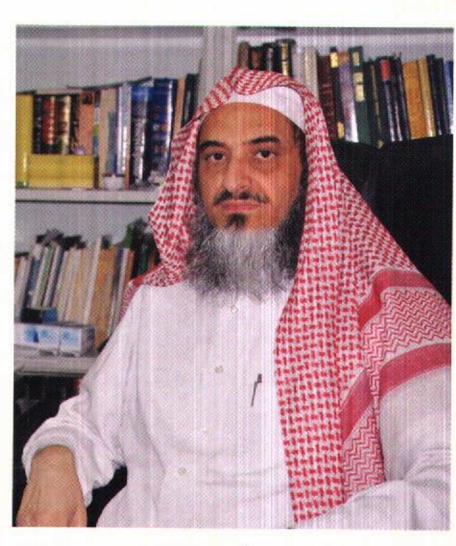





تم بحمد الله وتوفيقه



ســــيرة ذاتيـــــة



سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث

- من مواليد مدينة المبرز بمحافظة الأحساء سنة ١٣٨٢ هـ.

بكالوريوس تربية؛ تخصص رئيس تاريخ، وفرعي جغرافيا.

إمام وخطيب جامع المغلوث بمدينة المبرز منذ عام ١٤١٩ هـ وحتى إعداد هذه السيرة في ١١ / ١١ / ١٤٣٣ هـ ، حفظ القرآن الكريم في سن مبكر.

- شارك في لجنة إعـداد وثيقة المشروع الشامل لتطويـر المناهـج سـنة ١٤٢٣ هـ.

- كُلِّفَ كعضو لفريق تأليف العلوم الاجتماعية للمشروع الشامل لتطوير المناهج بوزارة التربية والتعليم، وعين مشرفاً على الدعم الفني والتصميم التعليمي للمشروع.

- عضو فريق تأليف الأطالس التعليمية بدارة الملك عبد العزيز، وممثل الجانب التاريخي عن وزارة التربية والتعليم في المشروع.

- عضو فريق تأليف الأطالس المدرسية بمكتبة العبيكان بالرياض.

- كُلِّفَ من قبل وزير الشـؤون الإسلامية والأوقاف بإعداد (وثيقة أطلس تاريخ الدعوة الإسلامية) عام ١٤٢٩ هـ.

- كُلِّفَ من قبل الهيئة العامة للسياحة والآثار بإعداد (وثيقة تضمين المفاهيم السـياحية والأثـرية في المنتج التعليمي لمناهج التعليم بالمشروع الشامل لتطويـر المناهج) عام ١٤٣٠ هـ، حسب مذكرة التفاهم بين الهيئة العامة للسياحة والآثار ووزارة التربية والتعليم .

- كُلِّفَ من قبل وزير التربية والتعليم بإعداد ورقـة وزارة التربية والتعليم للمؤتمر الدولي للتراث العمراني بالدول الإسـلامية، وتم تقديمها في المؤتمر سنة ١٤٣١ هـ.

- كُلِّفَ مديراً «لمشروع الأطلس المصور للتربية السياحية» والذي تم الانتهاء منه في ١٥ / ٨ / ١٤٣٢ هـ.

- كُلِّفَ في ١ / ٢ / ١٤٣٢ هـ من قبل صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز أمير منطقة حائل بإعـداد



أطلس النقوش والكتابات الأثرية بمنطقة حائل، وتم تفريغه للعمل بإدارة التربية والتعليم بمنطقة حائل لإنجاز وثيقة المشروع.

- حصل على العديد من الشهادات العلمية والتربوية في مجالي تأليف وتصميم الكتاب المدرسي.

- لديه اهتمام في علم السكة والنميات.

أهم مؤلفاته المطبوعة:

١- أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، طبع ونشر مكتبة العبيكان، ١١ طبعة. وترجم إلى عدة لغات عالمية كان آخرها اللغة الإندونيسية وبدعم من صاحب السمو الملكي الأمير/ سلمان بن عبد العزيز ـ سلمه الله ـ أمير منطقة الرياض ـ آنذاك ـ ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع حالياً. وتم ترشيح هذا الكتاب من قبل معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المســاعد لرابطة العام الإسلامي لجائزة عالمية (مقال منشــور بالمجلة العــربية ١٤٢١ هـ)، ومن قِبل الأديب عبد الله الشباط لجائزة دول مجلس التعاون الخليجي، للعمل الإبداعي (مقال منشور في جريدة اليوم)، علماً أن هذا الأطلس قد تم تحويله إلى برنامج تلفزيوني لقناة دولة الكويت، من ٣٠ حلقة في رمضان سنة ١٤٢٧ هـ وتم استضافة المؤلف في بعض حلقاته بتقديم الشيخ عبد العزيز العويد.

٢- الأطلس التاريخي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (٧ طبعات)، طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض، وحقق هذا الكتاب وسابقه (الأكثر مبيعاً والأوسع انتشاراً) لخمسة مواسم متتالية، وقد قام تلفزيون دولة الكويت بتحويله هو الآخر لبرنامج تلفزيوني من ٣٠ حلقة في رمضان سنة ١٤٢٨ هـ. فهو أول أطلس مستقل يستعرض سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عبر الزمان والمكان، وذلك من خلال تسليط الضوء على مواقع أحداث السيرة النبوية. وتم ترجمته إلى لغات عالمية هو الآخـر.

٣- أطلس الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، (أربع طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض.

٤- أطلس الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (ثلاث طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض. وقد تم ترجمته إلى اللغة الفارسية.

٥- أطلس الخليفة عثمان بن عفان رضـي الله عنه، (ثلاث طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض.

٦- أطلس الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (ثلاث طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض. وقد تم ترجمته إلى اللغة التركية.

٧- أطلس الأديان، (ثلاث طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض في ٧٥١ صفحة من القطع الكبير. ويتناول هذا الأطلس؛ التعريف بالأديان (تاريخ - عقائد - انتشار) عبر خرائط تفصيلية على مسرح الحدث الخاص بالديانة، مع تدعيم كل معتقد بالصور والنصوص الموثقة، وتم استعراض الكتاب عبر وسائل الإعلام المختلفة.

٨- أطلس حروب الرِّدَّة في عهد أبي بكـر الصديق رضي الله عنه، طبع ونشـر مكتبة العبيكان بالرياض، ١٤٢٩ هـ.

٩- أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض.

١٠- أهم الأحداث التاريخية في عهد الخلفاء الراشدين. رضي الله عنهم. ، دار الوراق (ثلاث طبعات).

١١- غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم (خارطة جدارية) مقاس كبير، وخارطة أخرى لحروب الرِّدَّة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكلاهما طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض.

١٢- غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيلة تربوية معرفية، طبع ونشر الشركة العالمية للدعاية والإعلان بالرياض.

١٣- الفهد رائد التعليم الأول؛ بمناسبة عشرين عاماً على تولي خادم الحرمين الشريفين مقاليد الحكم، وزارة التربية والتعليم. بتقديم معالي وزير التربية والتعليم السابق الدكتور / محمد الأحمد الرشيد.

١٤- المملكة العربية السعودية؛ قيادة وريادة، برنامج حاسوبي بالوسائط المتعددة.

١٥- أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ط . الأولى ١٤٣١ هـ ، مكتبة العبيكان .

١٦- أطلس الحج والعمرة " تأريخاً وفقهاً " مكتبة العبيكان، ط . الأولى ذو القعدة ١٤٣١ هـ.

١٧- أطلس تاريخ الدولة الأموية " مكتبة العبيكان، ١٤٣٢ هـ.

١٨ - أطلس تاريخ الدولة العباسية، مكتبة العبيكان للطباعة والنشر، ١٤٣٣ هـ.

أهم مؤلفاته المترجمة :

١- أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا، (ثلاث طبعات).

٢- الأطلس التاريخي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا، (ثلاث طبعات) باللغةالإندونيسية.

٣- الأطلس التاريخي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، دار نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم للطباعة والنشر بتركيا، باللغة تركية (ثلاث طبعات).

٤- أطلس الدين الإسلامي (وهو مقتطع من أطلس الأديان) دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا، طبعتان.

٥- أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا.

٦- أطلس الأديان، دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا، (طبعتان).

٧- أطلس الخليفة علي بن أبي طالب باللغة التركية (دار يوسف أوزبك للطباعة والنشر بتركيا) باللغة التركية (طبعتان) .

٨- أطلس الحج والعمرة " تأريخاً وفقهاً " بالإندونيسية والتركية.

٩- الأطالس الأولى للمؤلف قامت دار التوحيد بفرنسا بترجمتها إلى اللغة الفرنسية.

١٠-تم الاتفاق مؤخراً مع دار السلام بالرياض – بناء على رغبتها - بترجمة (١٢) أطلساً إلى اللغة الأوردية وذلك من خلال التنسيق مع مكتبة العبيكان .

مؤلفات مشتركة :

أطلس المملكة العربية السعودية (المرحلة الابتدائية)، طبع ونشر مكتبة العبيكان .

أطلس المملكة العربية السعودية (المرحلة المتوسطة)، طبع ونشر مكتبة العبيكان .

أطلس المملكة العربية السعودية (المرحلة الثانوية)، طبع ونشر مكتبة العبيكان .

مناهج وزارة التربية والتعليم للمشروع الشامل للمناهج للمرحلتين (الابتدائية والمتوسطة) كتاب الطالب والنشاط والمعلم عدد (٣٦) كتاب .

المشاركة الحالية في إعادة تأليف وتصميم كتب الطالب والنشاط والمعلم المرحلة الثانوية (نظام المقررات) عام ١٤٣١ هـ .

المشاركة في البرامج الفضائية :

تسجيل ١٣ حلقة من إعداده وتقديمه لقناة « صفا الكويتية » عن حروب الرِّدَّة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وقد عرضت خلال ثلاث دورات متتالية.

تسجيل مجموعة من الحلقات الميدانية لحركة الفتح الإسلامي، للقناة نفسها .

المشاركة في برنامج ثقافي عن (الكتاب) لتلفزيون قطر من إعداد وتقديم الدكتور / عبد الرحمن العشماوي، حيث تم تخصيص لقاء لمدة ساعة كاملة عن الحديث عن أطلس تاريخ الأنبياء والرسل مع المؤلف .

المشاركة في بعض حلقات برنامج الميدان التربوي والذي كان يقدم عبر قناة المملكة العربية السعودية الأولى في عام ١٤٢٠ هـ، مع الإعلامي أ . ماجد الحجيلان.

المشاركة في محاضرة عن تاريخ قبيلة طيء في الإسلام في برنامج مهرجان سلمى السياحي عام ١٤٢٩ هـ والذي نقلته قناتي الصحراء والنايلات.

المشاركة في برنامج صباح السعودية في دورته الجديدة في شهر شوال ١٤٣٠ هـ .

المشاركة في برنامج ساعة حوار بقناة المجد الفضائية مع مقدم البرنامج، د . فهد السنيدي، بعنوان " الحج تاريخياً " .

المشاركة عبر برنامج ثقافي عبر قناة الثقافية تقديم أ . محمد بودي.

المشاركة في برنامج ثقافي على الهواء في قناة الإخبارية، تقديم أ . خالد العقيلي، بمناسبة مؤتمر التراث العمراني الأولى في الدول الإسلامية.

المشاركة في برنامج (خير جليس) بالقناة الثقافية السعودية، تقديم د . صالح المحمود.

المشاركة في برنامج (مداد) في قناة (دليل) مع الإعلامي أ. إبراهيم السلمي.

المشاركة في قناة الإخبارية للعام ١٤٣٢ هـ عن معرض الكتاب الدولي بالرياض.

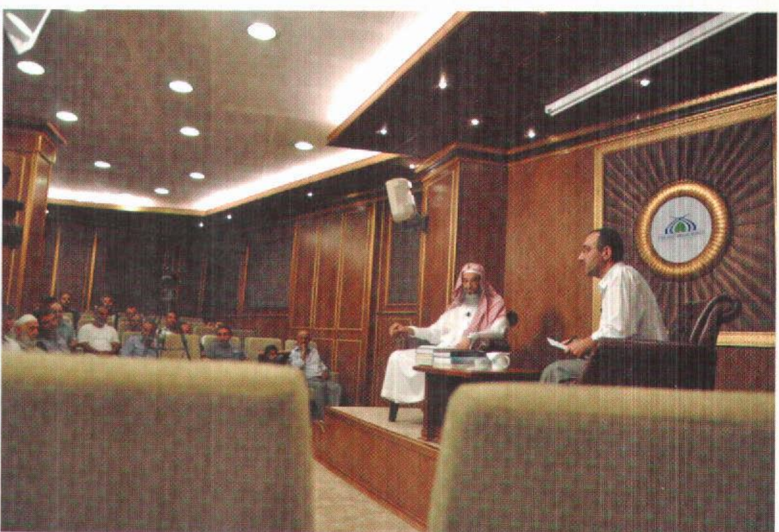
ألقى العديد من المحاضرات عن الأطالس التاريخية في بعض الجامعات السعودية، و بعض إدارات التربية والتعليم بالمملكة، والمشاركة في بعض الصوالين الثقافية.

ألقى محاضرة عن تجربة الأطالس في مركز السيرة النبوية في أسطنبول نقلها التلفزيون الإسلامي التركي، وأقام المركز حفل توقيع على كتابه الأطلس التاريخي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في طبعته الثالثة باللغة التركية، وتوقيع اتفاقية لترجمته إلى اللغتين (الإيغورية والصينية) مع الناشر التركي.

مؤلفات تحت الإعداد إن شاء الله تعالى:

١ - أطلس تاريخ المذاهب والفرق الإسلامية، وهو مكمِّل لكتاب أطلس تاريخ الأديان « تاريخ - عقائد - انتشار » والذي صدر قبل سنوات.

٢ - أطلس تاريخ الدولة العثمانية.



محاضرة المؤلف في أسطنبول عن تجربة الأطالس التاريخية



إعلانات المحاضرة على أبواب مساجد أسطنبول